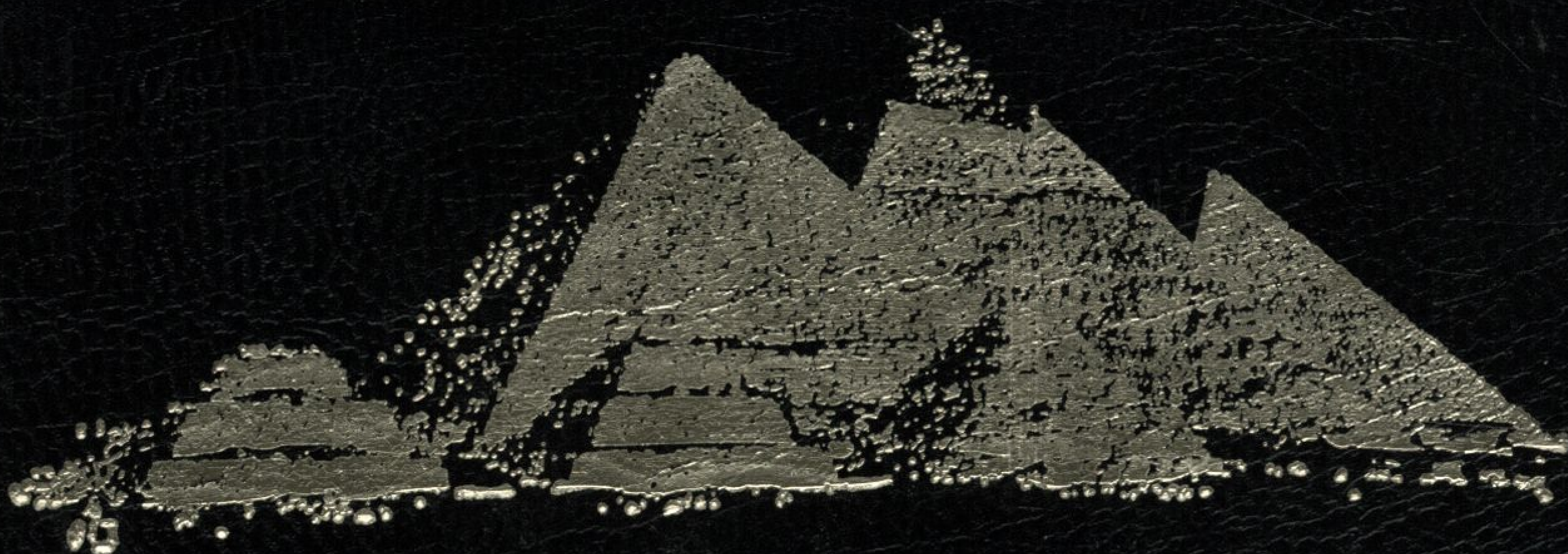
موسوعة

جغرافية مصر وتاريخها





موسوعة

جغرافية مصر وتاريخها

(١٥)

عبد الرحمان الجبرتي

موسوعة

جغرافية مصر وتاريخها

المجلّد الخامس عشر

عجائب الآثار في التراجم والأخبار - ٤ -

الجزء الرابع: الغزوة الفرنسية - ٤ -

صدمة الغرب

إعداد وتحقيق
عبد العزيز جمال الدين

دار نوبليس

اسم الموسوعة: موسوعة جغرافية مصر وتاريخها

اسم الكتـــاب: عجائب الآثار في التراجم والأخبار ـ ٤ ـ
الجزء الرابع: الغزوة الفرنسية ـ ٤ ـ
صدمة الغرب

المؤلـــف: عبد الرحمان الجبرتي

إعداد وتحقيق: عبد العزيز جمال الدين

قياس الكتـاب: ١٧ × ٢٤

عدد الصفحات: ٢٢٠

عدد صفحات الموسوعة: ٥٧٨٤

مكـان النشـر: بيروت

دار النشر والتوزيع: دار نوبِليس

تلفاكس: ٧٥ ٣٤ ٥٨ (١) ٩٦١

هاتـف: ٢١ ١١ ٥٨ (١) ٩٦١ ـ ٢١ ١١ ٥٨ (٣) ٩٦١

صندوق بريـد: ٧٠ ٦٩ ١٦ بيروت لبنان

بريد إلكتروني: info@nobilis-int.com

الطبعة الأولى: ٢٠١٢

EAN 9786144031353

ISBN 978-614-403-135-3

واستهلت سنة ست عشرة ومايتين وألف بيوم الخميس

واستهلت سنة ست عشرة ومايتين وألف بيوم الخميس

١٢١٦هـ.
١٥١٧ق.
١٨٠١م.
□ فى اخر محرم/ مايو تصرح بفتح الأزهر ثانيا بعد أن قفله الفرنساوية عقب واقعة سليمان الحلبى.
□ فى ١٣ صفر الجيش العثمانى والإنكليزى باتحادهما حصر الجنرال باليارد بمصر فاجبرعلى التسليم ومبارحة المدينة بشرف الحرب.
□ فى ربيع ثان/ أغسطس كان اكتشاف الكوكب المسمى سيريس.
□ ١ توت ١٥١٨ = ١٠ سبتمبر ١٨٠١ = الخميس ٢ جماد أول ١٢١٦.
□ فى ٢٢ ربيع الثانى تم الاتفاق بين الجنرال مونو والأمير كيث، الانكليزى، والصدر الأعظم على منطوق معاهدة العريش، التى لم يرض بها الجنرال كليبر، وفى أوايل هذا الشهر سافرت الفرنساوية إلى بلادهم، وتبعتهم الإنكليزايضا.
□ ١ يناير ١٨٠٢ = ٢٤ كيهك ١٥١٨ = الجمعة ٢٦ شعبان ١١٦.
□ وفى ١٠ جماد الثانى عقدت معاهدة مع التركية بخصوص السبع جزاير تحت كفالة فرانسا والروسيا.
□ فى ذو الحجة / أبريل كان اكتشاف الكوكب المسمى بالاس.
فيها عزت الأقوات وشحت جدا، خصوصا السمن والجبن والأشيا.

وباستهلالها خف أمر الطاعون.

وفى ليلة الجمعة تلك أرسل عبد العال الأغا وأحضر الشيخ محمد الأمير ليلا إلى منزله فبيته عنده، ولما أصبح النهار طلع به إلى القلعة وحبسه عند المشايخ بجامع سارية، والسبب فى ذلك أن ولد الشيخ المذكور كان من جملة من يستحث الناس على قتال الفرنسيس فى الواقعة السابقة فى مصر، فلما أضقت هرب إلى جهة بحرى ثم حضر بعد مدة إلى مصر فأقام أياما ثم رجع إلى فوة بإذن من الفرنسيس.

فلما حصلت هذه الحركة وتحذوا شدة التحذير وآخذوا الناس بأدنى شبهة وتقرب إليهم المنافقون بالتجسس والإغرا ذكر بعضهم ذلك لقايمقام وأدخل فى مسامعه أن ابن الشيخ المذكور ذهب إلى عرضى الوزير والتف عليهم فأرسل قايمقام إلى الشيخ قبل تاريخه فلما حضر سأله عن ولده المذكور فأخبره أنه مقيم بفوة فقال له لم يكن هناك وإنما هو عند القادمين، قال له لم يكن ذلك وإن شيتم أرسلت إليه بالحضور، فقال له أرسل إليه وأحضره، فقام من عنده على ذلك وأمهله ثمانية أيام مدة مسافة الذهاب والمجى، ثم خاطبه على لسان وكيل الديوان أيضا فوعده بحضوره أو حضور الجواب بعد يومين، واعتذر بعدم أمن الطريق فلما انقضى اليومان أمروا عبد العال بطلبه وإصعاده إلى القلعة ففعل.

وفيه حضر جملة من عساكر الفرنساوية من جهة بحرى وتواترت الأخبار بوصول القادمين من الإنكليز والعثمانية إلى الرحمانية وتملكهم القلعةوما بالقرب منها من الحصون الكاينة بالعطف وغيره، وذلك يوم السبت خامس عشرين الحجة.

□ في ٢٣ القعدة معاهدة صلح اميان بين فرانسا وأسبانيا من جهة وانكلترا من جهة أخرى تقضى برد جزيرة مالطة إلى كافلييرة بيت المقدس.

وفيه حضرت زوجة* سارى عسكر كبير الفرنسيس بصحبة أخيها السيد على الرشيدى أحد أعضا الديوان، وكان خرج بها من رشيد حين ما ملكها القادمون ونزل بها فى مركب وأرسى بها قبالة الرحمانية، فلما حصلت واقعة الرحمانية وأخذت قلعتها حضر بها إلى مصر بعد مشقة وخوف من العربان وقطاع الطريق وغير ذلك، فأقامت هى وأخوها ببيت الألفى بالأزبكية نحو ثلاثة أيام ثم صعد إلى القلعة.

* حضور السيدة زبيدة زوجة عبد الله مينو من رشيد للقاهرة هروباً من الإنجليز وكان زواجه منها على حد قوله فى رسالة إلى الجنرال ديجا «يجب أن أحيطك علما ياعزيزى الجنرال بأننى قد اتخذت زوجة، وانى اعتقد أن هذا الإجرا يخدم الصالح العام، ويقصد بذلك مصلحة مشروعه السياسى بإقامة مستعمرة فرنسية فى مصر. انظر، بونابرت فى مصر ٢٠ كرستوفر هيرولد. ص ٥٠٥.

وفيه قربت العساكر القادمة من الجهة الشرقيةوحضرت طوالعهم إلى القليوبية والمنير* والخانكة لأخذ الكلف فتأهب قايمقام بليار للقاهم وأمر العساكر بالخروج من أول الليل ثم خرج هو فى آخر الليل، فلما كان يوم الأحد رابعه رجع قايمقام ومن معه ووقع بينه وبينهم مناوشة فلم يثبت الفرنسيس لقلتهم ورجعوا مهزومين، وكتموا أمرهم ولم يذكروا شيأ.

* المنير: قرية من قرى مركز بلبيس، محافظة الشرقية.

وفى خامسه رفعوا الطلب* عن الناس بباقى نصف المليون وأظهروا الرفق بالناس والسرور بهم لعدم قيامهم عند

* الفرنساوية ترفع الطلب عن الناس كسبا لودهم.

خروجهم للحرب وخلوا البلدة منهم وكانوا يظنون منهم ذلك.

وفيه أخذت جملة من عدد الطواحين وأصعدت إلى القلعة وأكثروا من نقل الما والدقيق والأقوات إليها وكذلك البارود والكبريت والجلل والقنابر والبنب، ونقلوا ما فى الأسوار والبيوت من الأمتعة والفرش والأسرةوحملوه إليها، ولم يقوا بالقلاع الصغار إلا مهمات الحرب.

وفيه طلبوا الزياتين وألزموهم بمايتى قنطار [زيت] سيرج وسمروا جملة من حوانيتهم، وخرج جماعة من الجزارين لشرا الغنم من القرى القريبة فقبض عليهم عساكر العثمانية القادمة ومنعوهم من العود بالغنم والبقر، وكذلك منعوا الفلاحين الذين يجلبون الميرة والأقوات إلى المدينة فانقطع الوارد من الجهات البحرية والقليوبية وعزّت الأقوات وشح اللحم والسمن جدا، وأغلقت حوانيت الجزارين، واجتهد الفرنساوية فى وضع متاريس خارج البلد من الجهة الشرقية والبحرية وحفروا خنادق وطلبوا الفعلة للعمل فكانوا يقبضون على كل من وجدوه ويسوقونهم للعمل، وكذلك فعلوا بجهة القرافة، وألقوا الأحجار العظيمة والمراكب ببحر إنبابة لتمنع المراكب من العبور، وابتدأوا المتاريس البحرية من باب الحديد ممدودة إلى قنطرة الليمون إلى قصر إفرنج أحمد إلى السبتية إلى مجرى البحر.

وفى ثامنه بعث قايمقام بليار فأحضر التجار وعظما الناس وسالهم عن سبب غلق الحوانيت فقالوا له من وقف الحال

والكساد والجلا والموت، فقال لهم من كان موجودا حاضرا فألزموه بفتح حانوته وإلا فأخبرونى عنه، ونزلت الحكام فنادت بفتح الحوانيت والبيع والشرا.

وفى عاشره شرعوا فى هدم جانب من الجيزة من الجهة البحرية وقربت عساكر الإنكليز القادمة من البر الغربى إلى البلد المسماة بنادر عند راس ترعة الفرعونية.

وفيه تواترت الأخبار بأن العساكر الشرقية وصلت أوايلها إلى بنها وطحلا* بساحل النيل وأن طايفة من الإنكليز رجعوا إلى جهة اسكندرية وأن الحرب قايم بها، وأن الفرنساوية محصورون بداخل الإسكندرية والإنكليز ومن معهم من العساكر يحاربون من خارج، وهى فى غاية المنعة والتحصين وأن الإنكليز بعد قدومهم وطلوعهم إلى البر ومحاربتهم المرات السابقة أطلقوا الحبوس عن المياه * السايلة من البحر المالح منه إلى الجسر المقطوع حتى سالت المياه وعمت الأراضى المحيطة بالإسكندرية وأغرقت أطيانا كثيرة وبلادا ومزارع، وأنهم قعدوا فى الأماكن التى يمكن الفرنسيس النفوذ منها بحيث إنهم قطعوا عليهم الطريق من كل ناحية.

وفى ثانى عشره نزلت أمرأة من القلعة بمتاعها واختفت بمصر فأحضر الفرنسيس حكام الشرطة وألزموهم بإحضارها، وهذه المرأة اسمها هوى كانت زوجة لبعض الأمرا الكشاف، ثم إنها خرجت عن طورها وتزوجت نقولا وأقامت معه مدة فلما حدثت هذه الحوادث جمعت ثيابها واحتالت حتى نزلت من القلعة وهى على حمار ومتاعها

* طحلا، وتكتب طحله، وهى قرية قديمة. وتكتب احيانًا طحلى. كانت تابعه لمركز طوخ ثم ضمت لمركز بنها سنة١٩١٣.

* كانت القوات الانجليزية فى ١٣ أبريل ١٨٠٠ قد قطعت البرزخ الصغير الواقع بين بحيرة المعدية (جفت الآن وكانت تتصل بالبحر المتوسط)، وقاع بحيرة مريوط جنوبى الاسكندرية، وكان جافا جزئيا. وفى الساعة السابعة مسا اندفعت المياه إلى اليابس بانحدار ستة أقدام، وفى ساعات قليلة أتت يد الإنسان المدمرة على مفخرة مصر (الإسكندرية) وتدفقت كمية هايلة من الماء ظلت شهرا تدخل الأرض بقوة شديدة وعزلت الاسكندرية عزلا تاماً، وسهلت مهمة القوة الانجليزية المحاصرة، ومكنت عدداً من السفن الانجليزية الصغيرة من دخول بحيرة مريوط. انظر: بونابرت فى مصر. ج. كريستوفر هيرولد. ص٥١٨.

محمول على حمار آخر، فنزلت عند بعض العطف وأعطت المكارية الأجرة وصرفتهم من خارج واختفت، فلما وقع عليها التفتيش وأحضروا المكارية قالوا لا نعلم غير المكان الذى أنزلناها به وأعطتنا الأجرة عنده فشددوا على المكارية ومنعوهم من السروح وقبضوا على أهل الحارة وحبسوهم، ثم أحضروا مشايخ الحارات وشددوا عليهم وعلى سكان الدور وأعلموهم أنه إن وجدت المرأة فى حارة من الحارات ولم يخبروا عنها نهبوا جميع دور الحارة وعاقبوا سكانها، فحصل للناس غاية الضجر والقلق بسبب اختفاها وتفتيش أصحاب الشرطة وخصوصا عبد العال فإنه كان يتنكر ويلبس زى النسا ويدخل البيوت بحجة التفتيش عليها، فيزعج أرباب البيوت والنسا، ويأخذ منهن مصالح ومصاغا ويفعل ما لا خير فيه، ولا يخشى خالقا ولا مخلوقا.

وفى خامس عشرة قبضوا على ألطون [أنطون] أبى طاقية النصرانى القبطى وحبسوه بالقلعة وألزموه بمبلغ دراهم تأخرت عليه من حساب البلاد.

وفى سادس عشره أفرجوا عن محمد أفندى يوسف ونزل إلى بيته وكذلك الشيخ مصطفى الصاوى لمرضه.

وفيه انقضت دعوة تهمة الشيخ خليل البكرى، ومحصلها أن خادم مملوكه ذهب عن لسان المملوك إلى بليار قايمقام وأخبره أنه وصل إلى أستاذه الشيخ خليل البكرى المذكور فرمان من عرضى الوزير بالأمان وكان هذا بإغرا عبد العال ليوقعه فى الوبال ويحرك عليه الفرنسيس لحزازة بينه وبينه،

فلما حضر الشيخ خليل على عادته عند قايمقام سأله عن ذلك فجحده فأحضروا الخادم الذى بلغ ذلك فصدق على ذلك، وأسند إلى المملوك سيده فأحضروا المملوك وسألوه فقال نعم، فقالوا له وأين الفرمان فقال قراه وقطعه، فقال الفرنساوية وكيف يقطعه؟ هذا دليل الكذب، لأنه لا يصح أن يتلقاه بالقبول ثم يقطعه، فقيل له ومن أتى به قال فلان، فألزموا الشيخ بإحضار ذلك الرجل وحبس المملوك عند عبد العال يومين وحضر الرجل فسألوه فجحد ولم يثبت عليه وظهر كذب الغلام والخادم، فعند ذلك طلب الشيخ غلامه فقال قايمقام إن قصاصه فى شريعتنا أن يقطع لسانه فتشفع فيه سيده وأخذه بعد أمور وكلام قبيح قاله الغلام فى حق سيده.

وفيه حضر حسين كاشف [شفت] اليهودى إلى قايمقام وأخبره أن الأمرا الذين بالصعيد خرجوا عن طاعة الفرنساوية وردوا مكاتبتهم التى أرسلوها لهم بعد موت مراد بك وأنهم مروا وتوجهوا إلى بحرى من البر الغربى وعثمان بك الأشقر ذهب من خلف الجبل إلى جهة الشرق فلما حصل ذلك ركب قايمقام وذهب للست نفيسة وأمنها وطيب خاطرها وأخبرها أنها فى أمان هى وجميع نسا الأمرا والكشاف والأجناد ولا مواخذة عليهن بما فعله رجالهن.

وفى عشرينه توكل رجل قبطى يقال له عبد الله من طرف [المعلم] يعقوب بجمع طايفة من الناس لعمل المتاريس فتعدى على بعض الأعيان وأنزلهم من على دوابهم وعسف وضرب بعض الناس على وجهه حتى أسال دمه،

فتشكى الناس من ذلك القبطى وأنهوا شكواهم إلى بليار قايمقام، فأمر بالقبض على ذلك القبطى وحبسه بالقلعة ثم فردوا على كل حارة رجلين يأتى بهما شيخ الحارة وتدفع لهما أجرة من شيخ الحارة.

وفيه وردت الأخبار بأن الوزير وصل دجوه*.

* دجوه: قرية من قرى، مركز طوخ - قليوبية.

وفى يوم الاثنين سمع عدة مدافع على بعد وقت الضحوة.

وفى ذلك اليوم قبل العصر طلبوا مشايخ الديوان فاجتمعوا بالديوان وحضر الوكيل والترجمان وطلبهم للحضور إلى قايمقام فلما حصلوا عنده قال لهم على لسان الترجمان نخبركم أن الخصم قد قرب منا ونرجوكم أن تكونوا على عهدكم مع الفرنساوية وأن تنصحوا أهل البلد والرعية بأن يكونوا مستمرين على سكونهم وهدوهم ولا يتداخلوا فى الشر والشغب، فإن الرعية بمنزلة الولد وأنتم بمنزلة الوالد والواجب على الوالد نصح ولده وتأديبه وتدريبه على الطريق المستقيم التى يكون فيها الخير والصلاح، فإنهم إن داموا على الهدو حصل لهم الخير ونجوا من كل شر، وإن حصل منهم خلاف ذلك نزلت عليهم النار وأحرقت دورهم ونهبت أموالهم ومتاعهم ويتمت أولادهم وسبيت نساهم وألزموا بالأموال والفرد التى لا طاقة لهم بها، فقد رأيتم ما حصل فى الوقايع السابقة فاحذروا من ذلك فإنهم لا يدرون العاقبة ولا نكلفكم المساعدة لنا ولا المعاونة لحرب عدونا وإنما نطلب منكم السكون والهدو لا غير، فأجابوه بالسمع والطاعة وقولهم كذلك وقرى عليهم ورقة بمعنى ذلك، وأمروا الأغا وأصحاب الشرطة بالمناداة على الناس

بذلك وأنهم ربما سمعوا ضرب مدافع جهة الجيزة فلا ينزعجوا من ذلك فإنه شنك* وعيد لبعض أكابرهم، وأن يجتمع من الغد بالديوان الأعيان والتجار وكبار الأخطاط ومشايخ الحارات ويتلى عليهم ذلك فلما كان ضحوة يوم الثلاثا اجتمعوا كما ذكر وحصلت الوصية والتحذير، وانتهى المجلس وذهبوا إلى محلاتهم.

وفى ذلك اليوم أشيع حضور الوزير إلى شلقان* وكذلك عساكر الإنكليز بالناحية الغربية *وصلوا إلى أول الوراريق*.

وفى يوم الجمعة غايته اجتمع المشايخ والوكيل بالديوان على العادة وحضر أستوف الخازندار وترجم عنه رفاييل بقوله إنه يثنى على كل من القاضى والشيخ إسماعيل الزرقانى باعتنائهما فيما يتعلق بأمر المواريث وبيت المال والمصالح على التركات المختومة، لأن الفرنساوية لم يبق لهم من الإيراد إلا ما يتحصل من ذلك، والقصد الاعتنا أيضاً بأمر البلاد والحصص التى انحلت بموت أربابها، فلازم أيضاً من المصالحة والحلوان والمهلة فى ذلك ثمانية أيام، فمن لم يصالح على الالتزام الذى له فيه شبهة فى تلك المدة ضبطت حصته ولا يقبل له عذر بعد ذلك، واعلموا أن أرض مصر استقر ملكها للفرنساوية فلازم من اعتقادكم ذلك وأركزوه فى أذهانكم كما تعتقدون وحدانية الله تعالى، ولا يغرنكم هولا القادمون وقربهم، فإنه لا يخرج من أيديهم شى أبداً وهولا الإنگليز ناس خوارج حرامية وصناعتهم إلقا العداوة والفتن والعثملى مغتر بهم، فإن الفرنساوية كانت من الأحباب الخلص للعثملى فلم يزالوا حتي أوقعوا بينه

* شنك: هى من التركية (شن) بمعنى بهيج وشنلك البهجة والطرب. وتطلق كلمة الشنك على الاحتفال تطلق فيه المدافع والصواريخ الملونة، وربما أقتصر فى الشنك على إطلاق المدافع فى أوقات الصلاة يقول الجبرتى فى ذلك: «فعلموا لها شنكا، وهى مدافع تضرب من أبرا ج القلعة فى الأوقات الخمسة ثلاثة أيام».

* شلقان: من القرى القديمة العامرة. من أعمال القليوبية.

* بالغربية: المقصود بالغربية هنا غرب فرع رشيد قرب إنبابه.

* الوراريق: قرى فى مركز إنبابة ـ جيزة وهى: وراق الحضر، وأمبوبة ومنية النصارى، ووراق العرب.

وبينهم العداوة والشرور، وأن بلادهم ضيقة وجزيرتهم صغيرة ولو كان بينهم وبين الفرنساوية طريق مسلوك من البرلانمحى أثرهم ونسي ذكرهم من زمان مديد، وتأملوا في شأنهم وأى شي خرج من أيديهم فإن لهم ثلاثة أشهر من حين طلوعهم إلى البر وإلى الآن لم يصلوا إلينا، والفرنسيس عند قدومهم وصلوا فى ثمانية عشر يوما، فلو كان فيهم همة أو شجاعة لوصلوا مثل وصولنا، وكلام كثير من هذا النمط فى معنى ذلك من بحر الغفلة.

ثم ذكر البكرى والسيد أحمد الزرو أنه حضر مكتوب من رشيد على يد رجل حناوى لآخر من منية كنانة يذكر فيه أنه حضر إلى إسكندرية مراكب وعمارة من فرنسا، وأن الإنكليز رجعت إليهم وأن الحرب قايمة بينهم على ظهر البحر، فقال الخازندار يمكن ذلك وليس ببعيد، ثم نقلوا ذلك إلى بليار قايمقام، فطلب الرجل الراوى لذلك فأحضر الزرو رجلا شرقاويا حلف لهم أنه سمع ذلك بأذنه من الرجل الواصل إلى منية كنانة* من رشيد.

* منية كنانة: هى ميت كنانة وكفر شومان مركز طوخ ـ قليوبية.

شهر صفر الخير سنة ١٢١٦

واستهل بيوم السبت وفى ذلك اليوم قبل المغرب مشى عبد العال الأغا وشق فى شوارع المدينة وبين يديه منادى يقول الأمن والأمان على جميع الرعايا، وفى غد تضرب مدافع وشنك من القلاع فى الساعة الرابعة فلا تخافوا ولا تنزعجوا فإنه حضرت بشارة بوصول بونابارته بعمارة عظيمة إلى الإسكندرية، وأن الإنكليز رجعوا القهقرى، فلما أصبح يوم الأحد فى الساعة الرابعة من الشروق ضربت عدة مدافع وتابعوا ضربها من جميع القلاع، وصعد أناس إلى المنارات



* أحد شوارع رشيد على عهد الجبرتى

ونظروا بالنظارات فشاهدوا عساكر الإنكليز بالجهة الغربية وصلوا إلى آخر الوراريق وأول إنبانة ونصبوا خيامهم أسفل إنبابة وعند وصولهم إلى مضاربهم ضربوا عدة مدافع، فلما سمعها الفرنساوية ضرب الآخرون تلك المدافع التى ذكروا أنها شنك، وأما العساكر الشرقية فوصلت أوايلهم إلى منية الأمرا المعروفة بمنية السيرج* والمراكب فيما بينهما من البرين بكثرة.

* منية السيرج أحد أقسام حى شبرا الآن.

فعند ذلك عزت الأقوات* وشحت زيادة على قلتها وخصوصا السمن والجبن والأشيا المجلوبة من الريف، ولم يبق طريق مسلوكة إلى المدينة إلا من جهة باب القرافة، وما يجلب من جهة البساتين من القمح والتبن فيأتى ذلك إلى عرصة بالرميلة، ويزدحم عليه النسا والرجال بالمقاطف فيسمع لهم ضجة عظيمة، وشح اللحم أيضا وغلا سعره لقلة المواشى والأغنام، فوصل سعر الرطل تسعة أنصاف، والسمن خمسة وثلاثين نصفا والبصل بأربعماية فضة القنطار، والرطل الصابون بثمانين فضة، والشيرج عشرون نصفا وأما الزيت فلا يوجد ألبتة، وغلت الأبزار جدا، واتفق لى غريبة وهو أنى احتجت إلى بعض أنيسون فأرسلت خادمى إلى الأبزارية على العادة يشترى منه بدرهم فلم يجده، وقيل له إنه لا يوجد إلا عند فلان وهو يبيع الوقية بثلاثة عشر نصفا ثم أتانى منه بوقيتين بعد جهد فى تحصيله فحسبت على ذلك سعر الإردب فوجدته يبلغ خمسماية ريال أو قريبا من ذلك. فكان ذلك من النوادر الغريبة.

* غلاء الأسعار:

رطل اللحم	٩ أنصاف.
رطل السمن	٣٥ نصفا.
رطل الشيرج	٢٠ نصفا.
رطل الصابون	٨٠ فضة.
قنطار البصل	٤٠٠ فضة.
الدجاجه	٤٠ نصفا.

وفى يوم الاثنين ثالثه حصلت الجمعية بالديوان وحضر التجار ومشايخ الحارات والأغا وحضر مكتوب من بليار



* بقايا أثريه من الاسكندرية القديمة على عهد الجبرتى

قايمقام خطابا لأرباب الديوان والحاضرين يذكر فيه أنه حضر إليه مكتوب من كبيرهم منو بالإسكندرية صحبة هجانة فرنسيس وصلوا إليهم، من طريق البرية، مضمونه أنه طيب بخير والأقوات كثيرة عندهم يأتى بها العربان إليه وبلغهم خبر وصول عمارة مراكب الفرنساوية إلى بحر الجزر* وأنها عن قريب تصل الإسكندرية، وأن العمارة حاربت بلاد الإنكليز واستولت على شقة كبيرة منها فكونوا مطمينين الخاطر من طرفنا، ودوموا على هدوكم وسكونكم إلى آخر ما فيه من التمويهات، وكل ذلك لسكون الناس وخوفا من قيامهم فى هذه الحالة، وكان وصول هذا المكتوب بعد نيف وأربعين يوما من انقطاع أخبار من إسكندرية ولا أصل لذلك.

* كانت هناك عمارة بحرية فرنسية قد وصلت إلى درنه قرب الحدود الغربية لمصر بقيادة الجنرال جانتوم فى ٢٣ يونيو عام ١٨٠١ ولكنه لم يتمكن من الوصول إلى الإسكندرية فعاد إلى طولون الميناء الفرنسى فى ٢٢ يوليو. وفى تفاصيل ذلك نذكر أنه فى الثالث والعشرين من شهر يونيه سنة ١٨٠١م لاح فى أفق مياه درنة الأسطول الفرنسى الذى يقوده الأميرال «جانتوم» وعلى ظهر سفنه

أربعة آلاف جندى من قوات الإنزال التى أعدتها فرنسا تحت قيادة الجنرال «ساهوجى» كقوات دعم لحملتها فى مصر.
وكان ذلك الأسطول الكبير قد غادر مينا طولون الفرنسى فى ٢٥ أبريل فقط؛ حيث إن إصلاح العطب الذى لحق بعض سفنه قد اضطره إلى التريُّث بذلك المينا أكثر من ثلاثين يوماً تلت آخر تعليمات أصدرها نابليون بونابرت لقادة الأسطول بخصوص عملية الإنزال المزمعة. ولقد حدث خلال الأسابيع الأربعة التى مكثتها سفن الأسطول بمياه طولون أن نشب خلاف بين الأميرال جانتوم والجنرال ساهوجى نتيجة للمسلك العدائى الواضح الذى كان قد أبان عنه الثانى تجاه قايد الأسطول؛ فانتهى الأمر بأن تمت تنحية ساهوجى عن قيادة قوات الإنزال المحمولة على ظهر الأسطول، حيث حلَّ محله فى هذا المنصب الجنرال «مِيير».
وكانت قطع الأسطول المذكور تتألف من القطع الحربية التالية أسماوها: (الصَّامدة) (L'INDIVISIBLE)، (الرهيبة) (LE FORMIDABLE) (الجموحة) (LE DESAIX) (ديزيّه) (LE DESAIX)، (أغسطس) (LE DIX-AOUt)، (جان بار) (LE JEAN-BART)؛ زيادة عن الطرّادات الحربية التالية أسماوها: (الدستور) (LA CONSTITUTION)، (المُولّدة) (LA CREOLE)، (البَسالة) (La BRAVOURE)، (وعينْ شمْس) (L'HELIOPOLIS)؛ وهذا بالطبع إلى جانب ناقلات الجنود ذوات العنابر الواسعة.
وبعد أن تجاوزت سفن الأسطول وقطعه الحربية جزيرة «إلْبا»[1] الإيطالية الصغيرة، الواقعة شرقى جزيرة «كورسيكا»؛ نرى قائده الأميرال جانتوم يأمر ثلاثاً من سفنه الحربية تلك بالعودة إلى ميناء طولون، تحت إمرة مساعده الضابط البحرى «لينوا». وكانت تحمل السفن الثلاث بعض قوات عسكر المشاة التى يحملها الأسطول. ثم تأخرت مسيرة بقية سفن الأسطول قُدُمًا نتيجة لسكون الرياح التى تحتاج إليها أشرعتها. بيد أن الرياح ما لبثت أن هبّت من جديد؛ فواصل الأسطول تقدُّمه حثيثاً نحو مياه شرقى البحر المتوسط، بحيث أصبح فى الثلاثين من شهر مايو إلى قبالة (راس ماتابان)، الواقع جنوب غربى الأرخبيل اليونانى. ثم تحوَّل الأسطول نحو جزيرة إقريطش (كريت) والسواحل المصرية.
وفى السابع من شهر يونيه كان الأميرال جانتوم وسفنه وطرّاداته الحربية وناقلات جنوده، قد اقتربوا من الاسكندرية بمسافة قدّرها الأميرال نفسه بما يتراوح ما بين مائة وتسعين كيلو متر، ومايتين كيلو متر. ثم تمّ اتّخاذ الإجراءات المبدئية للشروع فى عملية إنزال القوات؛ غير أن هيجان البحر جعل العملية مستحيلة. وفيما اضطرَّ الأسطول إلى رفع مراسى سفنه على عجالة ـ بحيث توجهت من بينها، نحو ثغر الإسكندرية الطرّادة (عين شمس)، التى نجحت فى الدخول إلى مينائها، نجد أن الأسطول الانجليزى تمكن من اعتقال اثنتين من سفن نقل الجنود، كانتا تحت حماية تلك الطرّادة الحارسة ـ وعندئذ نرى بقية قطع الأسطول الفرنسى وسفنه تتحوَّل باتجاه جزيرة رودس والساحل القرمانى الجنوبى من آسيا الصغرى والمطل على (بحر إيجه). ثم بادر الأسطول فغيّر وجهته نحو جزيرة إقريطش (كريت)؛ حيث عبر منطقة بحر إيجه، مارّا ما بين شمالى هذه الجزيرة وبين جزر الأرخبيل اليونانى؛ ومن ثم توجه نحو مياه درنة.
وعند تغلغل الأسطول الفرنسى إلى المياه الإقليمية الليبية لشرقى الإيالة، بتاريخ ٢٣ يونيه سنة ١٨٠١، نرى الأميرال جانتوم يأمر سفنه برفع العلم العثمانى بأعلى قلاع أشرعتها الأمامية، وذلك للتمويه ولإيهام كل من يلحظ اقتراب الأسطول، من بين الليبيين، بأنه أسطول صديق جا لزيارة التراب الليبى فى تلك المنطقة. وكان الأميرال جانتوم والجنرال «مِيير» ـ القايد الجديد الذى خلف الجنرال ساهوجى فى قيادة القوات الفرنسية المحمولة على ظهور سفن الأسطول ـ يتوقعان بسذاجة أن أهالى مدينة درنة وبيْكها سيرحبون بقدوم أسطولهم. وذلك، فيما يبدو، لأن الأميرال والجنرال الفرنسيَّيْن كانا قد علما قبل مغادرتهم لمينا طولون، بإيفاد المالطى «إكزافييه نودى» إلى يوسف القرمانلى فى مدينة طرابلس. لتسهيل حركتهم كما كانا على علم كذلك بأن السلطات الفرنسية فى باريس كانت قد طلبت من مفارضها المالطى الحصول من باشا طرابلس على

إذن مسبّق بالسماح بإنزال تلك القوات على السواحل الشرقية للإيالة، ومن ثم عبور الصحرا الليبية نحو مصر، وذلك بعد التزوّد من درنة بوسايل النقل اللازمة من جمال ودواب أخرى. وكان الضابطان الكبيران المذكوران يعتقدان أنه قد تم اتخاذ جميع الإجراءات اللازمة، من قبل سلطات يوسف باشا القرمانلي، للسماح لجنودهم بالنزول إلى التراب الليبي؛ وبالتالي فإنهما اعتقدا بأنه لن يكون هنالك ما يعرقل إنجاز هذه العملية العسكرية الخطيرة. ولقد وصف الأميرال جانتوم هذا التكهّن الوهمي لما سيحدث له ولأسطوله، قائلاً في التقرير الذي رفعه إلى حكومته فيما بعد: «.. كان الجو صحواً، ولم تكن هنالك أيّة صعوبة تعرقل الشروع في عملية الإنزال العسكري؛ إلى درجة اعتقدنا معها أن الطالع الحسن قد بدأ يبتسم لقواتنا».

وهكذا، فقد بادر الجنرال «مينو» إلى إنزال قارب صغير يحمل رسولاً عنه، وحمّل ذلك الرسول رسالة منمّقة العبارات، مسهبة الأسلوب لتسليمها إلى «بك درنة». وفيما يلي نص تلك الرسالة الهامة والساذجة الطريفة:

«حررت على ظهر [السفينة المسماة] «الصامدة»، بتاريخ ٢٣ يونيه سنة ١٨٠١.

من طرف الجنرال القايد الأعلى لجيش الحملة الفرنسية على المشرق إلى سعادة بك درنة المبجّل:

أحيطك بهذه الرسالة علماً بأنني موفد من طرف الكبير بونابرتَ المظفّر، على رأس قوات جرّارة تعتبر طليعة جيوشنا. إنني لم أحضر للنزول في منطقتك – التي أعرف أنك تدير شؤونها بحنكة – لإعلان الحرب ضدّها؛ ولا من أجل استعمارها أو استعبادها؛ ولا من أجل تعكير صفو رعاياك؛ أو انتهاك حرمة نسائها العفيفات المصونات؛ أو التعدّي على ديانة آباكم وأجدادكم. وإنما جئت لكي أطلب منك السماح لنا بالمرور عبر أراضيك بغرض التغلغل بأسرع وقت في أراضي مصر؛ حيث سنقوم – بعون الله – بقطع دابر شراذم الإنجليز الذين بذلوا حتى الآن جهوداً، لا طايل تحتها، لاحتلال ذلك البلد العظيم؛ لا من أجل استعادته [من القوات الفرنسية] لإرجاعه إلى السلطان الأعظم – مثلما يدّعون – وإنما للاحتفاظ به لصالحهم الخاص، وذلك بحجّة حقهم في الحصول على تعويض عن خساير الحرب. وهذا هو السبب في أن هولا القوم من سكّان الجزر الخدّاعين المراوغين، بعد أن احتلوا جزيرة مالطا التي وعدوا بإرجاعها إلى أصحابها الأصليين؛ قد احتفظوا بها الآن لأنفسهم. إن تصرفاً كهذا قد أزال الغشاوة عن عين قيصر روسيا «بولس»، الذي انفصل منذ تلك اللحظة عن حلفايه وصار من ثم حليفاً لفرنسا. ولا شك أنك أنت نفسك تعرف أن الباب العالي العثماني – وقد ملّ أن يظل ألعوبة بين أيدي تجار لندن – قد بادر ففاتح الجمهورية الفرنسية في أمر إبرام السلم، فهو مستعد لاستئناف علاقاته السالفة معها. إن صاحب الرفعة داي طرابلس المبجّل المهيب – الذي فسّد دينه لبعض الوقت بسبب انخداعه بالشعوذات الماكرة التي جبل عليها الانجليز والبرتغاليون، بالرغم من أنهم هم أعداؤه الحقيقيون، وإن كانوا قد أدخلوا في روعه أننا نحن هم الماكرون الخدّاعون – قد عاد فتدارك، شاعراً بأنه ليس من صالح الإيالات المغربية أبداً الدخول ضدنا في حرب مدمّرة، وبأنه على العكس من ذلك، يتوجّب التعجيل باستئناف علاقاتنا الودية؛ وأن علينا أن نتكاتف ضد جبروت الإنجليز هولا الإنجليز الذين استأثروا بخيرات بلاد الهند في معظمها كلقمة سايغة لهم؛ ثم نهضوا مؤخراً لاحتلال جزيرة «سوقطرة»، وكذلك مضيق «باب المندب». والإنجليز قد صاروا يتهدّدون قبر الرسول بالمدينة [المنورة]. أقول بعد كل هذا، شعر داي طرابلس بأن الجمهورية الفرنسية سيدة مصر (٢)، هي وحدها التي صارت قادرة على كبح جماع هذا العدو الخطير الوقح، لوضع حدٍّ لمطامحه التي لا حدود لها. وبعد أن تدبّر داي طرابلس – بما له من دراية وعقل – جميع ما ذكرته لك أعلاه، فإنه طلب إلى الكبير المنصور بونابرت، أن يعيّن له قنصلاً في طرابلس. وفيما لو قدّر لهذا القنصل بلوغ مدينة طرابلس، بالرغم من كماين سفن المراقبة الإنجليزية المبثوثة في البحر المتوسط، فإن هذا القنصل سيزيد في ترسيخ دعايم السلم. وليس هذا فحسب، بل وسيبادر إلى إجرا مفاوضات عاجلة لحمل رفعة يوسف باشا القرمانلي على السماح للقوات الفرنسية بالمرور عبر أراضي درنة. تلك هي التعليمات التي زوّدني بها الكبير بونابرت المؤزر؛ وهي التعليمات التي أنقلها إليك الآن، لكي تعتبرنا أصدقا وحلفا مخلصين، يقدمون إليك أنفسهم

وأيديهم تلوّح بغصن الزيتون. لكنهم ـ فيما لو اقترفت ضدهم أية عداوة ـ فإنهم قادرون على أن يتحوّلوا إلى أناس شرسين، وعندئذ فإنك لن تكون فقط مسؤولاً عن ذلك أمام حكومتك، بل وكذلك أمام رعاياك، الذين ستكون قد جلبتَ لهم بفعلتك وبال الحرب ونكدها، وحرمتهم من كل الميزات التى ستجلبها عليهم إقامتنا المؤقتة بين ظهرانيهم. ويمكنك أن تبلّغ هولا أنه إذا كان مسلكهم تجاهنا يتّسم بالوديّة والمحبة؛ وإذا ما منعونا ثقتهم، وبادروا إلى مساعدتنا، والى مدنا بكل ما نحتاجه للتعجيل بانطلاقنا [نحو مصر]؛ فإننى سأجبر، بكل حزم، رجال قوات على التزام مسلك طيب نحوهم، وسوف لن تلحق الإهانة أو يكدّر خاطر أىٍ منهم، وسوف لن نعيث فى ربوعكم وأريافكم وحقولكم. وإن كل ما قد يزودنا به أهاليكم من الميرة والمؤن والدواب، سندفع مقابله على الفور ثمناً سخيًا بالعملة الذهبيّة. بل إننى سوف أجزل العطا لأولئك الذين سيظْهرون همّة عالية وتفانٍ كبير نحونا. وهكذا، فإنه وقد رضِيَ كلانا عن الطرف الآخر، فإننا سنودّ ع بعضنا البعض كأعزّ ما يكون عليه الأحباب والأصدقا.

وبعد كل ما بيّنتُه لك، يتوجّب عليك الآن أن تستشير عقلك، وأن تعرف أين تقع مصلحتك أنت وأهاليك، وأن تبادر إلى عمل ما يمليه عليك واجبك، بحيث تنهض لاستقبالنا، إمّا بخير وإمّا بشرّ.

وانتظاراً لقرارك، تقبّل فايق تحياتى

إمضاء: مِيِّير»

وهكذا فإن الجنرال «ميِّير» ـ وقد سبقته إلى بك درنة الرسالة الواردة أعلاه ومرفق بها ترجمة عربية ـ نراه يأمر بنقل ثلاثة آلاف جندى مشاة على ظهر عشرة زوارق، وبإنزال قاربين من فوق ظهر إحدى قطع أسطوله، حيث استقلّهما هو وعدد من آمرى الوحدات وضباط الأركان الذين كان من بينهم على الخصوص «جيروم بونابرت»[(٣)]، شقيق نابليون، حيث كان آمراً لما يسمّى بالفيالق المالطية. ثم توجّه الجنرال «ميِّير»، على رأس تلك الزوارق والقوارب إلى مرسى درنة.

ولقد وصفت فيما بعد إحدى المجلات الفرنسية مجىء هذا الأسطول الفرنسي إلى مياه درنة فى مقال مطوّل لها، قائلة: «لقد لاح شاطى درنة، كما لاحت المشارف الجردا العالية، المحيطة بالمدينة. ولم تكن تغطى تلك المشارف أية خضرة؛ اللهم سوى أشجار النخيل السامقة وسط الرمال الحارقة. ثم تبدّت درنة نفسها ببساتينها ورياضها ورا مدخل المرسى، ووسط المرتفعات المحيطة بها والتى بدت قاحلة حزينة. وكان هناك حمير لاهية بالتنقيب عن قوتها بين الشّعاب. هذا هو كل ما لاح للوهلة الأولى من مظاهر الحياة ورا تلك الشطآن الكئيبة. وما إن ازدادت الزوارق دنّا من اليابسة حتى تجلّت الحركة والحياة للعيان: فلقد برز عندئذ حوالى الأربعماية أو الخمسماية فارس، وحولهم حشود من الناس الراجلين، وأخذوا يتقدمون حثيثًا باتجاه الشاطىء. ثم ازدادت أعداد هولا حتى أصبحوا يشكّلون جمهرة كبيرة تصيح وتتوعّد. وفى هذه الأثنا تعالت دقات الطبول. وعندئذ أمر الجنرال ميِّير الزوارق التى تُقلّ قواته بالتريُّث فى عرض البحر، فيما اقترب هو بقاربيه من الشاطى، حيث أخذ يلوّح ـ رمازاً للمسالمة ـ بالأعلام والرايات العثمانية والفرنسية. ولكن ما إن أصبح القاربان المُقلاّن له ولضباطه ـ ومن بينهم شقيق بونابرت، جيروم ـ عند مرمى طلقة غدّارة من الشاطى حتى انهّال على القاربيْن وابل ماطر من الطلقات النارية! فأُسقط فى أيْدى الفرنسيين وهلة من الوقت، حيث طفقوا يلوّحون بالأعلام والرايات للتأكيد على نواياهم السلمية. غير أن دقّات الطبول عند الشاطى صارت تتضاعف وتعلو، واستمر إطلاق الرصاص على القوارب الدانية، وتضخّمت حشود الأهالى الغاضبين المتوعّدين. وظل ميِّير رابضاً بقاربه على بُعدفترة من النهار، دون أن يتمكن من النجاح فى الدخول فى أى حوار مع الأهالى الغاضبين. ثم تقهقر بقاربه نحو الزوارق المقلّة للجنود فى عرض البحر. وعندئذ أصدر أوامره إلى كل زورق منها بأن يُقْفل راجعًا إلى السفينة التى ينتمى إليها. وفيما يتعلّق به هو نفسه، فإننا نراه يعود إلى سفينته المسمّاة (الصامدة)، حيث انكبّ على إعداد تقريره إلى الأميرال جانتوم ـ الذى كان يتواجد ساعتئذ على ظهر سفينة أخرى ـ فقال له فى ذلك

التقرير إنه فقد كل أمل فى حمل أهالى درنة على السلوك نحوه مسلكاً ودياً، وبأنه يرى استحالة تسريب قوات الدعم إلى مصر عبر أراضى الإيالة الطرابلسية؛ ولذا فإنه قرر الإقلاع عن الشروع فى أية عملية إنزال عسكرى من هذا النوع. ولقد بسط الجنرال «ميير» أسباب قراره هذا فى مذكرة مطوّلة، حررها وسلّمها فى نفس الليلة للاميرال جانتوم، حيث ذكره فيها بأنه فى كل مرة كان يخوض معه حول موضوع الإنزال العسكرى المزمع عند مياه درنة، فإنهما كانا فى النهاية يعترفان سوية بأن الإقدام على مثل هذه العملية يعتبر من المستحيلات، ما لم يتم التوصل مسبقاً إلى اتفاق بشأنها مع باشا طرابلس نفسه».

وهكذا فإن تصدّى أهالى درنة للأسطول الفرنسى ومنعه حتى من الدنوّ من الشاطئ، قد حمل الجنرال ميير على الهرب وعدم القدرة على مجابهتهم؛ الأمر الذى حدا بالأميرال جانتوم إلى رفع مراسى سفنه وقطعه الحربية والابتعاد بأسطوله كلية عن السواحل الليبية فى ليلة ٢٤ يونيه سنة ١٨٠١.

ولقد برر الأميرال جانتوم، من جانبه، هروب أسطوله ورجاله أمام نهوض أهالى درنة صفاً واحداً لإفشال خطة الإنزال، قائلاً فى مذكرة رفعها عند عودته لفرنسا إلى نابليون بونابرت، قائلاً: «.. إننا فيما لو حاولنا اقتحام مرسى درنة بالقوة، فإن النتيجة الوحيدة للعملية ستكون تأليب شعب بأكمله ضدنا؛ الأمر الذى سيعطى باشا الإيالة يوسف القرمانلى عذراً مناسباً وفرصة ذهبية سيغتنمها لقطع جميع علاقاته الحميمة مع الجمهورية الفرنسية».

ولو التفتنا إلى مجرى الأحداث فى مصر نفسها خلال تلك الأيام الحاسمة، لوجدنا أن جيش الحملة الفرنسية كان عندئذ ينهار ويتفكك ويهزم. ذلك أن الفرنسيين كانوا قد سلّموا وانهزموا فى «الصالحية»، وهرعوا إلى القاهرة يتحصّنون ورا أسوارها، فيما كانت القوّات العثمانية تتبع فلولهم وتضيّق عليها الخناق. وعندئذ لم تجد الحملة الفرنسية بدًا من قبول الأمر الواقع،، فبادر القايد الأعلى لقوات الحملة إلى قبول شروط الاستسلام ووقّع بتاريخ ١٦ صفر سنة ١٢١٦هـ، الموافق ٢٧ يونيه سنة ١٨٠١م وثيقة التسليم.

---

(١) * وهى الجزيرة التى تم نفى نابليون بونابرت إليها، بعد أن أرغمته الدول الأوروبية المتحالفة فى إطار ما كان يسمى بـ (التحالف الدولى السادس) إلى التنازل عن عرش الامبراطورية، ودخلت جيوش تلك الدول باريس فى شهر مارس سنة ١٨١٤م. حيث نفى هو إلى جزيرة (إلبا) فى شهر أبريل ١٨١٤، وظل بها إلى فبراير ١٨١٥، حيث عاد إلى فرنسا وأطاح بـ (لويس الثامن عشر) وحكم فرنسا من جديد فترة مائة يوم، ثم أبعد إلى جزيرة (هيلانة). بعد هزيمته بتاريخ ١٨١٥/٦/١٨ فى معركة «ووترلو» التى كانت بمثابة نهاية لعصر الثورة الفرنسية وبداية لعصر جديد من تاريخ فرنسا عادت فيه السيادة لأسرة (البوربون). أما نابليون فقد نقلته مدمّرة انجليزية إلى منفاه بعد أن استجدى هو الإبقاء على حياته من أعدائه الإنجليز، حيث أرسل إلى الأمير الوصى على عرش انجلترا رسالة استجداء قال فيها بالحرف الواحد: «لقد قرّرتُ أن أختم سلكي السياسى، وأن ألجأ إلى الأسرة الحاكمة للأمة البريطانية التى استليذ بنظامها وقوانينها، وأننى ألتمس هذه الاستلاذة من سموك الملكى: أقْدر وأثبت وأكرمْ أعدائى». فقبل الإنجليز استجداءه ونفوه إلى جزيرة (القديسة هيلانة) ـ التى كانت مستعمرة انجليزية ـ تقع فى جنوب المحيط الأطلنطلى، حيث مات بها فى سنة ١٨٢١.

(٢) إن الجنرال «ميير» لم يكن يعلم، بطبيعة الحال، وهو يحرر هذه الرسالة الموجهة إلى بك درنة، أن شراذم جيش الحملة الفرنسية فى مصر، كانت فى تلك الساعة قد انكسرت شوكتها وحوصرت فى القاهرة، حيث اضطرت إلى قبول الأمر الواقع بالجلاء الكامل عن تراب مصر، حيث تم ذلك بتاريخ ٢٧ يونيه سنة ١٨٠١ الموافق ١٦ صفر سنة ١٢١٦هـ؛ أى بعد أربعة أيام فقط من تحرير هذا الجنرال لرسالته التى نحن بصددها.

(٣) ولد جيروم بونابرت فى مدينة أجاكسيو بجزيرة كورسكا فى سنة ١٧٨٤، أى أنه كان يبلغ من العمر عند مجيئه إلى مياه درنة ١٧ عاماً، حيث كان قائداً لما يسمى بالفيالق المالطية. وخلال الفترة ما بين ١٨٠٧م ١٨١٣م تم تنصيب جيروم بونابرت هذا ملكاً على مملكة (ويستفاليا) التى اقتطعها نابليون آنئذ من أراضى ألمانيا (بروسيا) وجعل عاصمتها مدينة (كاسّل) الألمانية. ثم تلاشت تلك المملكة سنة ١٨١٣. وفى سنة ١٨٥٠ اصبح جيروم ضابطا كبيرا فى الجيش الفرنسى برتبة (مشير). ثم مات سنة ١٨٦٠. ولقد كان لنابليون ثمانية إخوة ما بين ذكور وإناث، لعب معظمهم أدواراً هامة فى الحياة السياسية طيلة الحقبات التى حكم خلالها أخوهم نابليون فرنسا.

وفى ذلك اليوم قتل عبد العال رجلا ذكروا أنه وجد معه مكتوب من بعض النسا مرسل إلى بعض أزواجهن بالعرضى، قتل ذلك الرجل بباب زويلة ونودى عليه هذا جزا من ينقل الأخبار إلى العثملى والإنكليز*.

* مينو يصدر منشوراً بعقوبة التجسس، نصه:
ان عقوبة الإعدام ستوقع على كل شخص من أية أمة كانت، تثبت ضده تهمة الخيانة بالتخابر أو التراسل مع اعدا الجمهورية أو قيامه بعمليات استطلاعية أو تنبيهات وتحذيرات من شأنها إعلام اعداها بما يجرى من أحداث.
كوريه دى ليجيبت. العدد ١٠٣. ص ٣٧٥.

وفيه وصلت العساكر الشرقية إلى العادلية وامتد العرضى منها إلى قبلى منية السيرج وكذلك الغربية إلى إنبابه ونصبوا خيامهم بالبرين والمراكب بينهم فى النيل وضربوا عدة مدافع وخرج عدة من الفرنساوية خيالة فترامحوا معهم وأطلقوا بنادق ثم انفصلوا بعد حصة من الليل ورجع كل إلى مأمنة، واستمر هذا الحال على هذا المنوال يقع بينهم فى كل يوم.

فى سادسه زحفت العساكر الشرقية حتى قربوا من قبة* النصر، وسكن إبراهيم بك زاوية الشيخ دمرداش*، وحضر جماعة من العسكر وأشرفوا على الجزارين من حايط المدبح وطلبوا شيخ الجزارين ووجدوا ثلاثة أنفار من الفرنسيس فضربوا عليهم بنادق فأصيب أحدهم فى رجله فأخذوه وهرب الاثنان. وأصيب جزار يهودى، ووقع بين الفريقين مضاربة على بعد، وقتل بعض قتلى وأسر بعض أسرى،

ولم يزل الضرب بينهم إلى قريب العصر، والفرنسيس يرمون من القلعة الظاهرية* وقلعة نجم الدين والتل ولا يتباعدون عن حصونهم.

وفى سابعه وقعت مضاربة بين الفريقين ببنادق ومدافع من الصباح إلى العصر أيضا.

* قبة النصر: وهى خارج سور القاهرة فى مواجهة باب النصر. وهى فى الغالب القبة المقامة على مقام أمير الجيوش بدر الجمالى الذى تولى إمارة دمشق من قبل المستنصر سنة ٤٥٥هـ = ١٦٠٣م وتولى حكم مصر بنا على طلب المستنصر سنة ٤٦٥هـ = ١٠٧٣م وتوفى سنة ٤٨٧هـ = ١٠٩٤م وتولى من بعده ولاية مصر ابنه شاهنشاه الملقب بالأفضل ابن أمير الجيوش.
* زاوية الشيخ دمرداش: تقع شمال شرق القاهرة قرب صحرا العباسية.
* جامع الظاهر: وهو خارج القاهرة بالحسينية. أنشأه الملك الظاهر بيبرس. وكان موضعه ميدانا يعرف بميدان قراقوش، وكان منتزه الملك ومحل لعبه بالكرة. كملت عمارة الجامع سنة

وفيه أشيع موت السيد أحمد المحروقى بدجوة وكان مريضا بها وامتنع الوارد من الجهة البحرية بالكلية.

وفيه قبضوا على رجل شبه خدام ظنوه جاسوسا فأحضروه عند قايمقام فسألوه فلم يقر بشى فضربوه عدة مرار حتى ذهل عقله وصار كالمختل، وكرروا عليه الضرب والعقاب وضربوه بالكرابيج على كفوفه ووجهه وراسه حتى قيل أنهم ضربوه نحو ستة آلاف كرباج وهو على حاله ثم أودعوه الحبس.

وفيه أطلقوا محبوساً يقال له الشيخ سليمان حمزة الكاتب، وكان محبوسا بالقلعة من مدة أشهر فأطلق على مصالحة [قدرها] ألفى ريال.

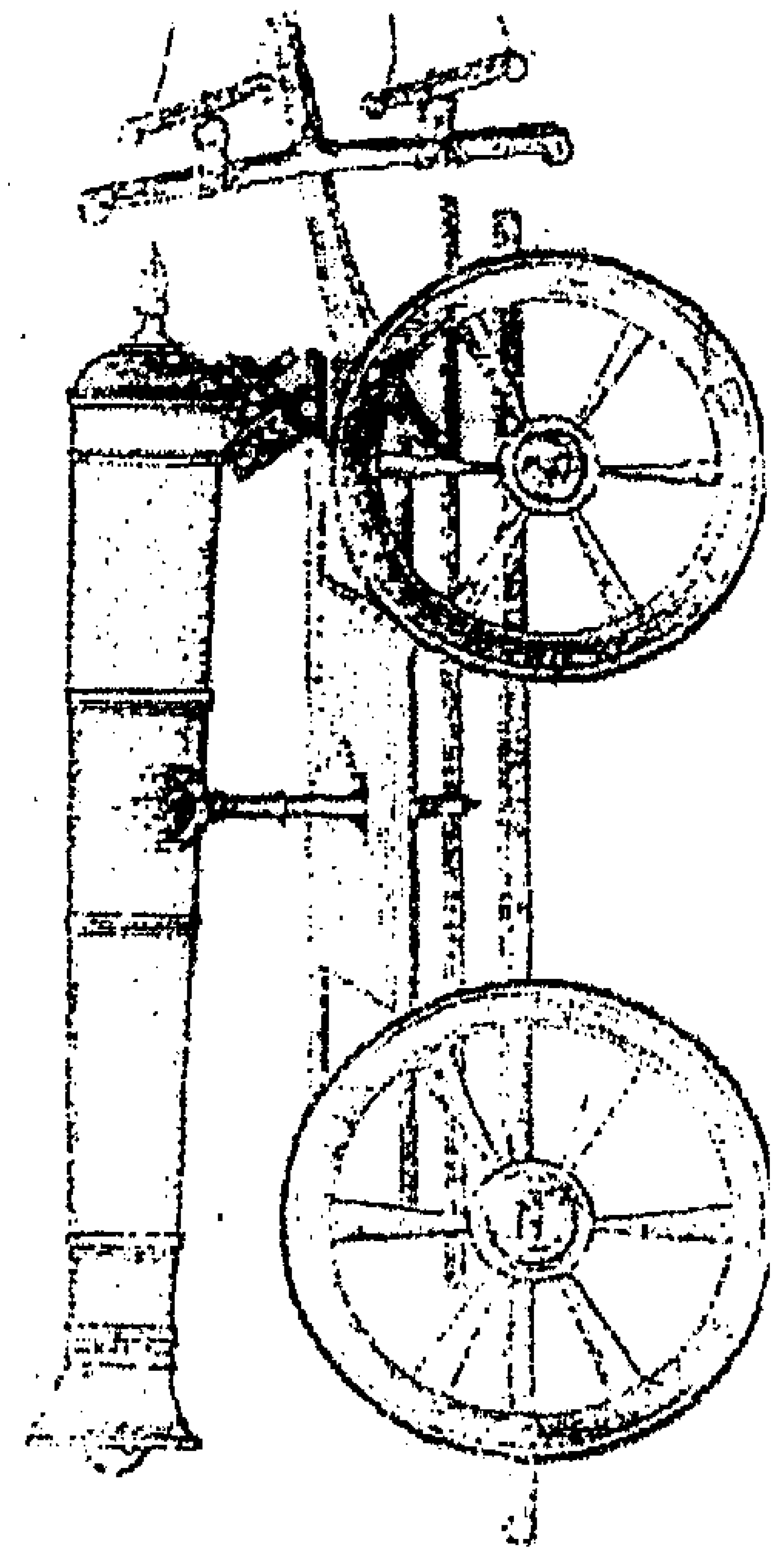
وفى ثامنه وقعت مضاربة أيضًا بطول النهار ودخل نحو خمسة وعشرين نفرا من عسكر العثمانية إلى الحسينية وجلسوا على مساطب القهوة وأكلوا كعكا وخبزا وفولا مسلوقا [فول نابت] وشربوا قهوة ثم انصرفوا إلى مضربهم.

وأخذ الفرنساوية عسكريا من أتباع محمد باشا والى غزة والقدس المعروف بأبى مرق، فحبسوه ببيت قايمقام، وأغلقوا فى ذلك اليوم باب النصر وباب العدوى.

وفيه زحفت عساكر البر الغربى إلى تحت الجيزة فحضر فى صبحها «ينى»* وأخبر قايمقام فركب من ساعته وعدى إلى بر الجيزة، فسمع الضرب أيضاً من ناحية الجيزة وسمعت طبول الأمرا ونقاقيرهم، واستمر الأمر إلى يوم الثلاثا حادى عشره، فبطل الضرب فى وقت الزوال.

٦٦٧هـ. والظاهر هو ركن الدين الملك الظاهر بيبرس البندقدارى أحد المماليك البحرية، تولى ملك مصر بعد قتله لسيده سيف الدين قطز.
وهو أكبر جامع بعد جامع ابن طولون وجامع الحاكم. وكانت الفرنساوية حولته إلى قلعة عسكرية باسم قلعة سلكوسكى، ثم حوله محمد على إلى مخبز للجهادية وفى ظل الاحتلال الإنجليزى تحول إلى مذابح للحيوانات.

* من النصارى الاروام العاملين فى الشرطه الفرنسية، كان من ضمن من خرجوا مع الحملة إلى فرنسا.



* مدفعية ميدان تجر على عجل.

ولماحصلوا جهة الجيزة انتشروا إلى قبلى منها ومنعوا المعادى من تعدية البر الشرقى فانقطع الجالب من الناحية القبلية أيضًا فامتنع وصول الغلال والأقوات والبطيخ والعجور والخضروات والخيار والسمن والجبن والمواشى، فعزت الأقوات وغلت الأسعار فى الأشيا الموجودة منها جدا.

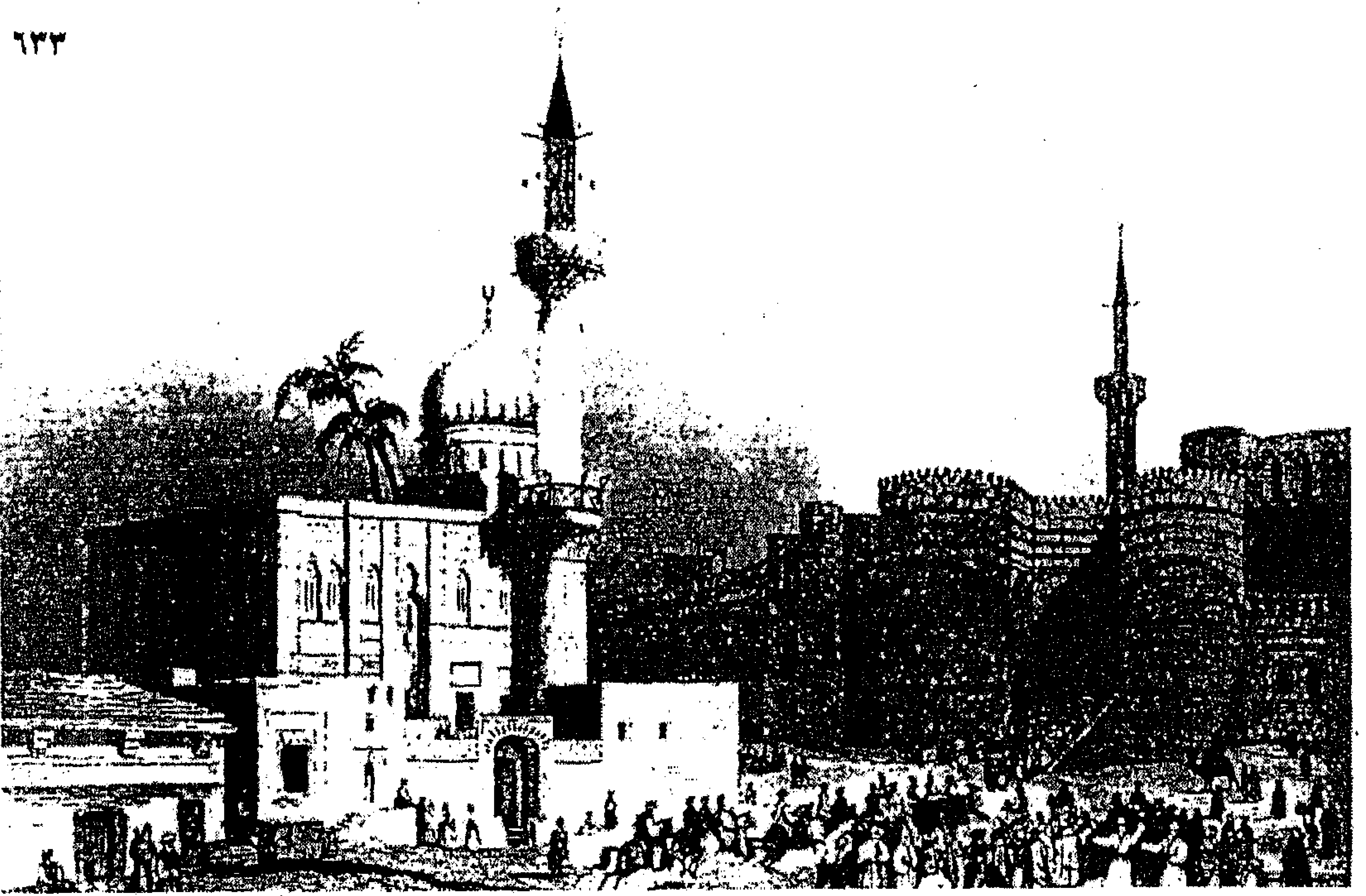
واجتمع الناس بعرصة الغلة بالرميلة يريدون شرا الغلة فلم يجدوها، فكثر ضجيجهم وخرج الأكثر منهم بمقاطفهم إلى جهة البساتين ورجع الباقون من غير شى، فأحضر عبد العال القبانية وألزمهم بإحضار السمن وضرب البعض منهم فأحضروا له فى يومين أربعة عشر رطلا بعد الجهد فى تحصيلها وبيعت الدجاجة بأربعين نصفا، وامتنع وجود اللحم من الأسواق.

واستمر الأمر على ذلك الأربعا والخميس والمضاربة بين الفريقين ساكنة وأشيع وقوع المسالمة* والمراسلة بينهما والمتوسط فى ذلك الإنكليز وحسين قبطان باشا، فانسر الناس وسكن جاشهم لسكون الحرب.

وفى ذلك اليوم أغلقوا باب القرافة وباب المجراة، ولم يعلم سبب ذلك ثم فتحوهما عند الصباح من يوم الجمعة، ورفعوا عشور الغلة.

وفى يوم الاثنين سابع عشره أطلقوا المحبوسين بالقلعة من أسرى العثمانية وأعطوا كل شخص مقطع قماش وخمسة عشر قرشا وأرسلوهم إلى عرضى الوزير وكان بلغ بهم الجهد من الخدمة والفعالة وشيل التراب والأحجار وضيق

* استمرت المفاوضة أربعة أيام، وانتهت باتفاق على جلا الجيش الفرنسى عن مصر، ووقع المندوبون على هذا الاتفاق وتقتضى شروطه أن تجلو الجنود الفرنسية البرية والبحرية التى تحت قيادة الجنرال بليار عن مدينة القاهرة وقلاعها وقلاع بولاق والجيزة وعن كل جهة تحتلها من الأراضى المصرية.
وأن يكون جلاء الجنود بأسلحتهم وامتعتهم ومدافعهم وذخايرهم بطريق فرع رشيد ومن رشيد وأبو قير يبحرون إلى فرنسا على نفقة الحلفا، وأن يتم الجلا فى أقرب وقت ممكن بحيث لا يزيد عن خمسين يوما من يوم التصديق على الاتفاق، وحدد الجلا عن القاهرة وبولاق اثنى عشر يوما.

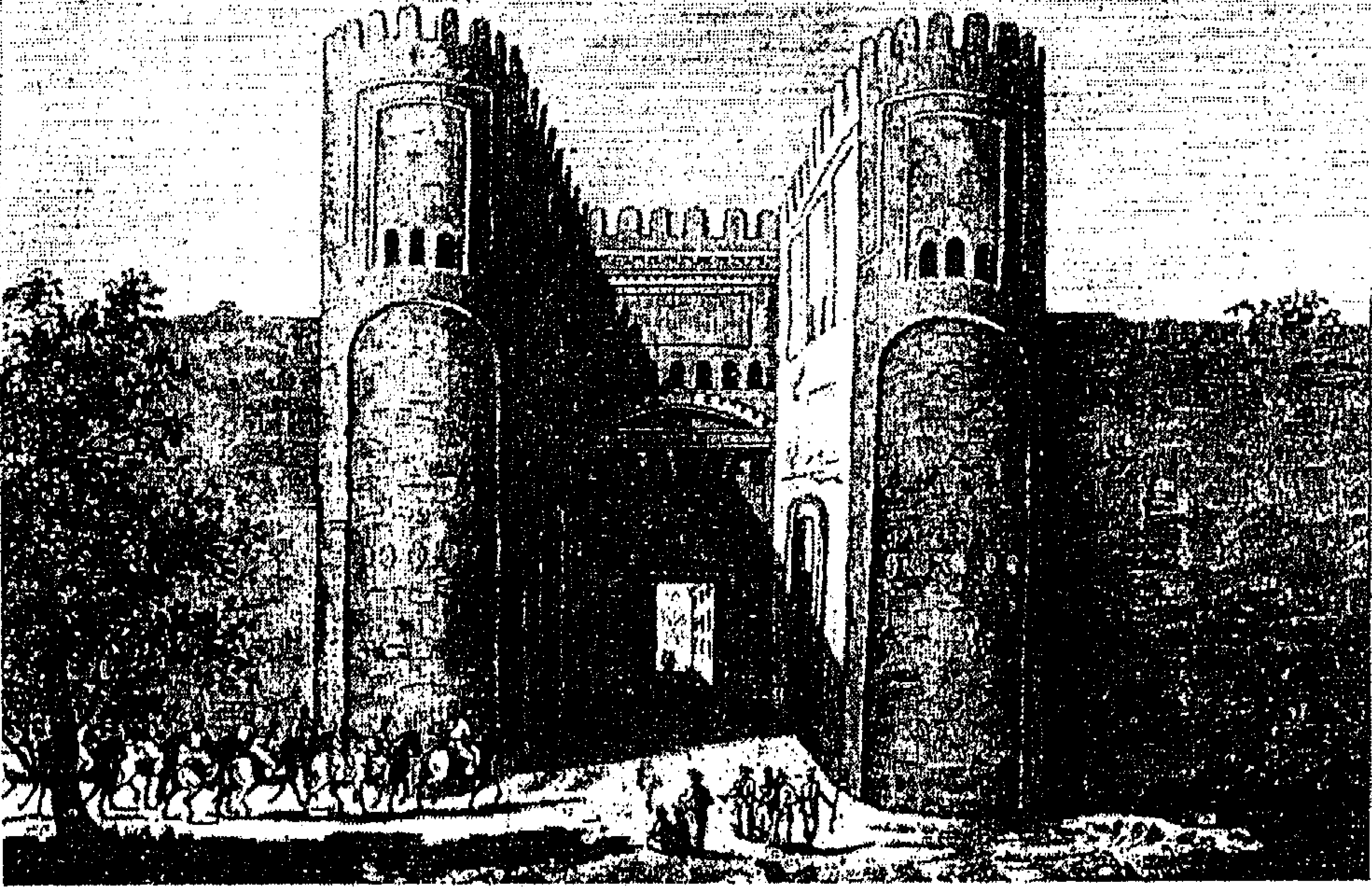


* بوابة القلعة الكبيرة (القاهرة) وجامع المحمودية وميدان الرميله (قراميدان).

الحبس والجوع، ومات الكثير منهم، وكذلك أفرجوا عن جملة من العربان والفلاحين.

وفى ليلة الاثنين المذكور سمع صوت مدفع بعد الغروب عند قلعة جامع الظاهر خارج الحسينية ثم سمع منها أذان العشا والفجر، فلما أضا النهار، نظر الناس فإذا البيرق العثمانى بأعلاها والمسلمون على أسوارها فعلموا بتسليمها، وكان ذلك المدفع إشارة إلى ذلك، ففرح الناس وتحققوا أمر المسالمة وأشيع الإفراج عن الرهاين من المشايخ وغيرهم وباقى المحبوسين فى الصباح، وأكثر الفرنساوية من النقل والبيع فى أمتعتهم وخيولهم ونحاسهم وجواريهم وعبيدهم وقضا أشغالهم.

وفى ذلك اليوم أنزلوا عدة مدافع من القلعة وكذلك من قلعة باب البرقية وأمتعة وفروش وبارود.



* باب الفتوح.

وفى يوم الثلاثا عمل الديوان وحضر الوكيل وأعلن بوقوع الصلح والمسالمة ووعد أن فى الجلسة الآتية يأتى إليهم فرمان الصلح وما اشتمل عليه من الشروط ويسمعونه جهارا.

وفى ذلك اليوم كثر اهتمام الفرنساوية بنقل الأمتعة من القلعة الكبيرة وباقى القلاع بقوة السعى.

وفيه أفرجوا عن محمد جلبى أبى دفية وإسماعيل القلق ومحمد شيخ الحارة بباب اللوق والبرنوسى نسيب أبى دفية والشيخ خليل المنير وآخرين تكملة ثمانية أنفار ونزلوا إلى بيوتهم.

* اجتماع ديوان القاهرة



وفيه سافر عثمان بك البرديسى إلى الصعيد وعلى يده فرمانات للبلاد بالأمن والأمان وسوق المراكب بالغلال والأقوات إلى مصر ويلاقى ستة آلاف من عسكر الإنكليز حضروا من القلزم إلى القصير.

وفيه شنق الفرنساوية شخصاً منهم على شجرة ببركة الأزبكية قيل إنه سرق.

وفيه أرسل الفرنساوية إلى الوزير وطلبوا منه جمالا ينقلون عليها متاعهم فأمر لهم بإرسال مايتى جمل، وقيل أربعماية، مساعدة لهم وفيها من جمال طاهر باشا وإبراهيم بك.

* الإفراج عن السادات . الشرقاوى. محمد الأمير. محمد المهدى. حسن أغا. رضوان كاشف. وغيرهم.

وفى يوم الخميس عشرينه أفرجوا عن بقية المسجونين والمشايخ وهم شيخ السادات والشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير والشيخ محمد المهدى وحسن أغا المحتسب ورضوان كاشف الشعراوى وغيرهم، فنزلوا إلى بيت قايمقام وقابلوه وشكروه، فقال للمشايخ إن شئتم اذهبوا فسلموا على الوزير فإنى كلمته ووصيته عليكم.

وفيه حضر الوزير ومن معه من العساكر إلى ناحية شبرا، وكذلك الإنكليز وصحبتهم قبطان باشا إلى الجهة الغربية والعساكر تجاههم، ونصبوا الجسر فيما بينهم على البحر وهو من مراكب مرصوصة مثل جسر الجيزة بل يزيد عنه فى الإتقان بكونه من ألواح فى غاية الشخن وله داربزين من الجهتين أيضا وهو عمل الإنكليز.

وفيه ألصقوا أوراقا بالطرق مكتوبة بالعربى والفرنساوى وفيها شرطان من شروط الصلح* التى تتعلق بالعامة ونصها:

* شروط الصلح بين الفرنساوية والعثملية.

نص شروط الصلح بين الفرنسيين والإنجليز والعثمانيين.

معاهدة الجلا عن مصر

(أبرمها الجنرال بليار قايد الجيش الفرنسي في القاهرة)

٢٧ يونيه سنة ١٨٠١

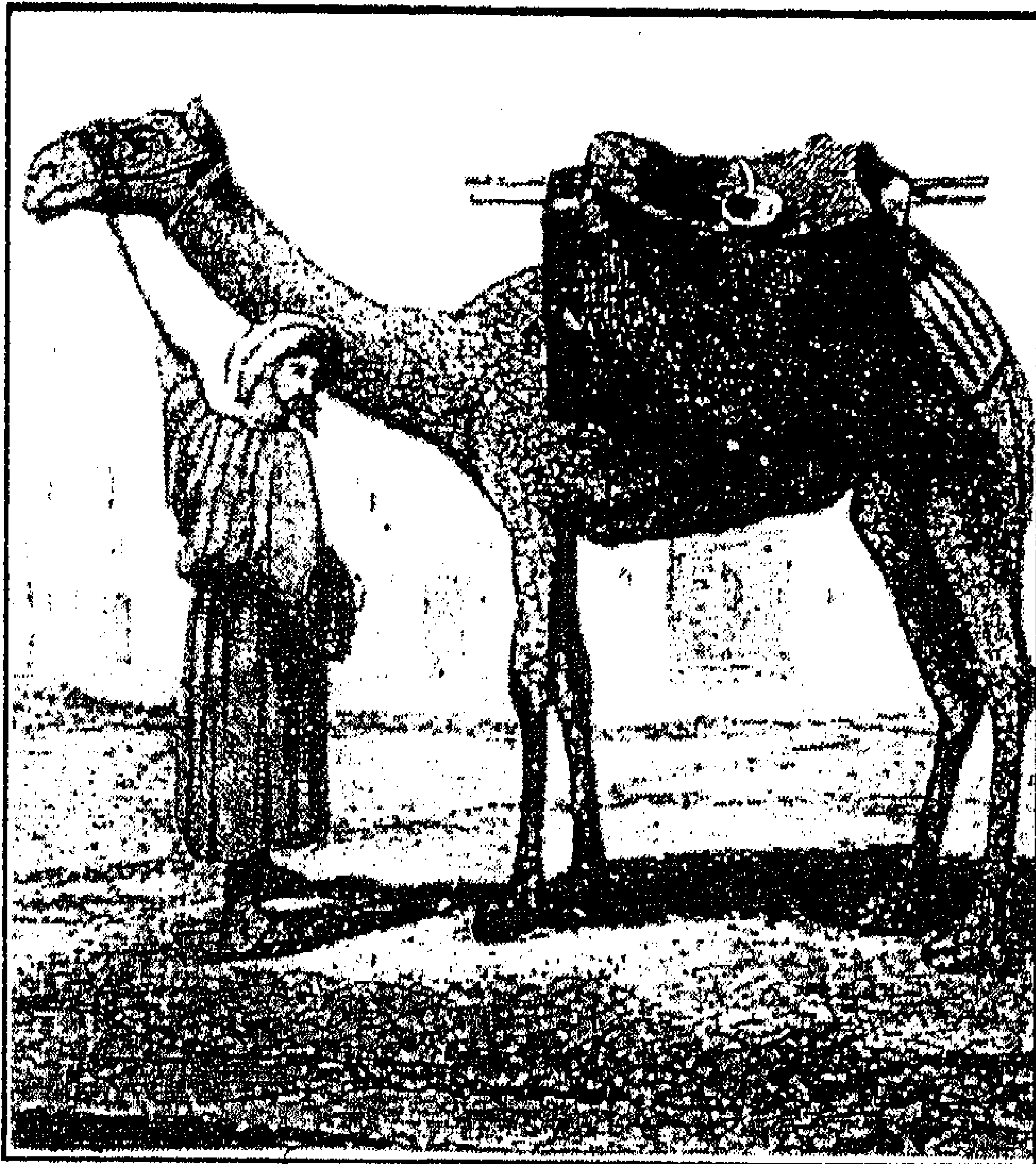
«معاهدة جلا الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال بليار عن مصر أبرمت بين كل من البرديجاديه جنرال هوب Hope بالنيابة عن القايد العام للجيش الإنجليزى في مصر، وعثمان بك بالنيابة عن الصدر الأعظم، وإسحق بك بالنيابة عن قبطان باشا، والجنرال دنزلو Donzelot والجنرال موران Morand والكولونل تارير Ta-rayre بالنيابة عن الجنرال بليار قايد فيلق الجنود الفرنسية ومن يتبعه، اجتمع المندوبون المذكورون أعلاه في مكان المفاوضات وبعد تبادل الصفات والسلطات المخولة لهم اتفقوا على الشروط الآتية:

المادة ١

إن الجنود الفرنسية من كافة الأسلحة والملحقين بهم بقيادة الجنرال بليار يجلون عن القاهرة والقلعة وحصون بولاق والجيزة وعن كل الجهات التي يحتلونها الآن في القطر المصرى.

المادة ٢

ينتقل الجنود الفرنسيون والملحقون بهم بأسلحتهم وأمتعتهم ومدافعهم وذخايرهم إلى رشيد بطريق البر الغربي للنيل ومن هناك يبحرون إلى الثغور الفرنسية بالبحر المتوسط ومعهم أسلحتهم ومدافعهم ومنقولاتهم على نفقة الدولة المتحالفة، ويتم إقلاعهم في أقرب ما



يمكن من الوقت بحيث لا يتأخر عن الخمسين يوماً التالية لتاريخ التصديق على هذه المعاهدة ومن المتفق عليه أن ينقل الجنود المذكورون إلى الثغور الفرنسية بأقرب وأسرع طريق.

المادة ٣

تقف الأعمال العدائية من الجانبين بمجرد التوقيع والتصديق على هذه المعاهدة وتسلم قلعة سلكوسكي [جامع الظاهر بيبرس] وباب مدينة الجيزة المسمى باب الأهرام إلى جيش الحلفا ويحدد خط المخافر الأمامية لجيوش الطرفين بمعرفة مندوبين يعينون لهذا الغرض وتعطى الأوامر المشددة للجنود بأن لا يجتازوا هذا الخط منعًا لكل اصطدام بين جنود الطرفين، وإذا وقع أى اصطدام فيحسم بالطرق الودية.

المادة ٤

يخلى الجنود الفرنسيون والملحقون بهم مدن القاهرة والقلعة وبولاق وقلاعها في اليوم الثاني عشر بعد التصديق على هذه المعاهدة، وينسحبون إلى قصر العيني والروضة والجيزة، ومن هناك يرحلون إلى الثغور المعدة لإقلاعهم ويكون هذا الرحيل في أقرب وقت ممكن بحيث لا يزيد عن خمسة أيام، ويتكفل قواد الجيوش البريطانية والتركية بنفقات نقل الجنود الفرنسيين بطريق النيل من الجيزة.

المادة ٥

تنظم طريقة رحيل الجنود الفرنسيين باشتراك قواد جيوش الطرفين أو ضباط أركان الحرب الذين ينتدبون لهذا



الغرض من الجانبين، ولكن من المتفق عليه أنه طبقاً لهذه المادة يكون لقواد جيوش الحلفا تحديد عدد الأيام التي يقتضيها احتشاد الجيش الفرنسي ورحيله وبنا على ذلك يصحب الجيش الفرنسي في رحيله مندوبين من الإنجليز والترك يكلفون تقديم المؤن اللازمة له أثنا الرحيل.

المادة ٦

تعهد حراسة الأمتعة والأثقال والذخاير وساير المهمات التي ينقلها الجنود الفرنسيون بطريق النيل إلى شراذم من الجيش الفرنسي وإلى السفن المسلحة التابعة لدول الحلفا.

المادة ٧

تقدم المؤن الكافية للجنود الفرنسين والملحقين بهم من يوم رحيلهم من الجيزة إلى حين وصولهم إلى فرنسا وتتبع في هذا الصدد لوائح الجيش الفرنسي في المسافة بين الجيزة والثغر الذي يقلعون منه، واللوايح البحرية البريطانية في طريقهم بحراً لغاية وصولهم إلى فرنسا.

المادة ٨

يقدم قواد القوات البرية والبحرية الإنجليزية والتركية مراكب النقل اللازمة لنقل الجنود الفرنسية إلى ثغور فرنسا الواقعة على البحر المتوسط وكذلك لجميع الفرنسيين والأشخاص الآخرين الملحقين بالجيش الفرنسي، ويعهد في هذه المهمة وفي تدبير المؤن الكافية إلى مندوبين يعينهم لهذا الغرض الجنرال بليار وقواد الحلفا البريين والبحرين بعد التصديق على هذه المعاهدة مباشرة، ويتوجه هولا المندوبون إلى رشيد وأبو قير لتدبير الوسايل اللازمة للنقل.

المادة ٩

يقدم الحلفا أربع سفن (أو أكثر من هذا العدد عند الإمكان) خاصة لنقل الجياد والمياه والعلف الكافي لمدة السفر.

المادة ١٠

يعود الجنود الفرنسيون والملحقون بهم إلى فرنسا في حراسة سفن الحلفا، وتضمن الدول المتحالفة للذين يركبون السفن منهم ألا يصابوا بأذى ما إلى أن يبلغوا الشواطى الفرنسية ويتعهد الجنرال بليار هو والجنود الذين تحت قيادته بألا يصدر عنهم أثنا رحلتهم أى عمل عدائي ضد السفن أو البلاد التابعة لصاحب الجلالة البريطانية أو الباب العالي وحلفائهما.

ولا يجوز للسفن المقلة للجنود أو للرعايا الفرنسيين أن ترسو في أى ثغر آخر غير الثغور الفرنسية ما لم تقض بذلك الضرورة القصوى.

ويتعهد قواد القوات البريطانية والتركية والفرنسية بالعهود المبينة أعلاه مدة إقامة الجيش الفرنسي في مصر من يوم التصديق على المعاهدة إلى حين نزوله إلى السفن ويتكفل الجنرال بليار قايد القوات الفرنسية بالنيابة عن حكومته بأن السفن التي تقل الجنود الفرنسية أو تتولى حراستها في البحر لا تحجز ولا تضبط في موانى فرنسا بعد نزول الجنود منها وأن يكون لقباطينها الحق أن يشتروا على حسابهم حاجتهم من الزاد والمؤونة مما يكفيهم للعودة، ويتكفل الجنرال بليار أيضاً بالنيابة عن حكومته أن لا تضار هذه السفن في عودتها إلى ثغور الحلفا ما دامت لا تحاول القيام بحركات حربية عدائية أو المشاركة فيها بأى وسيلة ما.

المادة ١١

جميع الرجال الإداريين وأعضا لجنة العلوم والفنون وبالجملة كل الأشخاص الملحقين بالجيش الفرنسي يتمتعون بالمزايا المخولة في هذه المعاهدة لأفراد الجيش.

ولرجال الإدارة وأعضا لجنة العلوم والفنون أن يأخذوا معهم الأوراق المتعلقة بوظايفهم وأعمالهم وأوراقهم الخاصة والأشيا الأخرى التى تتعلق بهم.

المادة ١٢

يحق لأى من سكان مصر على اختلاف أجناسهم إذا رغب اللحاق بالجيش الفرنسى فى رحيله أن يرحل معه ولا يجوز بعد رحيله أن تؤذى عائلته أو تصادر أملاكه.

المادة ١٣

لا يضار أحد من سكان مصر من أى دين كان ولا يؤذى فى شخصه ولا فى ماله بسبب علاقته أثناء الاحتلال الفرنسى بالسلطات الفرنسية ما دام يخضع من الآن لقوانين البلاد.

المادة ١٤

المرضى الذين لا يستطيعون السفر يبقون فى مستشفى حيث يتولى علاجهم أطبا من الفرنسيين أو أشخاص من مواطنيهم إلى أن يتم شفاهم وعندئذ يرسلون إلى فرنسا طبقاً للأحكام التى تسرى على الجنود، وعلى قواد الحلفا أن يقدموا لهم حاجاتهم فى ذلك المستشفى وعلى الحكومة الفرنسية أن ترد قيمة هذه الحاجات.

المادة ١٥

عند تسليم المواقع والقلاع المقتضى تسليمها طبقًا لهذه المعاهدة يعين مندوب لتسلم المدافع والذخاير والمخازن والأوراق والمحفوظات والرسوم وغير ذلك من الأشيا والمنقولات التى يجب على الفرنسيين تركها للحلفا.

المادة ١٦

يرسل قايد القوات البحرية للحلفا سفينة تبحر فى أقرب وقت إلى طولون وعليها ضابط ومندوب من الجيش يعهد إليهما إبلاغ الحكومة الفرنسية نص هذه المعاهدة.

المادة ١٧

جميع ما ينشا من الخلاف فى شان تنفيذ هذه المعاهدة يحسم بالطرق الودية على يد مندوبين يعينون لهذا الغرض من الجانبين

المادة ١٨

بعد التصديق على هذه المعاهدة يصير الإفراج فوراً عن الأسرى الإنجليز والعثمانيين المحبوسين فى القاهرة وعلى قواد الحلفا أن يفرجوا من ناحيتهم عن الأسرى الفرنسيين الذين فى معسكراتهم.

المادة ١٩

يتبادل الحلفا والفرنسيون الرهاين لضمان تنفيذ هذه المعاهدة من الجانبين وتكون الرهاين من ضباط الطرفين متساويين فى الرتبة ويطلق سراح الرهاين بمجرد وصول الجنود الفرنسية إلى موانى فرنسا.

المادة ٢٠

يبلغ أحد الضباط الفرنسيين هذه المعاهدة إلى الجنرال منو بالإسكندرية، ولهذا الأخير أن يقبلها بالنسبة للجنود الفرنسيين ومن يلحق بهم ممن تحت إمرته براً وبحراً فى تلك المدينة وعليه فى حالة القبول أن يبلغ ذلك إلى قايد القوات البريطانية المرابطة أمام الإسكندرية فى مدة اليومين التاليين لتبليغه نص المعاهدة.

المادة ٢١

يصير تبادل التصديق على هذه المعاهدة من قواد الطرفين فى مدة أربع وعشرين ساعة بعد التوقيع عليها.

حرر من هذه المعاهدة أربع نسخ بالمكان الذى حصلت فيه المفاوضات بين مندوبى الطرفين ظهر يوم ٢٧ يونيه سنة ١٨٠١ الموافق ١٦ صفر سنة ١٢١٦ هجرية أى ٨ مسيدور من السنة التاسعة للجمهورية الفرنسية.

إمضاءات: هوب Hope بريجاديه جنرال. عثمان بك وكيل الصدر الأعظم. إسحق بك وكيل حسين قبطان باشا. دنزلو Donzelot قايد لوا. موران قايد لوا تارير Tarayre كولونل.

نوافق ونصدق على هذه المعاهدة، ٩ مسيدور (٢٨ يونيه سنة ١٨٠١) بليار قايد فرقة نوافق: هل هتشنسون القايد العام (للجيش الإنجليزي). نوافق بالنيابة عن اللورد كيث: ستفنس قبطان بالبحرية الملكية.

صدقنا على مواد هذه المعاهدة الحاج يوسف ضيا. حسين باشا قبطان.

ملحق إضافى وتفسير للمعاهدة

١ ـ أن مدافع الميدان التى يسوغ للجيش الفرنسى تحت إمرة الجنرال بليار أن ينقلها معه فى انسحابه من القاهرة ويأخذها لفرنسا هى: مدفعان من مدافع الميدان عن كل طابور ومدفع عن كل سرية وما يتبعها من العربات والذخيرة.

٢ ـ من المتفق عليه أيضًا أن الجنود الفرنسيين الذين يركبون سفناً حربية من سفن الحلفا يودعون أسلحتهم وذخيرتهم فى الأمكنة المخصصة لها على ظهر تلك السفن تحت رقابة قباطينها ثم تسلم للجنود الفرنسيين عند نزولهم من السفن فى الموانى الفرنسية، أما الجنود الذين يركبون سفناً غير حربية وغير مسلحة فيستبقون

ثم إنه أراد الله تعالى بالصلح ما بين عسكر الفرنساوية وعساكر الإنكليز وعساكر العثمانية ولكن مع هذا الصلح أنفسكم وأديانك ومتاعكم ما أحد يقارشكم وروس عساكر الثلاثة جيوش قد اشترطوا بهذا كما ترونه.

الشرط الثانى عشر: كل واحد من أهالى مصر المحروسة من كل ملة كان الذى يريد أن يسافر مع الفرنساوية يكون مطلق الإرادة وبعد سفره كامل ما يبقى عياله ومصالحه ما أحد يعارضهم.

الشرط الثالث عشر: لا أحد من أهالى مصر المحروسة من كل ملة كان يكون قلقا من قبل نفسه ولا من قبل متاعه جميع الذين كانوا بخدمة الجمهور الفرنساوى بمدة إقامة الجمهور بمصر ولكن الواجب أن يطيعوا الشريعة. ثم يا أهالى مصر وأقاليمها جميع الملل أنتم ناظرون لحد آخر درجة الجمهور الفرنساوى ناظرا لكم ولراحتكم، فيلزم أنتم أيضاً تسلكون فى الطريق المستقيمة، وتفتكرون أن لله جل جلاله هو الذى يفعل كل شى، وعليه إمضا بليار قايمقام.

وفى يوم الجمعة عملوا الديوان وحضر المشايخ والوكيل، فقال الوكيل هل بلغكم بقية الشروط الثلاثة عشر فقالوا لا، فأبرز ورقة من كمه بالقلم الفرنساوى فشرع يقرؤها والترجمان يفسرها وهى تتضمن الأحد عشر شرطا الباقية فقال.

إن الجيش الفرنساوى يلزم أن يخلوا القلاع ومصر ويتوجهون على البر بمتاعهم إلى رشيد، وينزلون فى مراكب ويتوجهون إلى بلادهم، وهذا الرحيل ينبغى أن يسرع به، وأقل ما يكون فى خمسين يوما وأن يساق

أسلحتهم وذخيرتهم مدة رحلتهم ويكونون تحت رقابة ضباطهم.

٣ - تنتقل زوجة الجنرال منو وابنه وياوره من القاهرة إلى الإسكندرية بطريق النيل على سفينة يعدها الحلفا لهذه الغاية وترسل معهم منقولات الجنرال منو.

٤ - بما أنه يوجد بالقاهرة الآن بعض زوجات الضباط والجنود وباقى الفرنسيين المرابطين فى الإسكندرية فلهن كامل الحرية فى الانتقال إلى تلك المدينة، وتعد لهن وسايل الانتقال اللازمة لهذا الغرض وفى حالة عدم قبولهن فى الإسكندرية ينتقلن إلى فرنسا عند إقلاع الجيش الفرنسى الذى تحت قيادة الجنرال بليار أو فى أى وقت ممكن، ويخولن جميع المزايا المنصوص عنها فى هذه المعاهدة.

٥ - الفرنسيات من نساء ضباط الجيش الفرنسى وجنود أو نساء الموظفين الفرنسيين الملحقين بهذا الجيش ينتقلن مع أزواجهن إلى فرنسا ويعطين المؤونة الكافية ويخولن المزايا المبينة فى هذه المعاهدة وتتبع فى ذلك اللوايح البحريةالبريطانية.

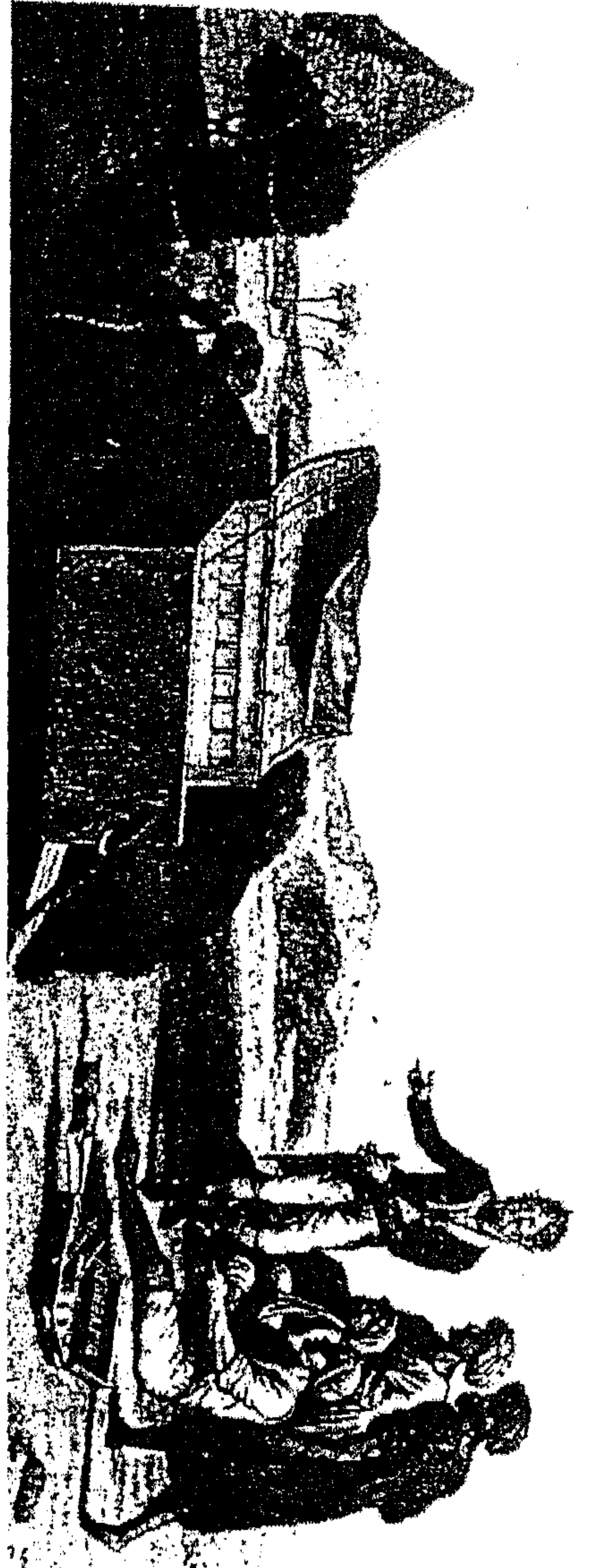
الجيش من طريق مختص وسر عسكر الإنكليز والمساعد يلزم أن يقوم لهم بجميع ما يحتاجونه من نفقة ومونة وجمال ومراكب.

والمحل الذى يبدأ منه السعى يكون بالتراضى بين الجمهور والإنكليز والمساعد وكامل الأمتعة والأثقال تتوجه من البحر ومعهم جيش من الفرنساوى لأجل الحراسة ولابد من كون المونة التى تترتب لهم. كالمونة التى كان يعطونها هم لجيش الإنجليز وريساهم وعلى ريسا عساكر الإنكليز وحضرة العثملى القيام بنفقة الجميع، والحكام المتقيدون بذلك يحضرون لهم المراكب ليسفروهم إلى فرنسا من جهة البحرالمحيط [البحر المتوسط] وأن يقدم كل من حضرة العثملى والإنكليز أربع مراكب للعليق والعلف للخيل التى يأخذونها فى المراكب وأن يسيروا معهم مراكب للمحافظة عليهم إلى أن يصلوا إلى فرنسا.

وأن الفرنساوية لا يدخلون مينة إلا مينة فرنسا والأمنا والوكلا يقدمون لهم ما يحتاجون إليه. نظرا لكفاية عساكرهم والمدبرون والأمنا والوكلا والمهندسون الفرنساوية يستصحبون معهم ما يحتاجون من أوراقهم وكتبهم، ولو التى شروها من مصر.

وكل من أهل الإقليم المصرى إذا أراد التوجه معهم فهو مطلق السراح مع الأمن على متاعه وعياله، وكذلك من داخل الفرنساوية من أى ملة كانت فلا معارضة له إلا أن يجرى على أحواله السابقة.

وجرحى الفرنساوية يتخلفون بمصر ويعالجهم الحكما وينفق عليهم حضرة العثملى، وإذا عوفوا توجهوا إلى فرنسا



* محفة لنقل الجرحى الفرنساوية.
الجبرتى/ سنة ١٢١٦م

بالشروط المتقدم ذكرها وحكام العثملى يتعهدون من بمصر منهم.

ولابد من حاكمين من طرف الجيشين يتوجهان بمركبين إلى طولون فيرسلون خبراً إلى فرنسا ليطلعوا حكامها على الصلح وساير الرسوم، وكل جدال وخصام صدر بين شخصين من الفرنساوية [والحلفاء] فلابد أن يقام شخصان حاكمان من الطايفتين ليتكلما فى الصلح، ولا يقع فى ذلك نقض عهد الصلح.

وعلى كل طايفة معين من العثملى والفرنساوى أن تسلم ما عندها من الأسرى، ولابد من رهاين من كل طايفة واحد كبير يكون عند الطايفة لأخرى حتى يتوصلوا إلى فرنسا.

ثم قال الوكيل وقد علمنا الشروط، وما ندرى ماذا يكون فقيل له هذه شروط عليها علامة القبول، وهذا الصلح رحمة للجميع وسيكون الصلح العام، فقال الوكيل إنى أرجو أن يكون هذا الصلح الخصوصى مبدأ للصلح العمومى.

وفيه كثر خروج الناس ودخولهم من الأتباع والباعة والمتنكرين من نقب البرقية المعروف بالغريب، فصار الحرسجية من الفرنساوية يأخذون من الداخل والخارج دراهم ولا يمنعوهم فلما علم الناس بذلك كثر ازدحامهم فلما أصبحوا منعوهم فدخلوا وخرجوا من باب القرافة لم يمنعهم الواقفون به من الفرنسيس بل كانوا يفتشون البعض ويمنعون البعض وكل ذلك حذرا من أفعال الطموش وسو أخلاقهم وتولد الشر بسببهم.

وقد دخل بعض أكابر الإنكليز وصحبتهم فرنساوية يفرجونهم على البلدة والأسواق، وكذلك دخل بعض أكابر العثمانية فزاروا قبر الإمام الشافعي والمشهد الحسيني والشيخ عبد الوهاب الشعراوى والفرنساوية ينتظرونهم بالباب.

* العثمانية تزور قبر الإمام الشافعي.

وفي ليلة الاثنين رابع عشرينه نادوا في الأسواق برمي مدافع في صبحه، وذلك لنقل رمة *كليبر فلا يرتاع الناس من ذلك، فلما كان في صبح ذلك اليوم أطلقوا مدافع كثيرة ساعة نبش القبر بالقرب من قصر العيني، وأخرجوا الصندوق الرصاص الموضوع فيه رمته ليأخذوه معهم إلى بلادهم.

* نقل جثة (رمة) كليبر من مقبرتها لأخذهاالفرنسا.

وفيه أرسلوا أوراقا ورسلا للاجتماع بالديوان وهو آخر الدواوين فاجتمع المشايخ والتجار وبعض الوجاقلية وأستوف الخازندار والوكيل والترجمان، فلما استقر بهم الجلوس أخرج الوكيل كتابا مختوما وأخبر أن ذلك الكتاب من سارى عسكر منو بعث به إلى مشايخ الديوان ثم ناوله لريس الديوان ففضه وناوله للترجمان فقراه والحاضرون يسمعون.

وصورته: بعد البسملة والجلالة والصدر نخبركم أنا علمنا بكثرة الانبساط أنكم تهتدون بكثرة الحكمة والإنصاف في الموقع الذى أنتم مستمرون فيه وإن لم تقدروا لتنظيم أهالى البلد بالهدى والطاعة الموجبة منه لحكومة الفرنساوى فالله تعالى بسعادةرسوله الكريم عليه السلام الدايم ينعم عليكم في الدارين عواض خيراتكم، وأخبرنا المقدام الجسور بونابارته المشهور عن كل ما فعلتم حاكما ونافعا بوصايا لأجلكم سارة، رضى واستراح لتلك الفعال الجيدة، وعرفني أيضًا أنه عن قريب يرسل لكم بذاته جواب جميع

* آخر بيان لديوان القاهرة قبل مغادرة الحملة الفرنسية.


* اجتماع الديوان

مكاتيبكم إليه فدمتم إلى الآن بخير الهدى وبقوته تعالى نرى فضايلكم عن قريب ونواجه سكان محروسة مصر كما هو مأمولنا.

لكن يسركم أن جمهور المنصور غلب فى أقاليم الروم جميع أعداه وبعون الله هادى كل شى سيغلب، كذلك العدا فى مصر واعتمدوا بأكثر الاعتماد على الستويان [المواطن] جيرار هذا الذى وضعناه قربكم لأنه هو رجل مشهور بالعدل والاستقامة.

ونوجه إلى هممكم النصيحة إلى زوجتنا الكريمة السيدة زبيدة وولدنا العزيز سليمان مراد أن كليهما حالا كاينان فى حصننا فى مصر، وتأسفناجدا برحلة المرحوم مراد بك فى انتقاله إلى البقاء، ومعلوم فضايلكم أننا أرضينا بإنعام علوفة توجه على عمدة العفايف حضرة الست نفيسة خاتون لما جرت الحكومة الفرنساوية إلى أصدقاها،

وقولوا للقوم إن مامنيتى ومرامى وإبرامى ألا تقيدى بيمنه وخيره،واعتمدوا أيضاً إلى كل ما سيقول لكم الستويان استيو المأمور بتدبير الأمور وكمال العوائد، والله تعالى ينعم عليكم وعلى عيالكم فى الأيام بالبشرى والإقبال.

وحرر فى أحد عشر مسيدور سنة تسعة من قيام دولة جمهور الفرنساوية الموافق لثامن عشر صفر، وتحته الواحدة غير المنقسمة ممضى عبد الله جاك منو بخطه وختمه.

نقل بألفاظه وحروفه وهو من تراكيب لوماكا الترجمان وكأنه كتب قبل وصول خبر الصلح إلى الإسكندرية.

ثم أخذ الوكيل يقول إن الجنرال منو انسر بسلوككم حتى الآن وراحة البلد حظ الفقراء، وأن الحكام القادمين لابد وأن يسلكوا معكم هذا الموضوع، ولابد من وصول مكاتيب بونابرته بعد أربعة أيام أو خمسة، وأنه لا ينسى أحبابه كما لا ينسى أعداءه، ولو لم يكن له من الحسن إلا جعلكم وسايط لإغاثة الناس لكان كافيا، وأنكم تعلمون أنه كان نظر إلى أحوال المارستان ومصالح المرضى، وكان قصده أن يبنى جامعا ولكن عاقه توجهه إلى الشام، وذكر كثيرا من أمثال هذه الخرافات والتمويهات

ثم أخرج ورقة بالفرنساوى وقراها بنفسه حتى فرغ منها ثم قرا ترجمتها بالعربى الترجمان رفاييل ومضمونها حصول الصلح وتمويهات وهلسيات ليس فى ذكرها فايدة.

ولما انتهى من قراها أبرز أيضًا أستوف الخازندار ورقة وقراها بالفرنساوى ثم قرا ترجمتها بالعربى الترجمان وهى فى معنى الأولى.

* خطاب محبة من حضرة استوف إلى الديوان العالى.

وصورتها: *خطاب محبة من حضرة أستوف مدبر الحدود العام فى مجلس الديوان العالى فى سبعة عشر مسيدور سنة تسع من المشيخة الفرنساوية.

يا مشايخ وياعلما وغيرهم أعلمكم أنه ما على أنى أكلمكم فى أسباب خروجنا من الديار المصرية بل وظيفتى تدبير أمور السياسة فقط ومجى عندكم لأجل أن أعرفكم قدر ما هو حاصل من الصعوبة، كل واحد منكم رأى المحبة والأخوة التى كانت موجودة ما ين الفرنساوية وما بين أهل الديار المصرية، قد كان الجيش والأهل المذكورون مثل الرعية الواحدة.

واسم حضرة بونابارته القنصل الأول من جمهور الفرنساوية في عز الكفالة عندكم وعندنا.

كم مرة يا مشايخ ويا علما فقد تمت صحبتنا لأجل سيرة هذا الشجاع الأعظم المعان بقوة الله الذى عقله ماله مثيل، كان يستحق أن يكون حاكما عليكم، دايما عرفتمونى عن المحبة والشفقة الذى مضت منه لكم، ومن وقت ما التزم بسبب التعب الذى حصل له فى بلده أن يتوجه إليه ما ضاع منكم العشم أن يترتب فى الديار المصرية التدبير العدل والمنافقة الذى كان وعدكم به وقت ما كان عندكم وصحيح يا مشايخ وعلما أن حكم الفرنساوى كان يتم ما عاهدكم به الذى هو كبيرهم بونابارته دايما رأى لكم فى الخير والمحبة إلى رعاية الديار المصرية لما لها نظير.



* نابليون . القنصل الاول.

كم مرة كرر إلى حضرة سر عسكر منو أنه ينظر إليكم فى كامل الأمور بالخير وكام نوبة حضرة منو المذكور أثبت أن الحكام والجيوش لما أمنوه أعطوه الأمان فى أحسن محل وفى حكم سر عسكر منو صار أن كثرة الظلم والجور الذى كان مستقلينه الرعية قد أبطله، والعدل الذى كان ممنوعا عنكم فى الأحكام السابقة قد وصل إليكم بواسطته.

وأيضًا فى مدة حكمه رأيتم أن نقضى تحصيل الأموال بالشفقة إلى الرعايا، ولما كان التزم بسبب الحرب أنه يرتب تدبير فى تحصيل الأموال وهذا التدبير يكون فى حد العدل والخير لأهل الديار المصرية ونحن كنا صحبته فى تدبير هذا الشغل العمومى، وأنتم تعرفون أن خير أو خراب الرعايا من تدبير مثل هذا.

وكذلك حضرة سر عسكر منو قبل ما يتوجه إلى السفر بمدة كان أمر بمسح الديار المصرية، وكان وكّل لذلك مدبرين ونحن من جملتهم، والمدبرون المذكورون كانوا بدأوا فى إتمام هذا الأمر الذين هو كنز لكامل الناس، لكن كل ذلك ما كان يكفى له وكان صعبان عليه من أمور الفلت الذى يقع من العربان الذين حواليكم، وأيضا من الخوف الذى عندكم بسببهم، وكان فى عقله أن يزيلهم من على وجه الأرض لأجل راحة الفلاحين ولأجلُ إتمام الخير والصلاح.

وكذلك مراده يامشايخ وياعلما أن يسفر فى هذه السنة الحج الشريف ويفتح زيارة طنطا لأجل حفظ مقام السيد أحمد البدوى، ويظهر جميع ما تشهرونه وكامل ما تمشون فيه، من اللازم أنكم تعرفون جميع ما صدر لكم من الخيرات بواسطة حكم الفرنساوية، هذا ورعاية الديار المصرية جربه بعض منهم، وفى عشمى أنهم لم ينسوه أبداً.

صحيح أن حكم الفرنساوى حقق الكل، والذى يعجب الأكثر إلى الرعايا بسبب ذلك ذات الفرنساوية قتلوا فيه لأجل منع الظلم والتعب الذى كانوا فيه والقرانات فى بلاد الغرب خافوا أن رعاياهم يقبلون الحكم المذكور، وبسبب ذلك ارتبطوا مع بعضهم لأجل ما يمنعوه منا لكن كل جهاتهم صارت بطالة وقد حاربونا حربا شديدا مدة عشر سنين متوالية، وفى جميع المطارح وقعت لهم الهزيمة، وحكمنا قد بقى محله وكذلك هو الباقى دايما أبداً فلا يحتاج أننا نعرفكم فى الذى تعرفونه ويكفينا الآن أننا نحقق لكم من عند حضرة القنصل الأول فى الجمهور الفرنساوى بونابارته ومن عند حضرة سر عسكر منو المحبة والشفقة

الصادقة التى واقعة من الفرنساوية إلى الرعايا المصرية وهذه المحبة والعشم لم ينقطعا أبدا بسبب سفر جانب من الجيش.

وهلبت أن يصادف يوم أننا نرجع إلى عندكم لأجل تمام الخير الذى يصدر من حكم الفرنساوى، والذى ما أمكننا تتميمه فلا تتوهموا يامشايخ وياعلما أن فراقنا لم يقع إلا عن مدة وذلك محقق عندى ولابد أن دولتنا يربطون ثانيا فى مدة قريبة المحبة القديمة التى كانت بينهم وبينكم.

وهلبت أن دولة العثمانية لما تسير على الجرف الخالى الذى عمل لهم الإنكليز يرون أن الفرنساوية فى طلب الديار المصرية ليس لهم إلا ربط زيادة محبة صحبتهم لأجل كسر نفس وطيش الإنكليز الذين مرادهم نهب جميع البحور ومتاجر الدنيا انتهى.

وهو من تعريف أبى ديه وإنشا أستوف بالفرنساوى.

ولما فرغوا من قراته قيل له: إن الأمر لله والملك له وهو الذى يمكن منه من شاء.





* أعلى بوديه
أسفل استوف.

وانفض الديوان وركب المشايخ وخرجوا للسلام على الوزير يوسف باشا الذى يقال له الصدر الأعظم والسلام على القادمين معه أيضًا من أعيان دولتهم والأمرا المصرية وكانوا عزموا على الذهاب فى الصباح فعوقوا لبعد الديوان.

وأما الشيخ السادات فإنه خرج للسلام من أول النهار وكتب لهم قايمقام أوراقا للحرسجية لأنهم مستمرون على منع الناس من الدخول والخروج وأبواب البلد مغلقة وكان خروجهم من طريق بولاق، فلما وصلوا إلى العرضى سلموا

على إبراهيم بك وتوجه معهم إلى الوزير فلما وصلوا إلى الصيوان أمروهم برفع الطيلسان التى على أكتافهم وتقدموا للسلام عليه، فلم يقم لقدومهم فجلسوا ساعة لطيفة وخرجوا من عنده وسلموا أيضاً على محمد باشا المعروف بأبى مرق وعلى المحروقى والسيد عمر مكرم وباتوا تلك الليلة بالعرضى، ثم عادوا إلى بيوتهم.

وفى ثانى يوم عدوا إلى البر الغربى وسلموا على قبطان باشا ورجعوا إلى منازلهم.

* إبراهيم بك يرسل أماناً لأكابر القبط.

* الأقباط يرفضون ترك مصر والذهاب مع الحملة إلى فرنسا.

وفيه أرسل إبراهيم بك أمانا *لأكابر القبط فخرجوا أيضاً وسلموا ورجعوا إلى دورهم، وأما يعقوب فإنه خرج بمتاعه وعازقه وعدى إلى الروضة، وكذلك جمع إليه عسكر القبط* وهرب الكثير منهم واختفى، واجتمعت نساهم وأهلهم وذهبوا إلى قايمقام وبكوا وولولوا، وترجوه فى إبقاهم عند عيالهم وأولادهم فإنهم فقرا وأصحاب صنايع ما بين نجار وبنا وصايغ وغير ذلك، فوعدهم أنه يرسل إلى يعقوب أنه لا يقهر منهم من لايريد الذهاب والسفر معه.

وفيه ذهب بليار قايمقام وصحبته ثلاثة أنفار من عظما الفرنسيس إلى العرضى وقابلوا الوزير فخلع عليهم وكساهم فراوى سمور ورجعوا.

وفى يوم الأربعا تاسع عشرة خرج المسافرون مع الفرنساوية إلى الروضة والجيزة بمتاعهم وحريمهم وهم جماعة كثيرة من القبط وتجار الإفرنج والمترجمين وبعض المسلمين ممن تداخل معهم وخاف على نفسه بالتخلف وكثير من نصارى الشوام والأروام مثل «ينى» و«برطلمين» و«يوسف

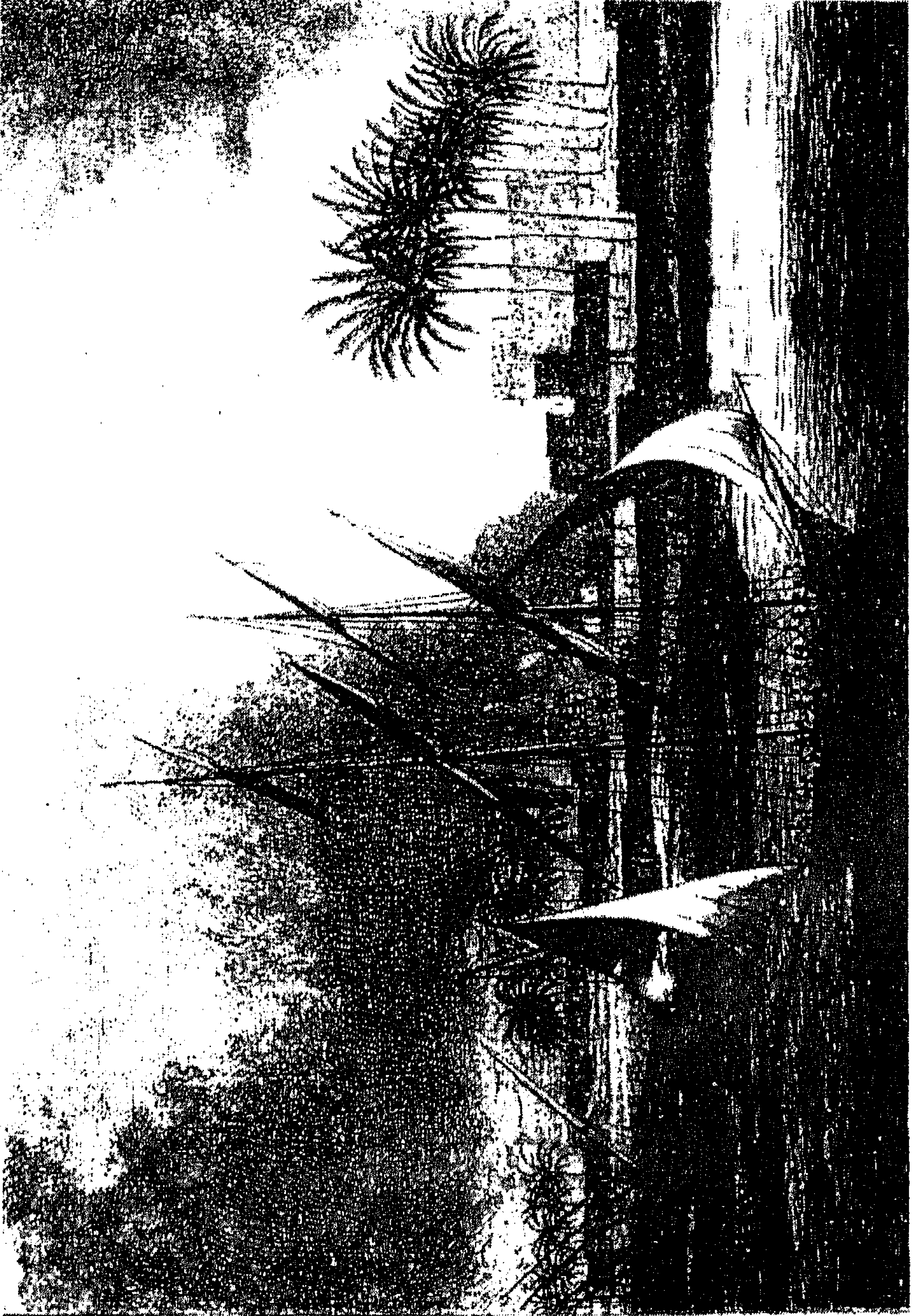
الحموى» ، و«عبد العال» الأغا أيضًا طلق زوجته وباع متاعه وفراشه وما ثقل عليه حمله من طقم وسلاح وغيره، فكان إذا باع شيا يرسل خلف المشترى ويلزمه بإحضار ثمنه فى الحال قهراً، ولم يصحب معه إلا ما خف حمله وغلا ثمنه.

وفيه حضر وكيل الديوان إلى الديوان وأحضر جماعة من التجار وباع لهم فراش المجلس بثمن قدره ستة وثلاثون ألف فضة على ذمة السيد الزرو.

وفى ذلك اليوم أيضًا فتحوا باب الجامع الأزهر وشرعوا فى كنسه وتنظيفه، وفى ذلك اليوم وما بعده دخل بعض الإنجليز* ومروا بأسواق المدينة يتفرجون وصحبتهم اثنان أو واحد من الفرنسيس يعرفونهم الطرق وأشيع فى ذلك اليوم ارتحال الفرنساوية ونزولهم من القلاع وتسليمهم الحصون من الغد وقت الزوال، فلما أصبح يوم الخميس ومضى وقت الزوال لم يحصل ذلك فاختلفت الروايات، فمن الناس من يقول ينزلون يوم الجمعة، ومنهم من يقول إنهم أخذوا مهلة ليوم الاثنين، وبات الناس يسمعون لغط العساكر العثمانية وكلامهم ووطء نعالاتهم فنظروا فإذا الفرنساوية خرجوا* بأجمعهم ليلاوأخلوا القلعة الكبيرة وباقى القلاع والحصون والمتاريس وذهبوا إلى الجيزة والروضة وقصر العينى ولم يبق منهم شبح يلوح بالمدينة وبولاق ومصر العتيقة والأزبكية، ففرح الناس كعادتهم بالقادمين وظنوا فيهم الخير وصاروا يتلقونهم ويسلمون عليهم ويباركون لقدومهم، والنسا

* بعض الإنجليز يدخلون القاهرة للسياحة.

* الفرنساوية يخلون القلعة ويذهبون إلى الجيزة.



* القوات الفرنسية تنتقل إلى الروضه والجيزة.

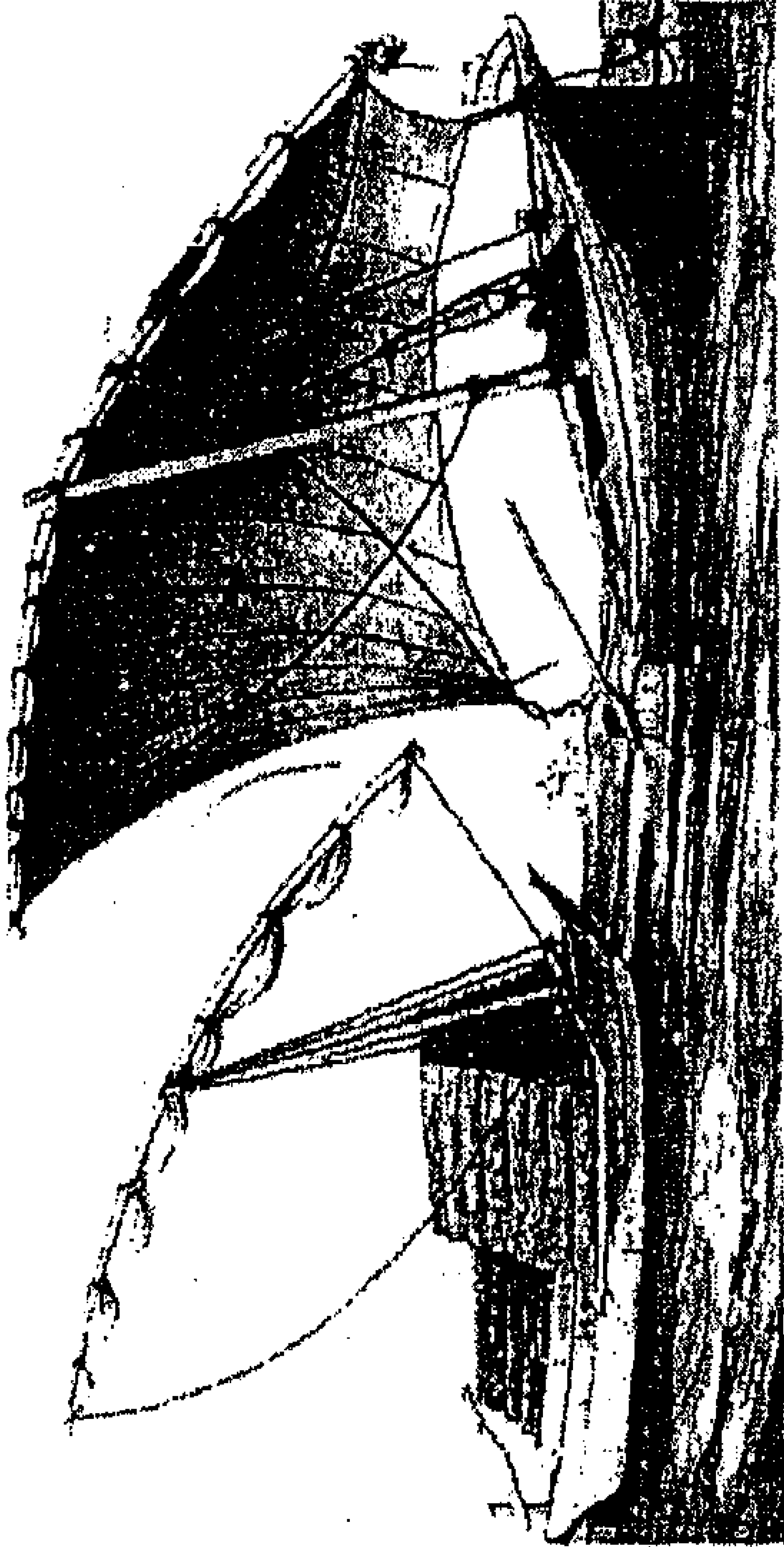
يلقلقن [يزغردن] بألسنتهن من الطيقان وفى الأسواق، وقام للناس جلبة وصياح وتجمع الصغار والأطفال كعادتهم ورفعوا أصواتهم بقولهم نصر الله السلطان ونحو ذلك.

* تسرب الجند العثمانى إلى القاهرة.

وهولا الداخلون دخلوا * من نقب الغريب المنقوب فى السور وتسلقوا أيضاً من ناحية العطوف والقرافة وأما باب النصر والعدوى فهما على حالهما مغلوقان لم يأذنوا بفتحهما خوفا من تزاحم العسكر ودخولهم المدينة دفعة واحدة فيقع فيهم الفشل والضرر بالناس، وباب الفتوح مسدود بالبنا.

فلما تضحى النهار حضر قبى قول [كتخدا الينكجريه] وفتح باب النصر والعدوى وأجلس بهما جماعة من الينكجرية ودخل الكثير من العساكر مشاة وركبانا أجناسا مختلفة.

* مراكب تجارية فى النيل.



ودخلت بلوكات الينكجرية وطافوا بالأسواق ووضعوا نشاناتهم ورنكهم [شارات الفرق العسكرية] على القهاوى والحوانيت والحمامات فامتعض أهل الأسواق من ذلك.

وكثر الخبز واللحم والسمن والشيرج بالأسواق وتواجدت البضايع وانحلت الأسعار وكثرت الفاكهة مثل العنب والخوخ والبطيخ وتعاطى بيع غالبها الأتراك والأرنؤد فكانوا يتلقون من يجلبها من الفلاحين بالبحر والبر ويشترونها منهم بالأسعار الرخيصة ويبيعوها على أهل المدينة وبولاق بأغلى الأثمان.

ووصلت مراكب من جهة بحرى وفيها البضايع الرومية واليميش من البندق واللوز والجوز والزبيب والتين والزيتون الرومى.

فلما كان قبل صلاة الجمعة وإذا بجاويشية وعساكر وأغوات وتلا ذلك حضرة يوسف باشا الصدر فشق من وسط المدينة وتوجه إلى المسجد الحسينى فصلى فيه الجمعة وزار المشهد الحسينى، ودعاه حضرة الشيخ السادات إلى داره المجاورة للمشهد فأجابه فدخل معه وجلس هنيهة ثم ذهب إلى الجامع الأزهر فتفرج عليه وطاف بمقصورته وأروقته وجلس ساعة لطيفة وأنعم على الكناسين والخدمة بدراهم وكذلك خدمة المسجد الحسينى، ثم ركب راجعا إلى وطاقه بناحية الحلى بشاطى النيل.

وعملوا فى ذلك الوقت شنكا وضربوا مدافع كثيرة من العرضى والقلعةودخل قلقات الينكجرية وجلسوا بروس العطف [جمع عطفة] والحارات وكل طايفة عندها بيرق ونادوا بالأمان والبيع والشرا وطلب أوليك القلقات من أهل الأخطاط المآكل والمشارب والقهوات وألزموهم بذلك.

وانحاز الفرنساوية إلى جهة قصر العينى والروضة والجيزة إلى حد قلعة الناصرية* وفم الخليج وعليها بنديراتهم ووقف حرسهم عند حدهم يمنعون من يأوى إلى جهتهم من العثمانية فلا يمر العثمانى إلا إلى الجهة الموصلة إلى بولاق، وأما إذا كان من أهل البلد فيمر حيث أراد.

* قلعة الناصرية : كانت على الخليج تجاه القصر العينى شرقاً.

وفى مدة إقامة المشار إليه بساحل الحلى ببولاق خرب عساكره ما قرب منهم من الأبنية والسواقى والمتريز الذى صنعه الفرنساوية من حد باب الحديد إلى البحر وأخذوا ما بذلك من الأفلاق الكثيرة المتهدمة والأخشاب المنجرة المرصوصة فوق المتريز وتحته، وفى الخندق، فخربوا ذلك جميعه فى هذه المدة القليلة وذلك لأجل وجود النار والمطابخ.

وفي يوم السبت دخل قبي قول وهو المسمى عند المصريين كتخدا الينكجرية وشق المدينة وأمر بمحو نشانات الإنكشارية من الحوانيت ولم يترك إلا القهاوى.

واستهل شهر ربيع الأول بيوم الأحد سنة ١٢١٦

فيه ركب أغات الينكجرية الكبيرالعثملي وشق المدينة وخلفه سليم أغا المصرى، ودخل الكثير من العساكر والأجناد المصرية بمتاعهم وعازقهم وأحمالهم وطلبوا البيوت وسكنوها، ودخل محمد باشا المعروف بأبي مرق الغزى وهو المرشح لولاية مصر وسكن ببيت الهياتم بالقرب من مشهد الأستاذ الحنفي*، وأرسل إلى المشايخ وكبار الحارات وطلب منهم التعريف عن البيوت الخالية بالأخطاط.

* الحنفي: يذكره على مبارك في خططه بأسم جامع الأستاذ الحنفي. أنشأه الأستاذ شمس الدين أبو محمود محمد الحنفي سنة ٨١٧هـ = ١٤١٤م كما ذكر المقريزى. وفي سنة ١٢٢٧هـ = ١٨١٢م جدده الأمير سليمان أفندى تابع العزيز محمد على باشا.

وفي يوم الثلاثا ثالثه حضر حسين باشا القبطان من الجيزة ودخل المدينة وتوجه إلى المشهد الحسيني فزاره وذبح به خمس جواميس وسبعة كباش واقتسمتها خدمة الضريح وحلق تاج المقام بأربعة شيلان كشميرى، وأخذ قياس المقام ليصنع له سترا جديدا، وفرق عليهم وعلى الفقرا نحو ألفي محبوب ذهب إسلامبولى، وامتدحه صاحبنا العلامة أحد أدبا مصر وفضلا لها في العلوم الأدبية الشيخ على الشرنفاشي بقصيدة مطلعها:

بدر المسرة بالمعالي أمنا
والوقت من بعد المخاوف أمنا

وهي طويلة يقول في بيت التاريخ منها:



*بائع العرقسوس.

ولمصرنا نادى السرور مورخا
صدر الكمال حسينه شرف الهنا

وقدمها إليه وهو جالس للزيارة فأعطاه جايزة سنية،ثم ركب وعاد إلى مخيمه بالجيزة.

وفى ذلك اليوم وقعت حادثة*: وهو أن شخصا من العسكر بالجمالية شرب من العرقسوسى شربة عرقسوس ولم يدفع له ثمنها فكلم العرقسوسى القلق الإنكشارى فأحضره وأمره بدفع ثمنها ونهره وأراد ضربه، فاستل ذلك العسكرى الطبنجة وضرب ذلك الحاكم فقتله وهرب إلى حارة الجوانية ودخل إلى داره وامتنع فيها وصار يضرب بالرصاص على كل من قصده فقتل خمسة أنفار، ومر شخصان من الأرنؤد بتلك الخطة فقتلهما الإنكشارية لكون الغريم أرنؤديا من جنسهما فلما أعياهم أمره حرقوا عليه الدار فخرج

* قتل تسعة أشخاص فى شربة عرقسوس وكان ذلك من بدايات تعديات الجند العثمانى على الأهالى.

هاربا من النار فقبضوا عليه وقتلوه، ومات تسعة أشخاص في شربة عرقسوس.

ووقع في ذلك اليوم أيضا أن شخصين من القليونجية دخلا إلى دار رجل نصراني فأخذا من بيته بقجتين من الثياب وخرجا فوجدا شخصين مارين من الفلاحين فسخراهما في حمل البقجتين فخرج النصراني وشكا إلى القلق فأمر بالقبض على الشخصين العسكريين فتخلصا وهربا بعد أنْ انجرح أحدهما وأخذوا الشخصين المسخرين فقطعوا روسهما ظلما وعدوانا وذلك من مبادى قبايحهم.



* اثنان من الفلاحين.

وفي يوم الأربعا رابعه ارتحل الفرنساوية وأخلوا قصر العيني والروضة والجيزة وانحدروا إلى بحرى الورايق وارتحل معهم قبطان باشا ومعظم الإنكليز ونحو الخمسة آلاف من عسكر الأرنؤد ومن الأمرا المصرية عثمان بك الأشقر ومراد بك الصغير وأحمد بك الكلارجي وأحمد بك حسن فكانت مدة الفرنساوية* وتحكمهم بالديار المصرية ثلاث سنوات وإحدى وعشرين يوما فإنهم ملكوا برانبابة والجيزة وكسروا الأمرا المصرية يوم السبت تاسع عشر صفر سنة ثلاث عشرة ومايتين وألف، وان انتقالهم ونزولهم من القلاع وخلو المدينة منهم وانخلاعهم عن التصرف والتحكم ليلة الجمعة الحادى والعشرين من شهر صفر سنة ست عشرة ومايتين وألف، فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتحول سلطانه.

* كانت مدة الفرنساوية وتحكمها في مصر ثلاث سنوات وإحدى وعشرين يوما منذ دخلوا الجيزة.

وفي ذلك اليوم حضر السيد عمر أفندى نقيب الأشراف وصحبته السيد أحمد المحروقي شاه بندر التجار بمصر وعليهما خلعتا سمور وتوجها إلى دورهما.

* الاحتفال بدخول الوزير يوسف باشا.

وفيه نبهوا على موكب* حضرة الوزير يوسف باشا من الغد فلما أصبح يوم الخميس خامسه اجتمع الناس من جميع الطوايف وساير الأجناس وهرع الناس للفرجة وخرجت البنت من خدرها واكتروا الدور المطلة على الشارع بأغلى الأثمان وجلس الناس على السقايف والحوانيت صفوفا وانجر الموكب من أول النهار إلى قريب الظهر ودخل من باب النصر وشق من وسط المدينة وأمامه العساكر المختلفة من الأرنؤد وأرط الينكجرية والعساكر الشامية والأمرا المصرلية والمغاربة والقليونجية وطاهر باشا باشة الأرنؤد وإبراهيم باشا والى حلب ومحمد باشا [أبو مرق]* والى مصر والكتبة وريس الكتاب وكتخدا الدولة والأغوات الكبار بالطبول والنقرزانات وقاضى العسكر ونواب القضا والعلما المصرية ومشايخ التكايا والدراويش.

[١٣٦] محمد باشا أبو مرق. نائب على مصر.

وأقبل المشار إليه وأمامه الملازمون بالبراقع والجاويشية والسعاة الجوخدارية وعليه كرك صوف سنجابى مطرزمخيش وعلى رأسه شلنج بفصوص الماس، وخلفه اثنان عن يمينه وشماله ينثرون دراهم الفضة البيضا ضربخانة إسلامبول على المتفرجين من النسا والرجال وخلفه أيضا العدة الوافرة من أكابر أتباعه وبعدهم الكثير من عسكر الأرنؤد وموكب الخازندار وخلفه النوبة التركية المختصة به، ثم المدافع وعربات الجبخانات.

وعملوا وقت الموكب شنكا ضربوا فيه مدافع كثيرة فكان ذلك اليوم يوما مشهودا وموسما وبهجة وعيدا عمت المسلمين فيه المسرات ونزلت فى قلوب الكافرين الحسرات، ودقت البشاير وقرت النواظر، وأمروا بوقود المنارات سبع

ليال متواليات، فلله الحمد والمنة على هذه النعمة، ونرجو من فضله أن يصلح فساد القلوب ويوفق أولى الأمر للخير والعدل المطلوب ويلهمهم سلوك سواء السبيل القويم ويهديهم إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غيرالمغضوب عليهم ولا الضالين آمين.

وممن قدم بصحبة ركاب المشارإليه من أكابر دولتهم إبراهيم باشا والى حلب وإبراهيم باشا شيخ أوغلى ومحمد باشا المعروف بأبى مرق وخليل أفندى الرجائى الدفتردار ومحمود أفندى ريس الكتاب وشريف أغا نزله أمين ومحمد أغا جبجى باشا الشهير بطوسون، ووقع الاختيار بأن يكون سكن المشارإليه ببيت رشوان بك بحارة عابدين تجاه بيت عبد الرحمن كتخدا القازدغلى.

وفى يوم الجمعة نودى بإبطال كلف القلقات وإبطال شرك العسكر لأرباب الحرف إلا من شارك برضاه وسماحة نفسه، فلم يمتثلوا لذلك واستمر أكثرهم على الطلب من الناس.

* العسكر العثمانى يفرض الفرد على أصحاب الحرف رغم أنفهم.

وفى يوم الأحد نودى بأن لا أحد يتعرض بالأذية لنصرانى ولا يهودى سوا كان قبطيا أوروميا أو شاميا فإنهم من رعايا السلطان والماضى لا يعاد.


*اليقطان.

والعجب أن بعض نصارى الأروم الذين كانوا بعسكر الفرنسيس تزيوا بزى العثمانية وتسلحوا بالأسلحة واليقطانات* ودخلوا فى ضمنهم وشمخوا بآنافهم وتعرضوا بالأذية للمسلمين فى الطرقات بالضرب والسب باللغة التركية، ويقولون فى ضمن سبهم للمسلم «فرنسيس كافر» ولا يميزهم إلاالنطق الحاذق أو يكون له بهم معرفة سابقة.

* اليقطان أو اليطقان خنجر طويل مقوس يعلق فى الخصر.

وفيه أرسلوا هجانا إلى الحجاز ومعه فرمان بخبر الفتح والنصر وارتحال الفرنساوية من أرض مصر ودخول العثمانية ومكاتبات من التجار لشركاهم بإرسال المتاجر إلى مصر.

وفيه أرسلوا فرمانات أيضاً إلى الأقاليم المصرية والقرى بعدم دفع المال إلى المتلزمين ولا يدفعون شيا إلا بفرمان من الوزير.

وفي يوم الاثنين قتلوا شخصا بالرميلة يسمى حجاجا كان متولى الأحكام ببولاق أيام الفرنسيس وجار وعسف، وقتل معه آخر يقال إنه أخوه.

وفيه أيضا قتلوا أشخاصا بالأزبكية وجهات مصر.

وفيه ركب الوزير بثياب التخفيف وشق المدينة وتامل فى الأسواق وأمر بمنع العسكر من الجلوس على حوانيت الباعة وأرباب الصنايع ومشاركتهم فى أرزاقهم، ثم توجه إلى المشهد الحسينى فزاره ثم عبر إلى دار السيد المحروقى وشرفه بدخوله إليه فجلس ساعة، ثم ركب وأعطى أتباعه عشرين دينارا، وذكر له أنه إنما قصد بحضوره إليه تشريفه وتشريف أقرانه وتكون له منقبة، وذلك على مر الأزمان.

وأما العسكر فلم يمتثلوا ذلك الأمر إلا أياما قليلة ووقع بسبب ذلك شكاوى ومشاكلات ومرافعات عند العظما.

وفى يوم الثلاثا وصل قاصد من دار السلطنة وعلى يده شال (مثال) شريف من حضرة الهنكار السلطان سليم



* السلطان سليم الثالث (١٢٠٣ـ١٢١٣هـ). (١٧٨٩ ـ ١٧٩٨م).

خان خطابا لحضرة الوزير ومعه خنجر مرصع بفصوص الماس وهو جواب عن رسالته بدخوله بلبيس.

وفيه نودى بتزيين الأسواق من الغد تعظيما ليوم المولد النبوى* الشريف فلما أصبح يوم الأربعا كررت المناداة الأمر بالكنس والرش، فحصل الاعتنا وبذل الناس جهدهم وزينوا حوانيتهم بالشقق الحرير والزردخان [الديباج والسندس] والتفاصيل الهندية مع تخوفهم من العسكر.

* الاحتفال بالمولد النبوى فى ظل وجود القوات العثمانية.

وركب المشار إليه عصر ذلك اليوم وشق المدينة وشاهد الشوارع، وعند المسا أوقدوا المصابيح والشموع ومنارات المساجد وحصل الجمع بتكية الكلشنى على العادة، وتردد الناس ليلا للفرجة وعملوا مغانى ومزامير فى عدة جهات وقراءة قرآن وضجت الصغار فى الأسواق وعم ذلك ساير أخطاط المدينة العامرة ومصر وبولاق وكان من المعتاد القديم أن لايعتنى بذلك إلا بجهة الأزبكية وبولاق فقط حيث سكن الشيخ البكرى لأن عمل المولد من وظايفه.

وفى يوم الخميس ثانى عاشره سافر سليمان أغا وكيل دار السعادة وصحبته عدة هجانة إلى ناحية الشام لإحضار* المحمل الشريف وحريمات الأمرا إلى مصر.

* بعثة لإحضار المحمل المصرية وحريمات الأمرا من الشام.

وفيه افتتحوا ديوان مزاد الأعشار والمكوس* وذلك ببيت الدفتردار، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

* ديوان مزاد الأعشار والمكوس: بعد دخول القوات العثمانية للقاهرة بدأت فوراً فى جمع المكوس والعشور ومختلفة أشكال الإتاوات من الأهالى، حتى انهم شاركوا التجار والحرفيين فى أرباحهم بطريق التعنت والتسلط.

وفيه حضر اليسرجى الذى جلب مملوك الشيخ البكرى الذى تقدم ذكره إلى بيت القاضى وأحضروا الشيخ خليل البكرى

وادعى عليه أنه قهره فى أخذ المملوك بالفرنسيس وأخذه منه بدون القيمة وأنه كان أحضره على ذمة مراد بك وطال بينهما النزاع وآل الأمر بينهما إلى انتزاع المملوك من المذكور، وقد كان أعتقه وعقد له على ابنته فأبطلوا العتق وفسخوا النكاح، وأخذ المملوك عثمان بك الطنبرجى المرادى ودفع للشيخ دراهمه وللجلابه باقى الثمن وتجرع فراقه*.

* بداية المضايقات للشيخ البكرى بفسخ عقد نكاح ابنته على مملوك كان اشتراه واعتقه، فالغى عتق المملوك واشتراه عثمان بك الطنبورجى نكاية فى البكرى. بالرغم من انه كان متهما بالتعاون مع العثمليه قبل خروج الفرنساويه. انظر ص ٦١٨.

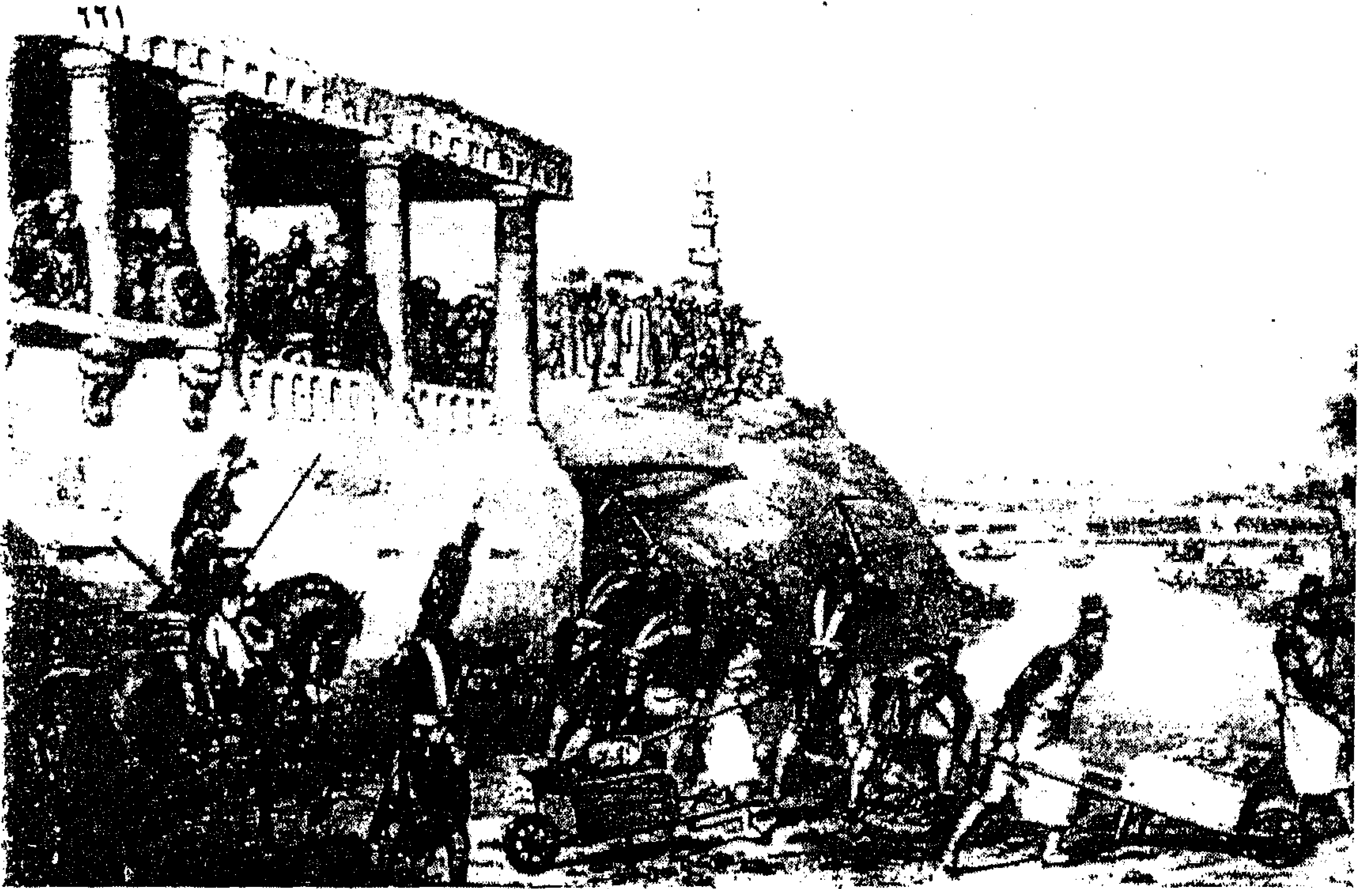
وفى يوم الجمعة ركب الوزير وحضر إلى الجامع الأزهر وصلى به الجمعة وخلع على الخطيب فرجية صوف.

وفى ذلك اليوم احترق* جامع قايتباى الكاين بالروضة المعروف بجامع السيوطى، والسبب فى ذلك أن الفرنسيس كانوا يصنعون البارود بالجنينة المجاورة للجامع فجعلوا ذلك الجامع مخزنا لما يصنعونه فبقى ذلك بالمسجد وذهب الفرنسيس وتركوه كما هو وجانب كبريت فى انخاخ أيضاً فدخل رجل فلاح ومعه غلام وبيده قصبة يشرب بها الدخان وكأنه فتح ماعونا من ظروف البارود ليأخذ منه شيأ ونسى المسكين القصبة بيده فأصابت البارود فاشتعل جميعه وخرج له صوت هايل ودخان عظيم واحترق المسجد واستمرت النار فى سقفه بطول النهار واحترق الرجل والغلام.

* انفجار مخزن بارود فى جامع قايتباى بالروضة.

وفى يوم الأحد خامس عشره أشيع بأنه كتب فرمان* على النصارى أنهم لا يلبسون الملونات ويقتصرون على لبس الأزرق والأسود فقط، فبمجرد الإشاعة وسماع ذلك ترصد جماعة القلقات لمن يمر عليهم من النصارى ومن لم

* فرمان يمنع النصارى من لبس الملونات وليس القصد من ذلك الانتصار للدين بل استغنام السلب..



* الاحتفال بجبر السد فى ظل الاحتلال الفرنسى.

يجدوه بثياب ملونة يأخذوا طربوشه ومداسه الأحمر ويتركوا له الطاقية والشد الأزرق، وليس القصد من أوليك القلقات الانتصار للدين بل استغنام السلب وأخذ الثياب، ثم إن النصارى صرخوا إلى عظماهم فأنهوا شكواهم، فنودى بعدم التعرض لهم وأن كل فريق يمشى على طريقته المعتادة.

وفى يوم الاثنين طلب الوزير من التجار ماية كيس وعشرة أكياس سلفة من عشور البهار وألزمهم بإحضارها من الغد فاجتمع المستعدون لجمع الفردة فى أيام الفرنساوية كالسيد أحمد الزرو وكاتب البهار وأرادوا توزيعها على المحترفين كعادتهم، فاجتمع أرباب الحرف الدنية وذهبوا إلى بيت الوزير والدفتردار واستغاثوا وبكوا فرفعوا عنهم الطلب وألزموا بها المياسير.

الجبرتى/ سنة ١٢١٦م

وفيه قلدوا محمد أغا تابع قاسم بك موسقو الإبراهيمى وجعلوه واليا عوضا عن على أغا الشعراوى.

وفى ثامن عشرينه الموافق لثالث مسرى القبطى كان وفا النيل* المبارك، وركب محمد باشا المعروف بأبى مرق المرشح لولاية مصر فى صبحها إلى قنطرة السد وكسروا جسر الخليج بحضرته وفرق العوايد وخلع الخلع ونشر الذهب والفضة.

* احتفال وفاء النيل فى ٣ مسرى ١٥١٧ق.

وفيه عزل الوزير القاضى وهو قاضى العرضى* الذى كان ولاه الوزير قاضى العسكر بمصر نايبا عمن يول إليه القضا بإسلامبول، فلما تولى ذلك حصل منه تعنت فى الأحكام وطمع فاحش وضيق على نواب القضا بالمحاكم ومنعهم من سماع الدعاوى، ولم يجرهم على عوايدهم وأراد أن يفتح بابا فى الأملاك والعقار بقول: إنها [مصر] صارت كلها ملكا للسلطان لأن مصر قد ملكها الحربيون وبفتحها صارت ملكا للسلطان، فيحتاج أن أربابها يشترونها من الميرى ثانيا ووقع بينه وبين الفقها المصرية مباحثات ومناقشات وفتاوى وظهروا عليه، ثم تحامل عليه بعض أهل الدولة وشكوه إلى الوزير فعزله وقلد مكانه قدسى أفندى نقيب الأشراف بحلب سابقا، ونقل المعزول متاعه من المحكمة فكانت مدة ولايته خمسة عشر يوما.

* القاضى العثمانى يدعى أن مصر فتحت عنوة بالحرب على يد العثمانية وعلى أهلها أن يشتروها من السلطان.

وفى ذلك اليوم أيضًا خلع* الوزير على الأمير محمد بك الألفى فروة سمور وقلده إمارة الصعيد ليرسل المال والغلال، ويضبط مواريث من مات بالصعيد بالطاعون فبرز خيامه من يومه إلى ناحية الآثار وأسكن داره بالأزبكية ريس أفندى.

* الوزير يخلع على الأمير محمد بك الألفى ولاية الصعيد.

وفى يوم الجمعة حضر الوزير إلى الجامع المؤيد وصلى به الجمعة.

وفيه قبضوا على عرفة بن المسيرى وحبس ببيت الوزير بسبب أخيه إبراهيم كان شيخ مرجوش، وتقيد بقبض فردة الفرنسيس ثم ذهب إلى المحلة وتوفى بها، فغمزوا على أخيه عرفة المذكور وقبضوا عليه وحبسوه، وأرسلوا فرمانا إلى المحلة بضبط ماله وما يتعلق به وبأخيه عند شركاهما ثم نهبوا بيت المذكور.

وفى يوم الثلاثا رابع عشرينه طلبت ابنة* الشيخ البكرى وكانت ممن تبرج مع الفرنسيس بمعينين من طرف الوزير فحضروا إلى دار أمها بالجودرية بعد المغرب وأحضروها ووالدها فسألوها عما كانت تفعله، فقالت إنى تبت من ذلك فقالوا لوالدها ما تقول أنت؟ أقول إنى برى منها، فكسروا رقبتها، وكذلك المرأ ة التى تسمى هوى التى كانت تزوجت نقولا القبطان ثم أقامت بالقلعة وهربت بمتاعها وطلبها الفرنساوية وفتش عليها عبد العال وهجم بسببها عدة أماكن كما تقدم ذكر ذلك، فلما دخل المسلمون وحضر زوجها مع من حضر وهو إسماعيل كاشف المعروف بالشامى أمنها وطمنها*، وأقامت معه أياما فاستأذن الوزير فى قتلها فأذنه فخنقها فى ذلك اليوم أيضاً ومعها جاريتها البيضا أم ولده، وقتلوا أيضاً امرأتين من أشباههن.

* العثمانية تكسر رقبة بنت الشيخ البكرى بسبب تداخلها مع الفرنساوية وكذلك المرأة التى تسمى «هوى». (انظر كذلك ص ٦٦٠ لتتبع قصة البكرى، وص ٦١٧ لتتبع قصة المرأة «هوى»).

* لعله فعل ذلك من اجل استصفاء مالها أولاً ثم يقتلها.

وفى يوم الأربعا أرسلوا طايفة معينين من طرف محمد باشا أبى مرق إلى أخى الشواربى شيخ قليوب فأحضروه على غير صورة ماشيا مكتوفا مسحوبا مضروبا من قليوب إلى

مصر فحبسوه ببيت الوزير، ثم حضر أخوه وصالح عليه بعشرة أكياس قام بدفعها وأطلق، قيل: إن السبب في ذلك أن جماعة من أتباع محمد باشا ذهبوا إلى قليوب وطلبوا تبناً فطردهم وشتمهم وردهم من غير شي، وقيل إن ذلك بإغرا ابن المحروقي لضغين بينه وبينه قديم.

وفي آخره تحرر ديوان العشور فكان المتحصل ستة عشر ألف كيس.

وفيه تشاجر طايفة من الينكجرية مع طايفة من الإنكليز بالجيزة وقتل بينهما أشخاص فنودي على الينكجرية ومنعوا من التعدي إلى بر الجيزة.

وفيه كثر اشتغال طايفة العسكر بالبيع* والشرا في أصناف المأكولات وتسلطوا على الناس بطلب الكلف ورتبوا على السوقة وأرباب الحوانيت دراهم يأخذونها منهم في كل يوم، ويأخذون من الخابز الخبز من غير ثمن، وكذلك يشربون القهوة من القهاوي ويحتكرون ما يريدون من الأصناف ويبيعونها بأغلى الأثمان،ولا يسرى عليهم حكم المحتسب.

* احتكار العسكر العثملي للبيع والشرا بأغلى الاسعار وأذية الناس واحتلال بيوتهم بالقوة وذلك بالرغم من أن احتلال هؤلاء العسكر لمصر تم بدون حرب حقيقية فالفرنساوية سلمت لهم البلد بموجب معاهدة، فاعطى من لاحق له (الفرنساوية) مصر لمن لا يستحقها (العثمليه) فتعاملوا مع مصر بالسلب والنهب باعتبارها غنيمة لهم.

وكذلك تسلطوا على الناس بالأذية بأدنى سبب ، وتعرضوا للسكان في منازلهم فتأتي منهم الطايفة ويدخلون الدار ويأمرون أهلها بالخروج منها ليسكنوها فإن لاطفهم الساكن وأعطاهم دراهم ذهبوا عنه وتركوه، وإن عاند سبوه وضربوه ولو عظيما، وإن شكا إلى كبيرهم قوبل بالتبكيت، ويقال له ألا تفسحون لأخوانكم المجاهدين الذين حاربوا عنكم وأنقذوكم من الكفار الذين كانوا يسومونكم سو العذاب

ويأخذون أموالكم ويفجرون بنساكم وينهبون بيوتكم وهم ضيوفكم أياما قليلة ، فما يسع المسكين إلا أن يكلفهم بما قدر عليه وإن أسعفته العناية وانصرفوا عنه بأى وجه فيأتى إليه خلافهم، وإن سكنوا دار أخربوها.

* اضطهاد القلقات والينكجرية العثملية للنصارى.

وأما القلقات والينكجرية الذين تقيدوا بحارات النصارى* فإنهم كلفوهم أضعاف ما كلفوا به المسلمين، ويطلبون منهم بعد كلف المآكل واللوازم مصروف الجيب وأجرة الحمام وغير ذلك، وتسلطت عليهم المسلمون بالدعاوى والشكاوى على أيدى أوليك القلقات فيخلصون منهم ما لزمهم بأدنى شبهة ولا يعطون المدعى إلا القليل من ذلك، والمدعى يكتفى بما حصل له من التشفى والظفر بعدوه، وإذا تداعى شخص على شخص أو امرأة مع زوجها ذهب معهم أتباع القلق إلى المحكمة إن كانت الدعوى شرعية فإذا تمت الدعوى أخذ القاضى محصوله ويأخذ مثله أتباع القلق على قدر تحمل الدعوى.

واستهل شهر ربيع الثانى
بيوم الثلاثا سنة ١٢١٦

فيه أفرج عن عرفة بن المسيرى وصولح عليه بخمسة عشر كيسا، وكتب له فرمان برد منهوباته وعدم التعرض لتعلقاته بالمحلة.

وفى يوم الأربعا ثانيه أمر الوزير الوجاقلية بلبس القواويق على عادتهم القديمة، فأخبروا إبراهيم بك فقال الأمر عام لنا

ولكم أو لكم فقط؟ فقالوا لا ندرى فسأل إبراهيم بك الوزير المشار إليه، فقال له بل ذلك عام، فلما كان يوم الجمعة حادى عشره لبس الوجاقلية والأمرا المصرية زيهم من القواويق المختلفة الأشكال على عادتهم القديمة حسب الأمر بذلك. وكذلك الأمرا الصناجق وحضروا في يوم الجمعة بديوان الوزير ونظر إليهم وأعجب بهيئاتهم واستحسن زيهم ودعا لهم وأثنى عليهم وأمرهم أن يستمروا على هيئتهم ، وذلك على ما هم فيه من التفليس وغالبهم لا يملك عشا ليلته فضلا عن كونه يقتنى حصانا وشنشارًا وخدما ولوازم لابد منها ولا غنى للمظهر عنها.

وفيه حضر* جماعة من عسكر القبط الذين كانوا ذهبوا بصحبة الفرنساوية فتخلفوا عنهم ورجعوا إلى مصر.

* عودة القبط الذين ذهبوا مع الفرنساوية.

وفيه أرسلوا تنابيه للملتزمين بطلب بواقى مال سنة ثلاث عشرة وأربع عشرة، فاعتذروا بأنهم ممنوعون من التصرف، فمن أين يدفعون البواقى.

وفى يوم الخميس نبهوا على العساكر المتداخلة فى الينكجرية وغيرهم بالسفر.

وفيه كتبت فرمانات باللغة العربية بترصيف صاحبنا العلامة السيد إسماعيل الوهبى المعروف بالخشاب* وأرسلت إلى البلاد الشرقية والمنوفية والغربية مضمونها الكف عن أذية النصارى واليهود أهل الذمة وعدم التعرض لهم وفى ضمنه آيات قرآنية وأحاديث نبوية، والاعتذار عنهم بأن الحامل لهم على تداخلهم مع الفرنساوية صيانة أعراضهم وأموالهم.

* من المعروف ان الخشاب كان يقوم بنفس هذا العمل فى الديوان الذى اقامه الفرنساوية.

* دفن رمة زوجة إبراهيم بك بجوار أخيها محمد بك أبو الدهب.

وفى يوم الجمعة أحضروا رمة* زوجة إبرهيم بك وعملوا لها قبراً بجانب أخيها محمد بك أبى الدهب بمدرسته المقابلة للجامع الأزهر ودفنوها به.

* وفاة أحمد بك حسن عقب معركة له مع عرب الهنادى أثناء نقلهم معونات لعسكر الفرنساوية المحصورين باسكندرية.

وفى يوم السبت خامسه ورد الخبر بوفاة أحمد بك حسن أحد الأمرا * الذين توجهوا صحبة حسين باشا القبطان والفرنساوية، وكان القبطان وجهه إلى عرب الهنادى الذين يحملون الميرة إلى الفرنسيس المحصورين بإسكندرية وضم إليه عدة من العسكر، فحاربهم وقاتلهم عدة مرار فأصابته رصاصة دخلت فى جوفه فرجع إلى مخيمه ومات من ليلته، وكان يضاهى سيده فى الشجاعة والفروسية.

* الجبرتى يقارن بين عسف العثمليه فى جمع الأموال الميرى وما كان يفعله الفرنساوية من الانصاف فى المطالبة بهذه الاموال.

وفيه أطلقوا للملتزمين التصرف فى سنة خمس عشرة ليقضوا ما لهم وما عليهم من البواقى ومال الميرى والمضاف ويدفعوا جميع ذلك إلى الخزينة بأوراق مختومة من إبراهيم بك وعثمان بك والقصد من ذلك اطمينانهم بالجباية والرجا بالتصرف فى المستقبل ، ووعدهم بذلك سنة تاريخه بعد دفعهم الحلوان، مع أن الفرنساوية لما استقر أمرهم بمصر ونظروا فى الأموال الميرية والخراج فوجدوا ولاة الأمور يقبضون سنة معجلة* ونظروا فى الدفاتر القديمة واطلعوا على العوايد السالفة ورأوا أن ذلك كان يقبض أثلاثا مع المراعاة فى رى الأراضى وعدمه فاختاروا الأصلح فى أسباب العمار، وقالوا ليس من الإنصاف المطالبة بالخراج قبل الزراعة بسنة وأهملوا وتركوا سنة خمس عشرة فلم يطالبوا الملتزمين بالأموال الميرية ولاالفلاحين بالخراج، فتنفست الفلاحون وراج حالهم وتراجعت أرواحهم مع عدم تكليفهم كثرة المغارم والكلف وحق طرق المعينين ونحو ذلك.

وفى يوم الثلاثا ثامنه وصلت قافلة شامية وبها بضايع وصابون ودخان وحضر السيد بدر الدين المقدسى والحاج سعودى الحناوى وآخرون وتراجع سعر الصابون والقناديل الخليلى والدخان.

وفيه ورد الخبر بسفر* الفرنساوية ونزولهم المراكب من ساحل أبى قير.

* خروج الفرنساوية من أبو قير إلى بلادهم مع بقاء الفرنساوية بحصون الاسكندرية ورشيد.

وفى يوم الأحد حبس حسن أغا محرم المنفصل عن الحسبة وطولب بمايتى كيس، وذلك معتاد الحسبة فى الثلاث سنوات التى تولاها أيام الفرنساوية فإنه لما تقلد أمر الحسبة فى أيامهم منعوه من أخذ العوايد والمشاهرات من السوقة وجعلوا له مرتبا فى كل يوم يأخذه من الأموال الديوانية نظير خدمته، وكذلك أتباعه وطالبوه أيضاً بأربعة آلاف غرش كان أعطاها له نزله أمين عند حضورهم فى العام الماضى لمشتروات الذخيرة، ثم نقض الصلح عقيب ذلك وخرجوا من مصر وبقيت بذمته، فأخبر أن الفرنساوية علموا بها وأخذوها منه وأعطوه ورقة بوصول ذلك إليهم، فلم يقبلوا منه ذلك وبقى معتقلا وادعوا عليه أيضا بتركة الأغا الذى كان نزيله ومات عنده واحتوى على موجوده، فأخبر أيضاً أن الفرنسيس أخذوا منه ذلك أيضاً وأعطوه سندا فلم يقبلوا منه ذلك واستمر محبوسا.

وفى يوم الاثنين رابع عشره نودى على أن أهل البلدة لا يصاهرون* العساكر العثمانية ولا يزوجونهم النسا وكان هذا الأمر كثر بينهم وبين أهل البلد وأكثرهم النسا اللاتى درن مع الفرنساوية، ولما حضر العثمانية تحجبن وتنقبن وتوسط لهن أشباههن من الرجال والنسا وحسنوهن للطلاب

* منع العسكر العثمانية من مصاهرة أهل البلد بعد اكتشاف أن معظم هذه الزيجات كانت من المومسات اللائى تحجبن وتنقبن لترويج بضاعتهن.

ورغبوا فيهن الخطاب، فأمهروهن المهور الغالية وأنزلوهن المناصب العالية، وفى ذلك اليوم أيضا نودى على أهل الذمة بالأمن والأمان، وأن المطلوب منهم جزية أربع سنوات.

وفيه قبض على جربجى موسى الجيزاوى وعمل عليه عشرون كيسا.

وفيه قبض محمد باشا أبو مرق على مقدمه مصطفى الطاراتى وضربه علقة وحبسه وألزمه بمبلغ دراهم.

وفيه سافر الإنكليزية الذين بالجيزة والروضة إلى جهة الإسكندرية وأشيع أن الحرب* قايم بين العساكر والفرنسيس الإسكندرانية من يوم الاثنين سابعه فطلبوا المراكب حتى شح وجودها وضاق الحال بالمسافرين واستمر طلبهم ونزولهم عدة أيام وكذلك نبهوا علىّ الكثير من العساكر الإسلامية بالسفر.

* اندلاع المعارك بين الإنجليز والعسكر الفرنساوية فى الإسكندرية.

وفى يوم الخميس نقضت الأوامر بتصرف الملتزمين فى البلاد وقيدت صيارف من نصارى القبط بالنزول إلى البلاد لقبض الأموال فى غير أوانها لطرف الدولة.

وفى يوم الجمعة ثامن عشره لبس الأمرا الكبار القواويق على روسهم.

وفيه قبض من مصطفى الطاراتى المعتقل المتقدم ذكره خمسة عشر ألف ريال ولم يزل معتقلا، وقيل إنه غمز عليه فوجد له فى مكان صندوقان ضمنهما ذهب نقد عين، ومصطفى هذا كان كلارجيا عند قايد [نار] أغا حين كان


* قلعة الاسكندرية وآثارها القديمة من جهة اليابسة..

بمصر، فلما خرج الأمرا تقيد مقدما عند بونابارته ثم عند كليبر، فلما وقعت الفتنة السابقة وظهر يعقوب القبطى وتولى أمر الفردة وجمع المال تقيد بخدمته وتولى أمر اعتقال المسلمين وحبسهم وعقوبتهم وضربهم، فكان يجلس على الكرسى وقت القايلة ويأمر أعوانه بإحضار أفراد المحبوسين من التجار وأولاد الناس فيمثل بين يديه ويطالبه بإحضار ما فرض عليه مما لا طاقة له به ولا قدرة له على تحصيله فيعتذر بخلو يده ويترجى إمهاله فيزجره ويسبه ويأمر بضربه فيبطحونه ويضرب بين يديه ويرده إلى السجن بعد أن يأمر أحد أعوانه أن يذهب إلى داره وصحبته الجماعة من عسكر الفرنسيس ويهجمون على حريمه وأمثال ذلك.

وفى يوم الأحد وردت أخبار من إسكندرية بتملك العساكر الإسلامية والإنجليزية متاريس الفرنساوية وأخذهم المتاريس التى جهة العجمى وباب رشيد وجانبا من إسكندرية القديمة وتخطت المراكب وعبرت إلى المينة وأن الفرنساوية انحصروا داخل الأبراج وأخذ منهم نحو الماية وسبعين أسيرا وقتل منهم عدة وافرة ووقعت بين الفريقين مقتلة عظيمة لم يقع نظيرها، وقتل الكثير من عسكر قبطان باشا وكذلك من الإنجليز ثم انجلت الحرب عما ذكر، فلما ورد الخبر بذلك ضربوا عدة مدافع وسر الناس بذلك.

* وصول سليمان أغا صالح بك ومعه المحمل وحريمات الأمرا وجثة سيده صالح بك.
الجبرتى/ سنة ١٢١٦م

وفيه ورد الخبر * بوصول سليمان [أغا] صالح بك إلى بلبيس وصحبته المحمل والحريمات وأحضر معه رمة سيده

صالح بك ليدفنها بمصر بالقرافة، فخرج أناس لملاقاتهم وأخذوا معهم حمير مكارية لكراوى النسا وهدية.

وفى يوم الاثنين وصل سليمان أغا إلى بركة الحاج وصحبته المحمل ونسا الأمرا القادمين من الشام ومعه أيضا رمة صالح بك ليدفنها بقرافة مصر، فخرج الناس لملاقاتهم وأخذوا معهم حمير مكارية لركوب النسا وهديات ونودى فى عصريته بعمل موكب من الغد وطاف ألاى جاويش بزيه المعتاد وخلفه القابجية وهم ينادون باللغة التركية بقولهم «يارن ألاى»*، فلما أصبح يوم الثلاثا ثانى عشرينه عمل الموكب وانجر الألاى ودخل المحمل من باب النصر وشقوا به من الشارع الأعظم.

* يارن ألاى: (يارين بكسر الراء معناها الغد) والمراد هنا: غداً موكب.

وصادف ذلك اليوم يوم مولد المشهد الحسينى والأسواق مزينة وعلى الحوانيت الشقق الحرير والزردخان والتفاصيل وتعاليق القناديل، ومشى فى الموكب رسوم الوجاقلية والأوده باشية وأكثر الأمرا والمشايخ والعلما ونقيب الأشراف، ونبه على جميع الأشراف تلك الليلة بالحضور فى صبح ذلك اليوم للمشى فى ذلك الموكب، فمشى كل من كان له عمامة خضرا يكبرون ويهللون فكانوا عددا كثيرا.

وكل من وجدوه بالطريق وعلى رأسه خضار جذبوه وسحبوه قهراً وأمروه بالمشى وإن أبى ضربوه وسبوه وبكتوه بقولهم ألست من المسلمين، وكذلك تجمع أرباب الأشاير



* الاحتفال بمولد الحسين.

ومشوا على عادتهم بطبولهم وزمورهم وخباطهم وخرقهم وخورهم وصياحهم.

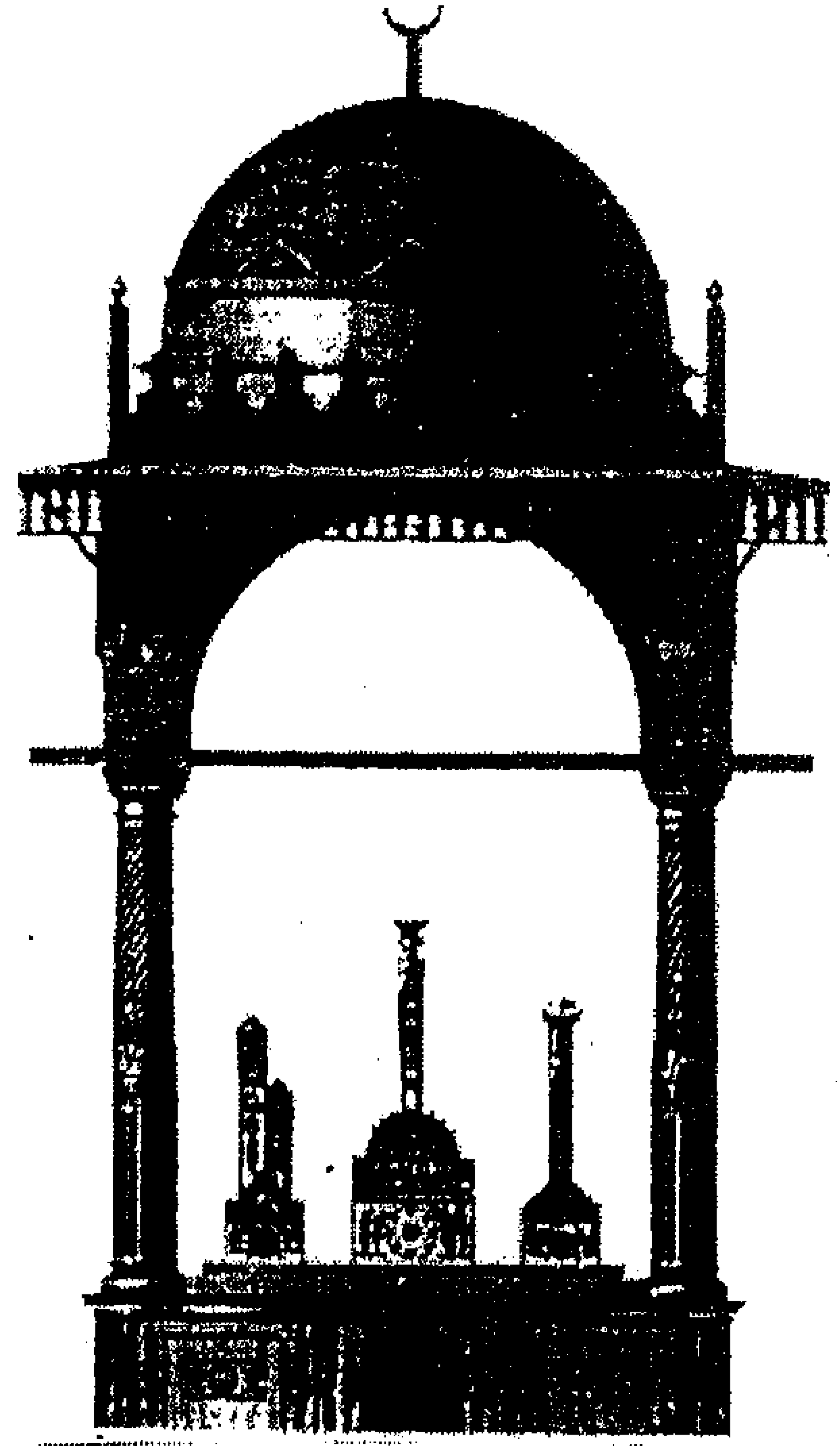
فلم يزالوا حتى وصلوا إلى قراميدان، وتسلم المحمل محمد باشا أبو مرق من سليمان أغا الذى وصل به ولكونه عوضا عن سيده أمير الحاج صالح بك ثم صعدوا به إلى القلعة وأودعوه هناك وعملت وقدة وشنك تلك الليلة.

وفى ذلك اليوم شرعوا فى فتح باب الفتوح، وكان القصد إدخال المحمل منه لضيق باب الاستثنا الثانى الذى جدده الفرنساوية عند باب النصر، فلم يتأت ذلك لمتانة البنا واستمروا ثلاثة أيام يهدمون فى البنا الذى على الباب من داخل فلم يمكن.

ودفنوا صالح بك بتربة أعدت له بقرافة المجاورين، والعجب أن الناس من القديم يثمنون أن يقبروا بالأرض المقدسة لكونها عش الأنبيا والصديقين، وهؤلا الثلاثة* بالعكس فما هو إلا لتطهيرها منهم.

وفيه ورد خبر بإسكندرية بانقضا الحرب وطلب الفرنسيس الصلح بعد وقوع الغلبة عليهم وهزيمتهم وأخذ منهم عدة أسرى وانحصروا فى الأبراج فأمنوهم وأجلوهم خمسة أيام آخرها يوم الخميس سابع عشرينه.

وفيه ألزموا حسن أغا المحتسب بالنقلة من داره وهو فى الحبس فأرسل إلى حريمه وأتباعه فانتقلوا إلى مكان آخر.



* هؤلاء الثلاثة يعنى جثة صالح بك، ومن معه. والجبرتى هنا لم يفهم معنى أن يدفن الإنسان فى وطنه.

وفيه ورد الخبر أيضاً بورود عثمان كتخدا الدولة الذى كان بمصر فى العام السابق، وباشر الحروب بمصر وصحبته آخر يقال له شريف أفندى.

وفى سادس عشرينه قدم محمد أفندى المعروف بشريف أفندى الدفتردار وقدم بصحبته عثمان كتخدا الدولة وسكن شريف أفندى بدرب الجماميز وسكن الكتخدا بمنزل حسن أغا المحتسب سابقا بسويقة اللالا.

وفى غايته عمل شنك ومدافع كثيرة وذلك لوصول خبر بتسليم الإسكندرية وسبب تأخرهم إلى هذه المدة بعد وقوع الصلح انتظار الأمر بالانتقال [الجلاء] من بونابارته، وذلك أنه لما وقع الصلح المتقدم أرسل سارى عسكر منو تطريدة إلى فرنسا بالخبر إلى بونابارته، وانتظر الجواب فورد عليه الأمر بالانتقال [الجلاء] والحضور، فعند ذلك أنزلوا متاعهم إلى المراكب وسافروا إلى بلادهم.



ملحق رقم (٢٢)
معاهدة الجلاء عن الأسكندرية

«شروط التسليم المعروضة يوم ٣٠ أغسطس سنة ١٨٠١ من عبدالله جاك فرنسوا منو القائد العام للجيش الفرنسي بالإسكندرية على قواد القوات البرية والبحرية التابعة لصاحب الجلالة البْريطانية وللباب العالي.

الشرط ١

ابتداء من اليوم لغاية ٣٠ فركتيدور (١٧ سبتمبر سنة ١٨٠١) تمتد الهدنة بين الجيش الفرنسي والجيوش الإنجليزية والتركية بالشروط المتبعة الآن وتحدد خطوط المخافر الأمامية بين الجيشين تحديداً جديداً بمقتضى اتفاق ودى يبرم بين قواد الجانبين منعاً لوقوع أى تصادم بين الجنود .

الجواب مرفوض (من الحلفاء).

الشرط ٢

إذا لم يصل المدد الكافى للجيش الفرنسى قبل الميعاد المحدد فى المادة السابقة ينسحب من الإسكندرية وقلاعها واستحكاماتها بالشروط الآتية.

الجواب مرفوض.

الشرط ٣

ترتد الجنود الفرنسية يوم ١٨ سبتمبر إلى داخل الإسكندرية والقلاع المجاورة لها، وتسلمْ إلى الحلفاء المعاقل والاستحكامات الواقعة أمام سور المدينة وكذلك قلعتى لتورك ودفيفييه وما فيها من المدافع والذخائر.

الجواب: تسلم جميع الاستحكامات وقلعتا لتورك ودفيفييه إلى قوات الحلفاء بعد التوقيع على معاهدة التسليم بثمان وأربعين ساعة أى ظهر يوم ٢ سبتمبر وكذلك يسلم ما بها من المدافع والذخائر وينسحب الجنود الفرنسيون من الإسكندرية وباقى قلاعها وملحقاتها بعد التوقيع على المعاهدة بعشرة أيام بحيث ينزل الجنود الفرنسيون فى هذا الموعد إلى السفن المعدة لرحيلهم.

الشرط ٤

كل فرد من أفراد الجيش الفرنسى أو الملحقين به من العسكريين والمدنيين وكذلك أفراد الجنود على اختلاف أجناسهم وبلدانهم وأديانهم ممن كانوا بمصر قبل مجيء الحملة الفرنسية يستبقون ممتلكاتهم وأمتعتهم وأوراقهم بحيث لا يسوغ فحصها وتفتيشها.

الجواب : مقبول ، بشرط ألا يأخذوا شيئاً من أملاك حكومة الجمهورية الفرنسية عدا المنقولات والأمتعة والأشياء الأخرى ملك الفرنسيين والتابعين لهم ممن اشتغلوا فى خدمة الجيش الفرنسى مدة ستة أشهر وكذلك الأشخاص الملحقون بخدمة الجيش الفرنسى فى الوظائف المدنية والعسكرية على اختلاف أجناسهم وبلدانهم وأديانهم.

الشرط ٥

تنزل القوات الفرنسية ومن يتبعها من الأشخاص المشار إليهم فى البند السابق إلى السفن فى ثغر الإسكندرية بين ٥و١٠ من شهر فانديمير من السنة العاشرة للجمهورية (من٢٧ سبتمبر إلى ٢ أكتوبر سنة ١٨٠١) على الأكثر بأسلحتهم وذخائرهم وأمتعتهم ومنقولاتهم وجميع ما يمتلكونه من الأوراق الرسمية والودائع، ويلحق بكل طابور وسرية مدفع من مدافع الميدان

وذخيرته، وتقلع السفن بكل ذلك إلى ميناء فرنسية بالبحر المتوسط يعينها قائد الجيش الفرنسي.

الجواب: ينزل الجنود الفرنسيون ومن يتبعهم من الجنود والأشخاص المشار إليهم في البند الرابع إلى السفن من ثغر الإسكندرية إلا إذا تم الاتفاق الودي على إقلاع جزء منهم من أبو قير، ويكون نزولهم إلى السفن عقب إعداد السفن لهم، وتتعهد دول الحلفاء بنقل الجنود في عشرة أيام بعد التوقيع على معاهدة التسليم إذا أمكن ذلك، ويؤدى إلى الجيش الفرنسى الاحترام العسكرى، ويأخذ معه أسلحته وأمتعته ولا يعتبر أفراده أسرى حرب، ويأخذ معه كذلك عشرة مدافع من عيار ٤ بوصات ومن الذخيرة ثماني طلقات أو عشر لكل مدفع إلى أحد الثغور الفرنسية بالبحر المتوسط.

الشرط ٦

تقلع السفن الحربية الفرنسية كاملة الأسلحة مع الجيش الفرنسي وكذلك السفن التجارية مهما اختلفت جنسية أصحابها ولو كانوا من رعايا الدول المعادية للحلفاء أو كانوا من التجار أو البحارة التابعين لدول الحلفاء قبل مجىء الحملة الفرنسية بحيث تعاد السفن الحربية إلى الحكومة الفرنسية وتعاد السفن التجارية لأصحابها.

الجواب: مرفوض وتسلم جميع السفن إلى الحلفاء بالحالة التى هى عليها.

الشرط ٧

كل سفينة فرنسية تصل الإسكندرية ابتداء من اليوم لغاية ٣٠ فركتيدور (١٧ سبتمبر) قادمة من ثغور فرنسا أو حلفائها تسرى عليها أحكام هذه المعاهدة، والسفن الحربية أو التجارية التابعة لفرنسا أو حلفائها التى تصل فى مدة العشرين يوماً التالية للجلاء عن المدينة لا تعتبر غنيمة حربية بل يطلق سراحها هى وركبها وحمولتها وتعطى جواز مرور من الحلفاء.

الجواب مرفوض.

الشرط ٨

الجنود الفرنسيون والموظفون العسكريون والمدنيون التابعون للجيش وجميع الأشخاص المنوه عنهم فى البنود السابقة يبحرون على ظهر السفن الفرنسية الراسية فى ثغر الإسكندرية إذا كانت صالحة للسفر أو على السفن الإنجليزية أو التركية المحددة بالبند الخامس.

الجواب: يختار الأميرال الإنجليزى ما يشاء من هذه السفن.

الشرط ٩

يعين مندوبون من الجانبين لوضع نظام النقل من جهة عدد السفن اللازمة، ومقدار حمولتها من الرجال وبالجملة تسوية كل ما يمكن أن ينشأ من الصعوبات فى تنفيذ هذه المعاهدة ويعهد إلى هؤلاء المندوبين تحديد مواقع السفن الموجودة فى الميناء والسفن التى يقدمها الحلفاء بحيث تكون الوسائل التى تتبع كافية لمنع وقوع أى نزاع بين البحارة المختلفة أجناسهم.

الجواب: كل هذه التفاصيل تعهد تسويتها إلى الأميرال الإنجليزى وإلى ضابط بحرى فرنسى يختاره القائد العام للجيش الفرنسى.

الشرط ١٠

التجار وأصحاب السفن على اختلاف أجناسهم وأديانهم وكل من يرغب من سكان مصر أو من رعايا البلاد المقيمين الآن فى الاسكندرية كالسوريين والاقباط والعرب واليهود إلخ فى مصاحبة الجيش الفرنسى فى رحيله يركبون السفن مع الجنود الفرنسية وتسرى عليهم المزايا المقررة للجيش الفرنسى ولهم الحق فى أن يأخذوا معهم ما شاءوا من أموالهم من أى نوع كانت وأن يوكلوا من شاءوا فى التصرف فيما لا يستطيعون نقله وتحترم تصرفاتهم ومعاملاتهم والعقود الصادرة منهم بشأن ممتلكاتهم ويضمن قوات الحلفاء نفاذها، والذين يفضلون منهم البقاء فى مصر فترة من الزمن لتسوية معاملاتهم يسمح لهم بذلك ويكونون مشمولين بحماية الحلفاء، أما الذين يؤثرون الإقامة فى مصر إلى ما شاء الله فيتمتعون بكافة الحقوق والمزايا التى كانت لهم قبل الحملة الفرنسية.

الجواب: جميع المتاجر التى توجد فى الإسكندرية أو على ظهر السفن الراسية فى الميناء تسلم مؤقتاً إلى الحلفاء إلى أن يبت فى شأنها طبقاً للقواعد المرعية ولأحكام القوانين المتبعة بين الدول ولمن يشاء من الأفراد أن يصحبوا الجيش الفرنسى أو يبقوا فى مصر فى أمن وطمأنينة.

الشرط ١١

لا يضارّ من سكان مصر أو من رعايا أمة أخرى مهما كان مذهبه بسبب مسلكه مدة الاحتلال الفرنسى وخاصة لمحاربته فى صفوفهم أو استخدامهم إياه.

الجواب : مقبول.

الشرط ١٢

مؤونة الجنود والملحقين به فى البحر لغاية الوصول إلى فرنسا تكون على نفقة الحلفاء وطبقاً للوائح البحرية الفرنسية وعلى الحلفاء أن يقدموا كل ما يلزم لتسهيل النزول إلى السفن.

الجواب : مؤونة الجنود ومن يركب السفن معهم تكون على حساب الحلفاء لغاية بلوغهم فرنسا وتتبع فى ذلك القواعد المرعية فى البحرية البريطانية.

الشرط ١٣

القناصل والممثلون للدول المتحالفة مع فرنسا وكذلك الموظفون القنصليون التابعون لتلك الدول يستمر تمتعهم بالمزايا والحقوق المخولة لموظفى السلك السياسى طبقاً للقواعد المتبعة بين الدول المتمدنة وتكون أملاكهم ومنقولاتهم وأوراقهم موضع الرعاية والاحترام فى كفالة دول الحلفاء ولهم الحرية فى أن يرحلوا أو يبقوا فى البلاد كما يشاءون.

الجواب: للقناصل ولباقى الموظفين القنصلين التابعين لحلفاء الجمهورية أن يرحلوا أو يبقوا فى البلاد حسبما يرغبون وتحفظ لهم أملاكهم ومنقولاتهم على اختلاف أنواعها ، وكذلك أوراقهم ماداموا يسيرون سيرة صادقة ويتبعون القواعد المقررة فى القانون الدولى.

الشرط ١٤

المرضى الذين تقرر اللجان الصحية للجيش أن فى استطاعتهم السفر يركبون السفن مع باقى الجنود، وتخصص لهم سفن مستشفيات تتوافر فيها الأدوية الكافية والأغذية وكل ما يلزم للمرضى

ويتبعهم صيدليون فرنسيون، أما المرضى الذين لا تسمح حالتهم بالسفر فيبقون فى رعاية دول الحلفاء، وعنايتهم ويبقى معهم بعض الأطباء الفرنسيين، وتخصص لهم رسائل العناية الكافية وتكون نفقاتهم على حساب دول الحلفاء، وعلى هذه الدول أن تبعث بهم إلى فرنسا عندما تسمح لهم صحتهم بالسفر، ولهم أن يأخذوا معهم كل ما يملكون من المنقولات طبقاً للقاعدة المتبعة بالنسبة لباقي الجنود.

الجواب : مقبول وتعد بعض السفن لتكون مستشفيات ينتقل إليها الجنود الذين يطرأ عليهم المرض فى مدة السفر وعلى اللجان الصحية لجيوش الطرفين أن تتفق على الوسائل الواجب اتخاذها بالنسبة للمرضى المصابين بأمراض معدية بحيث يمنع اتصالهم بباقى الجنود.

الشرط ١٥

تخصص بعض سفن النقل لحمل الخيول بحيث تسع كل سفينة ستين جواداً والعلف الكافى لهذه الجياد مدة السفر.

الجواب: مقبول.

الشرط ١٦

يحق لأعضاء المجمع العلمى المصرى ولجنة العلوم والفنون أن يأخذوا معهم جميع الأوراق والرسوم والمذكرات ومجاميع التاريخ الطبيعى وجميع آثار الفنون والعاديات القديمة التى جمعوها فى مصر.

الجواب : أعضاء المجمع لهم أن يأخذوا معهم جميع الآلات الفنية والعلمية التى جاءوا بها من فرنسا، ولكن المخطوطات العربية والتماثيل وباقى المجاميع التى جمعت للجمهورية الفرنسية تعتبر من الأملاك العامة ومن ثم تسلم لقواد الحلفاء.

(وقد اعترض الجنرال منو على هذا التعديل ولكن الجنرال هوب صرح أنه لا يمكن العدول عنه واتفق القائدان على عرض الأمر على القائد العام للجيش الإنجليزى).

الشرط ١٧

مراكب النقل التى ستخصص لنقل الجيش الفرنسى ومن يتبعه تسير بحراسة السفن الحربية التابعة للحلفاء وتتعهد هذه الدول أن لا تضار هذه المراكب مدة سفرها، أما المراكب التى قد تنفصل عن عمارة النقل بفعل العواصف أو لأى حادثة ما فعلى قواد الحلفاء أن يضمنوا سلامتها، وعلى المراكب التى تنقل الجيش الفرنسى ألا ترسوا بأى شاطىء غير شواطىء فرنسا ما لم تقض بذلك الضرورة القصوى.

الجواب: مقبول، وعلى القائد العام للجيش الفرنسى أن يتعهد من ناحيته أن لا تضارّ أى سفينة من سفن الحلفاء أثناء إقامتها فى فرنسا أو فى عودتها وأن تتزود فى فرنسا بكل ما يلزمها طبقاً للعرف التجارى بين الدول الأوروبية.

الشرط ١٨

عندما تسلم القلاع والاستحكامات طبقاً لنص الشرط الثالث يصير إطلاق سراح الأسرى من الجانبين.

الجواب : مقبول.

الشرط ١٩

يعين مندبون لتسلم المواقع الموجودة فى المدينة والقلاع وكذلك الذخائر والمخازن والمدافع والأشياء

الأخرى التى تترك للحلفاء وتحرر قوائم بكل ذلك يوقع عليها مندوبون من الطرفين كما يجرى تسليم القلاع والمخازن للحلفاء.

الجواب: مقبول ، وعلى الفرنسيون تسليم الخرط المحتوية على تخطيط مواقع الإسكندرية وقلاعها وتخطيط مدن القطر المصرى إلى المندوبين الإنجليز، وتسلم البطاريات والثكنات والمبانى العامة الأخرى بالحالة التى هى عليها الآن.

الشرط ٢٠

يعطى جواز سفر لسفينة حربية فرنسية تبحر إلى طولون بعد تسليم المدينة وقلاعها تقل الضباط الذين يعهد إليهم القائد العام للجيش الفرنسى إبلاغ نبأ هذه المعاهدة إلى الحكومة الفرنسية.

الجواب : مقبول ولكن إذا كانت السفينة فرنسية فلا تكون مسلحة.

الشرط ٢١

عند تسليم القلاع والاستحكامات المنوه عنها فى المواد السابقة يجرى تبادل الرهائن من الجانبين لضمان تنفيذ هذه المعاهدة ويختارون من بين ضباط الجيش من مرتبة واحدة بحيث يكون عددهم أربعة من ضباط الجيش الفرنسى واثنين من ضباط الجيش الإنجليزى واثنين من الجيش التركى وينزل الضباط الإنجليز والترك بإحدى السفن المقلة للقائد العام أو نواب القائد العام للجيش الفرنسى، ويجرى تبادل أولئك الضباط عند وصولهم إلى فرنسا.

الجواب: يسلم القائد العام للجيش الفرنسى أربعة ضباط كرهائن أحدهم من ضباط البحرية الإنجليزية والثانى من الجيش الإنجليزى والثالث والرابع من الجيش التركى وعلى القائد العام للجيش الفرنسى أن يسلم قائد الجيش الإنجليزى أربعة ضباط من مرتبة الضباط المذكورين وتسلم الرهائن وقت نزول الجنود إلى السفن.

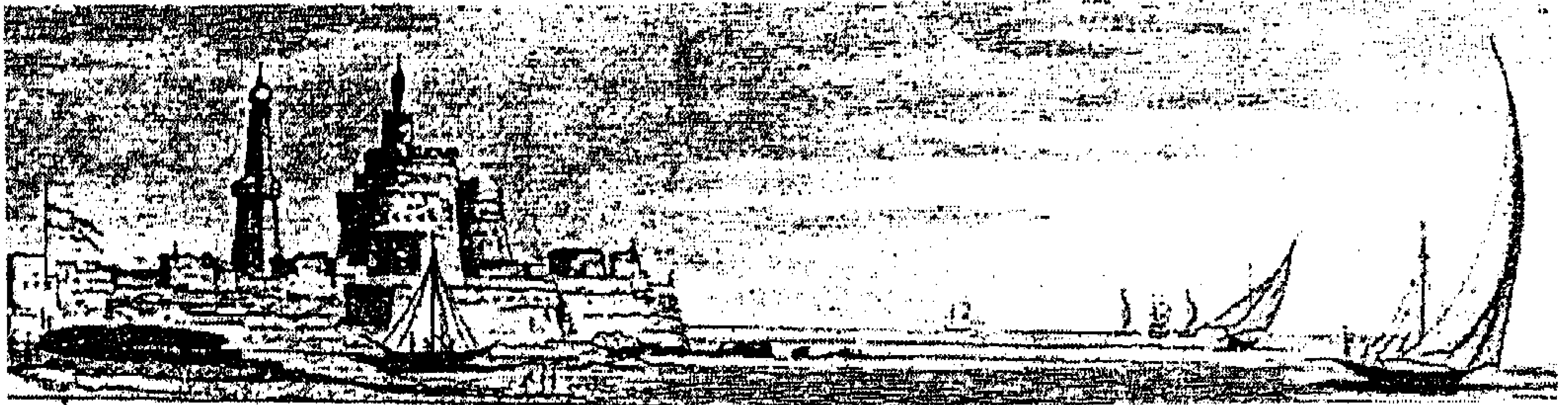
الشرط ٢٢

إذا قام أى خلاف أثناء تنفيذ هذه المعاهدة فيحسم بالطرق الودية على يد مندوبين من الطرفين.

الجواب: مقبول.

توقيعات: هلى هتشنسون لفتننت جنرال قائد عام، حسين قبطان باشا، عبدا جاك فرنسوا منو القائد العام للجيش الفرنسى، جمس كمت Kempt لفتننت كولونل وسكرتير.

* * *



ملحق رقم (٢٣)
الجبرتي والفرنسيس

فوجيء الجبرتي، مثل سكان مصر على اختلاف طوائفهم، بقدوم الحملة الفرنسية الفرنسي. فلم يكن لدى أحد منهم صورة واضحة عن الأحوال السياسية والحضارية السائدة في أوربا في ذلك الوقت، ولم يختلف أمراء المماليك في ذلك عن عامة الناس، برغم أن شئون الحكم كانت تقتضي منهم التعرف على أحوال العالم الخارجي . ولا أدل على ذلك من التعليق الذي صرح به مراد بك عند سماعه بنزول الفرنسيين الى الاسكندرية ، فقال ما معناه: «لا ينبغي أن نخاف شيئا وسنطأ الفرنسيين بسنابك الخيل» . كذلك يمكن استنتاج تلك الصورة المشوشة عن الفرنسيين من طريقة تعريف الشيخ عبد الله الشرقاوي بهم، حيث يقول : «وحقيقة حال الفرنساوية الذين حضروا الى مصر أنهم من الفلاسفة الاباحية الطبائعية، يقال لهم نصارى قاثولقية يتبعون عيسى عليه السلام ظاهرا وينكرون البعث والدار الاخرة».

وقد يتساءل المرء كيف انعدمت معرفة المصريين بالأوربيين في حين أن التجار الأجانب كانوا نشيطين في القاهرة، لدرجة أن الحجة التي كان يرددها بونابرت في منشوراته لتبرير الحملة، استندت إلى أنها جاءت لانقاذ التجار الفرنسيين من ظلم المماليك لهم. والواقع أن التجار الأوروبيين فضلا عن قلة عددهم - عاشوا بمعزل عن المجتمع الاسلامي، بل كانوا يتزيون بزي الاتراك.

كما أن اختلاف الدين كان يقف حينئذ حاجزا في سبيل الاختلاط الاجتماعي أو الثقافي.

ولا شك أن المجهول يثير دائما الشعور بالخوف، ولهذا فقد ذعر أهل القاهرة ذعرا شديدا حينما علموا بأن القاهرة ستستباح، كما كانت تستباح المدن في الماضي وعلى يد العثملية، وأن الناس سوف يؤخذون أسرى أو أرقاء. ويبدو أن المنشور الذي وزعه بونابرت لم يحدث الأثر المرجو منه. وهو طمأنينة الناس، أما بسبب انتشار الأمية، أو لأن أسلوبه كان غامضا لاختلاف المفاهيم المتداولة، أو لأن الناس لم يقتنعوا بأن الفرنسيين (يحبون المسلمين). وسيعبر الجبرتي أصدق تعبير عن هذا التشكك في الوعود والأفكار التي تضمنها المنشور. ولم يختلف مؤرخنا عن عامة الناس في الشعور بهذا الذعر، فغادر مع الذين غادروا القاهرة، وذهب هو الى مزرعته في ابيار قرب كفر الشيخ ، ولم يلبث أن عاد مع معظم السكان، عندما تبينوا أن الفرنسيين لم يصيبوا الناس في أرواحهم أو أموالهم. وعلى العكس، يسجل الجبرتي أعمال السلب والنهب التي تعرض لها النازحون من القاهرة، ويصف كيف استغل العرب هذه الفرصة ليسطوا على كل ما وقع في أيديهم، حتى في مواقع قريبة من المدينة، وقد كان الأمن الذي أحس به المصريون فرصة للانفتاح على الوافدين الجدد، والاحتكاك بهم ، لولا أن ثورة القاهرة التي هبت بعد أقل من ثلاثة أشهر جعلت كل فريق يتحفظ من الآخر ويتشكك في نواياه.

ورغم ذلك، فان الجبرتي لم ينقطع طوال مكوث الفرنسيين في مصر عن تسجيل أعمالهم، بل لعله كان من أكثر علماء الأزهر دقة في ملاحظته لعادات الفرنسيين وطرائفهم في الحياة اليومية.

وفى رأينا أن تصويره للجانب الاجتماعى من الحملة الفرنسية يفضل كثيرا فهمه للجوانب السياسية، وخاصة اذا كانت تتعلق بالعالم الخارجى، كما أن الملاحظات الاجتماعية تشكل أكثر الموضوعات طرافة فى كتابى «عجايب الآثار» و «مظهر التقديس» ، نظرا إلى أن مؤرخى العصر لم يهتموا بتسجيل هذه النواحى ، لذا رأينا أن نقسم بحثنا إلى قسمين : الأول : يدور حول مواقف الجبرتى من الأحداث السياسية التى اقترنت بالحملة الفرنسية. ويختص القسم الثانى: بملاحظته عن الحياة الاجتماعية ومدى فهمه لها، والأسباب التى حالت دون احتكاك ثقافى أكثر عمقا بين الفرنسيين وسكان مصر.

أن أول موقف يمكن تسجيله للجبرتى من الحملة ، يتضح من تعليقاته على المنشور الذى وزعه بونابرت على نطاق واسع محاولا أن يقنع بواسطته المصريين أن الفرنسيين أتوا لتخليص البلاد من حكم المماليك الجائر، وفى الوقت نفسه تظاهر المنشور بصداقة الفرنسيين للسلطان العثمانى، وأنهم يعملون على تحقيق العدل والمساواة بين السكان. ولعل أكثر الموضوعات التى أثارت تشكك الجبرتى فى الفرنسيين، هى ادعاؤهم بأنهم مسلمون أو محبون للاسلام، وقد كانت حجة المنشور فى ذلك، هى أن الفرنسيين قبل مجيئهم الى مصر شنوا حملة على مملكة البابا فى روما، تلك المملكة التى كثيرا ما حثت الدول الأوروبية – وفرسان مالطة على وجه الخصوص – لشن الحرب على المسلمين وحملهم أسرى الى الجزيرة وقد أطلق الفرنسيون هؤلاء الأسرى عند نزولهم فى مالطة فى الطريق الى مصر.

وهذه الوقائع صحيحة كما هو معروف، وهى ترجع الى أن أثر الفكر العلمانى الذى خلفته الثورة الفرنسية كان لا يزال قويا، ولذلك لم تصطبغ الحملة الفرنسية بصبغة دينية، بخلاف ما سيحدث عند غزو الجزائر فى ١٨٣٠، حينما يعتبر نجاح الحملة فى ذلك الوقت انتصارا للمسيحية على الاسلام، نظرا للطابع الكاثوليكى الذى ساد حكومة شارل العاشر. وتمشيا مع هذه الروح العلمانية، لم تصطحب حملة بونابرت معها رجال دين.

ولكن ذلك كله لم يكن ليؤثر فى المصريين، لأن القضية ليست مجرد موقف دينى، بل أن الاختلاف التام فى التراث الحضارى والعادات والتقاليد، جعل من المستحيل على المصريين أن يثقوا أن الفرنسيين مسلمون.

وقد تعجب الجبرتى من تضمن المنشور لعبارة «لا اله الا الله لاولد له» لأنه يعلم أن الفرنسيين يدينون بالمسيحية، وان المسيحيين يقولون ببنوة المسيح. ولم ينخدع صاحبنا بادعاء التحالف مع الدولة العثمانية أيضا. فانتهز أول فرصة – وذلك عند خلع الفرنسيين لقاضى القضاة التركى –ليثبت كيف أن هؤلاء هم خصوم الدولة العثمانية. وأكثر من ذلك فانه لا يتقبل فكرة التسوية التى تحدث عنها المنشور، يقول وأن الله قد خلق الناس بعضهم فوق بعض درجات ، ومضى فى التعليق على المنشور بقوله : «باسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك فى ملكه»

فى ذكر هذه الجمل الثلاث اشارة الى انهم موافقون الى الملل الثلاث، ومخالفون لهم بل

وبجميع الملل، موافقون للمسلمين فى ذكر التسمية ، ونفى الولد والشريك، ومخالفون لهم فى عدم الاتيان بالشهادتين وصحة الرسالة ، ورفض الأقوال والأفعال الشرعية المعلومة من الدين بالضرورة. وموافقون للنصارى فى غالب أقوالهم وأفعالهم، ومخالفون لهم فى القول بالتثليث وجحد الرسالة أيضا ورفض ديانتهم وقتل القسوس، وهدم الكنائس ، وموافقون لليهود فى التوحيد، فان التوحيد لا يقوله اليهود بالتثليث، وانما هم مجسمه مخالفون لهم فى ديانتهم ، والذى تحرر من عقايدهم انهم لا يتفقون على دين، ولا يتفقون على ملة، فكل واحد منهم ينحو دينا، يخترعه بتحسين عقله ومنهم الباقى على نصرانيته المتكتم لها، وفيهم فرق اليهود الحقيقيين، ولكن كل ذى دين فهو سائر مصر عليه، موافق للجمهور فى ضلالهم المصريين عليه.

يلاحظ اذن أن الحوار فى الشئون الدينية يشغل اهتمام صاحبنا أكثر من أى شىء آخر، علما بأن المنشور تضمن كثيرا من الأفكار التى كانت تستحق المناقشة، فالمؤلف لا يدافع عن المماليك – كما سيفعل عندما يتناول عصر محمد على – والأرجح أن معلومات الجبرتى عن بابوية روما وفرسان مالطة، تكاد تكون منعدمة، ولهذا السبب نفسه لم يقدم للحملة الفرنسية بذكر شىء عن خط سيرها، أو معلومات عن البلاد التى خرجت منها، وهو يختلف فى ذلك عن كاتب آخر معاصر هو نقولا الترك، اذ قدم مذكراته عن الحملة (انظر هذه المذكرات فى ملاحق آخر الكتاب) الفرنساوية بلمحة سريعة عن التطورات التى حدثت فى فرنسا من الثورة الى قيام الحملة. وغلبة الفكر الدينى ظاهرة عامة لا ينفرد بها الجبرتى، وهى تبرز مرة أخرى عندما يعلق مؤرخنا على نهاية حوادث سنة ١٢١٣، فيذكر أن من أشنع ما حدث فى ذلك العام هو انقطاع الحج، فهو أخطر فى نظره من احتلال مصر. وقد عرف الفرنسيون سيطرة الفكر الدينى على الناس، ولذلك حرصوا على أن يضمنوا المناشير – التى كانوا يوزعونها فى كل مناسبة بقصد اقرار الأمن – آيات قرآنية وعبارات دينية أخرى تحض على الاستسلام للقضاء والقدر.

ولا يقتصر هذا الاسلوب المحافظ فى معالجة القضايا المحلية، بل نرى صاحبنا حين يتحدث عن احتفال الفرنسيس بذكرى قيام الجمهورية – يستنكر عليهم قتل سلطانهم ، فيقول : « وسبب هذا العيد أنهم لما قتلوا سلطانهم وظهرت بدعتهم التى ابتكروها وخرجوا بها عن الطرايق والملل جعلوا ذلك اليوم عيداً وتاريخا».

كيف واجه الجبرتى مشروع اقامة ديوان فى مصر؟ من المعروف أن الديوان كان ينقسم الى قسمين: الديوان الخصوصى ويتألف من بعض كبار المشايخ، والديوان العمومى ويتألف من أصحاب الحرف والتجار، وتمثل فيه الطوائف الدينية غير الإسلامية. وكان من المفترض أن يرحب الجبرتى باشراك العلماء فى السلطة، غير أنه توجس خيفة من أن يكون الهدف هو اصدار التشريع حسب العقل البشرى، ولكنه يضيف ان استشارة العلماء كانت بها رحمة بالمصريين. أما وجه الاعتراض الثانى على الديوان، فهو أن السوقة لا تهاب هذه الطبقة. فبعد أن تحدث عن دعوة الفرنسيين للمشايخ لتكوين الديوان ، روى كيف أن هؤلاء

عرفوا الفرنسيين «ان سوقة مصر لا يخافون الا من الآتراك [المماليك] ولا يحكمهم سواهم وهؤلاء المذكورون من بقايا البيوت القديمة».

ولا نكاد نلمس فى كتابات الجبرتى صورة لنشاط ديوان المشايخ، وربما يرجع ذلك الى أنه كان مجرد ديوان استشارى، وليس هيئة نيابية أو حتى نواة لهذه الهيئة ، كما صور ذلك بعض الكتاب المحدثين، وربما يرجع السبب أيضا الى أن هذا الديوان قد توقف بعد ثورة القاهرة الأولى. وعلى العكس نجد صاحبنا يسجل الاجراءات الإدارية والقضائية والقضايا التجارية ومسألة الضرائب، وهى أمور كان يختص بها الديوان الثانى، وفى اعتقادنا أن الجبرتى وقف موقفا عدائيا من كل هذه الاجراءات ، لأنه بحكم تكوينه الثقافى وانتمائه الاجتماعى الى طبقة الملتزمين، كان يبغض تدخل الادارة فى حياة الناس اليومية عامة والاقتصادية بصفة خاصة، وهذا ما يجعله معاديا لأية ادارة عصرية، كما يتضح ذلك من موقفه ازاء اجراءات محمد على.

على أنه يجب الاعتراف من جهة أخرى، بأن قيادة الحملة أخذت ترهق الأهالى بالضرائب والغرامات، منذ أن تحطم الأسطول الفرنسى فى أبو قير وانقطعت الصلة بفرنسا، فاعتمدت الحملة على موارد محلية، ومن ثم فقد نشأت أسباب فعلية للسخط.

ومهما قيل عن اعجاب الجبرتى بالفرنسيين فى بعض المجالات، فانه ظل من الناحية السياسية يسلم بشرعية الحكم العثمانى المملوكى، فهو يستخدم أحيانا وصف المسلمين للدلالة على الجيوش العثمانية التى قدمت من الشام، أو التى نزلت فى أبو قير. كما يعبر عما أصاب المصريين من حزن كلما سمعوا عن انتصارات الفرنسيس ابان مسيرة بونابرت نحو الشام. ثم اشتد حزنهم حينما رأوا الأسرى العثمانيين الذين أخذوا فى موقعة أبى قير البرية وطوف بهم فى شوارع القاهرة. ولعل هذا من بين الأسباب التى جعلت صاحبنا يغفل دور الانجليز فى فك حصار عكا. وان كنا لا نستطيع الجزم بهذا الرأى، فمن المحتمل جدا أن تكون قلة الدراية بالشئون الخارجية هى سبب هذا الاغفال.

ومما ساعد على ضعف هذه الدراية، أن الفرنسيين أنفسهم حرصوا على تكتم جميع الأخبار التى تشير الى هزائمهم فى الخارج، الا أنه كان من الصعب اخفاء هزيمة بونابرت أمام عكا، لذلك لم يكن بوسع المصريين سوى اظهار السرور عند رؤية الجيش الفرنسى يرتد الى مصر مدحورا، وكثر الحديث فى هذا الشأن بين العامة، فوزع الفرنسيون منشورات تحذر المصريين من الخوض فى هذا الموضوع والا تعرضوا لأشد العقوبات.

ومما يؤكد تسليم الجبرتى بشرعية الحكم العثمانى، أنه شارك فى استنكار تولية بونابرته للشيخ أحمد العريشى فى منصب قاضى قضاة مصر . ولم يقتنع بحجة بونابرت بأنه من الأفضل اختيار أحد الوطنيين العارفين باللغة العربية، وأدرك بحصافته كيف أن القضية لا تعنى تمصير الوظائف بقدر ما ترمز الى تأكيد السيادة الفرنسية، اذ تمسك بونابرت بأن يصدر بنفسه قرار تعيين العريشى فى المنصب الجديد. وفى ذلك يقول «فلما انفسحت له – يعنى بونابرت – المدة وخفت عنه الشدة وعدم المعارضة وصار جواد فساده بأرض مصر راكضا أظهر العداوة للدولة العلية أبقاها الله بعد كتمانها» وكان ذلك تعليقا على قول بونابرت

«وكذلك مرادى أن حضرة الشيخ العريشى الذى اخترتموه جميعا أن يكون لابسا من عندى وجالسا من عندى».

ولا يتناقض هذا الموقف فى رأينا مع الحكم السيىء الذى اشتهر به الجبرتى ازاء الذين قاموا بثورتى القاهرة ضد الفرنسيين، فالذى يأخذه هو عدم الاستعداد وافتقاده القيادة واندساس جماعات السلب والنهب بينهم، وهو يرى أن من يريد أن يتصدى بالثورة، فعليه أن يكون مثل التاجر الذى لا يخاطر بالمعركة الا اذا تأكد من الكسب.

لم يقتنع الشيخ عبد الرحمن بتظاهر بونابرت بالاسلام، ولكن يبدو أنه كان أقل بغضا له منه لخلفه كليبر، فقد ذكر عن هذا الأخير أنه أقل بشاشة فى وجوه المصريين. ولما حل مينو فى قيادة الحملة وفتح الباب على مصراعيه لاحتكاك أقوى بين المصريين والفرنسيين، وأمام أجهزة الحكم الوطنى، سار الجبرتى فى هذا التيار، واختير عضوا فى الديوان الجديد، مع صديقه الشيخ اسماعيل الخشاب الذى عين كاتبا أو سكرتيرا للديوان. ولاشك أن بروز مؤرخنا الى مسرح القيادة العليا قد أتاح له فرصة للتعرف على أحوال الفرنسيين بصورة أدق، ولذا سنجده يتطرق الى بعض الأحداث الدولية التى وقعت أثناء عضويته فى الديوان، بخلاف الفترة السابقة. الا أنه قبل أن نصل الى هذه النقطة، ينبغى أن نتساءل : لماذا اختار الفرنسيون الجبرتى كأحد الأعضاء التسعة الذين كونوا الديوان، هل كان ذلك لما عرفوه عنه من انتقاد للقائمين بالفتنة فى القاهرة؟ أم لأنه كانت له صلات شخصية ببعض قادة الفرنسيين؟.

يلاحظ أن الجبرتى لم يسجل فى أى من كتابيه وقائع تدلل على أنه اتصل بشخصيات فرنسية، وهو يختلف فى ذلك مثلا عن الشيخ حسن العطار، الذى تغزل فى بعض أشعاره بأصدقائه من الفرنسيين، ويسجل الجبرتى على العكس من ذلك أن بونابرت ،وكليبر كانا يترددان على بيوت الشرقاوى والسادات «والتعشى عندهم»، ونجده على العكس يتحاشى أى ذكر لصلات نشأت بينه وبين الفرنسيين، حتى انه حين عدد أسماء أعضاء الديوان لم يذكر اسمه نصا، بل قال : «وكاتبه»، مما يوحى بنوع من الاحساس بالحرج، كما أنه تجنب الاشارة الى أى موقف اتخذه فى المناقشات التى دارت فى الديوان والتى روى طرفا منها.

ولذا فنحن نرجح أن يكون الفرنسيون قد اختاروه بعد أن عرفوا رأيه فى استنكار الفتن. والواقع أن الجبرتى لم يكن منفردا بين شيوخ الأزهر بهذا الموقف، فالكثيرون كانوا مقتنعين بأن المداراة هى خير أسلوب يتبع من الغزاة الذين لا قبل للمسلمين بمحاربتهم. وكان بونابرت يعرف عن معظمهم هذه الحقيقة، ولذلك فانه عند مغادرته مصر قال فى تعليماته : «واستوصوا بالمشايخ خيرا فانهم أناس متعصبون لكنهم هيابون».

ومن هذا المنطلق أيضا، يمكن معرفة السبب الذى وجهت من أجله رسالة هامة الى بونابرت ، بمناسبة توليه القنصلية ، وقد بعث بها أعضاء الديوان – وكان الجبرتى أحد الموقعين عليها – فيغتنم الأعضاء هذه الفرصة ليؤكدوا ولاءهم، واستعدادهم لربط مصر مع فرنسا بشكل ما من أنواع الارتباط، دون أن يدركوا بطبيعة الحال المفاهيم التى نعرفها الآن عن النظم الاتحادية. لذا

قد يكون من المفيد نقل بعض فقرات هذه الرسالة على علاتها:

« ونحن اذا قلنا ان المصريين يؤلفون مع الفرنسيون أمة واحدة لأصبنا فى هذا القول كبد الحقيقة ويرجع الفضل فى توثيق عرى هذا لاتحاد يوما بعد يوم الى ما أبداه من عناية فائقة بأمر هذا التآلف صديقنا عبدالله منو صاحب الصيت الذائع والمقام الرفيع الذى حباه المولى بالحكم وسداد الرأى. رعاه الله بعين عنايته وأثابه خيرا على ما يفيض به من رأفة وحنان». وشكر العلماء المولى سبحانه وتعالى الذى ألهم بونابرت اختيار عبد الله منو حاكما على مصر، ثم قالوا فى ختام رسالتهم : «ونحن انما نطلب اليكم ألا تغفلوا أمر مصر فيسدل النسيان عليها حجابا ذلك أن مصر هى بلادكم ولا شك فى أن شرف عاصمتها هو شرفكم وأما أهلها فهم يكنون لكم كل محبة وتقدير ويترقبون عودتكم اليهم بفارغ الصبر، ان الدين الاسلامى الذى ظفر بتقديركم ليدعوكم الى المجىء الى هذه البلاد مرة أخرى ولقد وعدتم أنتم بذلك فلا تخلفوا وعدكم ولن يطول الأمر على تمام الاتحاد بين الأمتين فلا مناص عن حدوث ذلك فى يوم قريب وأن هذا اليوم آت لا ريب فيه لأن المولى عز وجل قد أدرك ذلك ولا مناص عن تنفيذ إرادته».

ورد نص هذه الرسالة فى الصحيفة التى كانت تصدرها قيادة الحملة باسم بريد مصر. ورغم أن الجبرتى اشترك فى توقيعها كما ذكرنا فاننا لا نجد للرسالة أثرا فى حولياته. وعلى العكس، يسجل بعض المناقشات التى دارت فى الديوان بعد ذلك، ويتضح منها كيف أن مشايخ الأزهر صاروا أكثر تقبلا للاجراءات الفرنسية عن ذى قبل، ولعل ذلك من أثر طول المعايشة. فمثلا، حينما طلب الى أعضاء الديوان تخصيص سجل للوفيات، اقترحوا اضافة سجل للمواليد والزيجات أيضا، لأن ذلك يساعد على ضبط المواريث والعدة للمطلقات، مما يتمشى مع عادات البلاد وتقاليدها التى تأبى ترك النساء الأرامل بدون زواج جديد.

وفى الحقبة الأخيرة من وجود الفرنسيين بمصر، ونتيجة لتحرج مركزهم ، صاروا يعرضون على الديوان تطور الأحداث فى أوروبا ، فبمناسبة إطلاق بعض المدافع فى القاهرة سأل الأعضاء عن السبب، فقيل لهم: إن ذلك احتفال بمناسبة انتصار فرنسا على النمسا، وعقد الصلح مع الملوك باستثناء الانجليز.

ويبدو أن فورييه وكيل الديوان الذى أبلغ الأعضاء بذلك – انما كان يشير الى صلح لونوفيل مع النمسا، والذى أعقب معركة مارنجو. ولكن الى أى مدى كانت لدى المشايخ تصورات واضحة عن هذه الأمور ؟ أن الجبرتى فى رواية هذه الحادثة، يعترف بأنه قد استغلق عليه فهمها، ويعزو ذلك الى ضعف المترجم، فهو يقول: «لكن يسركم أن جمهور المنصور غلب فى أقاليم الروم جميع أعداه وبعون الله تعالى هادى كل شى سيغلب كذلك العدا فى مصر واعتمدوا بأكثر الاعتماد على الستويان جيرار هذا الذى وضعناه قريبكم».

ولاشك أن صاحبنا قد وجد صعوبة – مثلا – فى فهم كلمة الستويان (أى المواطن، فهى كلمة ترتبط بحق المواطنة والمواطن فى الدولة الديموقراطية الحديثة التى ظهرت بشكل واضح مع الثورة الفرنسية وهى ضد كلمة (الرعية)التى تعتبر مرادفة لكلمة (العبيد) فى السلطنة العثمانية، التى

كانت تعتبر رعاياها عبيد احسانات سلطانها)، كما تعذر على المترجم ايجاد مرادف لها بالعربية.

ولما زاد موقف الفرنسيين حرجا، أخذوا يوضحون أمام أعضاء الديوان لماذا تصر دول أوربا على محاربة فرنسا، فقالوا: ان السبب هو أن تلك الدول ترفض مبادىء الحرية والمساواة، وذكروا كيف أن فرنسا تقيم موازين العدل في مصر، وذلك بجعل المشايخ «وسائط» أو ممثلين عن الشعب، فاذا زال الحكم الفرنسى فعلى المشايخ أن يواصلوا مهمتهم «من اللازم أنكم تعرفو جميع ما صدر لكم من الخيرات بواسطة حكم الفرنساوية وفى عشمى أنهم لم ينسوه ابدا.. والقرانات فى بلاد الغرب خافوا أن رعيتهم يقبلون حكم التسوية والحرية».

وكنوع من الدفاع عن النفس أخذ الفرنسيون يوعزون الى المصريين بأن وقف الأحوال راجع الى حصار الانجليز للطرق البحرية، لأنهم يريدون أن يستأثروا بالتجارة، فى حين أن الفرنساوية تعمل على «تسليك البحر».

ولكن الأوان قد فات، فقد جاءت أخبار نزول الانجليز بالاسكندرية وحصارهم لها، وترتب على ذلك أن قرر بليار حاكم القاهرة اعتقال أربعة من أبرز أعضاء الديوان فى القلعة على سبيل التحفظ. ومما هو جدير بالملاحظة، أن الجبرتى لم يكن من بين الأربعة المعتقلين، مما يجعلنا نتساءل: هل كان ولاؤه للفرنسيين موثوقا به أكثر من غيره؟.

واذا كان لنا أن نقيم مواقف الشيخ عبد الرحمن السياسية، فلابد وأن نأخذ فى الاعتبار أنه كاتب حوليات، وفى مثل هذه الظروف لابد وأن تتبدل مواقف الكاتب من سنة الى أخرى، بخلاف من يضع كتابا متكاملا دفعة واحدة، فيكون أكثر التزاما بموقف محدد، ومن هنا تأرجحت مواقف مؤرخنا بين المداراة والاعجاب ببعض النظم. ولكن مما لا شك فيه أن العاطفة الدينية تغلب عليه فى معظم الأحيان، ولذلك فهو يرحب بمقدم العثمانيين وخروج الفرنسيس، حتى اذا أخذ العهد يتباعد بهؤلاء، يعود الجبرتى فيتذكرهم بالخير، لأن أسباب الجفوة زالت. وهو ينقل على لسان الفلاحين تذكرهم بالأسف أيام الفرنسيين، خاصة إذا قارونها بكثرة المظالم العثمانية.

وفى حين نجد الجبرتى يعبر عن أسفه حين يذكر مغادرة الأسطول الانجليزى للاسكندرية قبيل وصول الحملة، اذا به يقلب الآية عند رواية الأحداث المتعلقة بحملة فريزر سنة ١٨٠٧، فبهذه المناسبة ينقل حوارا عن المشايخ يتضمن مفاضلة بين الفرنسيين والانجليز، ويخلص الى تفضيل الفريق الأول، ولا غرو فقد صار الفرنسيون فى هذه الحقبة حلفاء للعثمانيين. ويبدو أن الانجليز كانوا قد تظاهروا هم أيضا بالدفاع عن المصريين بالاتفاق مع بعض المماليك، فرد الجبرتى بقوله: «لا تصدقوا أقوالهم فى ذلك واذا تملكوا البلاد لا يقون على أحد من المسلمين وحالهم ليس كحال الفرنساوية فان الفرنساوية لا يتدينون بدين ويقولون بالحرية والتسوية أما هؤلاء الانكليز فانهم نصارى على دينهم ولا تخفى عداوة الأديان ولا يصح الالتجاء اليهم.

هكذا لم تنقطع اهتمامات الجبرتى بالفرنسيين بعد خروجهم من مصر. وكانت تصله أخبار متقطعة عن حروب نابليون، فيسجلها أحياناً كما وصلت اليه، حتى أنه اشار الى اعتقاله فى جزيرة

البا الا أن هذه الأخبار المتقطعة لا تنطوى على أية دلالة بخلاف فترة الحملة.

المواقف الاجتماعية والاحتكاك الثقافى

تتفاوت مواقف الجبرتى فى المجالات الاجتماعية والثقافية، بحيث تتراوح بين الاعجاب ببعض مظاهر السلوك، ولا سيما حب المعرفة، الى مواقف الانبهار بأشياء على ما لاحظه من تحرر فى العلاقات النسائية.

كذلك فان الصلات التى نشأت بين الفرنسيين وبين السكان تفاوتت حسب الانتماءات الدينية والطبقات الاجتماعية، وكانت أوثق هذه الصلات هى التى ربطت ما بين الفرنسيين من جهة، والمسيحيين الوافدين من الشام والجالية اليونانية من جهة أخرى، وهى الجالية التى يسميها الشيخ عبد الرحمن بالافرنج البلديين. ولا شك أن معرفة الكثيرين من هؤلاء باللغة الفرنسية سهل عملية الاتصال. واستخدمت الحملة أبناء هذه الطوائف للأعمال الادارية وأعمال الشرطة، بحيث صاروا حلقة اتصال بين الحملة وبين سكان الأصليين. ومع أن الأقباط تعاونوا أيضا مع الفرنسيين ، إلا أن صلاتهم الاجتماعية واحتكاكهم الثقافى كان أقل من الطائفتين الأوليين.

وفى رأينا أن رجال الأدب كانوا أقل تزمتا من علماء الأزهر، ولذلك خالطوا الفرنسيين دون تحفظ، كما يستنتج من حديث حسن العطار عن التقائه هو وصديقه اسماعيل الخشاب مع أصدقاء لهم من الفرنسيين، وخاصة المستعربين، وقد اعتادوا أن يعقدوا جلسات معا فى حى وجه البركة، ويبدو أن من الوسائل التى اتبعها الفرنسيون لاسترضاء المشايخ، تشجيع الموالد بل والتبرع لها، ولكن ذلك لايثير أى رد فعل حسن فى نفس صاحبنا لأنه سلفى النزعة، وسيبدى اعجابه فيما بعد بالحركة الوهابية، فى حين يستنكر الموالد وما يصحبها من بدع وأعمال المجون.

ويبدو أن الفرنسيين لم يتنبهوا الى أن علماء الأزهر ليسوا وحدهم أصحاب الزعامة الدينية، بل كان هناك رجال الطرق الصوفية أصحاب النفوذ الأقوى لدى جماهير الشعب، ولذلك لم يبذلوا أى مسعى للاقتراب من هذه الفئة.

وعندما يتاح لهم وقت أطول فى احتلال شمال افريقيا سيتجهون الى اجتذاب ود هذا الفريق من رجال الدين الاسلامى.

وعلى عكس تحفظ علماء الأزهر، أقبل أصحاب الحرف البسيطة يقدمون خدماتهم لجيش الاحتلال الذى كان يدفع نقدا ثمن ما يقدم له من خدمات أو بضائع ، ويندهش صاحبنا لنزاهة الفرنسيين فى المعاملات، كما يتعجب لانفاقهم بسخاء على وسائل التسلية، فيعطون الحمارين أجورا مجزية مقابل الطواف بهم بمدينة القاهرة لمشاهدة معالمها، ويعتبر الاقبال على أكل الفاكهة نوعا من الكماليات المترفة، مما يشير الى ما كان يعانيه الشعب من الحرمان.

ويدل وصفه للمطاعم التى أقيمت فى أثر مجىء الحملة الفرنسية على أن مجتمع القاهرة لم يكن يعرف شيئا عن نظام المطاعم الحديثة «فإذا مرت طائفة بذلك المكان تريد الأكل دخلوا الى ذلك المكان وهو يشتمل على عدة مجالس دون

وأعلى وعلى كل مجلس علامته ومقدار الدراهم التى يدفعها الداخل فيه فيدخلون الى ما يريدون من المجالس وفى وسطه دكة من الخشب وهى الخوان التى يوضع عليها الطعام وحولها كراسى فيجلسون عليها ويأتيهم الفراشون بالطعام على قوانينهم فيأكلون ويشربون على نسق لا يتعدونه وبعد فراغ حاجتهم يدفعون ما وجب عليهم من غير نقص ولا زيادة ويذهبون لحالهم».

وفى أكثر من مناسبة يقارن مؤرخنا بين دقة الفرنسيين ونزاهتم فى مجال المعاملات اليومية، وبين سلوك أصحاب الحرف والتجار من المصريين الذين انتهزوا فرصة وجود جيش احتلال اجنبى وحاولوا أن يحققوا من وراء ذلك أكبر مكسب ممكن، وهذا سلوك شائع فى كل المجتمعات، غير أن الجبرتى نظر إلى هذه القضية بموضوعية تامة، ولم يسقط ملاحظاته حتى فى كتاب مظهر التقديس المعادى للفرنسيس. «وطلب باعة القمح الزيادة فى السعر فجمع الفرنسيس كل من له مداخله فى تجارة الغلال وزجروهم وخوفوهم وقالوا لهم : هذه الغلة الموجودة الآن انما هى زراعة العام الماضى وأما هذا النيل فلا تخرج زراعته الا فى العام المقبل فانزعجوا وباعوا بالسعر الحاضر وقد كاد يقع البلاء العظيم لولا ألطاف الله حفت ونعم العميم الشاملة حصلت».

لقد كان تصادم العادات والتقاليد من أعمق الأسباب التى أوجدت هوة بين الوافدين والمصريين، فلم تفهم عامة الشعب مغزى كثير من الاجراءات فى مناسبات عدة دون أن يعلق عليها بالانتقاد أو بالتقدير لها. وان كان من المعروف أن التطعيم أثار سخط علماء الأزهر. وللمرة الأولى أقيم حجر صحى فى جزيرة بولاق «حى الزمالك حاليا» وطلب الى الناس عدم دفن الموتى قريبا من المنازل، كما دقق الفرنسيون فى تطبيق الاجراءات تدخلا فى خصوص حياتهم اليومية. ولكن الفرنسيين كانوا مضطرين اليها لكثرة ما أهلكت الأمراض من الجند. ويصف الجبرتى كيف كان الفرنسيون يصابون بالذعر كلما سمعوا عن ظهور الطاعون فى مكان ما، فيسارعون بارسال الأطباء لعيادة المرضى. على أن أشد ما يثير استنكار الجبرتى هو ما شاهده من تحرر فى الاختلاط بين الرجال والنساء، وهو يعلق على هذا الموضوع فى أكثر من مناسبة، ولذا نجد من الضرورى أن نتساءل عن نوعيات هؤلاء النساء اللائى يتحدث عنهن الشيخ عبد الرحمن.

فقد كان من بينهم زوجات الضباط الفرنسيين ، اذ كان من المألوف اصطحاب الضباط بصفة خاصة لأسرهم حينما يخرجون فى حملات بعيدة يدل على ذلك افتتاح مدرسة لتعليم أطفال الفرنسيين فى حى الأزبكية. ولكن وجد بجانب هاتيك الزوجات عدد كبير أيضا من بائعات الهوى من الفرنسيات سمح لهن بالنزول فى المراكب لمصاحبة الحملة على شكل كتائب للترفيه.

ويبدو أن ذلك كله لم يكف جنود الحملة ، ولذلك عمد الكثيرون منهم اعتناق الاسلام ليتيسر لهم الزواج من نساء مصريات .

ويعترف الجبرتى بحسن معاملة الفرنسيين للمرأة، مما جعل كثيرا من الآباء يقبلون تزويج بناتهم من الوافدين ، وهذا لا يثير سخط صاحبنا، وانما الذى يستنكره بشدة ، وهو الظهور برفقة النساء فى الأماكن العامة، وفى الأعياد والحفلات ، والتنزه فى مراكب مختلطة بالنيل.

وفى بعض الأحيان كان الفرنسيون يلجأون الى اغراء الجوارى لمصاحبة الجند، أو استخدام بعض وسائل الضغط ، كما حدث عند الاستعداد لحملة الشام، فقد جهزت الحملة بكل ما يحتاج اليه الجندى بما فى ذلك «محفات النساء والجوارى البيض والسود والحبوش الذين أخذوهم من بيوت الأمراء الذين قتلوا أو هربوا وتزيا أكثرهن بزى النساء الافرنجيات وغير ذلك».

ويجب أن نتحقق هنا من موقع المرأة الشرقية فى ذهنية الرجل الشرقى والمجتمع الشرقى بالتالى، فنظراً لأن المرأة هى متاع وعوان (أمة) عند الرجل ـ حتى أن المرأة كان يطلق عليها لفظ (أمة) ـ فإن ذهنية المرأة من خلال هذه النظرة كانت تنصرف إلى جسدها الذى يحق للرجل ـ أى رجل ـ أن يأسره بماله أو بالعنف دون أخذ رغبتها فى الاعتبار فسقط عن ذهنها قيمة العفة وقدسية الطهارة. ولا يجب أن ننسى فى هذا السياق أن معظم نسوة المجتمع الشرقى كنّ من السرارى والعبيد والاماء.

واقبال الفرنسيين على اصطحاب النساء دون التمييز بين ألوانهم، هو الذى جعل صاحبنا يصف هؤلاء بأنهم يرغبون فى مطلق الأنثى وهو لا يخفى أن بعض الرقيق الأسود من النساء كان يسعى بنفسه للحاق بالجنود الفرنسيين، حتى ولو أدى ذلك الى قفز الجدران للوصول اليهم. وفى مجتمع يأخذ بنظام الرق لابد أن يكون ادراك المرأة المسترقة لقيمة العفة ضعيفا.

اذا كان التلاقى بين المصريين والفرنسيين صعبا فى العادات والتقاليد، فقد كان الاحتكاك الثقافى أشد صعوبة، نعمْ أقبل بعض الفرنسيين على تعلم العربية ، وشجعت قيادة الحملة الدارسين للنفاذ الى صميم المجتمع المصرى، لكن الحملة استاعنت فى معظم الأحيان بأسرى مغاربة أخذوا من جزيرة مالطة، أو بسكان مالطة نفسها، وبعض الشوام للقيام بأعمال الترجمة من الفرنسية واليها.

ومن الواضح أن هؤلاء المترجمين الذين استخدموا على سبيل الصدفة لم يكونوا على درجة من الكفاءة تساعد على سهولة نقل الأفكار، أضف الى ذلك أن اللغة العربية لم تكن قد طوعت فى ذلك الوقت للأفكار الحديثة، ولا شك أن كثيرا من الكلمات التى كانت متداولة بين الفرنسيين لم تدخل الى قاموس الجبرتى ، مثل كلمة: وطنية ومواطن أو استقلال، هذا فضلا عن التعبيرات الخاصة بالفنون والآداب . ولا أدل على أهمية هذه المشكلة من شكوى صاحبنا مرارا من أنه أثناء عضويته للديوان لم يستطع أن يفهم «سقيم كلام المترجم». وعلى سبيل المثال فقد أراد فورييه وكيل الديوان أن يشرح للأعضاء كيف أنه يمثل السلطة التنفيذية وأنه لا يمتلك اختصاص التشريع، الا أن العبارات التى استخدمها لا يمكن أن تدل على هذا المعنى، أو أن توضحه لأعضاء الديوان الذين كانوا يجهلون مثل هذه

المصطلحات القانونية إلى جانب نقص المصطلحات التجارية والسياسية فى اللغة العربية وضعفها عن استيعاب ذلك.

ولم يبذل علماء الأزهر من جانبهم أى جهد للالتقاء - ولو فى منتصف الطريق - مع الحضارة الوافدة، وذلك بتعلم اللغة الفرنسية. ولم يكلف الجبرتى نفسه عناء ضبط الكلمات الفرنسية، فالكرنتينة أو الحجر الصحى هى الكورنتيلا، و «Chevaliers de Malte» «فرسان مالطة» هم القارولية، وهكذا.

كذلك لم يدفع حب الفضول صاحبنا الى أن يشاهد الكوميديا بعد اقامة المسرح على عهد مينو، واكتفى بالوصف الخارجى للمسرح وكيفية حجز التذاكر، الى اخره.

وخلاصة القول أن الجبرتى - كمعظم الرجال الذين يقفون موقفا وسطا من التقاء حضارتين، يتعرض لنقد الفريقين، فقد انتقده الفرنسيون ووصفوه بالتعصب، فى حين عاب عليه المصريون اتصاله بالفرنسيس واتهموه بالتعاون والولاء لهم. والحق أن الجبرتى كان فى مجال السياسة أميل الى مداراة الغزاة، لأنهم أشد قوة، فى حين رفض الاستفادة من حضارتهم فى المجالين الثقافى والحضارى. وربما كان الموقف الأمثل فى نظر المواطن المعاصر هو اتباع مواقف معاكسة، أى الاستفادة من الحضارة والثقافة الفرنسية، ورفض التعاون فى المجال السياسى.

* * *



(١) انظر: عبد الرحمان الجبرتى. أ. د. صلاح العقاد. الهيئة المصرية العامة للكتاب من ص ٣١١ إلى ص ٣٢٤.

ملحق رقم (٢٤)

الجماهير المصرية في مواجهة الغزو الفرنسي

قيمة مؤلفات الجبرتي عجايب الآثار ومظهر التقديس تكمن في أنها شاهد على التحولات التي طرأت على مصر إثر مجيء الفرنسيين، ثم خروجهم ومجيء محمد على إلى الحكم. فالعصر الذى عاش فيه المؤلف «هو عصر الثورة المصرية، الثورة الكبرى التى انتقلت بها مصر من طور من أطوار تاريخها الطويل المفعم بعبر الدهر إلى الطور الذى امتد إلى الزمن الذى نعيش فيه...». ومن أبرز ما يميز هذه الحقبة ظهور الجماهير المصرية إلى حيّز الساحة الوطنية كقوة فاعلة، سواء فى مقاومتها للغزو الأجنبى، أو مشاركتها العملية في اختيار سلطتها الوطنية. فقد كان الجبرتى معاصراً لأحداث الحملة الفرنسية على مصر، وعن هذه الأحداث وضع مخطوطته «مدة إلفرنسيس فى مصر» عام ١٧٩٨. ثم كتابه «مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس» (١٢١٦هـ/١٨٠١م) بناءً على تكليف الصدر الأعظم يوسف باشا[١]. وإن كان مظهر التقديس يشكل التتمة التاريخية لمخطوطته «مدة الفرنسيس»، فإن التعديل الذى أدخله فيما بعد على مظهر التقديس شكّل الجزء الثالث (الجزء الرابع من تحقيقنا هنا) من كتابه الكبير عجايب الآثار مع إضافة أحداث السنوات ما بين ١٢١٦ ـ ١٢٢٠هـ.

وإن كان هذا الكتاب يهم المؤرخين لما حواه من منشورات وبيانات ومكاتبات رسمية صادرة عن سلطات الاحتلال الفرنسى فى ذلك الحين، فإن الباحث الاجتماعى يجد فى طريقة تسجيل الجبرتى للوقائع اليومية، على شكل مذكرات حية شاهدها المؤرِّخ أو نقلها من أفواه معاصريه بلغتهم وأسلوبهم فى التعبير، بابًا واسعاً لدراسة مجرى الحياة الاجتماعية فى أوساط جمهرة الناس؛ فقد كان الجبرتى حريصاً على تدوين اصطلاحات أصحاب الحرف والصناعات مشدوداً إلى تصوير مظهر الجهل والفقر وغلبة الشائعات، وهو ما نراه أكثر اكتمالاً فى كتابه عجايب الآثار على شكل وثائق وروايات مسجلة بنصوصها ومصريتها وأعجميتها، مما يكاد يجعل هذا الكتاب ينفرد بخاصة تأريخه للحياة الاجتماعية فى عصره، لا سيما تصوير شعور مفكرى المجتمع الإسلامى الشرقى، بعاداته وتقاليده، إزاء الأجنبى الغربى الغازى لهذا المجتمع، والعادات التى أدخلها، كالاختلاط العلنى بين الرجل والمرأة، والتى عدّها من باب الخلاعة، وموقفه من المسارح التى يؤمُّها الناس ليشاهدوا «الملاعيب التى يلعبها جماعة منهم بقصد التسلى»، وانبهار مثقفيه بأعاجيب التجارب العلمية وأجهزتها. أما الجزء الخامس من عجايب الآثار، فهو خاص بحكم محمد على التى تولى فيها الحكم بتأييد جماهيرى قادته طبقة العلماء والأعيان ولمع فيها إسم عمر مكرم.

١ ـ التحركات الجماهيرية المصرية فى مقاومة الغزو الفرنسى:

غزت فرنسا مصر فى نهاية القرن الثامن عشر، أى فى الحقبة التى استكملت فيها التجربة المملوكية والعثمانية كامل أبعادها وأثبتت فشلها،

وهى تجربة أرستوقراطية فوقية فى التعامل الاجتماعى والسياسى؛ وهذه القيادة السياسية والاجتماعية كانت قيادة نخبوية لا يدخل فى حسابها الجمهور إلا من زاوية قدرة هذا الجمهور على تلبية حاجات الطبقة الأرستوقراطية، وكان استخدام الظلم والاضطهاد والجور من قبل الحكام على اختلاف مراتبهم هو السبيل الوحيد لتأمين متطلبات الفئات الحاكمة المتزايدة باستمرار، مما جعل الفئات الجماهيرية. لا سيما الفلاحية منها تتردى فى حمأة الشقاء والبؤس، وتتضافر عليها أوزار الفقر والجوع والمرض، وكان الالتزام هو النظام السائد فى تحصيل الضرائب، تعطيه الدولة لمن تأنس فيه القوة والنفوذ من المماليك والأتراك وأعيان البلاد من المصريين، الذين حوّلوا الفلاحين إلى رقيق للأرض.

وإن كانت طبقة العلماء هى موئل تقبُّل ظلامات الفلاحين وشكاويهم، فإن هذه الطبقة كثيراً ما خيّبت فى وساطاتها آمال جموع الشعب، بحكم الارتباط المصلحى بين أفراد هذه الطبقة وطبقة الحكام الذين كانوا يتملقون الشيوخ ويخطبون ودهم لامتصاص النقمة الشعبية التى كانت قد بلغت أوجها قبيل مجىء الفرنسيين. ولم تكن النقمة مقصورة على جماهير الفلاحين فى الريف الذين هجروا العمل فى الأرض، بل تجاوزتهم لتطال المشتغلين بالتجارة والصناعات المحلية، وهى تجارات وصناعات باتت عرضة للنهب المملوكى العثمانى بعد ضمور المنتوج الزراعى.

والفرنسيون، فى قضائهم على السلطة المملوكية العثمانية، خففوا عن كاهل تلك الجماهير واحدة من تلك القوى التى كانت الجماهير ترزح تحت سلطتها، ووضعوا الشعب أو الجماهير تحت قيادة الشيوخ أى الطبقة التى أرادوا أن تحتفظ بمركزها كوسيط بينهم وبين الجماهير الشعبية، وفى سبيل كسب ودّ هذه الجماهير المظلومة وقيادتها من طبقة العلماء، كانت مناشير نابليون تكثر من الحديث عن العدالة فى الإسلام، وكان بعد استقراره فى مصر شديد الاهتمام بالمناسبات الدينية والاحتفال بها. والمنشور الأول الذى أذاعه نابوليون فى الإسكندرية عام ١٧٩٨، يؤكد أن الفرنسيين لم ينزلوا فى مصر لإزالة الإسلام، بل لتخليص المصريين من يد الظالمين المماليك، وفتح الباب أمامهم لاكتساب المناصب والمراتب العالية. ولما كانت فرنسا تنوى أن تجعل من مصر ركيزة لإمبراطورية فرنسية فى الشرق، فإنها دعمت غزوها العسكرى بغزو ثقافى حرص نابوليون أن يكون مشتملاً على مختلف أنواع العلوم والفنون، والمدة القصيرة التى قضاها الفرنسيون فى مصر وهى ثلاث سنين وثلاثة أشهر أيقظت المصريين على أمرين أساسين: التشبث بالاستقلال الوطنى ومقاومة الغزو العسكرى الفرنسى من ناحية، والحفاظ على آثار الغزو الثقافى من ناحية أخرى، وكانت الجماهير المصرية هى القوة الراسخة فى تحقيق هذين الهدفين. فوجود الفرنسيين فى مصر كان عامل يقظة وطنية ويقظة ثقافية على مستوى النخبة فى بادىء الأمر، ثم على مستوى الجماهير التى بدّلت إبّان وجود الفرنسيين ولاءاتها لقيادتها السياسية والاجتماعية .

وكان الترابط بين الوعى الثقافى والوعى الوطنى يقوى باطراد مع تفاعل الأحداث التى عرفتها الساحة المصرية. فالوجود الفرنسى أيقظ التفكير الجماهيرى من ركوده، إذ هزّ أول ما هزّ علوم الأزهر الدينية التى كانت تدور على الفقه والتوحيد،وأخذت الخرافات والخزعبلات التى كانت العامة فريستها تنسحب ولو ببطء شديد لتعطى مكاناً لمفاهيم جديدة من الثقافة الاجتماعية.

فعلى المستوى السياسى والإدارى فتحت الدواوين التى أقامها الفرنسيون فى القاهرة ومدن الأقاليم الأعين على نمط جديد من التعامل السياسى بين الحكام والمحكومين ، وكانت إسهاماً حقيقياً فى إشراك المصريين فى عضويتها، وتعويد الجماهير على تقبُل ما كان يصدر عن هذه الدواوين من قرارات، وفتح أعينهم على نمط جديد من تنفيذ الأوامر الصادرة عن السلطة.

ولم تكن أعمال المجمع العلمى، على ما تميزت به من تقنية تخصصية وأقل أثراً من أعمال الدواوين، فاللجان العشر التى توزعت أعمال المجمع(٢)، كانت بحوثها تنزل إلى ميدان التطبيق العملى، فيفيد الجمهور من نتائج ممارساتها على الأرض، ناهيك عن الاصلاحات المدنية كإنارة الشوارع وتنظيفها، والسهر على سلامة الصحة العامة، وإنشاء المسارح والمكتبات العامة، وغيرها من الأعمال التى أوصلت المصريين بحضارة الغرب ومدنيته، وكان فى طليعة ما أفاد منه المجتمع المصرى تلك النظرة الجديدة إلى المرأة التى رآها تتمتع عند الفرنسيين بحرية لا عهد للمرأة المصرية بها من قبل ؛ فاحترام الفرنسيين لنسائهم وعطفهم عليهن استرعى نظر الرجال والنساء؛ وغبطت المرأة المصرية الفرنسيات وودّت تقليدهن، وأخذ الرجال المصريون يدخلون تجربة الحرية مع نسائهم.

ومظهر التقديس الذى عبّر فيه الجبرتى عن فرحة المصريين بخروج الفرنسيين ودخول الأتراك المسلمين من جديد إلى مصر لإعادة النظام، يعكس إحساساً جماهيرياً بادى التناقض؛ فالذين خالطوا الفرنسيين كانوا يدركون أن حكمهم كان أخف وطأة وأكثر رحمة ورأفة من حكامهم الأولين، وكانوا مقدرين لما كان عليه الفرنسيون من علم وحضارة؛ ولكن هذا لم يكن ليخفف من شعور المصريين بأنهم خاضعون لحكم أجنبى، فثاروا ضد الفرنسيين إلى أن أخرجوهم كفاتحين، وأبقوا على ما لمسوه عندهم من جوانب إيجابية من حضارتهم. وكان تعظيم الوطن، تعظيم مصر فى طليعة هذه الإيجابيات على الصعيدين الثقافى والاجتماعى.

والجبرتى يعكس إحساساً وطنياً جماهيرياً مصرياً واضحاً فى تحميله المماليك مغبّة الغزو الفرنسى؛ فالمماليك أضاعوا ما ورثوه من مجد مصر؛ ففى أيامهم «تطرّق الخلل لهذا القطر العظيم من كل جهة، وأضحت وجوه محاسنه بما ابتدعوه مشوّهة فأصبح الغنىّ بالمصادرات فقيراً، وعزّ بالتقرب إليهم من سفلة السعاة كل حقير، ورغبوا عن الفضايل فدرست، ومالوا إلى سفاسف الأمور فراج سوقها وربحت ، فقلّت الفضلا،

وكثرت الجهال، وارتفع مقدار كل غبى على كل حال؛ ولقد كانت مصر مجمع الفضلا ومركز النبلا، وقطب دائرة الفصحا، ومنشأ لبلغا الكُتّاب والشعرا، جمعت ما تفرّق في غيرها من المحاسن، وورد أهلها من موارد اللذات شراباً غير آسن بما تخترع الصنايع البديعة، وتستنبط فيها كل نادرة رفيعة، فلما دهمت الفرنسيس ثغرها الخالى، ووقفت منه على طلل بالى، سهل عليهم الحال فاقتحموه، ودخلوا من باب الإقليم بدون أن يفتحوه، وتقاعدت العساكر المصرية عن التسارع لاستنقاذ الثغر، فعظم البلا وأخذ العدو يطوى بساط الأرض، حتى إذا التقى الجمعان لم يسع القوم إلاّ الفرار في الفلاة، فكم تركوا من جنات وعيون وزروع، وأصبحوا مشتتين في أقطار الأرض لا يقرُّ لهم لب، ولا روع، وأناخت دولة الكفار بكلكلها على هذا القطر العظيم وانتشروا في أرجاه انتشار السم في الجسد السليم...»(٣).

ولا شك أن هذا المقطع الذى أشرنا إليه يحمل الكثير من انعكاسات مناشير نابليون الأولى في تعظيم مصر وتاريخها، كما يعكس صورة لما خلفه علما الحملة من دراسات وضعوها في كتابهم الفذ وصف مصر. الجبرتى في تعليله لأسباب الفتح يضع يده على جانب من الحقيقة، وهو ما تعلق بصعيد الانهيار الاجتماعى والاقتصادى الداخلى، ولكن الرؤية السليمة لهذا الانهيار ما كان لها أن ترى بوضوح إلاّ على ضوء العامل الخارجى وهو الاحتكاك بالفرنسيين؛ فهم الذين خلخلوا قوة المماليك العسكرية، وفتحوا الباب واسعاً للجماهير المصرية لتسلم مقاليد حكمها بيدها. والجبرتى في هذا المقطع بالذات يعكس إحساساً وطنياً قومياً أسهمت فيه إلى حد بعيد تلك التجربة التوحيدية للقطر المصرى في ظل الفرنسيين.

٢ - المقاومة الأهلية في الأسكندرية

وإذا ما عدنا إلى مقاومة المصريين للغزو الفرنسى وجدنا هذه المقاومة تتخذ صفة جماهيرية، وهذا ما لم تكن تتوقعه الدوائر السياسية الفرنسية، التى كانت تعتقد أن القضاء على المماليك يلقى ترحيباً من جماهير الشعب المصرى، وليس ثمة خوف من انتفاضات أهلية في وجه الغزو، ولكن المقاومة كانت شعبية شاملة، يقول فيها عبدالرحمن الرافعى أن ليس لها شبيه في خلال المائة سنة الأخيرة سوى الحركة الغامة التى ظهرت سنة ١٩١٩ عقب إنتهاء الحرب العالمية الأولى(٤).

فصدمة الغزو الفرنسى للمجتمع المصرى وضعته لأول مرة في عصره الحديث أمام عدو واحد محدد انتشر ـ أثناء مطاردته للمماليك والعربان ـ في مجمل أراضى مصر شمالاً وجنوباً مما أدى إلى ثوران الشعور الوطنى عند المصريين وتوحد وجدانهم ضد هذا العدو المحدد. ذلك أن العدو القديم ـ العثملى ـ لم يكن واضح المعالم بسبب ثوبه الدينى بالإضافة إلى عدم تمثله في جنس واحد أو مستبد محدد، فقد كان هناك الاتراك الاروام والشركس والارناؤط والألبان والدلاه والعرب والقرمنليه والكردلية والمورليه واللاونديه والمغاربه إلخ .. ما جعل تحديد العدو في وجدان الشعب المصرى بالغ الصعوبة. حقيقى انه كان

هناك كره عام ضد العثملي، ولكن أى هؤلاء العدو بالتحديد؟ خاصة وإن هذه الاشتات العثمليه كانت تدخل أحياناً كثيرة فى تحالفات مضادة لبعضها من أجل اكتساب السلطة، فكان الشعب المصرى لا يتمكن ـ بالإضافة إلى أسباب أخرى ـ إلى الانحياز لأى طرف من أطراف الصراع ويكتفى بالفرجة عملاً بالحكمة المأثورة: «ياداخل بين البصلة وقشرتها ما ينوبك غير صنتها».

أما فى حالة الغزوة الفرنسية فإن العدو كان قد تحدد وغطى على كل الأعداء الآخرين الذين انشغلوا بالهرب من الفرنسيس إلى أطراف البلاد لتصبح المواجهة بين الشعب المصرى المتشبث بأرضه ـ رغم ما يعانيه بسببها ـ والغزاة الفرنسيس حادة ومحددة. ولعل ثورتى القاهرة الأولى والثانية ضد الفرنسيس تمثلان قمة الشعور الوطنى بعد انصهاره فى بوتقة واحدة.

بدأت المقاومة الجماهيرية المصرية للغزو منذ أن وطئت أقدام الفرنسيين أرض الأسكندرية ليلة ٢ يولية سنة ١٧٩٨، لا بل إن سكان الإسكندرية كانوا يستعدون لهذه المقاومة قبل نزول الفرنسيين إثر إشاعات وصلت إلى الثغر بأن الإفرنج عازمون على احتلال مصر، إذ يذكر الكولونيل سلكوسكى أحد ضباط الحملة الفرنسية فى مدوناته أنه: «وصلت منذ شهرين عن طريق الأستانة أنباء الحملة فأخذ أمراء المماليك يستعدون، ولا نعلم إلى أى حد بلغ استعدادهم، ولكن الخبر الذى أزعجنا هو قدوم الأسطول الإنكليزى إلى الإسكندرية ومغادرته إياها قبل وصولنا، وقد انزعجت له البلاد وظنه الناس أسطول الفرنسيين الذين يتوقعون حضورهم منذ مدة ومن يومئذ أخذ جميع الأهالى يعدُون العدة للمقاومة، فحملوا السلاح وتحصنوا بالأسوار، بينما كان أربعماية من الفرسان يجوبون الضواحى استعداداً للقتال...»(٥). ويثبت فيفان دينون Vivant Denon فى كتابه «رحلة فى الوجه البحرى ومصر العليا أثناءحروب الجنرال بونابرت» حديث القنصل الفرنسى فى مصر الذى جاء لمقابلة بونابرت عشية رسو الأسطول الفرنسى فى ميناء الإسكندرية فيقول: «قدم إلينا قنصلنا بصحبة ترجمانه وقد خالطه الرعب بعد أن نجا من القتل ومن هياج الشعب، واخبرنا أن أسطولاً إنكليزياً مؤلفاً من أربع عشرة بارجة حربية كان بالثغر ولم يغادره إلاّ عشية الأمس الأول، وأن الإنكليز صرحوا بأنهم قادمون للتفتيش عنا ومحاربتنا وقد ظنهم الأهالى فرنسيين، فانفجر بركان الهياج فى البلاد كلها لشعورهم باقترابنا، وكانوا يتوقعون ذلك من يوم علموا باحتلالنا لمالطة، وقد استعدوا للمقاومة فأخذوا يحصنون القلاع ويزيدون عدد الجنود المتطوعين للقتال ويجمعون جيشاً من العرب، وأن حاكم الإسكندرية السيد محمد كريِّم لم يأذن للقنصل بمقابلتنا إلاّ مصحوباً بجماعة من نوتية الإسكندرية وعهدوا إليهم إرجاعه إلى الثغر»(٦).

كانت الإسكندرية عند قدوم بونابرت مدينة صغيرة معظم سكانها من الفقراء يتراوح تعدادهم بين ٨ آلاف و ١٣ ألف نسمة بعد أن كانت فى عهد البطالسة عروس المدائن ومركز تجارة العالم يسكنها ستماية ألف نسمة، واقتصرت تجارتها بعد

تحول طريق التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على واردات أفريقيا وجزيرة العرب وثغور السلطنة العثمانية والنزر اليسير من واردات الهند، ولم يكن باقيًا فيها فى أواخر القرن الثامن عشر من الإسكندرية القديمة سوى الاسم؛ فهى من هذه الناحية إذن تشكل عينة لسكنى الجماهير الشعبية الأصيلة فى مصريتها، ولم يكن فيها من الجنود سوى الأهلين الذين انتظموا فى سلك الفرق العسكرية المنشأة من عهد الفتح العثمانى وكان حاكمها محمد كُرَيِّم فى عهد الحملة نائبًا من صميم الشعب المصرى.

ذكر الجبرتى فى منشئه «أنه كان فى أول أمره قبانيًا يزن البضائع فى حانوت بالثغر، وعنده خفة فى الحركة، وتودد فى المعاشرة فلم يزل يتقرب إلى الناس بحسن الود ويستجلب خواطر حواشى، الدولة وغيرهم من تجار المسلمين والنصارى ومن له وجاهة وشهرة من أبناء جنسه حتى أحبه الناس، واشتهر ذكره فى ثغر إسكندرية ورشيد ومصر...»[٧] . و هذا الرجل هو الذى قاد المقاومة الوطنية فى الإسكندرية، وبذل الإسكندريون تحت لوائه مقدورهم فى الدفاع عن المدينة وفدحوا الجنود الفرنسيين بالخسائر، وكادوا يقضون على بونابرت نفسه كما يروى بوريين Bourienne سكرتير بونابرت الخاص فى مذكراته، فقد «دخل بونابرت المدينة من حارة لا تكاد لضيقها تسع اثنين يمران جنبًا لجنب وكنت أرافقه فى سيره فأوقفتنا طلقات رصاص صوّبها علينا رجل وامرأة من احدى النوافذ، واستمرا يطلقان الرصاص فتقدم جنود الحرس وهاجموا المنزل برصاص بنادقهم وقتلوا الرجل والمرأة»[٨] . وضراوة المقاومة فى هذه المدينة أفسدت على بونابرت مخططه فى أن يدخل مصر تحت شعار محاربة المماليك، فأمر جنوده بالكفّ عن القتال خشية وقوع المذابح، ووسّط أدريس بك قومندان السفينة العثمانية الراسية بالثغر فى إقناع أهل المدينة بالكفّ عن القتال فأذعنوا بسبب نفاذ الذخيرة، وظل السيد محمد كُرَيِّم يدافع بعد دخول الفرنسيين فى طابية قايتباى، ومعه فريق من المقاتلة إلى أن كلّت قواه، ورأى المقاومة عبثًا لا يجدى.

كتب الجنرال برتييه، رئيس أركان حرب الحملة رسالة إلى وزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ ٦ يولية عام ١٧٩٨ يصف احتلال الفرنسيين للإسكندرية جاء فيها: «أن الأهالى دافعوا عن أسوار المدينة دفاع المستميت، وقد أصيب فى هذه الموقعة الجنرال كليبر بعيار نارى فى جبهته، فجرح جرحًا بليغًا، وأصيب الجنرال منو بضربة حجر أسقطته من أعلى السور فنالته رضوض شديدة، وأصيب الأدجوان جنرال إسكال Escale بجرح بليغ فى ذراعه من عيار نارى، وقُتل اللواءماس Mass وخمسة ضباط آخرين» . [٩]. وكتب الجنرال منو إلى بونابرت يقول: «إن الجنود يستحقون الثناء العظيم على ما بذلوه من الإقدام والهمة والذكاء وسط المخاطر العظيمة التى كانت تحيط بهم لأن الأعداء (الأهالى) قد دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة وثبات عظيم»[١٠]. وكانت حصيلة الاستيلاء على الإسكندرية وفقًا لتقديرات بونابرت فى مذكراته ثلاثماية من الفرنسيين بين قتيل وجريح مقابل سبعماية من الإسكندريين.

ولم يكن منتظراً من الجبرتى فى كتابه مظهر التقديس أن يصل إلى تسجيل معلوماته بالدقة عينها التى لحظناها فى مراسلات الفرنسيين وتقاريرهم ، ولكن تسجيلاته تكتسب أهميتها من حيث إنها وجهة نظر مصرية للأحداث، فهو يشير فى بداية الفصل الأول من مظهر التقديس إلى هذا النزاع الفرنسي الإنكليزى للإستيلاء على مصر، ومحاولة الإنكليز دخول الإسكندرية بحجة أن أهل الثغر عاجزون بقوتهم الذاتية عن مقاومة الفرنسيين ورفض محمد كُرَيِّم هذا الطرح وإجابتهم بكلام غليظ أن هذه بلاد السلطان وليس للفرنسيين وغيرهم عليها سبيل فاذهبوا عنا (١١) .

وقراءة نصوص الجبرتى فى خبر نزول الجيش الفرنسى فى الإسكندرية تضعنا أمام ثلاثة مستويات من المقاومة: ١- أهل الإسكندرية المعنيون بشكل مباشر، فى الدفاع عن مدينتهم؛ ٢- مقاومة أهل البحيرة من العربان الذين جهزّهم كاشف البحيرة ولم يستميتوا فى القتال وانسحبوا من المعركة إثر اشتداد لهيب الحرب؛ ٣- وثالثًا الأمراء الذين لم يهتموا بشئ من ذلك كما يقول الجبرتى، ولم يكترثوا لزعمهم أن جميع الإفرنج لا يقفون فى مقابلتهم. والجبرتى الصادق فى روايته يضعنا أمام فرز واضح للإحساس الجماهيرى السائد آنذاك، وهوإحساس وإنْ لم يكن قد بلغ بعد مستوى المقاومة الوطنية الشاملة فإنه إحساس كان يحمل بذور الوطنية التى بلغت مستوىً رفيعاً خلال السنوات الثلاث من مقاومة الغزو الفرنسى.فالحملة الفرنسية استثارت الروح القومية عند المصريين ونفضت عنهم غبار الركود، ودفعتهم إلى الإحساس بأن لهم كيانًا مدعوين إلى المحافظة عليه، وكان هذا الشعور عفويًا طبيعيًا فى بادئ الأمر، ثم أخذ يكتسب صفة التنظيم من خلال الممارسة، وكان من نتائجه فقدان الثقة بالمماليك كحماه يعتمد عليهم فى مقاومة الغزو. والجبرتى وهو يروى لنا قصة اللقاء الأول بالفرنسيين، يضعنا أمام هذا التطور للإحساس الوطنى والذى بدأ دفاعاً عن مدينة وانتهى إلا دفاعًا عن وطن بكامله. يقول الجبرتى: «... وفى الليل تحولت مراكب جهة العجمى، وأنزلوا آلات الحرب والعساكر، فلم يشعر أهل الثغر فى وقت الصباح، إلا والعساكر كالجراد المنتشر حول البلد، فعندما خرج أهل الثغر ومن انضم إليهم من كاشف البحيرة والعربان المجتمعين معه، فلم يستطيعوا مدافعتهم،ولا أمكنتهم ممانعتهم،فانهزم كاشف البحيرة ومن معه من العربان، ورجع أهل الثغر إلى التترُّس فى البيوت والحيطان، ودخلت الفرنج البلد وانبثّ فيها الكثير من ذلك العدد، كل ذلك وأهل البلد لهم بالمرمى بالبنادق يدافعون، وعن أنفسهم وأهليهم يقاتلون ويمانعون، فلما أعياهم الحال، وعلموا أنهم مأخوذون بكل حال، وليس ثمّ عند أهل البلد للقتال استعداد، وأخلوا الأبراج من آلات الحرب والبارود،وكثرة العدو وغلبته طلب أهل الثغر الأمان فأمنوهم ورفعوا عنهم القتال، ومن حصونهم أنزلوهم...»(١٢).

إن رواية الجبرتى فى أمر طلب أهل الثغر للأمان لا تتفق مع نصوص المراسلات والوثائق

الفرنسية التى تشير فى معظمها إلى أن بونابرت هو الذى طلب وساطة قائد الباخرة العثمانية الراسية فى الثغر، وتوقف القتال كان نتيجة لهذه الوساطة، ليس لأن بونابرت كان عاجزاً عن تدمير المدينة بقواته الرفيعة التدريب، بل لأن تحويل أول مدينة نزل فيها إلى مذبحة مدمرة كان من شأنه أن يسئ إلى سمعة فرنسا، وإلى سمعته كقائد سياسى إلى جانب كونه قائداً عسكريًا تحدوه الأمال فى جعل مصر دولة شرقية تابعة للجمهورية الفرنسية، فكانت سياسة بونابرت تقوم على اجتذاب قلوب المصريين واكتساب ثقتهم بتخليصهم من حكامهم الظلمة أمراء المماليك، لا سيما وأن المعلومات التى كانت قد تجمعت لدى وزارة الخارجية الفرنسية كانت تشير إلى «أن أهالى مصر قاطبة يكرهون حكامهم المماليك الذين يسومونهم الظلم والاضطهاد، وهم عُزّل لا سلاح معهم، وإذا أعطاهم المماليك سلاحًا بحجة الدفاع عن البلاد من الغارة الأجنبية فإنهم لا شك سيحاربون به طائفة المماليك أنفسهم، فليس ثمة خوف من مقاومة أو وثبة من الأهالى».(١٣)

ولكن الثابت أن الأهالى أذعنوا للأمر الواقع ليتولى أهل الحل والعقد تدبير الشأن السياسى والإدارى، وهكذا كانت المقاومة الأهلية متقدمة على قياداتها من الشيوخ والأعيان الذين وقعوا مع بونابرت الوثيقة الأولى التى لا نرى إشارة لها فيما كتبه الجبرتى فى مظهر التقديس عجايب الآثار الخاص بأخبار الحملة. وهذه الوثيقة أو هذا الإتفاق المؤرخ فى ٢٠ محرم عام ١٢١٣ هـ. الموافق ٤ يولية عام ١٧٩٨ م. وقع عليه إبراهيم اليزجى مفتى الحنفية وسليمان الكلاف مفتى المالكية، ومحمد المسيرى وأحمد عبدالله الشافعى، حسن كانيد وعباس القويضى ومصطفى محمد من الأعيان، وهو ينص على أن يستمر الأعيان على العمل بقوانينهم والقيام بشعائرهم الدينية، وفض المنازعات وإقامة العدل، مع التعهد بعدم خيانة الجيش الفرنسى أو القيام بعمل يضر مصالحه(١٤).

كان الحكم الفرنسى الجديد حريصًا على تقوية أواصر الصلة بالشيوخ وأعيان البلد، وهذا ما أوصى به بونابرت الجنرال كليبر عند مغادرته الإسكندرية «لاستبقاء العلاقات الحسنة مع الأهالى وإبداء كل أنواع الاحترام للمفتين ورؤساء المشايخ فى المدينة». ولكن بونابرت كان يرغب أيضاً فى توطيد صلته مع محمد كريم الذى كان يمثل القيادة الجماهيرية فأبقاه محافظًا للمدينة، وخوّله حق مراسلة القائد العام رأسًا إذا شاء . ولكن النقمة الجماهيرية كانت تتزايد بإطراد بسبب الغرامة الباهظة التى فرضت على الأهالى، (ستة آلاف جنيه). وانتشار الضيق والفقر نتيجة لتعطيل التجارة فى الميناء إثر الحصار الانجليزى المضروب حول الاسكندرية، وتجاوزات الجنود الفرنسيين وعدم تجاوبهم مع نداءات قائدهم كليبر، واتخذت هذه المقاومة أشكالاً مختلفة منها الاعتداءات الفردية على الجنود الفرنسيين والهجوم على الدوريات العسكرية خارج الإسكندرية، والامتناع عن تقديم أى عون مدنى لقوات الاحتلال ، فالجنرال ديموى Dumwy يذكر فى تقرير له عن رحلته

الإستكشافية فى جهات مديرية البحيرة للإطمئنان على سلامة مواصلات الجيش الفرنسى أنه: «على بعد نصف فرسخ من الكريون (مركز كفر الدوار) هاجم الكتيبة عدد من العرب. وكان هذا العدد يزداد كلما تقدمنا فى السير، وقد شتتنا هذه الجموع بالرُصاص ولم نفقد سوى قتيل واحد وجريح، وقد داخلنى الشك من الإتفاق بين هجوم هذا الجمع علينا ومغادرتنا للإسكندرية، وخيّل إلىّ أن هناك اتصالاً بينهم وبين أهالى الإسكندرية، وتابعت الكتيبة سيرها ووصلت إلى دمنهور، وكنا فى خلال هذه المسافة محرومين من الماء حرماناً تامًا،وكان من المستحيل علينا ونحن فى الإسكندرية أن نحصل على جمل واحد أو قربة واحدة لحمل الماء رغم أوامر الجنرال كليبر، وبلغت بنا الحال أنه فى يوم تحرك الفرقة اختفت الجمال من الإسكندرية ثم عادت إلى الظهور فى شوارع المدينة غداة مسيرنا، مما يدل على أن هناك تواطؤا بين الأهالى وأصحاب الإبل»(١٥).

كانت الإسكندرية وما جاورها من إقليم البحيرة مركزاً لمقاومة جماهيرية لم تكن قياداتها من بين الأعيان والشيوخ الذين وقعوا اتفاق يوليه عام ١٧٩٨ فى الإسكندرية والمدن التى مرت بها فرقته وتوجهت أنظاره إلى محمد كريِّم الذى أمر كليبر بإعتقاله عشية عودة فرقة ديموى من طوافها فى البحيرة منهوكة القوى مُثخنة الجراح، وكان كُرَيِّم قد رفض السلفة الإجبارية التى فرضتها قوات الاحتلال على تجاز الثغر، وتلكأ فى مساعدة السلطة الفرنسية فى تحصيلها وكان اعتقال محمد كريم رمز المقاومة الجماهيرية منعطفا جديداً فى مسار المقاومة، ولم يحدث هذا الاعتقال ضجة فى صفوف مجلس الشيوخ والأعيان. وعندما عرض عليهم كليبر اختيار بديل عنه بسبب الريبة فى إخلاصه للجمهورية الفرنسية، وقع اختيارهم على محمد الشوربجى الفريانى ووعدوا بمعاونته فى تأدية وظيفته، وقبل الشوربجى وظيفة المحافظ يعاونه فى عمله محمد المسيرى كبير علماء المدينة وقبل المجلس السلفة الإجبارية التى رفضها كرَيِّم بعد أن أنقص منها مبلغ ١٥٠٠٠ فرنك لتحصل من واردات الجمارك.

وبعد اعتقال كريِّم توقفت الأعمال العدائية ضد الفرنسيين فى المدينة، وتأكد بونابرت فى القاهرة من قيادة كريِّم للمقاومة الوطنية ومراسلته لمراد بك وغيره من الأمراء المماليك وعرب البحيرة وأصدر أمره فى ٥ سبتمبر عام ١٧٩٨ بإعدامه رميا بالرصاص أومصادرة أملاكه أو أن يفتدى نفسه بغرامة ٣٠ ألف ريال، ونفذ فيه حكم الإعدام فى ميدان الرميلة فى ٨ سبتمبر عام ١٧٩٨، احتفل كليبر بموت كريِّم لأنه اعتقد أن إعدامه سينهى حركة التمرد الوطنية، إلا أن موقعة أبى قير التى ألحقت الهزيمة بالأسطول الفرنسى أضعفت الثقة بقوة الفرنسيين وجددت أمل الوطنيين بالقدرة على النصر،

إن الذين كتبوا عن محمد كريِّم من علماء الحملة الفرنسية أبرزوا شخصيته كقائد وطنى؛ ولا عجب فهؤلاء كانوا ينظرون إلى زعماء المقاومة بتوجهات أفكار الثورة الفرنسية،ولذا احتل كريِّم

عندهم مكانة كبيرة ووجدوا فى إعدامه قسوة لا مبرر لها؛ أما الجبرتى فيقدم هذا الزعيم فى صورة مشوّهة وغير منصفة، صورة المُصادر لأملاك التجار وخصوصًا الإفرنج، وأن الفرنسيين قبضوا عليه لاسترداد ما جمعه من أموال المصادرات «فلما حضرالفرنسيس قبضوا على السيد محمد المذكور، وطالبوه بالمال وضيّقوا عليه وحبسوه فى مركب، ولما حضروا لمصر وطلعوا لقصر مراد بك وجدوا فيها مطالعته بأخبارهم وبالحثّ والاجتهاد فى حربهم، وتهوين أمرهم فاشتد غيظهم عليه،وأرسلوا احضروه لمصر، وحبسوه فتشفع فيه أرباب الديوان عدة مرات فلم يمكن، إلى أن كانت ليلة الخميس حضر إليه «مجلون» الملعون وقال له: المطلوب منك كذا وكذا من المال، قدر يعجز عنه، وأجّله إثنتى عشرة ساعة والا يقتل بعد مُضيّها إن لم يدفع، فلما أصبح أرسل إلى المشايخ وإلى السيد أحمدالمحروقى فحضر إليه بعضهم، وترجاهم وتدخّل عليهم واستغاث بهم، وصار يقول اشترونى يا مسلمين وليس بيدهم ما يفتدونه به وكل إنسان مشغول بنفسه ومتوقع لشئ يصيبه... إلخ» (١٦).

٣- المقاومة الأهلية فى الأقاليم والقاهرة:

كانت المقاومة الأهلية فى الإسكندرية جماهيرية بشعبيتها وقيادتها،ولم تكن الحال نفسها فى بقية الإقليم فى البحيرة وشبراخيت والقاهرة. فمعركة شبراخيت١٣ يوليو عام ١٧٩٨، كانت فى الواقع معركة المماليك ضد الجيش الفرنسى، وإنّ كان الفلاحون يشكلون نسبة كبيرة فى جيش مراد بك ووقع على عاتقهم الجزء الأكبر من أوزار المعارك. والجبرتى فى تسجيله لهذه الواقعة يعلى مقاومة الأهالى ويظهر ضعف استعداد المماليك بقوله: «وفى يوم الجمعة التاسع والعشرين من شهر محرم التقى العسكر المصرى مع الفرنسيس فلم تكن إلاّ ساعة، وانهزم مراد بك ومن معه، ولم يقع قتال صحيح وإنما هى مناوشة من طلائع العسكريين، بحيث لم يقتل إلاّ القليل جدًا من الفريقين، واحترقت مراكب مراد بك بما فيها من الجبخانة والآلات الحربية واحترق بها رئيس الطوبجية خليل الجردلى وكان قد قاتل فى البحر قتالاً عجيبًا هو ومن انضم إليه من القليونجية وأقدم إقدام الأسد فقدّر الله أن علقت نار بالقلع فنزل البعض منها إلى البارود، الذى فى المراكب فاحترقت فمات هو ومن بالمراكب من المحاربين، فلما عاين ذلك مراد بك ولى منهزمًا وترك الأثقال والمدافع...» (١٧)

انتهت معركة شبراخيت بانتصار الفرنسيين مما أوقع الذعر فى القاهرة، واشتد فيها انزعاج الناس لسماعهم بنبأ قدوم الجيش الفرنسى، وسماعهم بأخبار اعتداءات هذا الجيش على القرى التى مرّ بها،لا سيما وأن القاهرة كانت كمعظم مدن الإقليم خالية من الاستعدادات الدفاعية الحديثة، ولم يكن موقف المماليك موحدًا فيما بينهم،وكان المماليك يتبادلون الشكوك مع العثمانيين ويتهمونهم بأنهم كانوا على علم مسبق بالحملة الفرنسية التى جاءت لإبادتهم، ولكن الرأى استقر على أن يبعث الوالى العثمانى برسالة إلى الباب

العالى «ليأتيه بالترياق من العراق» كما يتهكم الجبرتى.

والجبرتى يسجل أعمال الأمراء المماليك فى كثير من النقد، ويظهر ضعف خبرتهم العسكرية وتخلفهم؛ فهو يسخر من طرائق تحصينهم وسذاجة تدبيرهم فى حديثه عن تلك السلسلة من الحديد فى غاية التخن والطول التى وضعت فى بوغاز رشيد لتمنع مركب الفرنسيين من عبور النيل، ظناً منهم أن الفرنج لا يقدرون على مقابلتهم فى البر، وينقد طريقة اهتمامهم بسلامة أثاث بيوتهم وهم فى أشد حالات الحرج، فمنذ أن جاءهم خبر نزول الفرنسيين فى الاسكندرية وهم منشغلون بنقل أمتعتهم وتوزيعها عند معارفهم وثقاتهم وفى بيوت الصغار التى لا يعرفها أحد، وحذا حذوهم أغنياء القاهرة، ولولا أن الأمراء منعوهم من ذلك لما بقى من الأغنياء من له قدرة على الهروب إلا هرب، ويخلص من ذلك كله إلى هذا الحكم العام على المماليك بأنهم «متنافرة قلوبهم، منحلة عزائمهم، مختلفة آراؤهم،حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم، مختالون فى ريشهم، مغترون بجمعهم، محتقرون شأن عدوهم، مرتبكون فى رؤيتهم، مخمورون فى غفلتهم. وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم»(١٨).

وإنْ كان الجبرتى صريحًا قاسيًا فى نقده للماليك، فإنه يكتفى بالتلميح فى نقده لسلوك الجماهير إزاء الخطر المدلهم بالقاهرة: نقد العلماء والفرق الصوفية، أو هو على الأقل وضع القارئ فى الصورة التى كانت عليها الفئات الجماهيرية

مثال قوله: «وقد كانت العلماء عند توجه مراد بك للقتال تجتمع فى الأزهر كل يوم لقراء البخارى وغيره من الأذكار والدعوات. وكذا مشايخ فقراء الأحمدية والسعدية والرفاعية وغيرهم من مشايخ الفقراءوأرباب الأشاير (رجال الطرق) كل يوم يذهبون إلى الأزهر فيجلسون للأذكار والدعاء،وتجتمع أطفال الكتاتيب للدعاء وتلاوة اسمه تعالى، وكل هذا حصل بسببه النفع العظيم، فهو إن لم يدفع دخول الفرنسيس مصر لكونه أمراً مقضيًا محتمًا لا يرد بالدعاء، ولكن وقع اللطف الجزيل بسبب هذه الدعوات واجتماع القلوب بمجالس الذكر والاستغفار، وآثار اللطف التى حصلت مشاهدة لا تنكر ولله الحمد»(١٩).

وفرار المماليك من القاهرة بعد معركة أنبابه، وضع الجماهير القاهرية فى مواجهة الغزو وأحدث تحولاً فى المواجهة الوطنية. وإنْ كان انهزام المماليك أصاب الأهالى بالذعر فلاذ معظمهم إلى الفرار، فإن قيادات جماهيرية جديدة برزت إلى الساحة وفى طليعتها طبقة الصناع والتجار؛ فهذه الطبقة كانت أكثر الفئات تنظيماً. يقول فيهم الجبرتى: «وفى يوم الثلاثا نادوا بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس، وصاروا يكررون المناداة كل يوم فأغلق الناس الدكاكين والأسواق وخرج الجميع لبر بولاق فكانت كل طائفة من الطوائف من أهل الصنعات يجمعون الدراهم من بعضهم وينصبون خيمًا أو يجلسون فى مكان خرب أو مسجد، ويرتبون له قيِّمًا يصرف عليهم ما يحتاجون له من الدراهم التى جمعوها من

بعضهم، وبعض الناس يتطوع بالإنفاق على البعض الآخر، ومنهم من يجهز جماعة من المغاربة والشوام بالسلاح والأكل وغير ذلك بحيث إن جميع الناس بذلوا ما فى وسعهم وفعلوا ما فى قوتهم وطاقتهم، وسمحت نفوسهم بذلك أموالهم، فلم يشحّ فى ذلك الوقت أحد بشئ يملكه ولكن لم يساعدهم الدهر(٢٠).

إن فئة التجار والصناع ظلت شديدة الالتصاق بالجماهير تنظمها وتموّلها وتؤهلها للمقاومة، وليس ذلك بمستغرب على فئات كانت تنتظم فى نقابات مهنية ولها تطلعات مستقبلية مرتبطة بالنفع العام.

وإلى جانب هذه الفئة من التجار والصناع، كانت الطبقات الشعبية التى درجت على السير تحت لواءالمتعممين، وهؤلاء كان منهم من وقف موقفًا وسطًا بين تطلعات الجماهير ومصالحها الذاتية، وكانت مواقعها تستجيب لنداء الرأى العام الذى يطلب الهدوء والطمأنينة، فيما آثر فريق آخر الاستمرار فى رفض الوجود الأجنبى والإبتعاد عن التعامل معه، وهذا الفريق يتمثّل فى عمر مكرم نقيب الأشراف.وهذه الفئة كان ينقصها التنظيم، يصفها الجبرتى بقوله: «وخرجت الفقراء وأرباب الأشاير بالطبول والأعلام والكاسات وهم يضجون ويصيحون ويذكرون بأذكار مختلفة. وصعد نقيب الأشراف السيد عمر للقلعة فأنزل منها بيرقًا كبيرًا سمّته العامة البيرق النبوى، فنشره من القلعة إلى أن وصل به إلى بولاق، وهو راكب ومعه ألوف من العامة بالنبابيت والعصى يهلّلون ويكبرون ويكثرون من الصياح وبصحبته طبول وزمور وغير ذلك».

أما الأرياف التى لم يلحق بها التنظيم الاجتماعى فقد وقعت فى الفوضى، وكان همها النهب والإعتداء على الممتلكات.وكان العرب من البدو فى طليعة من أسهم فى أعمال الإعتداء بحجة التفتيش عن السلاح فى محلات التجار الأجانب وبيوت النصارى، وهو ما يشير إليه الجبرتى بقوله: «وأما بلاد الأرياف فإنها قامت على ساق، يقتل بعضهم وينهب بعضهم بعضًا وكذلك العرب تغير على الأطراف والنواحى، وصار قطر مصر من أوله إلى آخره فى قتل ونهب وإخافة طريقة، وقيام شر، وإغارة على أموال وفساد مزارع وغير ذلك من أنواع الفساد التى لا تحصى.. وطلب أمراءمصر الإفرنج الذين هم تجار بمصر فحُبس بعضهم فى القلعة، وبعضهم بأماكن الأمراء، وصاروا يفتشون بمحلأت الأفرنج على الأسلحة وغيرها، وكذلك يفتشون بيوت النصارى والشوام والأقباط والأروام، والكنائس والأديرة على الأسلحة، والعامة لا ترضى إلاّ أن يقتلوا النصارى واليهود، فيمنعهم الحكام عنهم ولولا ذلك المنع لقتلهم العامة فى وقت الفتنة»(٢١).

والجبرتى يعطى صورة مقيتة لجموع العرب، إذ إنهم كانوا لا يستقرون على حال من التنقل بين الأطراف، همّهم السلب والنهب؛ فيما كان أهالى القاهرة وقد تملكهم الخوف والفزع وترقُّب الهلاك يهجرون مدينتهم إلى مكان آخر يستقرون فيه، لا يدرون أى طريق يسلكون ولا أى جهة يذهبون، كان العرب يتصدون لهم لأخذ متاعهم ولباسهم وأحمالهم لايفرقون بين غنى وفقير: «فلما خرجوا من أبواب البلد وتوسطوا الفلاة، تلقاهم العربان

والفلاحون فأخذوا متاعهم ولباسهم وأحمالهم بحيث لم يتركوا لمن صادفوه ما يستر عورته ويسدّ جوعه، فكان ما أخذته العرب شيئاً كثيراً، يفوق عن الحصر، بحيث إن الأموال والذخائر التى تخرجت من مصر فى تلك الليلة أضعاف ما بقى بها بلا شك،لأن معظم الأموال عند الأمر اء والأعيان وحريمهم، وقد أخذوه صحبتهم،وغالب مساتير الناس وأصحاب المقدرة خرجوا أيضًا بما عندهم والذى أقعده العجز وكان عنده ما يعزّ عليه من مال أو مصاغ أعطاه لجاره أو صديقه الراحل، ومثل ذلك أمانات وودائع للحجاج من المغاربة والمسافرين فذهب ذلك جميعه، وربما قتلوا من قدروا عليه ودافع عن نفسه ومتاعه، وعرّوا ثياب النساء وفضحوهن وهتكوهن، وفيهم الخوندات والأعيان.. وكانت ليلة وصباحها فى غاية الشناعة جرى فيها ما لم يتّفق مثله بمصر، ولا سمعنا بما يشابه بعضه فى تاريخ المتقدمين، وما راءٍ كمن سمع» (٢٢).

والجبرتى يكثر الحديث عن لصوصية أولئك العرب وخيانتهم ، إذ كانوا لا يتورعون عن نهب قوافل الحجاج. ففى أخباره عن أحداث العشرين من شهر محرّم من عام ١٢١٣هـ. يذكر كيف خان الأعراب من وثقوا بهم من أهل القاهرة وهم فى طريقهم إلى الحج، ونهبوا حمولتهم وتقاسموا متاعهم وعرّوهم من ثيابهم وفيهم كبير التجار محمد المحروقى، واضطر المحروقى إلى الإستعانة بالفرنسيين لإستعادة المسروقات وهى كثيرة (٢٣)، وإبان قتال المماليك للفرنسيين مال من كان فى عسكر إبراهيم بك من العربان إلى الفرنسيين فترك إبراهيم بك القتال ولحق بالعرب وأجلاهم عن دياره التى عملوا فيها السلب، وقتل منهم عدداًمن الأشخاص، وكانوا إبان قتالهم للفرنسيين مساقين فقط بحبهم للحصول على الغنائم كما فعلوا مع إبراهيم آغا قبطان السويس، الذى كان يعبر الطريق تحت العلم الفرنسى (٢٤)، ولذا، فإن هجوم الفرنسيين على مناطق البدو كان له صفة تأديبية لاسترجاع مسروقات الناس (٢٥)، ولم يركن إلى أولئك الأعراب حتى فى الحملات الجهاديةالتى كان جنودها يخوضون معاركهم ضد الفرنسيين تحت لواء الإسلام، لأنهم سرعان ما كانوا ينهزمون كما فعلوا فى الحملة التى أعدّها الشيخ الكيلانى الذى كان مجاوراً بمكة والمدينة والطائف، وصار يعظ الناس ويدعوهم للجهاد ويحرضهم على نصرة الدين والحق، فاستجاب لندائه كثيرون من الناس ممن بذلوا أموالهم، «واجتمع نحو ستماية من المجاهدين وركبوا البحر مع من انضم إليهم من أهل ينبع، فورد الخبر فى أواخره- «شهر محرم»- أنه انضم إليهم جملة من أهل الصعيد وبعض أتراك ومغاربة ممن كان خرج - مع غُز مصر عند واقعة أنبابه وركب الغز معهم أيضًا وحاربوا الفرنسيس، فلم يثبت الغز كعادتهم وانهزموا وتبعهم هوارة الصعيد والمجمّعة من القرى، وثبت الحجازيون، ثم انكفوا لقتلهم بناحية جرجا، وهرب الغز والمماليك إلى ناحية اسنا» (٢٦).

وعندما كان أولئك الأعراب يغيرون على الفرنسيين كانوا يقتلون الفرنسيين وغيرهم وينهبون البلاد والمزروعات (٢٧)، ولذا، فإن تأديب الفرنسيين لهم كان يستقبل بكثير من الترحاب

لدى جمهرة الفلاحين وأهل المدن، فكان الفرنسيون يسرفون، فى قتل أولئك البدو وينهبون ما يلقونه عندهم من الأموال والودائع المتجمعة عندهم من أعمال الإغارة والسطو، ولقيت هذه الحملات التأديبية ثناء شريف مكة لأنها أمنت طريق الحج والتجارة مع الحجاز(٢٨)، وربط الفرنسيون بين أعمال أولئك العربان وأمراء المماليك الذين كانوا يعتمدون عليهم، فكانت مناشيرهم تجمع بين المماليك والأعراب فى حديثها عن هلاك الرعية والملة الإسلامية(٢٩)، وكان الفلاحون كثيراً ما يبلغون الفرنسيين بتنقلات أولئك البدو والمماليك، ومن ذلك ما ذكره الجبرتى فى أخبار اليوم الخامس من شهر صفر عام ١٢١٤ هـ. عن المماليك الذين كانوا لاحقين بمراد بك بالبحيرة «فآووا إلى قبة يستظلون بها وتركوا خيولهم مع السايس فنزلت عليهم طائفة من العرب، فأخذت الخيول، فمروا مشاة، فدل الفلاحون عليهم عسكر الفرنسيس فمسكوهم..»(٣٠) فاقتادهم الفرنسيون أسرى إلى القاهرة وأصعدوهم إلى القلعة وقتلوهم.

والبدو أو العرب الذين ظلوا بعيدين عن اللحاق بركب التطور الاجتماعى بسبب عدم وجود السلطة المركزية القادرة على بسط الاستقرار، أما المماليك فكان همهم منحصراً فى منع أولئك العرب من الإغارة على أملاك الملتزمين فى الريف فى أوقات السلم؛ وفيما عدا ذلك فلقد كان العرب عُدّة الأمراء المماليك فى مشاحناتهم الداخلية يستعينون بهم، فينقسم العرب فى تحالفات الأمراء، ويغيِّرون فى التبعية لهذا الأمير أو ذاك وفقًا لأهوائهم ومصالحهم، وقويت شرورهم إبان الحملة الفرنسية وتركيزها على ملاحقة المماليك، فكانوا يغدرون بأولئك الأمرا كلما ازداد شعورهم بعجزهم عن مقاومة الفاتح ، وهذا ما قوّى عنصر ابتعاد أولئك العرب عن أسيادهم المماليك وإيغالهم فى العبث بممتلكات الناس فى الريف وأطراف المدن، وشكلت العرب المترحلة خطراً داهمًا على الأرياف وسكان المدن وقوافل التجار والحجاج. «وكانت هجمات العرب على الريف تشكل عنصر اضطراب فيه،ورغم أن بعضهم كان قد تحول إلى الفلاحة، غير أنهم لم يعدلوا عن عاداتهم القديمة، فهم يستحوذون عنوة على أجود الأطيان، ويحوّلون مياه الرى ويقطعون الجسور فى الوقت الملائم لهم غير عابئين بمصالح جيرانهم إذا أنسوا منهم العجز عن مقاومتهم ، ويدعون على الفلاحين نوعًا من السيادة فيجبرونهم على أداء الخراج بدلاً منهم، كما يسلبون حاصلات القرى المجاورة لهم، فكانت تلك القرى تشترى أمنها بمبلغ من المال تدفعه لهم على شكل إتاوى سنوية. أما العرب فقد كثرت غاراتهم على القرى، يقتلون الفلاحين ويسرقون مواشيهم وكان الجبرتى يعد هؤلاء خطراً داهمًا ورصد الكثير من تجاوزاتهم.

أما الفلاحون الذين كانوا على الرغم من معاناتهم الاقتصادية الكبيرة عنصر استقرار فى الريف لما كان يربطهم ببعضهم من الأصول الحضارية الواحدة والعادات والتقاليد الموروثة، فإن هذا الإستقرار كان قد تعرض فى أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر لهزات عنيفة إثر هروب الفلاحين من الأرض والهجرة إلى

المدينة نتيجة للقحط وإنتشار المجاعات وهجمات العرب،لا بل إن الجبرتى يشير إلى مشاركة الفلاحين الهاربين جيرانهم البدو فى الإغارة على المدن. ولم تكن قرى الريف موصولة بالمدينة، وكانت القرية لا تتأثر بالأحداث التى تقع خارج حدودها إلا بالقدر الذى يمسُّ سكان القرية بشكل مباشر، وفيما عدا ذلك كانت القرية تدار ذاتياً وفق تقاليد معينة اللّهم إلاّ إذا جدّ من الأمور ما يدعو عمال الملتزم. أو رجال السلطة إلى التدخل فى شؤونها. أما الفلاح فى القرية فكان عبدا لسيده الملتزم. وقد استرعت أوضاع الفلاحين المصريين أنظار الفرنسيين، وكان فى نيتهم إلغاء نظام الإلتزام وتحسين ظروف الفلاح، ولكن الظروف التى كانت تواجهها الحملة عدلت بالفرنسيين عن تنفيذ ما فكروا به وهذا ما يشير إليه الجبرتى فى قوله: «وتملك الفرنسوية الديار المصرية فلم يتعرضوا لشىء من ذلك» (٣١) ؛ وقول الجبرتى هذا لا يتعارض مع ما عرضه هارولدج. كرستوف(٣٢) من أن بونابرت كان يود إعادة النظر فى قوانين الملكية والمواريث والضرائب. وفى عهد «مينو» تشكلت لجنة لمسح الأراضى الزراعية، وكان مشروعه، إلغاء نظام الإلتزام، وجعل الأراضى الأوسية ملكًا للملتزمين وأرض الفلاحة ملكًا للفلاحين، وتوحيد الضريبة، وإعطاء ملاك الأراضى من الفلاحين مطلق الحرية فى زراعة أطيانهم كما يشاءون (٣٣). وهذا ما نجد صداه فيما ذكره الجبرتى فى حوادث رجب عام ١٢١٥ هـ. أن بعض الملتزمين حضروا «يستغيثون بأهل الديوان ويقولون إنه بلغنا أن جمهور الفرنسوية يريدون وضع أيديهم على جميع الإلتزام... وأنهم يستغيثون بأهل الديوان عند سارى عسكر أن يبقى لهم التزاماتهم... ، وقد دارت بين الملتزمين وبين أحد الضباط الفرنسيين مجادلات ذكر فيها الملتزمون «أن لديهم الفرمانات والتمسكات من سلفكم بونابرته ومن السلاطين السابقين، وأنهم ورثوا ذلك عن آبائهم وأسلافهم وأسيادهم، وإذا أخذ منهم الالتزام اضطروا إلى الخروج من البلد والهُجاج وخراب دورهم ويصبحون صعاليك ولا يأتمنهم الناس» (٣٤)

ويشير الجبرتى فى حوادث شعبان عام ١٢١٥ هـ. أنه «قد أجيب الملتزمون بإبقاء التزامهم عليهم وأنكروا ما قيل من رفع أيديهم (عن التصرف بالتزاماتهم)، وعوتب من صدق هذه الأكذوبة، وإن كانت قد صدرت عن الخزندار فإنما كانت على سبيل الهذر ويكون التحريف من الترجمان...» (٣٥)

كان الفلاحون المصريون عشية الغزو الفرنسى مصدراً مهمًا من مصادر الاقتصاد ولكنهم كانوا موضع ابتزاز شاركت فيه فئات الملتزمين وأتباعهم المماليك والمتعممون من علماء الأزهر وشيوخ القرى «والمباشرون» ومن يعاونهم من الكتبة والصيارفة، وحتى «الشاهد» الذى كان فلاحو القرية يختارونه بموافقة الملتزم ليرعى مصالحهم، فلم يكن يمثل الفلاحين إلاّ فى الاسم فقط؛ إذ كان على نحو ما يشير الجبرتى «شريكًا للشيوخ والصراف فى ظلم الفلاح» (٣٦)، ناهيك عن «المشد» و «الخفير» اللذين يقومان بمهمات تنفيذية أقرب ما تكون إلى مهمات رجال الشرطة الذين لهم هم الأخرون نصيبهم من كدّ الفلاح وعرق

جبينه. والجبرتي يشير في كثير من مواضع كتابه عجايب الآثار إلى الكثير من أخبار المجاعات وهجر الفلاحين للقرى، كما يشير إلى رأفة الفرنسيين بالفلاحين، فقد انتظم أمر الضرائب فى أيامهم، وأبطل الفرنسيون تحصيل الخراج لمدة عام، مُقدّماً، وهو ما كان شائعًا من قبل، فلم يُطالب الفلاحون ولا الملتزمون بالخراج لعام ١٨٠٠، «فتنفّس الفلاحون وراج حالهم، وتراجعت أرواحهم مع عدم تكليفهم كثرة المغارم والكلف، وحق طريق المعنيين»(٣٧)

ولا شك أن الفلاحين لم يكونوا ناقمين على الفرنسيين نقمة العامة من أهل القاهرة، ولكنهم أخذوا يشعرون بالحنين إليهم بعد ذهابهم وعودة العثمانيين. والجبرتي ينقل على لسان الفلاحين تذكرهم بالأسف أيام الفرنسيين خاصة إذا قارنوها بكثرة المظالم العثمانية(٣٨)، ذلك لأن العثمانيين طالبوا الملتزمين والفلاحين بسداد الخراج عن سنوات الاحتلال الفرنسى، وكلفوا الصيارفة الأقباط بالنزول إلى البلاد لقبض الأموال فى غير أوانها لطرف الدولة (٣٩)، وكان الجنود العثمانيون يلفّقون الفرامانات «ويقبضون على مشايخ القرى ويلزمونهم بالكلف الفاحشة ويخطفون الأغنام ويهجمون على النساء»(٤٠).

أما القاهرة فقد كانت تشكل مجتمعًا متعدد الجماهير متنوع الاتجاهات، وهذه الإتجاهات ارتبطت نظراتها السياسية والوطنية بما درجت عليه من تكوين دينى؛ فهنالك الأقباط والمعتدلون من السنة والمسلمون المتطرفون، وإنْ كانت هذه الجماهير لا سيما المسلمة منها قد ذعرت لأنباء إنكسار المماليك فى أنبابه، وخرجت من القاهرة بإتجاه الأرياف القريبة من المدينة فإنها عادت بعد إطمئنانها لمناشير بونابرت وتأكيده على عدم المسّ باستقرار الأهالى والتقاء بونابرت بالعلماء والأعيان وتكريسهم كقيادات جديدة بدلاً عن المماليك، يقول الجبرتي: «ولما أصبح يوم الأحد المذكور ٨ من صفر عام ١٢١٣ ، والمقيمون لا يدرون ما يفعل بهم ومتوقعون حلول الفرنسيس ووقوع المكروه...فاجتمع فى الأزهر بعض العلماء والمشايخ وتشاوروا، فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مراسلة إلى الإفرنج، وينتظروا ما يكون من جوابهم، ففعلوا ذلك وأرسلوها صحبة شخص مغربى يعرف لغتهم وآخر صحبته فغابا وعادا فاخبرا أنهما قابلا كبير القوم وأعطياه الرسالة فقراها عليه ترجمانه، ومضمونها الإستفهام عن قصدهم، فقال على لسان الترجمان، وأين عظماكم ومشايخكم؟ لم تأخروا عن الحضور إلينا لنرتب لهم ما يكون فيه الراحة؟ وطمّنهم وبش فى وجوههم فقالوا نريد أمانًا منكم، فقال قد أرسلنا لكم سابقًا، يعنون الكتاب المذكور، فقالوا وأيضًا لأجل إطمئنان الناس، فكتبوا لهم ورقة أخرى مضمونها: من معسكر الجيزة خطابًا لأهل مصر، إننا أرسلنا لكم فى السابق كتابًا فيه الكفاية، وذكرنا لكم أننا ما حضرنا إلاّ بقصد إزالة المماليك الذين يستعملون الفرنساوية بالذل والإحتقار، وأخذوا مال التجار ومال السلطان، ولما حضرنا إلى البر الغربى خرجوا إلينا فقابلناهم بما يستحقون وقتلنا بعضهم وأسرنا بعضهم عندنا،وهرب بعضهم ، ونحن فى طلبهم حتى لم يبق منهم أحد

بالقطر المصرى، وأما المشايخ والعلماء ، وأصحاب المرتبات والرعية فيكونوا مطمئنين، وفى مساكنهم متاجرين ومرتاحين، إلى آخر ما ذكرنا. ثم قال لهم لازم أن المشايخ والشورباجية يأتون إلينا لنرتّب منهم ديوانًا ننتخبه من سبعة أشخاص عقلاً يدبرون الأمر،ولما رجع الجواب بذلك اطمأن الناس وركب الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى وآخرون إلى الجيزة. فتلقاهم وضحك لهم وقال أنتم المشايخ الكبار، فاعلموه أن المشايخ الكبار خافوا وهربوا، فقال لأى شىء يهربون؟ اكتبوا لهم بالحضور، ونعمل لكم ديوانًا لأجل راحتكم وراحة الرعية وإجراء الشريعة.، فكتبوا منه عدة مكاتيب بالحضور والأمان، ثم انفصلوا من معسكرهم بعد العشاءوبقى الناس فى وجل وخوف على غيابهم، وأصبحوا فأرسلوا الأمان إلى المشايخ فحضر الشيخ السادات والشيخ الشرقاوى ومن انضم إليهما من الناس الفارين من ناحية المطرية، وأما عمر أفندى نقيب الأشراف، فإنه لم يطمين، ولم يحضر كذلك الروزنمجى والأفندية» (٤١).

كان هذا اللقاء بالمشايخ بدايةً لعهد جديد استمر ما يقارب السنتين تكوّن فيها، فى القاهرة ، رأى عام أو ما يشبه الرأى العام. فغياب القيادات القديمة، المماليك والعثمانيين أحدث فى بادئ الأمر ما نسميه ظاهرة الحراك الفزعى الذى يستولى على العامة من الجمهور، إبان الغياب المفاجئ للقيادة الجماهيرية، والجماهير تعتمد إعتماداً مطلقًا على قادتها فى أوقات الأزمات، وكثيراً ما تضيف لهذا القائد صفات ليست عنده، ولكنها تعكس أمانى الجماهير فى تحقيق أهدافها. وجماهير القاهرة التى أنبئت بهرب قادتها فقدت روحها المعنوية بغلبة مشاعر السلبية على الإيجابى منها، وفى هذه الحال يستحيل تكوين رأى عام فى مواجهة المواقف والأزمات العصيبة، والفرد المذعور لا يأبه سوى بمصيره، كذلك تتعرض العلاقات البنائيةفى الجماعة للإنفصام، كما ينتشر الذعر بسرعة عن طريق العدوى، وهو ما عبّر عنه الجبرتى فى وصفه المعبِّر لهروب أهالى القاهرة بعد أن فرّ منها المماليك والمشايخ«فلما عاين العامة و الرعية ذلك، اشتد ضجرهم وخوفهم، وتحركت عزايمهم للهروب واللحاق بهم. والحال أن الجميع لا يدرون أىّ طريق يسلكون والى أىّ جهة يذهبون، وأى محل يستقرون، فتلاحقوا وتسابقوا وخرجوا من كل حدب ينسلون، وبيع الحمار الأعرج والبغل الضعيف بأضعاف ثمنه، وخرج أكثرهم ماشيًا أو حاملاً متاعه على رأسه، وزوجته حاملة طفلها، ومن قدر على مركوب أركب زوجته وابنته، ومشى هو على قدميه، وخرجت غالب النساء ماشيات حاسرات، وأطفالهن على أكتافهن يبكين فى ظلمة الليل...» (٤٢)

دخل بونابرت القاهرة فى ٢٤ يوليه عام ١٧٩٨ كما تقول الوثائق الفرنسية الرسمية، وهذا ما يتفق مع رواية الجبرتى فى أن بونابرت عدى القاهرة يوم الثلاثاء ١٠ صفر عام ١٢١٣ وان كان احمد حافظ عوض فى كتابه (فتح مصر الحديث) ص ١٥١ أن دخول بونابرت للقاهرة كان يوم الاربعاء ٢٥ يوليو ١١ صفر ١٢١٣هـ.. «وفى ذلك اليوم اجتمعت الجعيدية وأوباش الناس، ونهبوا إبراهيم بك ومراد بك بقيسون، وأحرقوه ونهبوا

أيضًا عدّة بيوت من بيوت الأمرا وأخذوا ما فيها من فرش ونحاس وغير ذلك وباعوه بأبخس الأثمان وسكن بونابرته بيت محمد بك الألفى بالأزبكية بخُط الساكت، وكان عُمره محمد بك المذكور سنة تاريخه ، وزخرفه وصرف عليه أموالاً عظيمة، وفرشه بالفرش الفاخر، وعند تمامه وسكناه فيه حصلت هذه الحادثة، فأخلوه وتركوه بما فيه، فكأنه إنما كان يبنيه لأمير الفرنسيس، وكذلك حصل فى بيت حسن كاشف جركس بالناصرية... وفى هذا اليوم (الخميس) اجتمع أرباب الديوان عند رئيسه فذكر لهم ما وقع من نهب البيوت فقالوا له هذا فعل الجعيدية وأوباش الناس، فقال: لأى شيء يفعلون ذلك وقد أوصيناكم بحفظ البيوت والختم على متاع المماليك؟، فقالوا هذا الأمر لا قدرة لنا على منعه وإنما ذلك من وظيفة الحكام، فأمروا الوالى والأغا بأن ينادوا بالأمان وفتح الدكاكين والمنع من النهب، فلم يستمعوا ولم ينتهوا واستمرت الدكاكين مغلقة والأسواق على حالها مقفرة، والناس غير مطمئنين وقلوبهم مرجوفة مرجفه، وصدورهم ضيقة، والتفت جماعة الفرنسيس إلى فتح البيوت التى للأمرا فصاروا يفتحون الدار، ويدخلونها ويأخذون منها ما يليق بخاطرهم ويخرجون، ويتركون الأبواب مفتحة، فيدخل بعدهم طائفة الجعيدية ويستأصلون الباقى واستمروا على ذلك عدة أيام،ثم إنهم تتبعوا بيوت الأمرا وأتباعهم وختموا على بعضها، وسكنوا بعضها، فكان الذى يخاف على داره من جماعة الوجاقلية أو من أهل البلد يعلق له بيرقًا على داره فى الباب أو يأخذ له ورقة من الفرنسيس، لا يعرف ما فيها ويلصقها على بابه....»(٤٣).

تلك هى صورة حية لأعمال الزمر من العامة يوم دخول الفرنسيين إلى القاهرة، آثرنا نقلها بصوت صاحبها لما فيها من جمال التصوير وصدق اللهجة والألم الذى ينتاب الفئة الصامتة من الجمهور.. وفى هذا النص الكثير مما يذكرك بما عرضه لوبون من انفلات الغرائز لدى الزمر فى غياب الضوابط الإدارية والاجتماعية والأخلاقية، ولكن هذه جميعها تعجز عن أن تعطينا الجواب فى غياب الواقع المعاشى الذى كانت تعيشه هذه الزمر ثم الحقد الكامل فى نفوسها على حكام الأمس وهو حقد انجرد عندها على الأهلين من التجار على وجه الخصوص، وهذه الزمر من الغوغاء انفلتت غرائزها المكبوتة وقد تكون تلك هى صفة الزمر التى رافقت الثورات الفاقدة للمدرسة الإيديولوچية..

والجبرتى شديد الإهتمام بهذه الجمهرة من عوام الناس، وهو بحكم موقعه الطبقى والفكرى يقف منها موقف الناقد لتصرفاتها وهى تصرفات سلبية إذا ما أفلتت من قيادة العلماء ، وإذا علمنا أن القيادات الدينية التقليدية فضلت فى معظمها التعاون مع الفرنسيين لتفادى الخطر الداهم، وعجز المصريين عن التصدّى للغازى بقوة السلاح، علمنا دوافع خروج العامة فى كثير من الأحيان عن طاعة أولئك العلماء المتعاونين مع الأجنبى، لا بل إن هذه العامة انحازت إلى طبقة رجال الصوفية الذين لم يحسب الفرنسيون لهم حسابًا فى تعاملهم مع رجال الدين كوسيط بينهم وبين

الشعب، ولقى العلماء من هذه العامة عنتاً شديداً، كان يصل إلى حد الهجوم على بيوت العلماء واتهامهم بالخيانة. وهذه العامة فى نظر الجبرتى تعيش فى الأوهام البعيدة عن الواقع سريعة التصديق لكل إشاعة، وهذه الإشاعات نادراً ما تستند إلى أساس من الواقع أو أن يكون لها توجُّه إيجابى، بل هى فى الأعم الأغلبى من النوع السلبى. وإن كانت الإشاعات لدى العامة وفقًا للتحليلات النفسية تعبر عن أمانى الجمهور وآماله، فإنها فى الوقت ذاته تحمل التطير من الأذى فتتلبّس صفة سوداوية وهذه الأخيرة هى أكثر أنواع الإشاعات سريانًا فى أوقات الأزمات «وغالبًا ما تصحبها اتهامات موجهة إلى كبش فداء ... فهذه الإتهامات تلعب دوراً مزدوجًا، فهى تساعد من ناحية على تحديد موضع الداء ، وأحيانًا تنفس عن المكبوت من الإنفعالات المخزونة». ومن يلاحق أخبار هذه العامة فيما كتبه الجبرتى لا يعوزه فى كثير من الأحيان اكتشاف مواطن التحيز لدى المؤرخ ولكنه لا يستطيع إلاّ أن يقر بصدق أخباره وواقعيتها. وهذه الإشاعات إذا ما عرضها الباحث على محك النقد لا بدُّ أن تلمح فيها نوازع الصراع الطبقى، ودور القادة والزعماء فى توجيه الرأى العام وفقًا لأهداف أولئك الزعماء. وكثيراً ما تتداخل الإشاعات بالوشايات فيذهب ضحيتها البرئ بالجانى وتختلط الحقائق.

ومن الإشاعات ما كان يرتبط بنوازع وآمال وطنية المنحى تعبّر عن الرغبة فى ظهور مخلص ينجّى البلاد من كابوس الفرنسيين وهذا المخلص تراءى لجمهرة العامة عند دخول الإنكليز الذين أغرقوا الأسطول الفرنسى فى ميناء أبى قير. ففى يوم الجمعة الخامس من شهر ربيع الأول عام ١٢١٣، وفيما كان الفرنسيون يدعون إلى الإحتفال بوفاء النيل ويقيمون الإحتفال بهذا العيد الوطنى لم يخرج أحد من الناس فى تلك الليلة للتنزه فى المراكب على جرى العادة سوى النصارى الشوام والقبط والإفرنج ونسائهم «وقليل من البطالين حضروا فى صبحها بقلوب منكسرة ونفوس ضعيفة، وفيه تواترت الأخبار بحضور عدة مراكب من الإنكليز إلى ثغر اسكندرية وحاربوا مراكب الفرنسيين بالميناء، وكانت أشيعت هذه الأخبار من مدة أيام، وتحادث بها الناس فصعب ذلك على الإفرنج وشق عليهم واتفق أن بعض النصارى نقل عن رجل شريف يقال له أحمد الزرو، من تجار وكالة الصابون أنه تحدث بذلك فأمروا بإحضاره، وذكروا له ذلك فأنكر، وقال إننى سمعت ذلك من فلان النصرانى فأحضروه أيضًا وأمروا بقطع لسان الإثنين أو يدفع كل واحدماية ريال فرانسه فتشفع المشايخ فلم يقبلوا، فقال بعضهم أطلقوهم ونحن نأتيكم بالدراهم فلم يمكن، فأرسل الشيخ مصطفى الصاوى وأحضر مائتى ريال فرانسه ودفعهم فى الحضرة فلما قبضها الوكيل ردها إليه وقال فرقوها على الفقراء، فأظهر أنه فرقها كما أشار وردها إلى أصحابها، فانكف الناس على التكلم فى شأن ذلك...»(٤٤)

وقد يكون من المآخذ علينا الإكثار من إيراد النصوص للجبرتى، ولكنى أعترف بأن تلخيص هذه النصوص يفقدها إيحاءتها المتعددة الأبعاد؛

فكل فقرة منها إذا ما توقَّفت أمام نصها الحرفى وجدت أنك تنزع عن المؤلف أبعاد معانيه الكامنة وراء النص؛ فالجبرتى مؤرخ صاحب يوميات أى صاحب مذكرات وهو فى ذلك أديب مفعمهم بالوجدانى من المشاعر، وليست هذه الوجدانيات لغواً، بل تحمل فى إختيار ألفاظها وطبيعة تراكيبها ما يجمع بين الشاعرية الإيحائية والمذهب الواقعى فى القص والكتابة النثرية، ولابدَّ لى قبل التعليق على هذا النص من الإعتراف أن قلة من قصاصينا المحدثين من تؤاتيهم القدرة على تمثيل الفكرة العميقة فى قليل من اللفظ كالجبرتى؛ ومن هنا كانت يومياته داخلة فى المباحث الاجتماعية دون أن يكون عالمًا اجتماعيًا بالمعنى المتعارف عليه فى أيامنا، وقد لا يكون فى المستوى نفسه عندما يتناول شؤون السياسة البحتة وإنْ كان نادراً ما تناول السياسة مُعرَّاة من مضامينها الاجتماعية.

لقد درج الفرنسيون فى الإحتفاء بأعياد المصريين دينية كانت هذه الأعياد أم وطنية. وكانت غايتهم من ذلك جذب العامة إليهم بإدخال المسرات فى نفوسهم والتقرب إلى الجمهور من أبواب الترفيه العابر. ولكن الجمهور المصرى، وهو المعروف بحبه للهو، كان عارقًا بما فرضه الفرنسيون على العامة من الغرامات، التى يستخدم لها الجبرتى لفظة الفِرْدَه، وحثهم فى طلبها، ونهبهم البيوت فى حال تأخر تسديدها،وإزعاج النساء والجوارى وغيرهن وحبسهن لإجراء المصالحات على تسويتها فى حال العجز عن تسديدها كاملة وغيرها من الأمور «الخارجة عن الحد»؛ ولذا كان حضور العامة من المسلمين منعدماً إلا «القليل من الناس البطالين حضروا فى صبحها بقلوب منكسرة ونفوس ضعيفة». ثم إن الفرنسيين أزعجتهم الشائعة لأنهم متصلة بحقيقة مؤلمة ذات مردود سياسى على استقرارهم فى مصر، ولذا تشددوا فى ملاحقة مصدرها وقطع لسان مطلقيها وكان ناقلها الأصلى نصرانيًا ولم يكن فى هذا النقل ما له صلة بالتشفى، ومن المحتمل جداً أن يكون مصدرها الخشية على سلامة الفرنسيين، ولم تكن كذلك بالنسبة للسيد أحمد الزرور التاجر فى وكالة الصابون بخط الجمالة؛ والعامة هكذا تتناقل الإشاعة الواحدة فى أغراض مختلفة. أما العقلاء الذين يمثلهم الشيخ مصطفى الصاوى عندما تدخلوا لإفتداء الرجلين النصرانى والمسلم على السواء كانوا يصدرون فى ذلك عن خلفية لها عمقها الثابت فى الرأى العام؛ ولذا فإن المسؤول الفرنسى ردّ المال للشيخ الصاوى قائلاً فرقوهم على الفقراء. وكان الشيخ بما له من رصيد لدى النخبة قد استدان المبلغ فلما أعيد رده لأصحابه.

وهكذا ترك الجبرتى ظلالاً بعيدة العمق على توجهات العامة، وفى الوقت نفسه على توجهات الرأى العام الذى مثّله الشيخ من الزاوية الدينية وما يتصل بهذه الزاوية من نزعة أخلاقية. وقد أفاد عامة الجند من ضعف روح النقد لدى عامة المصريين فاستغلوا سذاجتهم؛ إذ كثيراً ما تزيلوا بثياب الجند العثمانيين «عسكر المتولى» حاملين أوامر السلطان بجمع الأموال والكلف فيمتثل الفلاحون للأوامر، ودون إحساس عميق بالتذمر.

كانت العامة هى مستقر الحقد على الفرنسيين، ولم تكن تلك حال بقية فئات الشعب الذين كانوا يحاكمون الأمور فى روية؛ ولذا كانت العامة تفرح بانكسارات الفرنسيين فكثرت الأوامر والمناشير التى استكتبها الفرنسيون للشيوخ لدعوة العامة إلى «ترك الفضول والكلام فى أمور الدولة، وإذا مرّ عليهم جماعة من العسكر مجروحين أو منهزمين لا يصرخون بهم ولا يصفقون عليهم كما هى عادتهم» (٤٥). كانت العامة تبطن الخذلان لأهل الكفر وتنشرح وتستبشر بنصر آهل الدين،وأهل الدين باتوا بالنسبة للعامة بعد دخول الفرنسيين هم العثمانيون وكل من يؤازرهم لا سيما أمراء بلاد الشام؛ فكانوا يدعون بالنصر للجزار. فلما جاءت مناشير الفرنسيين لتخبر بسقوط العريش ويافا وتحقق أهل القاهرة من صحة الخبر «نزل بهم من الكآبة والحزن والهم ما لا يوصف.فإنهم كانوا يظنون بل يتيقنون استحالة ذلك خصوصاً فى المدة القليلة، ولكن المقضى كائن...» (٤٦). أما الفرنسيون فإنهم كعادتهم كانوا يتشددون فى العقوبة على الإشاعات التى تناقض بياناتهم ومناشيرهم؛ وكان الشيوخ المعتدلون يحرصون على تنفيذ أوامر الفرنسيين خشية من إنزال العقوبة بالعامة، وينهون الناس عن التلفظ بحق الفرنسيين وعدم الوقوع فى الفتنة لكثرة المتجسسين فلا ينتهون؛ أما الفرنسيون فكانوا، لمزيد من تأكيد هيبتهم يحتفلون بإنتصاراتهم وكثيراً ما أوهموا الناس بمثل هذه الإنتصارات. ولم تكن بياناتهم التى يلصقونها على الجدران عن انتصاراتهم فى بلاد الشام وغيرها مطابقة للحقيقة؛ إذ إبّان حصارهم لعكا اذ:ت هذه المناشير المستهلة بالبسملة وشكر الله على نعمه أن قلعة عكا فى حكم الساقطة «... أما بقية أقاليم الشام، وما يلى عكا من البلاد فإنهم لنا طائعون، وبالإعتناء ومزيد المحبة فينا راغبون، يأتوننا بكل خير عظيم، ويحضرون لنا أفواجاً أفواجاً بالهدايا الكثيرة والحب الجسيم من القلب السليم، وهذا من فضل الله علينا، ومن شدة بغضهم للجزار باشا، ونخبركم أيضاً أن الجنرال يونوت انتصر على أربعة آلاف مقاتل حضروا من الشام خيالة ومشاة فقابلهم بثلاثماية عسكرى مشاة من عساكرنا فكسروا التجريدة المذكورة، وأوقع منهم نحو ستماية واحد ما بين مقتول ومجروح، وأخذ منهم خمسة بيارق، وهذا أمر عجيب لم يقع نظيره فى الحروب أن ثلاثماية نفس تهزم نحو أربعة آلاف نفس، فعلمنا أن النصرة من عند الله لا بالقلة ولا بالكثرة» (٤٧).

فمناشير الفرنسيين بما كانت تحمله من تضخيم كانت تبغى التأثير على العامة لا بل إن ظاهر النصوص الذى كان مشبعاً بالروح الدينية الإسلامية وروح التوكل كان جزءاً من استراتجية الدعاوة الفرنسية، ولا نعتقد أن هذا النهج الدينى كانت أهدافه وتلفيقاته خافية على العامة، وكان التضخيم عاملاً من عوامل بعد العامة عن تصديق هذه المناشير وانتشار الإشاعات المضادة لمضامينها.وكانت الفضيحة الكبرى فى مناشير بونابرت عن عكا التى سرعان ما تبين زيفها.

ورافق عودة بونابرت من عكا إلى مصر سيل من الإشاعات تتركز جميعها على عودة العسكر

العثملى، لا بل إن الإشاعات كانت قد روجت أخبار مقتل بونابرت فى عكا بدليل ما جاء فى المنشور الذى وزعته السلطات الفرنسية فى الخامس عشر من شهر محرم عام ١٢١٤ بأن بونابرت دخل إلى مصر من باب النصر فى موكب عظيم «وصحبته العلماء والأوجاقات السلطانية وأرباب الأقلام الديوانية وأعيان التجار المصرية... فوجوده هو الأمير الأول بذاته وصفاته وظهر أن الناس يكذبون عليه،شرح الله صدره للإ سلام، والذى أشاع عنه الأخبار الكاذبة العربان الفاجرة والغز الهاربة، ومرادهم بهذه الإشاعة هلاك الرعية وتدمير أهل الملة الإسلامية وتعطيل الأموال الديوانية...»(٤٨) . وهذا المنشور نفسه يكذب ما شاع من قدوم العساكر العثمانية وينسب مصدر هذه الإشاعات إلى المماليك الذين يرسلون الفرمانات ويدعون أنها من طرف السلطان.

كان شعار الفرنسيين إبان غزوهم وإقامتهم فى مصر أنهم جاءوا فقط لقتال المماليك، وكانوا يتجنبون كل ما من شأنه أن يظهر العداء للدولة العلية لما كانوا يعرفونه من رصيد الدولة العثمانية فى أوساط الناس. وعندما قبض الفرنسيون بأمر من بونابرت على ملا زاده ابن قاضى العسكر وهو عثمانى لانحياز والده إلى المماليك ليولوا القضاء بدلاً عنه شيخًا من العلماء يكون من أهل مصر، تدخل أعضاء الديوان من الشيوخ والأعيان للإفراج عنه، وخاطب الشيخ السادات رئيس الديوان بقوله: «إنكم تقولون دائماً إن الفرنساوية أحباب العثملية، وهذا ابن القاضى من طرف العثملى فهذا الفعل مما يسيء الظن بالفرنسوية ويكذب قولهم عند العامة، فأجاب الوكيل بعد ما ترجم له الترجمان بقوله لا بأس بالشفاعة ولكن بعد تنفيذ أمر صارى عسكر فى اختيار قاض خلافه، فامتثلوا وعملوا القرعة فطلعت الأكثرية باسم الشيخ أحمد العريشي الحنفى...»(٤٩) . وبعد أن قلده أعضاء الديوان الفرنسى الفروة المثمنة نزلوا جميعاً إلى دار السيد أحمد المحروقى وأفرجوا عن ملازاده ومشوا معه فى وسط المدينة ليراه الناس ويبطل القال والقيل؛ لا بل إن بونابرت فى خطابه للسادات يتبرأ من عزل القاضى العسكرى العثمانى؛ فهذا القاضى هو الذى هرب من إقليم مصر وخان صحبة الفرنسوية وإحسانهم ولكى لايبقى مركز قاضي العسكر شاغراً، كان لا بدّ من اختيار البديل الذى يحكم بين الناس، «فاستحسنت أن يجتمعوا علماء المسلمين ويختاروا باتفاقهم قاضياً شرعياً من علماء مصر وعقلائهم لأجل موافقة القرآن العظيم باتباع سبيل المؤمنين، وكذلك مرادى أن حضرة الشيخ العريشى الذى اخترتوه جميعاً أن يكون لابسًا من عندى وجالساً فى المحكمة وهكذا كان فعل الخلفاء فى العصر الأول باختيار جميع المؤمنين...»(٥٠).

كان الجبرتى شديد القسوة على الفرنسيين فى مظهر التقديس، وهو فى ذلك يعكس إحساساً جماهيرياً مصرياً صادقاً؛ وكان فى كتابه عجايب الآثار جـ ٤ وهو نسخة معدّلة لمظهر التقديس، أكثر رأفة بهم، وذلك لأن الجبرتى بعد أن شهد الصراع التركى المملوكى المتمثل بالوجود الإنجليزى بعد خروج الفرنسيين بات «أدق وأكثر نقداً لسير الحوادث ورجالها مما كان عليه قبل الحملة»(٥١)، وقد أحصى الدكتور محمد محمود السروجى المفارقات بين مظهر التقديس والجزء

الرابع من عجائب الآثار(٥٢) فوجدها فى واحد وثلاثين فقرة فمنها اثنتان وعشرون فيها تراجع عن سبّ الفرنسيين. وقد كان الجبرتى فى ذلك مدفوعاً بخيبة الأمل التى أصابته بعد عودة العثمانيين وانتشار الفوضى والاضطراب، مما جعله يدرك أن الحكم الفرنسى لمصر لم يكن شراً كله بل رأى فيه وهو الأجنبى بتقاليده وثقافته وحضارته ما يفضل الحكم العثمانى رغم الاشتراك فى المنابع الموحدة بين المصريين والعثمانيين، وقد استرعى انتباهه مفهوم العدالة عند الفرنسيين التى تجلت فى محاكمة سليمان الحلبى قاتل الجنرال كليبر بخلاف ماراه بعد عودة الجنود العثمانيين من صنوف التعديات على حرمات الناس «من أفعال أوباش العساكر الذين يدعون الإسلام يزعمون أنهم يجاهدون وقتلهم الأنفس وتجاريهم على هدم البنية الإنسانية بمجرد شهواتهم الحيوانية مما سيتلى عليك بعضه بعد»(٥٣).

كان دخول الفرنسيين حدثاً جديداً فى حياة المصريين على اختلاف طبقاتهم وطوائفهم، ولم يكن لهذا الغزو ما يربطه بما وعاه المصريون من أخبار الغزو الصليبى؛ فارتباطهم بالمسيحية لايعدو كونه ارتباطاً قسرياً، أو كما يقول فيهم الشيخ عبدالله الشرقاوى كبير أرباب الديوان الذى أسسه نابوليون فى مصر: «وحقيقة حالة الفرنساوية الذين حضروا إلى مصر أنهم من الفلاسفة الإباحية الطبائعية، يقال لهم نصارى قاثولقية يتبعون عيسى عليه السلام ظاهراً وينكرون البعث والدار الآخرة»(٥٤)، ويصفهم الجبرتى بالإلحاد: «فهؤلاء الأقوام خالفوا النصارى والمسلمين، ولم يتمسكوا من الأديان بدين، فتراهم دهرية معطلين، وللمعاد والحشر منكرون، وللنبوة والرسالة جاحدون...»(٥٥). وقد كانت قوتهم العسكرية فوق ما توقعته العامة والخاصة، وسيطر على أذهان القاهريين الذين سمعوا بفتح الإسكندرية وفرار المماليك فى أنبابه أن الغازى الجديدلابدّ مستبيح مدينتهم، فخرجوا منها هلعين ثم ساورهم الاطمئنان إثر اتصال الشيوخ ببونابرت وتأكيد هذا القائد أنه لم يأت لقتال المسلمين بل استئصال شأفة المماليك الذين زرعوا الخراب فى إقليم مصر واساءوا معاملة التجار الفرنسيين.

وإن كان القاهريون وقياداتهم الدينية لم يصدقوا أكذوبة بيانات بونابرت فى ادعائه بأن القادمين مسلمون وشككوا فى حب الفرنسيين للإسلام وصداقتهم للباب العالى، فإنهم بدافع من طلب الحماية والاستقرار انفتحوا على الفاتح الجديد رغم الاختلاف التام فى اللغة والتراث الحضارى والعادات والتقاليد. وقد تكون الحملة العلمية التى رافقت الحملة العسكرية من العوامل الكبيرة فى التمهيد لهذا اللقاء بين الحضارتين، وكان الديوان الخصوصى المؤلف من بعض كبار المشايخ والديوان العمومى المؤلف من أصحاب الحرف والتجارب بداية لنوع من الحكم الأهلى الذى يستشار فيه أهل العقد والحل رغم خشية الشيوخ ميل الفرنسيين إلى إصدار تشاريعهم وفقاً لمعطيات العقل البشرى.

ولكن هذا الانفتاح عطله عاملان يرتبط الواحد منهما بالآخر: انكسار الأسطول الفرنسى تحت ضربات الأسطول الإنجليزى وحصار الإنجليز لميناء الإسكندرية، ومنع الجيوش الفرنسية فى مصر من الاتصال بفرنسا للتزود بما تحتاج إليه من زاد

ومال وعتاد، وهذا ما اضطر القيادة الفرنسية فى مصر إلى المبالغة فى فرض الضرائب المحلية على الأهالى والتعسف فى سبل تحصيلها، ثم إن انقطاع المدد جعل الجيوش الفرنسية تتمرد فى كثير من الأحيان على الانضباط العام وتسىء لممتلكات المصريين فى حياتهم. وهذا ما جعل نقمة الجماهير المصرية تتجاوز حدود قدرة الشيوخ على ضبط الأوضاع وفقاً لرغبة القيادة الفرنسية، هذه النقمة التى بلغت أوجها فى ثورتى القاهرة وعجز الشيوخ عن الحؤول دونها ووصفها الجبرتى بالفتنة.

وعلى الرغم من أن علاقة الشيوخ بالفرنسيين تراوحت بين المداراة والإعجاب بعلوم الفرنسيين ونظمهم الإدارية، فإن هؤلاء الشيوخ كانوا يتوجسون خيفة من الأقليات الدينية من الأقباط والأروام والشوام الذين عظمت مكانتهم إثر استخدام الفرنسيين لهم فى الشرطة والأعمال الإدارية وتمردوا على القيود الاجتماعية التى درجوا على الالتزام بها من حيث اللباس والركوب والامتناع عن كل ما من شأنه أن يشكل تحدياً للمكانة الاجتماعية للمشايخ المسلمين ثم عاد الفرنسيون إلى إلزامهم بها اجتذاباً لمشاعر الجماهير المسلمة لاسيما الطبقة المثقفة من العلماء التى سعى الفرنسيون إلى امتصاصها فى أجهزة الإدارة الجديدة بعد أن أزالوا النبالة التركية، فرجع النصارى الشوام «إلى عاداتهم فى لبس العمايم السود والزرق، وتركوا لبس العمايم البيض والشالات الكشمير الملونة والمشجرات، وذلك بمنع الفرنسيس لهم من ذلك ونبهوا أيضاً بالمناداة فى أوائل رمضان بأن نصارى البلد يمشون على عادتهم مع المسلمين أولاً، ولا يتجاهرون بالأكل والشرب فى الأسواق، ولا يشربون الدخان فى الأسواق ولا شيئًا من ذلك بالمرة، كل ذلك استجلاباً لخواطر الرعية»(٥٦).

كان أهل الذمة يشكلون قطاعًا واسعاً من الجمهور المصرى، ولكنه قطاع فرضت عليه التقاليد الدينية والدنيوية أن يحتلوا المرتبة الثانية بعد المسلمين فى سلسلة التراتب الاجتماعى الطبقى، وهو تراتب تجلى فى مظاهر السلوك العام مثل إجبارهم لبس العمائم السوداء والزرقاء تمييزاً لهم من المسلمين الذين يلبسون العمامة البيضاء، والسير فى الطرقات على الجانب الأيمن، وحرّم عليهم المرور أمام المساجد وهم يركبون دابة وغير ذلك من القيود المرتبطة بالحرية الإنسانية (انظر فى ذلك عهد عمر)؛ ولا شك أن وضعاً كهذا كان لابدّ أن يشكل حالة من الكبت النفسى تفجّر عند العامة مع مجىء الفرنسيين، وكانت هذه الأعمال فى نظر المسلمين الذين استقر فى وجدانهم أن أهل الذمة يشغلون مرتبة اجتماعية دون مرتبتهم، تشكل خرقًا لحرمات دينية؛ وهذا ما دفع بالجبرتى إلى أن يرصد سلوكهم فى كثير من الغيظ؛ فذكر الجبرتى من بين مصائب العام الأول للحملة الفرنسية «ترفع أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود وركوبهم الخيول وتقلدهم بالسيوف بسبب خدمتهم للفرنسيس ومشيهم الخيلاء، وتجاهرهم بفاحش القول واستذلالهم المسلمين»(٥٧).

وكان من المرات القليلة التى أثني فيها الجبرتى على الباشا عندما منع الأقباط من الخروج عن الحد وتمني لهذا النهى أن يدوم(٥٨). ولاشك أن هذه

النزعة كانت طبقية استعلائية تلبّست ثوب المحافظة على الكرامات الدينية، لأن الجبرتى يكتفى بالإيماءات إلى بعض المسلمين، وخاصة الجنود العثمانيين - الذين لم يكونوا يلتزمون بأى قيود دينية فيجهرون بالإفطار فى رمضان «فضلاً عن تحللهم الجنسى ومظالمهم الأخرى، لدرجة أن أحد الجنود زنا بامرأة فى أحد المساجد فى ظهر يوم من رمضان»(٥٩).

ولكن مهما قيل فى أمر هذا الصراع الطائفى الذى كان الفرنسيون حريصين على ألاّ يستفحل برد أهل الذمة إلى سابق ما كانوا عليه من العادات قبل مجيئهم حريصين على الظهور بمظهر احترام التقاليد والاحتفال بالأعياد الدينية والقومية، فإن وجود الفرنسيين أحدث خللاً فى تركيبة المجتمع القاهرى القديم، كما أسهم فى بروز تشكيلية منوّعة فى الرأي العام تراوح بين المحافظة والاستسلام؛ إذا انقسم الناس بين مشايع للفرنسيين ومتردد فى هذا المشايعة، وبين ثورى مصمم على قتالهم دون هوادة، ونفعى يربط الأمور بما تدرّ عليه من مكانة ومال، لا بل بلغت موالأة جمهرة من المسلمين للفرنسيين حد الارتداد عن الدين الإسلامى وكانت وسائل الدعاية الفرنسية عنصراً مهماً فى تشكيل هذا الرأي العام الجديد وكانت هذه الدعاية على أنواع كجذب الفئات المثقفة إلى مكتبات الفرنسيين ودور التجارب العلمية وحضور الحفلات العامة فى المناسبات الرسمية والتأثير على العامة بواسطة المنشورات أو «الطومارات» التى كثرت مناسبات تعليقها فى الأسواق، ومقاطع الطرق والمنعطفات وأبواب المساجد.

ثورات القاهرة وتبدل الولاءات السياسية لدى الجماهير المصرية

١- الجماهير القاهرية وتوزعها الاجتماعى والطبقى وموقفها من الغزو:

أ- الأرستوقراطية المصرية من المماليك:

كانت القاهرة عند قدوم الحملة الفرنسية تعيش امتداد حياتها القروسطية؛ «مدينة شرقية أنشأتها عوامل الضعف والخمول والتدهور التى ألمت بمصر خلال حكم المماليك والبكوات والولاة العثمانيين... بعد أن كانت قاعدة لسلطة مملوكية ازدهرت خلالها بالعمائر الدينية والمدنية والقصور والدور...»(٦٠). وإثر ثلاثة قرون من ازدواجية الحكم العثمانى المملوكى والمشاحنات بين أمراء المماليك هجرت دور كثيرة لأمراء الدولة المملوكية وحكامها، وباتت مساكن يلجأ إليها فقراء الناس وبينهم عدد كبير ممن يسميهم الجبرتى المشعوذين والزعر والجعيدية. وكان تتابع الفتن وتوالى المحن سببًا فى تزايد أفراد هذه الطبقة، رغم أن عدد سكان القاهرة كان قد انخفض فى أواخر القرن الثامن عشر إلى قرابة ٢٦٠ ألف نسمة حسب تقدير العالم الفرنسى جومار، الذى اشتملت القاهرة فى أيامه على مساحات فسيحة من الأرض الفضاء والأرض المزروعة والخرائب التى انتشرت فى وسطها الأحواش أو المساكن الفقيرة، أما الطبقة الارستوقراطية الجديدة فكانت موزعة على ثلاث مناطق سكنية تفصلها عن بعضها الخرائب والمزارع؛ هى القاهرة الفاطمية وضاحية بولاق ومصر القديمة. وفى وسط القاهرة تجمعت غالب صناعات الحرف، والنشاطات التجارية، وتجارة

المنسوجات، والوكالات والخانات والمصنوعات النحاسية التى تجذب بدقة صناعتها جماعات المشترين من عرب وأفارقة وأوروبيين، فيما انسحبت الصناعات التى تسبب إزعاجاً للسكان كمعاصر الزيوت ومخازن الفَحْم وخشب الوقود إلى تخوم المدينة. «أما عن توزيع الأحياء السكنية بوجه عام، فنلاحظ أن أسرات الشيوخ الأغنياء والتجار الميسورين، كانوا يفضلون سكنى القاهرة الفاطمية على مشارف الأحياء التجارية وبالقرب من الأزهر.. وكذلك بركة الأزبكية التى كانت فى أيام الجبرتى وقبله المركز المفضل للاصطياف كشواطىء الخليج المصرى. وكان أبناء الطبقة الحاكمة من البكوات وضباط الوجاقات ينتقلون تدريجاً من مساكنهم حول القلعة إلى بركة الفيل، وفى النهاية إلى الأحياء الجديدة وراء الخليج، مع تفضيل لضواحى بركة الأزبكية التى كانت تتطور لتصبح قرابة عام ١٧٩٨م. الحى الأرستوقراطى المفضل. وكانت الأحياء الشعبية أو الفقيرة إلى حد ما تتناثر فى المنطقة المتاخمة غرب باب اللوق وجنوب وشمال المدينة...»(٦١).

وهكذا أخذت المناطق الأكثر احتفالاً بالماء منذ أواسط القرن الثامن عشر تجذب إليها الطبقة الأرستوقراطية الجديدة من أمراء المماليك وتجار وشيوخ، وتحولت منطقة بركة الفيل من ملكية جماعية إلى ملكيات خاصة، ومن منطقة زراعية واسعة يستثمرها الفلاحون فى زراعاتهم الشتوية إلى بقاع سكنية، ولم يبق من أراضى هذه البركة بغير بناء فى ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م. كما يذكر الجبرتى، إلا قطعة أقيم عليها فيما بعد قصر حلمى الأول والى مصر الذى عرف بسراى الحلمية وحديقته الكبيرة. والأمر نفسه يقال عن بركة الأزبكية التى جذبت إليها فى أواخر القرن الثامن عشر أبناء الطبقات البورجوازية الذين كانوا يقيمون فيها بأعداد كبيرة وبينهم عدد من الشيوخ من أمثال عبدالله الشبراوى، ومحمد الجزايرلى، وأحمد الحموى، وازدحم الشط الشمالى الشرقى للبركة بأرستوقراطية القبط، فيما اتجهت الأرستوقراطية المسلمة من الأمرا والأعيان نحو رصيف الخشاب غرب الأزبكية حيث شيّد على بك الكبير حوالى عام ١٧٧٠م. قصره التاريخى لسكنى زوجته الست نفيسة الذائعة الصيت فى تاريخ القرن الثامن عشر وتاريخ الحملة الفرنسية، وشيد محمد بك الألفى عام ١٧٩٧ قصره المهيب، ليصبح إثر خروج المماليك من القاهرة سكنًا لبونابارت وللجنرال كليبر من بعده. وهكذا «ومنذ أواسط القرن الثامن عشر بدأ البكوات يتركزون حول كل من بركة الفيل وبركة الأزبكية وهما أكثر «برك» القاهرة وأكثرها امتلاءً بالماء ــ مصدر انتعاشهم ــ فى معظم أوقات السنة، إذ بلغت نسبتهم هناك ٥٣٪ فيما بين عام ١٧٥٥ وعام ١٧٩٨ وارتفعت إلى ٥٨٪ عام ١٧٩٨، وعند نهاية القرن، كان كل واحد من البكوات الذين كانت لهم حرية واسعة فى الاختيار بين عدة بيوت ــ يمتلك على الأقل داراً فى ضواحى بركة الفيل، وعادة فى حى قوصون، وأخرى فى الأزبكية. وعلى سبيل المثال، كان لعلى بك الكبير ثلاثة بيوت، ولمحمد بك أبوالدهب اثنان، ولإسماعيل بك اثنان، أما مراد بك فكان له ستة بيوت، وكان لمحمد بك الألفى العدد نفسه، ولمرزوق بك أربعة، ولإبراهيم بك الكبير خمسة»(٦٢).

وهكذا، ففي نهاية القرن الثامن عشر باتت هنالك مناطق منفصلة لسكنى الأرستوقراطية المصرية، وكانت بركة الفيل هي حيهم المفضل، وقد خصها الجبرتي بجزء كبير من كتابه عجايب الآثار، تليها بركة الأزبكية التي كانت دورها حافلة بالمشربيات والشبابيك الخرط، وكانت على الحافة الشرقية للبركة دور الشّرايبي والتي يقول فيها الجبرتي(٦٣) إنها إحدى دور المجد، ألحقت بها مكتبة قيمة حفلت بكتب العلم، وسمح لمن أراد الإطلاع عليها أن يطالع ما شاء من المكتبة أو يستعيره خارجها. وكانت الناصرية حيّاً للكُشّاف، وكان قاسم بك أبوسيف الذي أراد أن يجعل من حي الناصرية حياً حديثاً قد بنى فيها قصراً عرف باسمه «يشغل مساحة كبيرة من أراضي البركة الناصرية، وكان يفتح قصره للناس، وكانت تحيط بالقصر وتَشُقُّ أرجاءه قنوات المياه التي تصل إلى البركة أيام فيضان النيل، وأحْكَمَ جريان الماء في قنوات مرتفعة، وغرس فيها الزهور والفواكه والأشجار والنخيل ونسق بها جلسات مفروشة لخاصته ظللها بالزهور»(٦٤).

كانت الأرستوقراطية المملوكية مولعة ببناء القصور والدور الفخمة في تلك الأحياء الجديدة التي جعلتها مقراً لسكناها، متنافسة في إتقان صنعتها وتأثيثها بالعجيب من صنوف الرياش.. وهذا المنافسة في مظاهر البناء السكني انخرط فيها الشيوخ؛ فكان للشيخ حسن الجبرتي والد عبدالرحمن ثلاثة منازل في القاهرة أحدها بالابزارية على شاطيء النيل، والثاني تجاه جامع مرزه جوربجي ببولاق والثالث في خطة الصنادقية شمال غرب الجامع الأزهر، وبعد وفاة الشيخ حسن رأي وريثه الشيخ عبدالرحمن عام ١١٩١هـ./١٧٧٧م. أن يهدم بيت والده في الصنادقية ويبنيه من جديد على غير الطراز الذي كان عليه في أيام أبيه تجد وصفًا مفصلاً له فيما رواه خليل شيبوب(٦٥) عن تقسيم حجراته بعضها لسكنى الخدم والعبيد وبعضها للضيوف والاستراحة وواحدة منها بالغة الاتساع للطلبة وانعقاد حلقات التدريس، وزيّن سماءها وجدرانها بالخشب المفحور والمنحور وأنواع القاشاني الملون، وكسا أرضها بالسجاجيد ناشراً عليها الطراريح الحريرية، وحشد فيها التحف المنثورة في الزوايا والمعلقة على الجدران، وأضاءها بأنواع الثريات المغصّنة بالبلور والشّماعد الوهّاجة، وكسا جميع زواياها والأركان والرحاب بصنوف الرياش الغالي والأثاث الثمين، تلك الدار التي وصفها الشيخ مصطفى أحمد الصاوي بأنها بيت على التقوى في قصيدته التي طرزها الجبرتي على قطعة من الحرير علقها بصدر المجلس ومنها قول الصاوي:

مكان على التقوى تأسس مجده
ومن سُور التوفيق والهَدْى سوره

وفي هذه الدار كان عبدالرحمن الجبرتي يلتقي أستاذة مرتضى الزبيدي، وإخوانه الأشياخ والمجاورين، وينظم حلقات التدريس إلى جانب تلك التي كانت تنعقد له في الأزهر. وتلك الظاهرة في ابتناء المشايخ للدور هي ظاهرة تاريخية في مصر منذ عهد الفاطميين، ولم يكن الشيوخ يرون في أرستوقراطية بنائهم ما يخالف تعاليم دينهم أو ما يباعد بينهم وبين الرعية؛ فالشيخ عبدالله الشرقاوي وهو من أعاظم علماء عصره والذي تولى مشيخة

الأزهر لمدة طويلة كانت له دار عظيمة فى الأزبكية أنفق عليها أموالاً كثيرة، وجمع فيها التحف النفيسة والكتب النادرة التى عنى بتجليدها. ومثلها دار الشيخ محمد المهدى بناحية الموسكى على الخليج، والتى كانت بها قاعات فسيحة، كسيت جدرانها وأرضها بالرخام الملوّن والقيشانى، واشترى فى آخر عمره داراً له فى الكحكيين، وأخذ فى توسيعها وتجديدها، وكانت إلى جوارها زاوية قديمة بها مدافن فهدّمها وأدخلها فى داره.

إن الحديث عن تلك الدور يشكل جانبًا من حياة أرستوقراطية متنعمة قوامها النخبة من الأمراء المماليك والوجاقلية العثمانية وكبار التجار المصريين والطبقة العليا من شيوخ الأوقاف وأصحاب الالتزامات الكبيرة؛ فقصور المماليك كانت أكثر صلوحًا لإقامة القيادات العسكرية الفرنسية ورجالات البعثة العلمية من مراكزها الأصلية فى فرنسا؛ فاتسع قصر محمد بك الألفى لأن يكون مسكنًا لبونابرت ومقراً لقيادته، كما اتسع دار إبراهيم كتخدا السنارى، أحد أعيان القاهرة، لأن يصبح مركزاً لمصورى الحملة الفرنسية وعلمائها؛ وفى هذا الدار عملت البحوث والرسوم التى نشرت فى كتاب وصف مصر؛ وفى قصر حسن كاشف جركس أقام الفلكيون والمديرون والمهندسون وأهل الحكمة، وفيه عقد المجمع العلمى المصرى الذى أنشأه الفرنسيون أولى جلساته، وسجل «جوفروا سان هيلر» انطباعاته عن هذا القصر فى واحدة من رسائله المنشورة فى كتابه «رسائل من مصر» بقوله: «عدت من المجمع العلمى بالقاهرة وهو يتألف من قصرين من قصور البكوات حسن كاشف وقاسم بك وبيتين من بيوت الأغنياء، وهذه الدور المتجاورة التى يسكنها العلماء ورجال الفن، فيها من الراحة ما لا يقل عن قصر اللوفر، أما قاعة جلسات المجمع فإنها مزدانة بأجمل ما فى قصور المماليك من الأثاث. وكان قصر مراد بك بالجيزة مرشحاً من قبل بونابرت لأن يكون مستشفي عسكرياً، ثم عدل عن هذه الفكرة ونقل المستشفى إلى قصر إبراهيم بك (القصر العينى تجاه الروضة)، ثم اتخذ بونابرت قصر مراد بك معسكراً له. وفى دار عثمان بك الأشقر أنشئت مطبعة جيش الشرق التى عهد بإدراتها إلى المستشرق «مارسيل»، وفى بيت كاشف أقام فيه بداية الأمر الجنرال «كافاريللى» وزميله الجنرال «ديترو ى» ثم غادراه إلى بيت رحب كان يمتلكه الأمير رضوان، له ردهات رحبة وإيوانات واسعة ونافورات جميلة وأحواض من المرمر البديع، وكان الكيماوى «برتوليه» فى بيت كاشف الكبير بحى عابدين. ومن هذا العرض يتبين كيف اتسعت دور أسست فى الأصل للسكن لأن تستوعب إدارات الدولة لحملة فرنسية هى الأكبر عدداً فى تاريخ الغزو الاستعمارى، وكانت هذه الدور لشهرتها موضوعاً لوصف الجغرافيين والفنانيين الفرنسيين واستأثرت باهتمام أولئك الذين اطلعوا على كتاب «وصف مصر» من المفكرين والرحالة الأوروبين.

ب- طبقة الشيوخ والجماهير:

وقد يكون من التجاوز بمكان أن نعتبر هذه الأرستوقراطية المملوكية والعثمانية، التى تميزت بمستوى اقتصادى مرتفع وأسلوب فى المعاش والتفكير تدل عليه قصورهم وأزياؤهم وحاشيتهم،

طبقة منفصلة عن سائر طبقات المجتمع القاهرى. فهذه الطبقة كانت موصولة، سواء بحكم مصالحها، أو أساليب عيشها، بالطبقة التى تجاورها فى الترتيب الهرمى الهابط، وكان الجبرتى على حق عندما كان يسمى أمراء المماليك بالأمراء المصريين لفرط التداخل القائم بين طبقة هؤلاء وطبقة كبار المشايخ والتجار. والتقسيم الذى وضعه المقريزى لأهل مصر فى عصره فى كتابه «إغاثة الأمة» ظل يحتفظ بصورته دون كبير تغيير فى نهاية القرن الثامن عشر مع مجىء الفرنسيين، هذا إذا استثنينا طبقة الحاكم من المماليك الذين فروا إثر مجىء بونابرت ولم يحتفظوا لدى جمهورة الناس إلا بالوجود المعنوى الضئيل؛ فالمقريزى قسم طوائف المجتمع المصرى لعهده إلى: «أهل الدولة من المماليك، وأهل اليسار من التجار، ومتوسطو الحال من الباعة، والسوقة وأهل الفلح، والفقهاء ويشملون طلاب العلم، وأرباب البضائع وذوو الحاجة، كما يشمل الأعراب وأهل الذمة والأقليات الأجنبية».

وقد عدّلت الدكتورة حكمت أبوزيد هذه الصورة بالاستناد إلى عرض الجبرتى لمواقف الطبقات والطوائف المختلفة فى عصره ورأت أنه «لابد من إخراج طائفة الأعراب والفلاحين، وطبقة الحكام من المماليك والعثمانيين؛ أما طائفة الأعراب فيعود إخراجها إلى أن مجالها المكانى خارج إطار القاهرة الجغرافى، على الرغم من أن القاهرة لم تخل على عهد الجبرتى من فئة منهم يهددون سكانها وينهبون ويسلبون... مثل عرب الجعيدية الذين أذلوا القاهريين فضجّوا منهم بالشكوى، واضطر الفرنسيون لقتل زعيمهم غداة استقرارهم بالعاصمة، وأما أهل الفلح أو الفلاحون فهم أيضاً خارج إطار المدينة الاجتماعى والجغرافى، حتى أولئك الذين يتعاملون مع أهل العاصمة بصفة دائمة. أما الفئة الثالثة وهى طبقة الحكام من المماليك والعثمانيين، فلم يعد لهم وجود مادى أيام الحملة الفرنسية وإن لم ينته وجودهم المعنوى، فلقد آثر بعضهم البقاء فى القاهرة بعد أن صالح الفرنسيين على بعض المال وإن أقصاهم الفرنسيون تدريجياً عن مراكز الحكم المهمة، واستعانوا بالمصريين فى كل مكان خلا منهم»(٦٦).

وهكذا، فإن البناء الهرمي الجديد بعد دخول الفرنسيين واستقرارهم فى القاهرة والذى يتمثل فى المصريين تتربع فيه الفئة المثقفة من الشيوخ مكان الصدارة، فهذه الفئة كانت قبل مجىء بونابرت تتسنم مراكز قيادية سواء فى المؤسسات الدينية ذات الصفة الإدارية، كالإفتاء والقضاء ونقابة الأشراف وإدارة الأوقاف وغيرها، ناهيك عن موقعها المعنوى كجماعة الحل والربط التى أوكلت إليها المحافظة على تطبيق الشريعة ليس بين العامة وحسب، بل فى وجه الحكام إذا اقتضى الأمر وحدث تذمر عميق لدى جمهرة الناس يدفع بأولئك الشيوخ إلى الوساطة، وإلى هذه الفئة كان ينتسب عدد من طائفة التجار الموسرين، وكانت رياسة طائفة الحرفيين والصناع، مرتبطة بهم بهذا الشكل أو ذاك، فيما كانت طبقة العوام أشد

ارتباطاً بزعماء الفرق الصوفية كالأحمدية والرفاعية وغيرها، وكان بين هذه الطرق من استغل زعماؤها الدين سبيلا للارتزاق، وكان لأولئك الزعماء جماهيرهم التى كانت تنخدع بشعوذتهم، وبلغ طغيان نفوذ أولئك الزعماء حداً مكنهم من اتخاذ أعياد كانت وقفاً عليهم وعلى أتباعهم وتؤمها جماهير من الطبقات الأخرى مثال ما ابتدعه السيد البدوى القبانى لمولد الحسين الذى دام أكثر من عشر سنين، والقبانى هذا كما يصفه الجبرتى «كان قد اعتراه مرض الحب الإفرنجى فنذر على نفسه هذا المولد إن شفاه الله تعالى، فحصلت له بعض إفاقة فابتدأ به وأوقد فى القبة والمسجد قناديل وبعض الشموع ورتب، فقهاء يقرأون القرآن بالنهار ومدارسته واخرين بالمسجد يقرأون بالليل ودلائل الخيرات للجزولى، ثم زاد الحال وانضم إليهم كثير من أهل البدع كجماعة العفيفى والسمان العربى والعيساوية، فمنهم من يذكر الجلالة ويحرفها وينشدوا لهم قصائد ومواليات، ومنهم من يقول أبياتاً من بردة البوصيرى يجاوبهم آخرون مقابلون لهم بصيغة صلاة على النبى صلى الله عليه وسلم...»(٦٧).

وعلى الجملة، كانت القيادة الجماهيرية فى مصرفى أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر موزعة بين أولئك الشيوخ على مختلف مستوياتهم الاجتماعية والثقافية؛ فمصر كانت بمن توافر إليها من الطوائف الدينية الإسلامية على اختلافها مركز تجمع دينى لا يضاهيه مركز فى مختلف أقطار العالم الإسلامى، وكما تمثل فى هذه الطوائف، النشاط العلمى، تمثل فيه من جانب آخر كل ما تساقط إلى الدين من خرافات؛ فمصر كانت هى موطن الهجرات الشامية والعراقية إثر غزو التتار لهذه الأقطار، وقريبا من هذا الزمن تعرض مسلمو الأندلس لمحنة الأسبان والبرتغاليين فولوا أنظارهم باتجاه القاهرة، وهكذا تفاعلت على أرض مصر تيارات إسلامية متعددة المشارب من مماليك وعثمانيين وشأميين ومغاربة وأفارقة من السودان وغيرها، كانت مصر ملاذا لهذه الهجرات، وعلى أرض مصر جرى تفاعل تاريخى طويل الأمد بين الهجرات الهاربة من مواطنها الأصلية وبين الجماهير المصرية التى استيقظت فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر على مطالبها الاجتماعية والاقتصادية إثر ما حل بها من استغلال المماليك وما أحدثته منازعاتهم فيما بينهم من صنوف الخراب وبوار الزراعة، وكان الشيوخ هم الفئة التى يلجأ إليها جمهور الفلاحين وصغار العمال والتجار لإزالة الحيف اللاحق بهم، وكانت هذه الشكاوى قد بلغت حدا فى كثافتها فى نهاية القرن الثامن عشر، وأخذت الثقة الجماهيرية بوسطائها من الشيوخ يتسرب إليها الاهتزاز؛ إذ كثيراً ما اتخذ التعبير عن السخط الجماهيرى شكل انتفاضات يضطر معها الأمراء المماليك إلى طلب مساعدة الشيوخ فى تهدئة هذه الانتفاضات، ومع مجىء الفرنسيين وقضائهم على سلطة المماليك بات الشيوخ هم الممثلون الفعليون لإرادة هذه الجماهير التى شاركت فى الدفاع عن البلاد وشعرت بوزن مكانتها الاجتماعية بعد تخلى المماليك عن واجبهم فى الدفاع عن مصر وفروا هاربين من وجه الفرنسيين.

٢ - اتساع رقعة التناقضات الطبقية في المجتمع المصرى بعد دخول الفرنسيين، ولجوء الجماهير إلى قيادات تحمل لواء الثورة

أ - الجماهير الشعبية ومبدأ الرفض للغزو:

أحدث الغزو الفرنسى يقظة اجتماعية لم تنج منها طبقة من طبقات المجتمع المصرى، فالمصريون الذين عاشوا ثلاثة قرون فى ظل الحكم المملوكى والعثمانى بعيدين عن أية مشاركة سياسية فى أى قرار على مستوى السلطة وجدوه أنفسهم عشية الغزو فى موقع ملء الفراغ الذى خلفه غياب المماليك والعثمانيين، لاسيما وأن الجماهير المصرية كانت قد أسهمت فى صد الغزو عن بلادها وتطلعت الى نماذج من الاستبسال الوطنى فى وقائع الإسكندرية ورشيد وأنبابه والوجهين القبلى والبحرى، وكانت تلك الوقائع التى شدت إليها عناصر من المقاتلين الذين توافدوا من الأقاليم المتباعدة لنجدة إخوانهم، نوعاً جديداً من التضامن القومى لم تعرفه مصر من قبل، وكانت الانكسارات العسكرية المتلاحقة التى منيت بها الجماهير المصرية عامل يقظة على جوانب الضعف الإدارى والعسكرى لحكام مصر الأولين، وبان لتلك الجماهير أن أولئك الحكام لم يكونوا أقوياء إلا فى ظلمهم للرعية، وكان الاهتمام الشعبى يتسقط أخبار المعارك الوطنية نافذة لتسقط ما يجرى فى أطراف القطر لاسيما فى الإسكندرية من الاقتتال الدائر بين الفرنسيين والإنكليز وما يجرى فى الوجه القبلى والبحرى من معارك وحشية بين الاهالى والفرنساوية، كما كانوا يتسقطون أنباء المعارك الدائرة فى بلاد الشام بين بونابرت وأمراء تلك الممالك، وليس أدل على اهتمام الجمهور المصرى بهذه المعارك وفرة المنشورات التى كانت القيادة الفرنسية تدبجها عن انتصارات الجيش الفرنسى وملاحقتها للشائعات المضادة التى كانت تسرى بين الناس منزلة بمروجيها أشد أنواع العقاب.

وإن كانت الجماهير المصرية أبدت ارتياحها لخلاصها من استعلائية المماليك وعبثهم بمصالح الناس (والذين كانوا بدورهم: انسوا المصريين ظلم العثملى بما قارفوه من استبداد واستغلال)، فإن هذا الارتياح كان مشوبا بشيء من الحزن والكثير من عدم الاطمئنان؛ أما الحزن الممزوج بالألم فهو نتيجة لما تقتضيه طبيعة الحنين الذى كان تحمله الجماهير المحافظة بطبيعتها، لماض ألفته ودرجت عليه فى معاملاتها وسلوكها اليومى؛ وأما عدم الاطمئنان، فلأن الغزاة هم من الكفرة لم يكن يربطهم بتاريخ الأمة رابط من اللغة أو العادات أو الدين، وإن كان الفريق المنور من الجمهور استطاع أن يدرك إدراكاً مشوشا مبهما أن أولئك الكفرة الجدد لا يدينون بالمسيحية كما لا يدينون بالإسلام «وأنهم يتبعون عيسى عليه السلام ظاهراً وينكرون البعث والدار الآخرة» كما يقول الشيخ عبدالله الشرقاوى (٦٨) . فإن هذا المجهول ظل يثير لدى عامة الناس شعورا بالخوف لم تبدده مناشير بونابرت الزاعمة بأن ديانة الفاتحين الجدد هى الإسلام فى جوهر تعاليمه، وظل الشعور الدينى لدى العامة ـ ضمن عوامل أخرى ـ يمثل حاجزا دون اختلاطها الاجتماعى والثقافى بالفرنسيين، لاسيما وأن الحقبة القصيرة التى قضاها الفرنسيون فى مصر لم يتح لها من الاستقرار ما يكفى

لحدوث مثل هذا الاختلاط الهادىء والانفتاح على الوافدين الجدد، وكانت سيطرة الأمية على العامة عاملاً آخر من عوامل التحفظ، تحفظ الفرنسيين إزاء العامة لسرعة انقيادها إلى التطرف الدينى فى مفهومه السياسى، وتحفظ العامة الذين ظلوا متشككين بهذا الوافد الدخيل ونواياه، ولم يرشحها تقرب الشيوخ الأعلين من هذا الوافد إلا لمزيد من الابتعاد عنه، ومزيد من الريبة فى سلوك الشيوخ أنفسهم.

ب - الضرائب تؤجج نار الثورة:

وموقف الرفض الجماهيرى هذا كانت تغذيه النقمة الكبرى على نظام الضرائب، والطريقة التى تمت بها مصادرات الفرنسيين لأموال المماليك وطالت فى خبثها مصادرات أرزاق التجار كبارا وصغارا، وبلغت فى مداها حد ابتزاز أموال السوقة من الناس، فالفرنسيون الذين وقعوا أسرى الحصار الإنكليزى لموانىء مصر البحرية لجأوا إلى تمويل حملتهم عن طريق الضرائب المحلية يجبونها من الأقاليم التى دخلت فى حكمهم، فما أن دخلوا القاهرة حتى فرضوا على سكانها ضريبة فادحة فى شكل سلفة إجبارية لم يستطع ديوان القاهرة إلغاءها، فمما يذكره الجبرتى فى أخبار يوم السبت ١٤ صفر عام ١٢١٣هـ./٢٨ يوليه عام ١٧٩٨م. أنه عقب تأسيس الديوان بأيام معدودة اجتمع أعضاؤه «وطلبوا سلفة خمسماية ألف ريال (ماية ألف جنيه) من التجار المسلمين والنصارى والقبط والشوام وتجار الإفرنج أيضا، فسألوا (أعضاء الديوان) التخفيف فلم يجابوا فأخذوا فى تحصيلها...»(٦٩).

كانت الضرائب المتلاحقة عاملاً كبيراً من عوامل تخمير الثورة فى النفوس، وكان التجار عموما، والتجار الصغار على وجه الخصوص، هم فريستها، وأصيب برذاذها حتى السقائين، فى وقت كانت تجارة البلاد قد تعطلت نتيجة للحصار البحرى الإنجليزى، وزاد فى عوامل النقمة تلك الغرامات التى عدها القاهريون نوعا من أنواع «البلص». وبإسم مصادرة السلاح كان الجند الفرنسيون يكسرون أبواب البيوت ويستولون على ما فى داخلها من الأمتعة والخبايا والودائع، وكثيراً ما فرضوا على أهل الحرف الأتاوى الكبيرة على سبيل القرض، وحددوا لها المهل التى يعجز الحرفيون خلالها من تأديتها، ووصل بالفرنسيين الأمر حد قطع رواتب الأوقاف الخيرية على مستحقيها من الفقراء، وتحت غطاء التذرع بوضع نظام إثبات الملكيات وتسجيل سندات التمليك للأهالي وضعوا الضرائب على تلك التسجيلات، وكانت هذه الضرائب الفادحة التى شملت الأغنياء والفقراء سبباً كبيراً من أسباب الثورة، فأصحاب الدكاكين وجدوا فى الضرائب العقارية الجديدة مخالفة لأحكام الشرع ووجدوا فيها ظلماً لم يألفوه من قبل فى ظل المماليك والعثمانيين؛ أما الأغنياء فكانت الغرائم على أملاكهم كبيرة، ولم يجدهم فتيلا لواذهم بكبار المشايخ فى الأزهر والمشهد الحسينى طلباً للشفاعة، فجمعتهم بالعامة، على مراتب، مأساة المحنة فتحالفوا ضد الفرنسيين الذين أملوا المصريين فى منشوراتهم بعهود الخلاص من ظلم المماليك.

ج - التحدى المتلاحق للحس الشعبى وأثره فى اندلاع الثورة:

كانت الضرائب -كما هى الحال فى الثورات الكبرى فى التاريخ - دافعا أساسيا لتحرك الجماهير القاهرية باتجاه الثورة، وحول هذا الدافع المحورى تجمعت بقية الدوافع الاجتماعية على اختلافها لتخلق المناخ الثورى الذى ما لبث أن تحول إلى ثورات حقيقية ترفدها الجماهير بالمقاتلين وتؤمن لها الدعم المعنوى والمادى، فالضرائب كواحدة من أبرز الظواهر الاقتصادية، تزامنت مع تبدل ديموغرافى فرضه الفرنسيون على سكنى الناس وسبل معاشهم وحركتهم اليومية. فشعور الفرنسيين بمظاهر التذمر والنقمة الشعبية دفعهم إلى إقامة التحصينات العسكرية، وتداخلت مشاريعهم العسكرية بمشاريع أخرى مدنية غايتها تحويل القاهرة إلى مدينة عصرية، وكانت المشاعر الشعبية شديدة التعلق بمظاهر عمرانها القديم وتراثها التاريخى فى بناء الدور وتخطيط الشوارع وتوزع النشاط الاقتصادى، فلم يلق التخطيط الجديد ارتياحاً لدى جمهرة الناس لا سيما وأن هذا التخطيط تم على يد أناس غرباء، واختلطت غاياته المدنية بالغايات العسكرية، وأدى إلى هدم الكثير من معالم القاهرة فى عهودها الفاطمية والأيوبية والمملوكية العثمانية؛ ومما يذكره الجبرتى فى هذا الصدد فى أخبار ربيع الثانى عام ١٢١٣هـ، «وفيه أمروا سكان القلعة بالخروج من منازلهم والنزول بالمدينة ليسكنوا بها فنزلوا وأصعدوا إلى القلعة مدافع ركزوها بعدة مواضع وهدموا بها أبنية كثيرة، وشرعوا فى بناء حيطان وكرانك وأسوار، وهدموا أبنية عالية، وأعلوا أماكن منخفضة وبنوا على بدنات باب العزب بالرميلة، وغيروا معالمها وأبدلوا محاسنها ومحوا ما كان بها من معالم السلاطين وآثار الحكماء والعظماء، وما كان بالأبواب العظام من الأسلحة والدرق والبلط والحوادث والحرب الهندية وأكر الفداوية، وهدموا قصر يوسف صلاح الدين ومحاسن الملوك والسلاطين ذوات الأركان الشاهقة والأعمدة الباسقة...». وفى هذا النص وغيره من نصوص الحديث عن عمارات القاهرة، يضعك الجبرتى أمام تعلق الجماهير بما ألفته من قديم عمرانها وشدة محافظتها عليه وتضايقها من تغيير معالمه.

وإن كانت منطقة القلعة قد عرفت بسكنى الأرستوقراطية المصرية فى ذلك الحين، فإن تعلق الجماهير الشعبية بمواطن سكناها، على رغم كل ما كان يعترى هذه الأماكن من الشروط المخالفة للسكن الصحى، اتخذ طابعاً قوميا وبات الدفاع عن تلك الأماكن دفاعا عن وجود حياتى، فالحارات الشعبية كانت مبنية على شكل معين من التحصين تحول بواباتها، التى تغلق ليلا، دون وصول اللصوص إليها، وكان هلع الناس كبيراً إثر إقدام الفرنسيين على هدم هذه البوابات تسهيلا لدخول العساكر الفرنساوية إلى تلك الحارات فى حالات الفتنة. وكانت العامة تضيق ذرعاً بهذه التدابير وكثيراً ما عبرت عن تضايقها باحتجاج الذين لجأوا إلى إقفال دكاكينهم تعبيراً عن سخطهم، ولكنهم ما لبثوا أن أذعنوا للأمر الواقع إثر تغاضى أعضاء الديوان من الشيوخ والأعيان عن مساندتهم، وتشير يوميات الجنرال لوجييه

Laugier إلى أنه «كان لكل شارع أو حارة باب كبير يقفل عليها ويمكن استخدامه كمتاريس للثورة، لذلك أمر القائد العام بنزع هذه الأبواب، وقد تذمر الأهالي وجعلوا يصيحون ويسخطون، ولكنهم بعد ذلك أذعنوا وأخلدوا للسكينة، وبعد أن أقفل التجار دكاكينهم احتجاجاً على هذا العمل عادوا وفتحوها»(٧٠).

وعلى هذا النحو كانت تتباعد الشقة بين الفرنسيين وطبقات الجماهير من العامة، فكل ما يصنعه الفرنسيون هو في نظر هذه العامة شر، ليس فقط في الجانب العمراني الذى لم يكن كله داخلا في التخطيط العسكرى، بل في الجانب الصحى؛ فلم تع عامة الشعب مغزى كثير من الإجراءات الصحية التي كانت تتوخى حماية الأهلين من الأمراض الفتاكة كالطاعون ومن جملتهم الجند الفرنسيون الذين أصيبوا به وأدى إلى وفاة الكثيرين منهم، فقد وقف الأهالي ومعهم فريق من متعممى الأزهر ضد التلقيح الإجبارى ضد الطاعون، ورفضوا أوامر الفرنسيين في دفن الموتى في مقابر بعيدة عن مناطق السكن واعتبروا هذه الأوامر تدخلا في خصوص حياتهم اليومية، وهذا ما أثبته الجبرتي ناقداً سلوك الجمهور نقداً ضمنيا حيناً وصريحاً حيناً آخر.

إن وصف الجبرتي لتطرف العامة يعكس موقف الطبقة العليا من الشيوخ، وهي الطبقة التي كانت بحكم مكانتها الاجتماعية ومستوى ثقافتها مدركة لمعنى اللقاء الحضارى الجديد بين الفرنسيين والمصريين واتخذوا موقفاً وسطاً من هذا اللقاء، فلم يرض موقفهم جمهور العامة كما لم يرض الفرنسيين. كانت هذه الفئة مدركة لما يجلبه التعصب الجماهيرى لهذا الدخيل أو ذاك من خطر على السلامة الوطنية العامة، ولكن العامة لم تكن تخطط لأفعالها وهى تنساق لعضوية مشاعرها، خاضعة في هذه العفوية لموروث تاريخي فيه الكثير من خلل الرؤية؛ فعامة المسلمين ظنت خطأ أن وجودها مرتبط بنفوذ العثمانيين في مصر، وضعف هذا النفوذ كان يعنى قوة للفرنسيين وقوة للقبط؛ أما عامة القبط، فقد ظنت خطأ أن الوجود الفرنسي يحررها من موروث الكبت الذى خضعت له طوال عصور، وهكذا ربطت كل من العامتين كيانها بوجود خارجي، وقد وظف الدخيل هذه العفوية الجماهيرية في خدمة مصالحه.

د- الشيوخ الأدنون يتصدرون قيادة الثورة:

كان دخول الفرنسيين إلى البلاد المصرية عام ١٧٩٨، وسيطرتهم على كامل أقاليمها بسرعة غير متوقعة، واستقرارهم في القاهرة عاصمة بلاد الكنانة منذ أيام الفاطميين، حدثاً تاريخياً تلقّته الجماهير المصرية على اختلاف طبقاتها بالذهول.

وإن كان هذا الغزو قد أفقد هذه الجماهير قياداتها السياسية المتمثلة في المماليك، فإنه أفقدها، ولو لأمد قصير، قياداتها الدينية التي كانت الوسيط التاريخي بينها وبين القيادة المملوكية؛ إذ خشيت هذه القيادات بطش الفاتح الجديد لكونها الشريكة التاريخية للمماليك في حكم البلاد، ولم يبق لهذه الجماهير سوى أمل الركون إلى الله ينقذها من هذا البلاء الذى نزل بها على حين غرة؛ ويصف

الجبرتى هذه الحال بقوله: «كانت العلماء عند توجه مراد بك تجتمع بالأزهر كل يوم ويقرأون البخارى وغيره من الدعوات، وكذلك مشايخ وقراء الأحمدية والرفاعية والبراهمة والقادرية والسعدية، وغيرهم من الطوائف وأرباب الأشاير، ويعملون لهم مجالس بالأزهر...».

وإزاء هذا الوضع الجديد، وانكشاف ما كانت عليه القيادة المملوكية من الضعف والتفكك وسذاجة التسليح، كان المخرج الوحيد لهذه الجماهير طلب الأمان، وهذا ما استقر عليه رأى صغار العلماء والمشايخ فى غياب أهل الحل والعقد من الشيوخ الفارين، والذين عادوا إثر مشاورات متلاحقة تمت بين بونابرت ورجالات الصف الثالث ثم الصف الثانى من الشيوخ؛ إذ لما حضر إليه الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سلمان الفيومى وآخرون تلقاهم بالبشر والترحاب وهو يظن أنهم كبار المشايخ، فلما أخبروه بأن كبار المشايخ قد هربوا سأل: «ولأى شىء يهربون؟ اكتبوا لهم بالحضور ونعمل لكم ديوانًا لأجل راحتكم وراحة الرعية وإجراء الشريعة». ولما استشعر بعض كبار المشايخ الأمان حضر الشيخ السادات والشيخ الشرقاوى وبقية المشايخ باستثناء السيد عمر مكرم. ومن هؤلاء الكبار وبقية الأعيان وكبار التجار شكّل بونابرت ديوانه المعروف فى القاهرة.

كانت سياسة بونابرت، وهى التى عرفت فى المصطلح التاريخى بسياسة بونابرت الإسلامية، تقوم على حكم مصر بواسطة كبار العلماء من أصحاب المكانة الاجتماعية وذوى الثراء، وكان يظن، كما دوّن ذلك فى مذكراته، أن هؤلاء هم زعماء الشعب المصري الحقيقيون وأنهم يتمتعون بثقة جميع سكان مصر ومودتهم، وأن الخطأ الأكبر للمماليك والعثمانيين كان فى إقصاء هؤلاء العلماء عن المشاركة فى تصريف الشئون العامة وهذا ما سيسعى هو إلى تداركه فى نهجه السياسى. ويبرر بونابرت هذا النهج السياسى الذى اختطه لإدارة مصر بقوله: «وقد فضلت المشايخ وعلماء الشريعة لأنهم هم مفسرو القرآن، وأن أكثر العقبات التى واجهتنا، وسوف تواجهنا أيضًا، إنما تنبثق عن الأفكار الدينية، لأن هؤلاء العلماء ذوو طباع هادئة ويحبون العدالة وعلى درجة من الثراء، وأصحاب مبادىء خلقية عالية، وهم بدون منازع أكثر الناس أمانة فى مصر، ولا يركبون الخيل ولا يمارسون أعمالاً عسكرية، ولا ينتظر منهم تزعم حركة مسلحة».

فبونابرت الذى كان مدركًا لاستحالة ممارسة الفرنسيين نفوذهم المباشر على المصريين، أرسى قواعد سياسته على أسس الثقافة الإسلامية فى الفكر والسلوك الاجتماعى فى إطاره الأخلاقى العام، ولكن وفقاً لطبيعة وعى المصريين لهذه الثقافة، وهو وعى مرتبط بالحفاظ على الوطن، وهؤلاء العلماء المحبون للعدالة والذين هم على درجة من الثراء ولا ينتظر منهم تزعُّم حركة مسلحة يؤمن جانبهم ولا خوف من إيكال المناصب الكبرى إليهم. ومن هنا، كان ميل بونابرت إلى تمصير المناصب العليا على اختلاف

درجاتها. وكان أول عمل قام به عقب عودته من بلاد الشام هو خلعه لقاضى القضاة التركى فى مصر، وإسناد هذا المنصب للعالم الأزهرى الشيخ أحمد العريشى. وقال فى منشوره الذى وجّهه بتاريخ ٣٠ ـ ٦ ـ ١٧٦٦ إلى حكام الأقاليم يعلمهم بضرورة التقيد بهذا الانتخاب، وتلقى قضاة الأقاليم تقليد القضاء من قاضى القضاة المصرى: «إن علماء القاهرة هم بلامنازع أعلم علماء الإسلام».

كان الشيوخ الأعلون موضع ثقة بونابرت، يتودد إليهم ويستشيرهم فى أمور الإدارة وتفاسير آيات القرآن؛ وكان هؤلاء موضع احترام القيادة العامة للجيش الفرنسى، فكانوا إبّان ترددهم على مركز القيادة فى الأزبكية يُستقبلون بالتحية العسكرية، وكانت المنشورات التى يوجهها بونابرت إلى المصريين توقع باسمهم. أما الشيوخ فكانوا يبررون تعاونهم مع الفرنسيين بأنهم ينشدون تخفيف ويلات الاحتلال ودفع شروره عن المصريين. ومن ثم، فإن أولئك الفرنسيين ليسوا كفرة، وإنهم إذ أنكروا البعث، فإنهم «يقولون بأن الله واحد، لكن بطريق التعليل، ويحكمون العقل، ويجعلون منهم مديرين يديرون الأحكام يضعونها بعقولهم ويسمونها شرائع، ويزعمون أن الرسل محمداً وعيسى وموسى كانوا جماعة عقلاء، وأن الشرائع المنسوبة إليهم كناية عن قوانين صنعوها بعقولهم تناسب أهل زمانهم». وأخيراً، إن هؤلاء الفرنسيس لا يعادون الدولة العثمانية؛ فالخطبة والسّكةُ مازالا باسم السلطان، وشعائر الإسلام تقام بحرية والقرآن محترم والحجاج مكرّمون؛ ولذا كان لابدّ من أن يخلد المصريون إلى السكينة والانصراف إلى أعمالهم، والكفّ عن مقاومة الفرنسيين؛ فأمير جيوش الفرنسيس بونابرت «رجل كامل العقل، عنده رحمة وشفقة على المسلمين ومحبة إلى الفقراء والمساكين، ولولاه لكانت العساكر أحرقت جميع المدينة، ونهبت جميع الأموال، وقتلوا كامل أهل مصر، فعليكم ألاّ تحرّكوا الفتن، ولا تطيعوا أمر المفسدين، ولا تسمعوا كلام المنافقين ولا تتبعوا الأشرار ولا تكونوا من الخاسرين،... ونصيحتنا لكم: ألاّ تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، واشتغلوا بأسباب معاشكم وأمور دينكم، وادفعوا الخراج الذى عليكم، والدين النصيحة والسلام»(٧١)!.

تلك هى الأسس التى قام عليها التعاون بين كبار الشيوخ من علماء الأزهر والحملة الفرنسية كما حملتها المناشير التى كان الشيوخ يخاطبون بها الجماهير المصرية أو التى كان يكتبها الفرنسيون وتنشر باسم الشيوخ كما يفاد من أحاديث الجبرتى عن تلك المناشير، وجميعها تدعو إلى التسليم بحكم الله والامتثال للغزو الذى هو بحكم القضاء والقدر. ولا شك أن تلك المناشير، سواء كانت من وضع الشيوخ أم من وضع الفرنسيين، أساءت إلى مكانة أولئك الشيوخ فى نظر الجمهور المتطرف، ولم تقنعه الحجة القائلة إن سلوك الشيوخ كان خاضعاً لرقابة مستمرة دقيقة من رجال المخابرات الفرنسية، أو إن هذا السلوك كان نتيجة لوعى وتبصُّر بعواقب الأمور. وكان

الشيوخ أنفسهم مدركين لحراجة موقفهم بالنسبة للعامة وللفرنسيين سواء بسواء، فقبلوا من الفرنسيين ما أمكنهم قبوله، ورفضوا ما له مساس كبير بحق أمتهم، فلم يستجيبوا لمطالب الفرنسيين جميعها وقاوموا تلك المطالب داخل حدود الإمكان. فالشيخ الشرقاوى رفض ارتداء الطيلسان الذى يحمل شعار الثورة الفرنسية ورمى به فى أرض الديوان مما أثار غضب بونابرت فقال عن الشيخ إنه لايصلح للرياسة، وعندما قال المترجم إن نابوليون أراد بهذا الطيلسان تعظيمكم وتميُّزكم أجابه المشايخ: «ولكن قدرنا يضيع عندالله وعند إخواننا من المسلمين». وعندما أراد بونابرت أن يستصدر فتوى من الأزهر توجب الناس بطاعة بونابرت كخليفة للنبى، أجابه الشيوخ بعد وجوم «اعتنق الإسلام إذن».

كان الشيوخ الأعلون يمثلون طبقة المتمولين وكبار الملاك من الأعيان، وكان بونابرت، وهو يخطب ودَّهم، يتوجه إليهم ليس كقادة دينيين، بل كقادة سياسيين يجمعون بين المكانة الدينية والمكانة الاجتماعية فى قيادتهم للجماهير، وكان بونابرت يعتقد أن تلك المكانة تستطيع أن تجذب الجماهير الدنيا من المجتمع المصرى وأن تكون الطبقة القاعدة على غرار ما كانت عليه الطبقة البورجوازية فى فرنسا، ولم يأخذ بعين الاعتبار واقع الاحتلال، وأن التفاعلات الداخلية فى ظل الاحتلال تضع التحرر فى المرتبة العليا من توجهاتها السياسية. وكانت مصر السبَّاقة فى ثورتها التحررية. وفى الوقت الذى كانت فيه طبقة كبار الشيوخ تهادن المحتلين، كانت المقاومة الوطنية تنضج بقيادة صغار الشيوخ الذين رعوا تنظيم الحركات السرية التى ظهرت إلى العلن فى أهم ثورتين مبكرتين عرفهما الشرق فى تاريخه الحديث، وهما فى جوهر توجهاتهما ثورتان تحرريتان ذات طابع شعبى شبيهتان، مع اختلاف الظروف المكانية والزمانية والتاريخية، بثورات التحرر الوطنى التى عرفتها شعوب القارة الأوروبية التى غزاها بونابرت بعد خروجه من مصر.

كانت ثورات القاهرة شعبية فى توجهاتها ومطالبها وشعاراتها. وكان مركزها الأزهر الذى أبعدت عنه الوجوه التى عرفت بتعاونها الوطيد مع الفرنسيين وتصدرته الزعامات القديمة التى رفضت التعاون مع الغازى من قريب أو بعيد، فاقتحمت الجماهير الثائرة منزل الشيخ خليل البكرى نقيب الأشراف ونهبت محتوياته وقادته مع حريمه وأولاده حافى القدمين عارى الرأس فى شوارع القاهرة إلى مقر قيادة الثورة فى الجمالية، فيما توجهت الأنظار بعلامات الإكبار إلى السيد عمر مكرم وعلت الأصوات تناديه وتهتف باسمه وتدعوه للانضمام إلى الثورة. يصف نقولا الترك مشاهده الحية عن التنظيم السرى لتلك الثورة بقوله: «فى ذات نهار الأحد فى العاشر من ربيع آخر نزل أحد المشايخ الصغار، وكان من مشايخ الأزهر وبدأ ينادى فى المدينة أن كل مؤمن موحد بالله عليه بجامع الأزهر، لأن اليوم ينبغى أن نُضارى الكفار، وكان أغلب أهل البلد معهم «الاس» بذلك. أما الفرنساوية فكانوا متغفلين عن

ذلك وكلمة «الأس» تعنى فى الإصطلاح الشعبى المصرى الأمر المتفق عليه والمكتوم... وقد طلب بونابرت من المشايخ أن يدلوه «عمن تسبب من المتعممين فى إثارة العوام» فلم يحققوا له هذا المطلب فغالطوه عن تلك المقاصد».

وهكذا، وجد الفرنسيون أنفسهم أمام قيادات جديدة من الشيوخ الأدنين، وكانت هذه القيادات أكثر تحسساً بآلام جماهير الناس وأقدر على التعبير عن حاجاتهم والإفصاح عن رغباتهم؛ إذ لم تكن تملك من المال والجاه ما يدفعها إلى المداراة. وهذه القيادة هى التى أشار إليها لاجنكير فى الجزء الثالث من كتاب حملة مصر، بأنها استخدمت الدين لغايات اجتماعية، وكانت مطالبها الاجتماعية تختلط بمطالبها الدينية فيدعو إلى الله والثورة من على رؤوس المآذن، وبلغ تهييجهم للنفوس أشده حتى لتكفى حادثة واحدة أن تضرم بركان الهياج القومى، ولقد كان فرض الضرائب على المنازل سبباً كافياً استغلّه دعاة الثورة لإثارة الهياج فى نفوس من لم تستفزّهم الدعاية الدينية.

كان التداخل بين المشاعر الدينية والحاجات المطلبية والاجتماعية من الأمور الطبيعية عند جمهور غير مسيس فى ذلك الحين؛ وقد سبق لبونابرت، وهو يعلم بالأمور السياسية، أن جمع بين هذين الإحساسين فى تقرير سياسته التى رسمها لحكم مصر؛ وقد أفاد الثوار من إدارة بونابرت وتنظيماته، فانتقلت إلى الأزهر هيكلية الديوان الاستشارى وكانت شئون الثورة تدار ديموقراطياً فى بداية الأمر، ولاتتخذ القرارات الملزمة إلا بعد مناقشات جادة. فيروى بونابرت فى مذكراته أن الشعب انتخب ديواناً للثورة، وأن عضوية هذا الديوان لم تكن قاصرة على الشيوخ، وكانت هنالك لجنة لتدبير الشئون الإعلامية تعمل على إثارة الكراهية فى نفوس الناقمين. وبلغ عدد من استطاعت قيادة الثورة، بتنظيمها الدقيق، من حشدهم فى انتظار إعطاء الإشارة خمسة عشر ألف ثائر وفقاً لتقدير رجال المخابرات العسكرية الفرنسية. ففى الأزهر كانت تدار ندوات الثورة، ومنه كانت تنطلق شعارات التذمر وتنطلق الحشود إلى الشوارع فى شكل تغلب فيه الحميّة الدينية فتطغى على كل شىء. وقد وصف الجبرتى تلك الحشود الجماهيرية الهائجة مستنكراً بُعْدَ قياداتها عن التروى بقوله: «ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذى لم ينظر فى عاقبة الأمور ولم يتفكر أنه فى القبضة مأسور». ونقمة الجبرتى على هذه الثورة تعكس نقمة الطبقة العليا من الشيوخ الذين ارتبطت مصالحهم تاريخياً بمصالح السلطة الحاكمة، وكانت لها الكلمة النافذة فى الأزهر، وكانت تدير شئونه وفقاً لمصالحها. وكانت ثورة القاهرة الأولى عام ١٧٩٨، ثم الثورة الثانية مارس عام ١٨٠٠، بداية تحوُّل جديد فى حياة الأزهر، ودعمه للمطالب التحررية ضد السلطات الأجنبية والمتعاونين معها من أهل البلاد، وهو تحوُّل لاعهد له به من قبل.

كانت هاتان الثورتان نقلة نوعية فى حياة الجماهير التى كانت فيما مضى تلزم موقف المراقب لما يجرى فى بلادها من الأحداث

السياسية. وكانت إثارتهما للشكوك فى سلوك أعضاء الديوان واتهامهم بممالأة الفرنسيين تعبيراً صادقاً عن مشاعر جماهيرية تضعضعت ثقتها بقادتها، ولم يكن فى أية حال تعبيراً عن حقد فئة من الشيوخ على أولئك الذين رقّاهم الفرنسيون وأكسبوهم وجاهة أثارت الحسد فى قلوب بقية الشيوخ الذين استُثنوا من هذه الوجاهة. فهذه الثورة، بدأت شعبية لاصقة بالطبقات الدنيا من فئات المجتمع ثم أخذت تتساقط إليها قطاعات كانت من قبل مخلدة للسكينة، وهى قطاعات طبقة الملاك والتجار وأصحاب الصناعات، وهى القطاعات التى أخذت تتأذى بالتدريج من تنظيمات الفرنسيين وطرقهم فى ابتزاز المال، وبانضمام هذه الفئات الأكثر وعياً، ارتفع المستوى التنظيمى للثورة، ورفدت القيادات الدينية بعناصر مدنية لها خبرتها فى مجال الحياة الاجتماعية لاتركن إلى عفوية الجماهير وشعاراتها المثيرة للخواطر. وكان الاجتماع الذى عقد الأحد ٢٠ أكتوبر عام ١٧٩٨ نقطة بارزة فى هذا التحول، حيث تشكّلت لجنة للثورة مؤلفة من ثلاثين شخصاً أوكل إليها التنظيم الجماهيرى الذى كان من قبل يعتمد على الإثارة العاطفية، وكان أول عمل قامت به تعبيراً عن الاحتجاج الشعبى هو الدعوة إلى الإضراب العام وإقفال الدكاكين والمحلات التجارية والمؤسسات الحرفية والصناعية وتشكيل الوفود لرفع الاحتجاج إلى مركز القيادة العامة للفرنسيين، وكان الاحتجاج مركّزاً على الضرائب التى تفاقمت وأرهقت كامل هذه المؤسسات على اختلاف مستوياتها الاقتصادية والاجتماعية نحو تحقيقها. وعلى هذه الأهداف «كان الناس يتلاقون على غير تعارف فيتبادلون ويتعاهدون على المقاومة، وأخذت سمات الغضب تبدو على الشعب الهادئ الوديع، وظهرت الأسلحة فى أيدى المتجمهرين فى الشوارع بعدما كانت محجوبة عن الأنظار، وأقبل الفلاحون وأهل الضواحى إلى القاهرة فاشتركوا فى هذا التجمهر، وأخذت صيحات السخط واللعنات تنصب على الضرائب الجديدة وعلى الفرنسيين»(٧٢) . ولم يعد هنالك أى شك فى أن الثورة قد اندلعت كما يقول ريبو.

كانت القاهرة هى المدينة القائدة، والثورات الاجتماعية فى التاريخ كانت مراكزها المدن لأنها هى مركز التجمعات والفعاليات الاقتصادية، والأرياف إنما تتحرك بقوة جذب المدينة كمركز.

والمدن هى المكان الصالح لتكوين الرأى العام، وإن كان التطرف هو خاصية من لايملكون شيئاً، ولا يقيمون حسابًا إلاّ لما يظنونه هو الصواب وتصل ثورتهم إلى حد تهين الحياة فى نظرهم إلى درجة الاستشهاد، فإن الطبقات المالكة على اختلاف مستوياتها تقف من الثورات ونتائجها من خلال منظور الربح والخسارة لهذه الطبقة أو تلك. والجماهير القاهرية التى خضعت لتنظير قادتها فى بادئ الأمر، باتت بعيدة عن أى حوار عندما شعرت بقوتها خلال تجمعاتها الحاشدة. فمما

يذكره الجبرتى أن هذه الجماهير انطلقت إلى بيت القاضى التركى جمشى زاده طالبة منه الركوب معهم إلى بونابرت، فقبل ثم عاد واعتذر عند مشاهدته لهذه الحشود فى عنفها وضخامة عددها، ولما لم يقبل مصاحبتهم انهالوا عليه وعلى رجاله بالعصى والحجارة ونهبوا منزله، ولما اشتدت المعارك بين الثوار والفرنسيين وقبل المشايخ دعوة بونابرت لتقرير هدنة أو صلح ويرفع الضرب عن الأزهر والدور المحيطة به، تجمعت عليهم الجماهير الغاضبة «وقاموا عليهم وسبوهم وشتموهم، وضربوا الشرقاوى والسرسى ورموا عمائمهم وأسمعوهم قبيح الكلام وصاروا يقولون هؤلاء المشايخ ارتدوا عملوا فرنسيس ومرادهم خذلان المسلمين وأنهم أخذوا دراهم من الفرنسيس، وقد فسروا طلب الفرنسيس الصلح بأنهم صاروا ضعافًا ولولا أن الكفرة الملاعين تبين لهم الغلب والعجز ما طلبوا المصالحة والموادعة وأن بارودهم وذخيرتهم فرغت»(٧٣).

لقد كانت القيادة الفرنسية قاسية فى ردها على الثورة بعد مقتل الجنرال ديبوى Dupuy حاكم القاهرة، بسهم نفذت إلى صدره، وبعد مهاجمة الثوار لخافر الفرنسيين بما فى ذلك الحى الذى كان فيه مركز القيادة العسكرية، فضرب الفرنسيون القاهرة بالمدافع، ودحر المشاة الفرنسيون الثوار فى معظم أحياء المدينة وحصروهم فى حى الجامع الأزهر الذى كان عرضة للقنابل المنهالة عليه من المواقع الحصينة فى ربى المقطم حتى كاد الجامع الأزهر يتداعى من شدة الضرب ودفنت تحت أنقاض البيوت المدمّرة حول الأزهر ألوف من الآمنين، وانتهت هذه الثورة باستسلام الثوار للفرنسيين الذين دخلوا الأزهر بعد مجزرة هى الأفظع فى تاريخ مصر؛ إذ زاد عدد ضحاياها على الأربعة آلاف قتيل بين شهيد مدافع وقتيل لقى حتفه تحت أنقاض الدور المتهدمة والمنازل المحترقة فى مقابل مايتين من جند الفرنساوية.

والمؤرخون مجمعون على أن هذه الثورة أصبحت فى مرحلتها الأخيرة تحت السيطرة الكاملة لجماهير الشارع بعد أن فقدت قياداتها التقليدية التى كانت ترفض العنف، وقياداتها الثورية التى استطاع بونابرت الاهتداء إليها وإعدامها. وهكذا انطلقت الجماهير فى غياب تلك القيادات إلى المراكز الفرنسية دون تمييز بين ما هو مدنى وما هو عسكرى من مهمات الحملة الفرنسية، وكانت أعمال الهندسة فى جملة ما أصيب بالنقمة، فقتل الثوار عدداً من أعضاء البعثة وأتلفوا ما كان فى الدار من الآلات الفكلية، وكانت هذه الأعمال مثار نقد الطبقة الوسطى والعليا من طبقات المجتمع المصرى. ويسجل الجبرتى فى غير موضع من كتابه عجايب الآثار نقده الظاهر لتهور الجماهير، ولا يتورع عن وصفها بأبشع النعوت؛ وترى ذلك فى حديثه عن مهاجمة الثوار لبيت الجنرال كافاريللى رييس فرقة الهندسة الذى كان يسكن فى بيت مصطفى كاشف، بالدرب الأحمر، وقتلهم لاثنين من مهندسى القناطر تيفينو Thevenot ودفال Duval . وكذلك قتلهم

لـ«تستفيود Testeviude كبير المهندسين الجغرافيين الذى كان يشتغل بخريطة مصر، والرسام دوبرى Duperrès ، والجراحيّن روسل Roussel ، ومانجان Manguan ، ويرثي ما حلّ بدار العلوم التى كان يتردد إليها معجبًا بطريقة عمل الفرنسيين فيها حيث يقول: «وكان بتلك الدار شيء كثير من آلات الصنائع والنظارات الغريبة والآلات الفلكية والهندسية والعلوم الرياضية وغير ذلك مما هو معدوم النظير، كل آلة لاقيمة لها عند من لايعرف صنعتها ومنفعتها، فبدّدت العامة كل ذلك وكسرّوه قطعًا وصعب ذلك على الفرنسيس جداً، وقاموا مدة طويلة يفحصون عن تلك الآلات، ويجعلون لمن يأتيهم بها عظيم الجعالات».

وموقف الجبرتى هذا من العنف الجماهيرى هو موقف طبقته من الشيوخ الذين تعاطفوا مع الفرنسيين. فهؤلاء الشيوخ كانوا فى مستوى ثقافى سمح لهم بتقدير ما وجدوه عند الفرنسيين من تنظيم إدارى وحب للمعرفة والتقدم العلمى، مما هيّأ لهم سبل الاتصال بحضارة أرقى من حضارتهم، ولعل هذا ما جعل هذا اللفيف من الشيوخ أشدّ ميلاً لمداراة الغزاة، ولم تكن لديهم القدرة على الفصل بين مجالات التعاون الثقافى والحضارى ومجالات التعاون السياسى؛ لابل إن مثل هذا الفصل كان مستحيلاً فى ظروف مصر التاريخية وطبيعة الحملة التى قادها بونابرت إلى مصر، وهى حملة عسكرية علمية فى آن. أما الجماهير التى كانت على حظ ضئيل من العلم والوعى الثقافى، فكانت على النقيض، رافضة الوجود الفرنسى برمته. فالفرنسيون فى نظر الطبقة المنوّرة «قد أتوا إلى مصر بآلات حربية حديثة ومخترعات علمية عجيبة، فاكتسحوا بها البلاد المصرية. ولم تقوَ الآلات القديمة على الوقوف أمامها، فملك الفرنسيون مصر، ومكثوا فيها ثلاث سنين أظهرت للمصريين من آثار العلم الحديث ما أظهرت، فرأوا المطبعة التى نقلوها معهم لطبع الجرائد والمنشورات، ورأوا ما قاموا به من تجارب الطيّارات، ورأوا غير ذلك من آثار العلم الحديث الذى كان له الفضل فى انتصارهم...»(٧٤).

إن مشاعر الإعجاب بهذا التقدم العلمى أنسى الفئة المنوّرة من المصريين، عهد الأتراك والمماليك، وكانت هذه الفئة تقابل بين علوم الفرنسيين وكتبهم وما عندها من كتب الفقه والأوراد ودواوين الشعر ومجموعات النوادر وكتب الطوالع فتزداد ثقة بهم ويضعف إزاء هذه الثقة العداء السياسى. وإن كانت هذه المنجزات لم تحرك ساكنًا عند جمهرة المعممين ولم توقظ غافلا منهم، فإن الفئة المنوّرة رأت من واجبها أن تأخذ بالأسباب التى أوصلت الفرنسيين إلى هذه القوة الهائلة، وأخذت تتفحص مواطن الضعف فى علومها وثقافتها وسلوكها، وكان لابدّ من التفكير فى أن تنفض عنها غبار القديم، لتأخذ بما جدّ فى العلوم من ابتكارات وتدرس ما حدث فيها من زيادات. أما على الصعيد الإدارى، فإن الشيوخ وإن راودتهم الشكوك فى أهداف الغزاة، فإنهم وجدوا فى الدواوين التى أنشأها بونابرت أول تجربة فى حكم المصريين لأنفسهم، تجربة تمثيل أعيان البلاد وذوى الشأن فيها على مستوى القطر المصرى كله. وهذا

الشعور تلمحه بأوضح بيان فيما سجله الجبرتى عن أخبار الحملة الفرنسية، لابل إننا نرى عالماً كالشيخ حسن بن محمد العطار الذى اتصل بالفرنسيين عن طريق تعليم أحدهم اللغة العربية يفيد من فنون الفرنسيين ويخرج عن الجمود العلمى الأزهرى بتدريسه المواد الممنوعة وكان صاحب البادرة فى إعادة تفسير القرآن وهى البادرة التى استكملت بعد ما يقارب القرن على يد محمد عبده، وكان محمد عياد الطنطاوى يدرس الأدب فى الأزهر على طريقة جديدة بإيحاء من العطار وتحت إشرافه.

وهكذا فيما كانت العامّة عاجزة عن التمييز بين الوجه المظلم والمضىء من الوجود الفرنسى، مستقبحة كل ما يصدر عنهم، كانت الفئات المستنيرة من الطبقة العليا والوسطى حريصة على الإفادة من حضارتهم وتتصل بهم فى غير حرج وتؤانسهم فى أوقات الشدة، فترى السيد ريبو فى الجزء الثالث من كتاب التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية يثنى على المروءة الكبيرة التى أبدتها الطبقة المصرية المتوسطة فى حمايتها للفرنسيين العزل إبان ثورات القاهرة «فجميع الفرنسيين الذين التجأوا إلى بيوت الطبقة المتوسطة قد اطمأنوا فيها على حياتهم وألفوا بها النجدة والمروءة». والشهادة نفسها عند المسيو فيفان دينون vivant Denon الشاهد العيان لأحداث ثورة القاهرة حيث يقول فى كتابه «رحلة فى الوجه البحرى ومصر العليا»: «لئن كانت العامة وبعض الكبراء والأتقياء قد ظهروا قساة فى ثورة القاهرة، فإن الطبقة المتوسطة من سكان القاهرة برهنت على أسمى عواطف الإنسانية والمروءة، رغم فوارق العادات والأخلاق والدين واللغة التى كانت تفصل بيننا. فبينما كانت صيحات التحريض على القتل تُسمع من المآذن، وبينما كان شبح الموت والدم يَتَنَقَّل فى الشوارع، فإن أصحاب المنازل التى يسكنها الفرنسيون قد آووهم وأظلوهم بحمايتهم وأمدوهم بما يحتاجون..».

ومهما قيل فى تجاوزات هذه الثورة، فإن أحدا لا يستطيع أن ينكر عليها جماهيريتها وشعبيتها. فعدد المشاركين فيها شكّل نسبة مرتفعة من الأهلين، أما أهدافها فى طرد الغزاة والتخلُّص من ضرائبهم وتجاوزات جنودهم كانت تلقى تجاوباً عارماً دلّ عليه دعم هذه الثورة معنوياً ومادياً. ثم إن هذه الثورة تجاوزت حدود القاهرة إلى الأقاليم لتأخذ طابعاً وطنياً، فكانت أحداث القاهرة قدوة لما وقع فى الوجه البحرى فى شهرى سبتمبر وأكتوبر من عام ١٨٧٩، ولقى الوجه البحرى نصيبه من قصاص الفرنسيين بعد إخماد ثورة القاهرة، وسيق عدد من أعيان هذا الإقليم إلى القاهرة، فأعدم بعضهم وسجن البعض الآخر بتهمة تحريض أهالى البلاد المجاورة للقاهرة على الانضمام للثوار؛ فيذكر الجبرتى أن الفرنسيين قتلوا الشيخ سليمان الشواربى شيخ قليوب ومعه ثلاثة من عرب الشرقية، وقطعوا رؤوس عدد من الشيوخ فى الرميلة. وكانت تلك الشدة التى خرج بها الفرنسيون عن حدود الحكمة فى التصرف شاهداً على شمولية الثورة وعنفها ليس فقط فى مواجهة المشاة الفرنسيين بل فى الاعتداء على سفنهم المرابضة فى الموانىء البحرية؛ إذ كانت هذه

السفن عرضة للهجوم مما دفع بالقيادة الفرنسية إلى إنذار الأهالى بأن أى اعتداء يقع على إحدى السفن يعرّض القرى المجاورة إلى أن تحرق بالنار. وما ذكره الجبرتى عن أحداث الوجه البحرى ينجرد على المحلة الكبرى وطنطا وعشما والدقهلية ودمياط والمنصورة.

كانت هذه الثورة مفاجأة كبرى للفرنسيين الذين ركنوا إلى قدرة وسطائهم من كبار الشيوخ على ضبط الأمن وإدارة شئون البلاد فى اطمئنان وهدوء؛ وإزاء هذه المفاجأة التى لم يتحسب لها الفرنسيون كان الرد الفرنسى صاعقاً عنيفاً، لا بل إن الأعمال التى قام بها الفرنسيون بعد إخماد الثورة لم تكن من المقتضيات التى تفرضها الحروب بل كانت داخلة فى صميم ضروب التنكيل والانتقام؛ فجنودهم الذين دخلوا الأزهر على ظهور خيولهم بعد استسلام الثوار ظلوا مرابطين فيه ليلة وبعض الليلة ونهبوا محتوياته، وأتوا على ما وجدوه داخلة من مقتنيات الناس التى أودعوها فيه ظنّا منهم أن الأزهر يظل فى منجاة من المحنة. وبحجة التفتيش عن السلاح، نهب هؤلاء الجند البيوت الآمنة، وفتّشوا المارة وسلبوهم ما يملكون فى جيوبهم من المال، واستسلموا للوشايات فتعددت مظالمهم وامتلأت السجون بالأبرياء دون محاكمة، وأصبح برطلمى الرومى الذى عيّنه الفرنسيون وكيل المحافظة ـ وهو كما يصفه الجبرتى، من أسفل الأروام العسكريين القاطنين فى مصر ـ هو السيد المطاع، بثّ أعوانه فى الجهات يصادرون الناس على الشبهة، ويرمونهم فى السجون، ويستخدمون معهم ضروب الوان التعذيب ليقرّوا بأعمال لم يرتكبوها. ولم تكن تلك الأعمال صادرة عن رعاع الجند، بل كانت من وحى تعليمات رسمية صريحة وأخرى ضمنية من قبل القيادات العسكرية الفرنسية لاجتثاث رؤوس القيادات الثائرة من زعماء الأهالى ولجان الثورة وأعضائها، وكان من أفظع أعمال هذه القيادة إصدارها أحكام الإعدام بثمانين من لجان الثورة وتنفيذ هذه الأحكام فور صدورها عن المجلس العسكرى يوم ٢٤ أكتوبر عام ١٨٩٨، وكان بين من طالتهم العقوبات المتلاحقة عدد من النساء نايهك عن عدد كبير من الشيوخ أعدموا بتاريخ ٣ نوفمبر من السنة نفسها بدون محاكمة، وكان ذلك كله على أيدى أولئك الذين أمّلت مناشيرهم الناس بنشر العدالة والمساواة والإخاء فى ربوع مصر، وتمكين المصريين من أن يكونوا سادة أنفسهم بعد إخراج المماليك.

هـ ـ جماهير الثورة فى ميزان التطرف الوطنى والهوس الانفعالى:

كان الاصطدام المباشر بالفرنسيين تجربة جديدة لم يألفها الجمهور المصرى فى تاريخه من قبل. وإن كان هذا الجمهور قد ألفَ مشاهدة التنازع على السلطة بين أمراء المماليك فيما بينهم وبين هؤلاء مجتمعين فى صراعهم مع العثمانيين، فإن دوره فى هذا الصراع لم يتعدّ دور المشاهد لأحداث لا تعنيه؛ إذ لم يكن فى هذا النزاع فريق كان يحمل فى صراعه مشروع بناء دولة تمس هذه الجماهير ومصالحها من قريب أو بعيد. فالأمراء فى صراعهم كانوا ينشدون مغانم شخصية، وتحزُّب طوائف من المصريين لهذا الأمير أو ذاك كانت تدور فى حلقة

هذه المغانم، وهو تشيُّع أقرب ما يكون من تحالف قَبَلى تحدده المصالح الذاتية داخل منطقة أو إقليم. ولم يكن تعيين الولاة وعزلهم يخرج عن هذا الإطار الضيق من التحالفات وتقريب هذا الفريق وإبعاد ذاك، ولم تكن الحملة الفرنسية على مصر شيئاً من هذا القبيل، ولم يكن فى النزاع الاستعمارى الفرنسى الإنجليزى الذى شاهده المصريون عن كثب ما يمكن أن نجد له مقاربة من النزاعات المحلية التى استفحلت فى مصر فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر، فالحملة الفرنسية أيقظت، حتى فى نظر أشد أعدائها من الثوار، أذهان المصريين على مدى تخلف سلطاتها المحلية عن مواكبة ركب الحضارة العالمية سواء فى ميدان تقدم الآلة العسكرية عند فريق أو التقدم العام فى التقنية العسكرية وميدان العلوم المدنية والإدارية عند القلة من الثوار، ولكن انهارت أمام أعين هؤلاء جميعاً أسطورة عظمة المماليك الذين تهاوت بسالة فرسانهم فى وجه القوة الجديدة العاتية، فكانوا ينظرون إلى سرعة انهيار المقاومة العثمانية المملوكية فى شىء من السخرية الممزوجة بالألم، وبان لهم الفرق بين السلطة المتماسكة التى تشدها قيم وطنية رفيعة كتلك التى رأوها عند الفرنسيين، والسلطة الفردية الغرقة فى أنانيتها ومتطلباتها الذاتية، والتى خضعوا لها طوال قرون متباعدة فأصيبوا بعدواها وخضعوا لأحكام قيمها الاجتماعية فى التعامل.

كانت الجماهير تدرك ذلك إدراكاً مبهمًا، ولكنها لم تكن قادرة على إدراك سرِّ هذه القوة فى مقابل ضعف قادتها، وكان يستحيل عليها ربط هذه القوة بزوال النظام الإقطاعى فى فرنسا وما ترتب على زواله من ظهور مناهج العلم الحديثة وطرق التنظيم التنظيم السياسى والاقتصادى الجديدة، وكان عجزها أشد فى فهم أبعاد الفتح الفرنسى الذى كانت الحملة العلمية جزءاً أساسياً فيه، وأن هذه الحملة العلمية كان فى رأس غاياتها تنمية موارد البلاد وتنظيم الرىّ وضبط مياه النيل، وغير ذلك من المشاريع التى حققتها حكومة محمد على فيما بعد. هذه الأمور جميعها كان يستحيل على الجماهير إدراكها وتصور أبعادها فى تحقيق كثير من الحاجات التى كانت هذه الجماهير تتمناها فى أعماق لا وعيها الاجتماعى والسياسى من القضاء على سلطات المشايخ والعمد واستبدالها بحكم قائم على الشورى فى تنظيم المناطق يتيح للطبقة الدنيا المشاركة فى رسم حاضرها ومستقبلها. إن شيئًا من ذلك لم يخطر لهم على بال عندما انجرفوا فى الثورة مؤمنين بحقيقة ما تصوروه من خطر هذا الغازى على عوائد ألفوها وقيم مارسوها وركنوا إليها، وكانوا على حق عندما اعتقدوا أن غازياً يأتيهم من أطراف المعمورة لايمكن أن يتكبَّد تلك المشاقّ رغبة فى إعلاء كلمة المصريين وتخليصهم ممن استبدوا بهم من المماليك، وفكرة التحرر من هذا الغازى هى الفكرة التى استبدت بعقول جماهير الثوار

وضمائرهم. ورأوا الدولة العثمانية غاضبة على هذا الغزو، محاولة صدّه، راغبة فى استرداد مصر، والدولة العثمانية هى الحامية لدين الإسلام فلا مجال للموازنة بين وجود إسلامى ووجود كافر. وكان الإنجليز فى ظاهر سياستهم داعمين للعثمانيين، داعمين فى الوقت نفسه أمراء المماليك، ولقيت هذه السياسة هوىً فى نفوس الناس وشعروا بالقوة، وعبثاً حاول الفرنسيون إقناع الجماهير الشعبية والتقرب إليها عن طريق تكذيب المزاعم حول خلافهم مع الباب العالى «وأنهم أحباب مولانا السلطان فاتحون بنصرته، وأصدقاء له، ملازمون لمودته وعشرته، يحبون من والاه ويبغضون من عاداه...»، كما كانت تزعم مناشيرهم التى أرسلوها باسم الشيوخ إلى البلاد وألصقوا نسخًا منها بالأسواق والشوارع. كما عجزوا فى إقناع سكان الأرياف من العربان والفلاحين بأن مقاومة المماليك للغزو هو ضرب من ضروب الفتنة المفضية إلى تخريب البلاد وإهلاك الرعية.

وجماهير القاهرة انقادت للثورة فى هذه الظروف التاريخية الخارجية منها والداخلية، فتحت وطأة الحصار الإنجليزى اضطر الفرنسيون إلى تمويل حملتهم محلياً ولجأوا إلى الإكثار من الضرائب فى وقت تعطلت فيه تجارة مصر الخارجية نتيجة هذا الحصار كما تعطلت تجارتها الداخلية نتيجة للبلبلة التى أعقبت الغزو.

وكانت الجماهير عرضة لقبول الأخبار المضخمة، وكثيراً ما تحوّل الوهم فى أذهان الجماهير حقائق ثابتة، وتصرفت الجماهير وفقاً لما تقتضيه طبيعة الدفاع عن الذات؛ فعندما بدأ الفرنسيون بتحصين مواقعهم ويحتلون البيوت المشرفة على المدينة سرت إشاعة مفادها أن الفرنسيين عازمون على قتل الناس وهم فى صلاة الجمعة، وهى إشاعة تقبلتها العامة، فيما عدّتها الطبقات المتوسطة والعليا من النكات المضحكة. يقول الجبرتى فى ذلك: «... فلما حصلت هاتان النكتتان انكمش الناس وارتجفت قلوبهم...». وكان ما يقوّى قبول مثل هذه الإشاعات فتك الفرنسيين بعدد من القيادات الشعبية، وغالبًا ما كانت الفئات الشعبية تتصرف بردود انفعالية فاقدة الغاية والهدف، لا بل كان هذا السلوك هو الصفة البارزة لتلك الجماهير التى فقدت قياداتها؛ ومن هنا، كان الحكم القاسى الذى أصدره الجبرتى بحقها: «... ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذى لم ينظر فى عاقبة الأمور، ولم يتفكر أنه فى القبضة مأسور، فتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم، ولا قائد يقودهم، وأصبحوا يوم الأحد متحزبين وعلى الجهاد عازمين، وأبرزوا ما كان أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح، وحضر السيد بدر، وصحبته حشرات الحسينية وزعر الحارات البرانية ولهم صياح عظيم وهول جسيم، ويقولون بصياح فى الكلام نصر الله دين الإسلام...»(٧٥).

وما يقوله الجبرتى يبقى صحيحاً فى جملته؛ وقد لاحق الجبرتى هذه الجماهير متسقطًا ما

ارتكبته من فظيع التجاوزات، ولكنه ظل عاجزاً عن تفسير ظاهرة المدّ الشعبى بعد أن تخلّت عنه قيادات الطبقة العليا ثم الوسطى من الشيوخ؛ فهذه الجموع القاهرية كان عددها يزداد إثر تحقيق الانتصارات على الفرنسيين؛ فبعد مقتل الجنرال «ديبوى» انحازت الجموع، التى سبق أن آثرت الصمت، إلى صفوف الثوار واستولت بإمكاناتها المحدودة على معظم المواقع المحيطة بالقاهرة كباب الفتوح وباب النصر، وهدم هؤلاء الثائرون، بشهادة الجبرتى، «مصاطب الحوانيت وجعلوا أحجارها متاريس للكرنكة لتعوق هجوم العدو فى وقت المعركة، ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس». إن هذا المدّ لايمكن تفسيره إلاّ بما كانت تضج به النفوس من الحرمان المكبوت والتوق إلى عدالة إجتماعية كان من المستحيل تحقيقها إلا فى ظلال وطن.

فهذه الثورة، على كل ما كان فيها من معانى التضحية، كان ينقصها المشروع السياسى والرؤية المستقبلية الواضحة المعالم للأبعاد الوطنية، فلم تكن انتصاراتها العسكرية سوى مراحل سريعة الزوال، وما أن لاحقت بوادر انحسارها العسكرى حتى تسرب الخلل إلى غاياتها النضالية فانحرفت عن غاياتها النبيلة إلى ما هو الرجف أو الزلزال كما يقول الجبرتى، فتراه يصف هذا التحول الخطير فى مجرى الثورة بقوله: «ثم زاد الحال وكثر الرجف والزلزال، وخرجت العامة عن الجد، وبالغوا فى القضية بالعكس والطرد، وامتدت أيديهم إلى النهب والخطف والسلب، فهجموا على حارة الجوانية ونهبوا دور النصارى والشوام والأروام، وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام، وأخذوا الودائع والأمانات، وسبوا النساء والبنات، وكذلك نهبوا خان الملايات وما به من الأمتعة والموجودات، وأكثروا من المعايب ولم يفكروا فى العواقب، وباتوا تلك الليلة سهرانين وعلى هذه الحال مستمرين..».

وهذا الانحراف أسقط التأييد الوطنى للثورة لدى الطبقات الوسطى، ووجدت فيه الطبقات العليا تأييداً لتنبؤاتها السابقة، وانكفأت الطبقات الدنيا متحسرة على آمال انقضت كالأحلام، وحمل الفرنسيون الثوار مسئولية ما حدث ولقى منطقهم تصديقاً لدى معظم الفئات بما فى ذلك تبريرهم لما أحدثوه فى الأزهر نفسه من ضروب المنكرات. وخرج المعارضون للثورة عن صمتهم، وإبّان تأزم الوضع العسكرى وتكاثف نيران المدافع على البنايات والحارات تعالت الأصوات المنادية بوساطة كبار الشيوخ لدى الفرنسيين لوضع حدّ لهذه الحرب المدمّرة، وفى ظل ازدياد الخطب وعظم الكرب ركب المشايخ كما يذكر الجبرتى قاصدين بونابرت «ليرفع عنهم هذا النازل، ويكفّهم كما انكفّ المسلمين عن القتال والحرب خدعة وسجال، فلما ذهبوا إليه عاتبهم فى التأخير واتهمهم فى التقصير، فاعتذروا إليه فقبل عذرهم وأمر برفع الرمى عنهم».

وهكذا وجدت معاودة ممثلى الطبقة العليا الاتصال بالفرنسيين التغطية الكافية من جموع المتضررين من الثورة إلاّ ما كان من الأحياء الشعبية من أهل الحسينية والعطوف والبرانية، «فإنهم مازالوا مستمرين وعلى الرمى والقتال ملازمين، ولكن خانهم المقصود، وفرغ منهم البارود، والإفرنج أثخنوهم بالرمى المتتابع والقنابر والمدافع

إلى أن مضى من الليل نحو ثلاث ساعات وفرغت من عندهم الأدوات...». وعن مشايخ هذه الحارات رفض الفرنسيون قبول وساطة الشيوخ في العفو عن جرائمهم وانتهى الأمر بالشيخ الجوسقى شيخ طائفة العميان، والشيخ عبدالوهاب الشبرواى، والشيخ يوسف المصيلحى، والشيخ إسماعيل البراوى إلى القتل دون محاكمة وألقيت جثثهم من السور خلف القلعة.

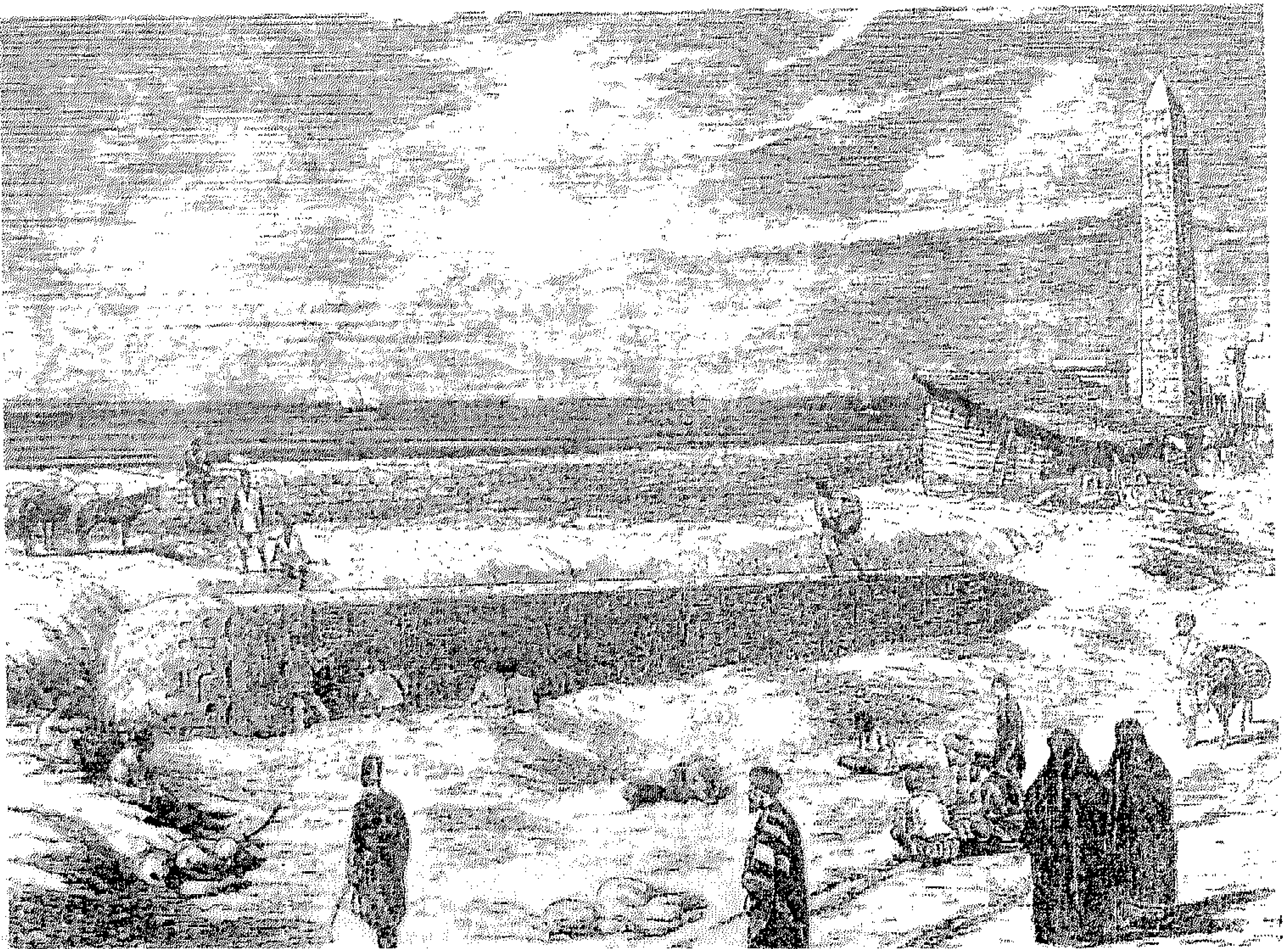
وإن كنا نرى الجبرتى يرمى الفرنسيين بأسوأ النعوت ويصفهم بالكفرة إثر ما رآه من تنكيلهم بالشيوخ وبعض العامة، فإننا نراه يشتد حماساً وغيظًا على أولئك الذين أشعلوا نار الفتنة بين المسلمين والنصارى لاسيما بعد أن اتخذ الهجوم على النصارى طابعاً رسمياً بعد قدوم نصوح باشا ممثل الباب العالي إلى مصر فى نهاية الثورة الثانية في القاهرة: «قال نصوح باشا عند ذلك للعامة اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم، فعندما سمعوا منه ذلك صاحوا وهاجوا ورفعوا أصواتهم ومروا مسرعين يقتلون من يصادفونه من نصارى القبط والشوام وغيرهم، فذهبت طائفة إلى حارات النصارى وبيوتهم التى بين الصورين وباب الشعرية وجهة الموسكى فصاروا يقتلون من يصادفونه حتى اتصل ذلك بالمسلمين المجاورين لهم، فتحزبت النصارى واحترسوا وجمع كل منهم ما قدر عليه من العسكر الفرنساوى والأروام وكانوا قبل ذلك محترسين وعندهم الأسلحة والبارود»(٧٦).

كان الجبرتى شديد النقمة على تلك الفتنة الطائفية التى كانت من ذيول الثورة فوصف موقديها بالأوباش والحشرات والزعر وغير ذلك من شتات النعوت؛ وساءه أن يستغل العثمانيون التزمت الإسلامى لدى العامة للفتك بإخوانهم العُزّل من المواطنين المصريين، وتلمس فى موقف الجبرتى مفهومًا واضحًا للمواطنية ومفهومًا رحبًا لعدالة الإسلام وتسامحه ظل خفيًا على العثمانيين الغرباء لاسيما وأن الفتنة التى أثارها العثمانيون اعتمدت على المال فى التغرير بصغار النفوس من العامة، إذ كان «كل من يقبض على نصرانى أو يهودى أو فرنساوى أخذه وذهب به إلى الجمالية حيث عثمان كتخدا ويأخذ عليه البقشيش، فيحبس البعض حتى يظهر أمره، ويقتل البعض ظلماً، وربما قتل العامة من قتلوه وأتوا برأسه من أجل البقشيش». والجبرتى وهو يلاحق هذه التجاوزات الصادرة عن العامة، يرى أنها كانت نتيجة للفتنة، لأن العامة لم تكن قادرة فى ظروف الفتنة على التمييز بين الفرنسيين وهؤلاء النصارى من أهل البلد، ويؤكد أن ما أصاب المسلمين على أيدى أولئك الزّعر لايقل عما أصاب النصارى.

لم تكن ثورة القاهرة وهى الأولى فى ثورات الشرق، تحمل مشروعًا سياسيًا فتلاعبت بأحداثها ظروف الصراع الدولي. ولم يكن الحكم العسكرى الفرنسى في ظل هذه الظروف قادراً على القيام بالتحولات الاجتماعية التى رسمها لمصر قبل الغزو، لابل إن مدة إقامة الفرنسيين فى مصر والتعرُّف على أحوالها، اقنعت الكثيرين منهم بخطأ التصورات التى كانوا يحملونها من قبل، وكانوا يتمنون العودة إلى بلادهم التي أخذت تتعرّض لغزوات الدولة الأوروبية المجاورة. وكان الإنجليز على علم بما يجول فى خواطر الجنود

الفرنسيين فى مصر وما يجول فى خاطر حكومة الديركتوار، وثورة القاهرة الثانية كان من الممكن تفاديها لولا تراجع الإنجليز عن الاتفاقية التى سعوا إلى عقدها بين العثمانيين والفرنسيين والتى تقضي بتسهيل عودة الفرنسيين إلى بلادهم دون التعرُّض لهم، ولكن هذه الاتفاقية ما لبثت أن نُقضت بعد حلول اللورد إيلجين محل سبنسر سميث كوزير مفوض لبلاده فى الآستانة؛ فإيلجين كان يرى من الخطأ عودة الجنود الفرنسيين إلى بلادهم لتستخدمهم فرنسا فى معاركها ضد بريطانيا. ولم تكن الثورة المصرية منتصرة على الصعيد العسكرى لأن الإنجليز أعادوا أمراء المماليك إلى حكم البلاد بعد أن ظن العثمانيون أنهم سيستأثرون لوحدهم بحكم مصر. ووقَعَت البلاد مجدداً فى فوضى ازدواجية الحكم.

* مسلتى الاسكندرية على عهد الجبرتى.



الهوامش:

(١) وكتاب مظهر التقديس حوى هجومًا قاسياً على الفرنسيين عاد فعدّله بعد خروج العثمانيين من مصر. ومن المؤرخين من رأى فى هذا الهجوم منجاة من اتهامه بالتعاون مع الفرنسيين فى مصر. فيما يرى فريق آخر أن هذا التعديل فى الموقف مردّه إلى مقارنة موضوعية لما شاهده المؤرخ خلال العهدين الفرنسى والعثمانى.

(٢) لجنة التشريع والعادات والتقاليد، لجنة الآثار القديمة، لجنة التجارة والصناعة، لجنة الزراعة لجنة نظام الشرطة، لجنة التاريخ ونظام الحكم، لجنة النيل، لجنة الادارة.

(٣) مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، تحقيق وشرح حسن محمد جوهر وعمر الدسوقى، ط١ ,١٣٨٩هـ /١٩٦٩م. ص٦

(٤) تاريخ الحركة القومية، ج١، ص١٥٦.

(٥) نقلاً عن الرافعى: ج١، ص ١٦٩.

(٦) نقلاً عن الرافعى: ج١، ص ١٠٨.

(٧) مظهر التقديس، ص ص ٥٧ – ٥٨.

(٨) نقلاً عن الرافعى: ج١، ص ١٧١.

(٩) نقلاً عن الرافعى: ج١، ص ١٧٢.

(١٠) نقلاً عن الرافعى: ج١، ص ١٧٢.

(١١) مظهر التقديس: ص ٢٤.

(١٢) مظهر التقديس: ص ص ٢٥ – ٢٦.

(١٣) من تقرير «تاليران» وزير الخارجية الفرنسية إلى حكومة الديركتوار فى ١٤ فبراير سنة ١٧٨٧ عن مشروع الحملة. نقلاً عن الرافعى: ج١، ص ٦٥، ١٥٥.

(١٤) نقلاً عن الرافعى: ج١، ص١٧٦ ــ ونص هذا الاتفاق غير موجود فى المراجع العربية؛ فالجبرتى يشير فى مظهر التقديس، ص٢٦، فقط إلى أن أعيان الثغر حضروا إلى نابوليون فألزمهم بجمع السلاح ووضع الجوكارد أى شارة العلم الفرنسى فوق ملبوسهم.

(١٥) نقلاً عن الرافعى: ص١٨١.

(١٦) مظهر التقديس، ص٥٨.

(١٧) مظهر التقديس، ص٣٥.

(١٨) مظهر التقديس، ص٣٩.

(١٩) مظهر التقديس، ص٣٦.

(٢٠) مظهر التقديس، ص٣٧.

(٢١) مظهر التقديس، ص ص٣٨ ــ ٣٩.

(٢٢) مظهر التقديس، ص ص ٤٣ ــ ٤٤.

(٢٣) مظهر التقديس، ص٥٢.

(٢٤) مظهر التقديس، ص٦٥.

(٢٥) مظهر التقديس، ص١٠٧.

(٢٦) مظهر التقديس، ص١١٣.

(٢٧) مظهر التقديس، ص١٣٩.

(٢٨) مظهر التقديس، ص١٤٥.

(٢٩) مظهر التقديس، ص١٥٦.

(٣٠) مظهر التقديس، ص ص١٦٨ ــ ١٦٩.

(٣١) عجايب الآثار.

(٣٢) «بونابرت فى مصر»، تعريب فؤاد أندراوس فى الكاتب العربى، القاهرة، ١٩٦٧، ص٢٤٦.

(٣٣) أحمد الحتة: تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر، ص٤٤.

(٣٤) عجايب الآثار.

(٣٥) عجايب الآثار.

(٣٦) عجايب الآثار.

(٣٧) عجايب الآثار.

(٣٨) عجايب الآثار.

(٣٩) عجايب الآثار.

(٤٠) عجايب الآثار.

(٤١) مظهر التقديس، ص٤٥.

(٤٢) مظهر التقديس، ص٤٣.

(٤٣) مظهر التقديس، ص٤٧.

(٤٤) مظهر التقديس، ص ص٥٣ ــ ٥٤.

(٤٥) مظهر التقديس، ص٦٧.

(٤٦) مظهر التقديس، ص١٥٧.

(٤٧) مظهر التقديس، ص١٣٧.

(٤٨) مظهر التقديس، ص١٥٦.

(٤٩) مظهر التقديس، ص١٦٠.

(٥٠) مظهر التقديس، ص١٦٣.

(٥١) أحمد عزت عبدالكريم: تاريخ التعليم فى مصر فى عصر محمد على، ص٢٤.

(٥٢) عبدالرحمن الجبرتى: دراسات وبحوث، ص.س.، ص٢٢٧.

(٥٣) الجبرتى: عجايب الآثار.

(٥٤) تحفة الناظرين، ص٢٤٥ .
(٥٥) مظهر التقديس، ص٣٤ .
(٥٦) عجايب الآثار.
(٥٧) عجايب الآثار.
(٥٨) عجايب الآثار.
(٥٩) صلاح عيسى: منهج عبد الرحمن الجبرتي. عبد الرحمن الجبرتي دراسات وبحوث.
(٦٠) عبدالرحمن الجبرتي: دراسات وبحوث، خطط القاهرة في أيام الجبرتي للدكتور عبدالرحمن زكي.
(٦١) المرجع السابق، ص٤٨٠ .
(٦٢) المرجع السابق نفسه.
(٦٣) عجايب الآثار.
(٦٤) عبدالرحمن الجبرتي: دراسات وبحوث، ص٤٨٣ .
(٦٥) خليل شيبوب: «عبدالرحمن الجبرتي»، سلسلة اقرأ، رقم ٧٠، ص٤٣ .
(٦٦) عبدالرحمن الجبرتي: دراسات وبحوث، ص٣٤٥ .
(٦٧) مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، ص١٠٣ .
(٦٨) تحفة الناظرين، ص ٢٤٥ .
(٦٩) الجبرتي: عجايب الآثار.
(٧٠) نقلا عن تاريخ الحركة القومية للرافعي، ج١، ص ٢٧٢ .
(٧١) منشور ١٠-١١-١٧٩٨ . الجبرتي: عجايب الآثار
(٧٢) الرافعي: تاريخ الحركة القومية، ج١، ص ٢٧٧ .
(٧٣) الجبرتي: عجايب الآثار ج٤ .
(٧٤) د. سعيد إسماعيل علي: كتاب الهلال، العدد ٤٣١، نوفمبر ١٩٨٦، ودور الأزهر في السياسة المصرية، ص ١١٣ .
(٧٥) الجبرتي: عجايب الآثار، ج٤،
(٧٦) الجبرتي: عجايب الآثار ج ٤،

المراجع:

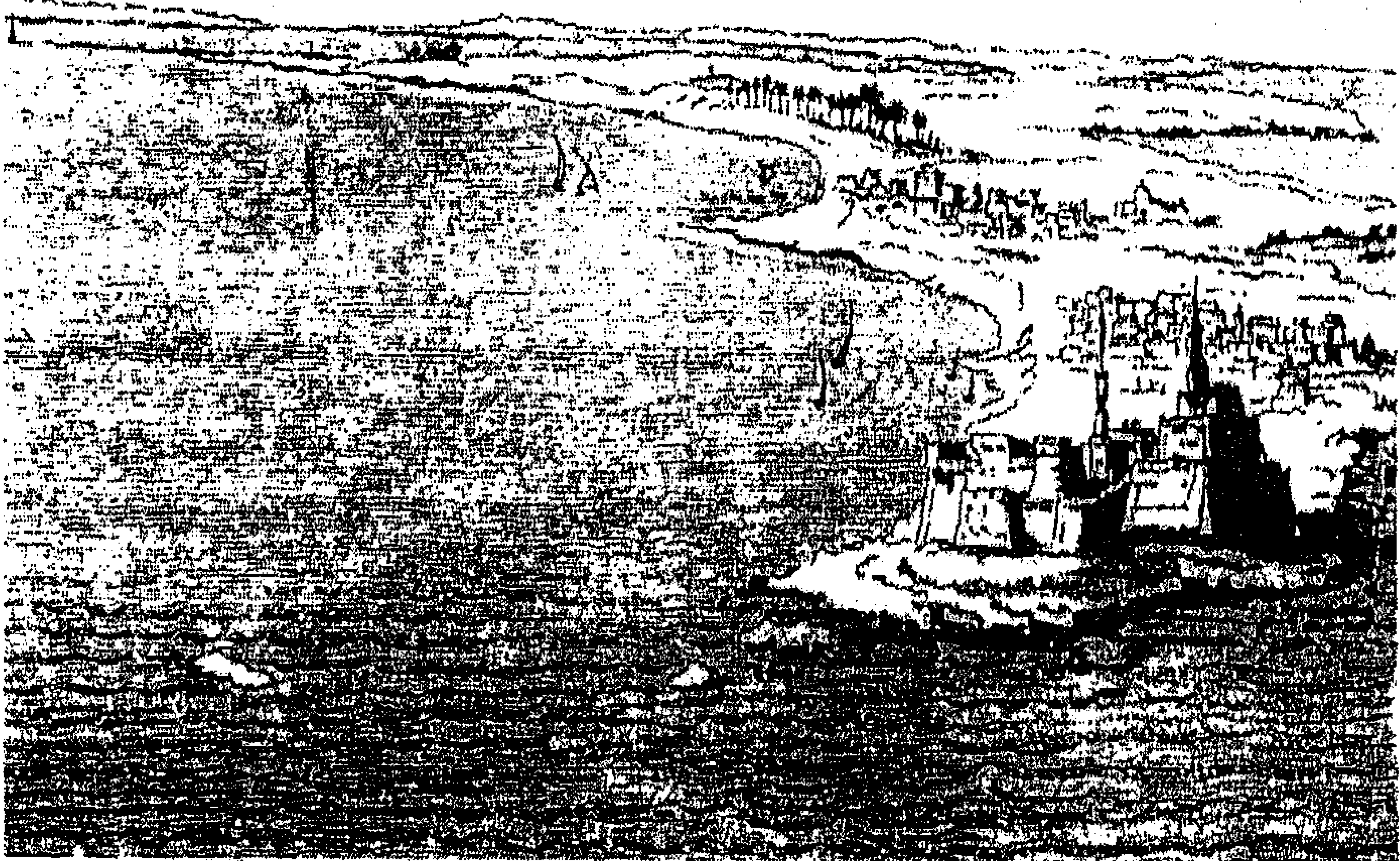
مظهر التقديس: تحقيق: حسن محمد جوهر وعمر الدسوقي. القاهرة/ ١٩٦٩

تاريخ الحركة القومية. جـ١ : عبد الرحمن الرافعي. ط١ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة. ١٩٤٧ .

بونابرت في مصر: ترجمة: فؤاد اندراوس. دار الكاتب العربي. القاهرة ١٩٦٧ .

تاريخ مصر الاقتصادي في القرن ١٩ : أحمد الحتة.

تاريخ التعليم في مصر في عصر محمد علي: أحمد عزت عبدالكريم



ملحق رقم (٢٥)

نصوص مختارة من مخطوطة «درر نحور الحور العين بسيرة الامام المنصور علي ورجال دولته الميامين، ١١٨٩ـ ١٢٢٤هـ/ ١٧٧٥ـ ١٨٠٩م. تأليف: لطف الله بن أحمد جحاف. المحفوظة بمكتبة جامع صنعاء الكبير. نشر وتحقيق. د. سيد مصطفى سالم. القاهرة ١٩٧٥.

[١]

استيلاء الفرنسيين على مصر وسبب ذلك

سنة ١٢١٣هـ(١).

وفيها وردت الأخبار بدخول الفرانسه، جعل الله ديارهم دارسه، وغيرهم من الأفرنج الأبالسه، ديار مصر طهرها الله من الدنس فاستولوا عليها، ومدوا أيدى الكفر إليها، وأظهروا بها الفساد، وعانوا وتسلطوا على من بها من المسلمين، ولاثوا كل ذلك بضرب من الخداع، والمكر والحيل والأطماع. وقد أتينا على تفاصيل الأخبار، وما نقل إلينا فى ذلك من صنع الكفار، فى كتابنا «قرة العين بالرحلة إلى الحرمين»، ولا بأس بالإشارة إلى ذلك على جهة الاختصار، فنقول:

قد كان تقدم إلى مصر أحد كفار الفرنساوية من أولاد ملوكهم(٢).

لما رغب فى التجارة وسفر البحر، فمازال ينزل على مصر مرة بعد أخرى، حتى تمول منها أموالا واستطابها مسكنًا وحالا، فعرف متوليها رغوبه فيها، فطالبه بشىء من نفايس أهداها له، وهى(٣) مما جلبه آخر عام سبع ومئتين فأبى ذلك، فأفصح عليه بأن أمواله إنما نمت ببركاته، مع الإذن له بها فى بيوعاته ومشترياته. وكان إذ ذاك بمصر فحبسه وأرسل من يستخرج مطلوبه من مراكبه فوقع على ما يريد وأطلقه فى قيد الذل مهانًا، فراح عنها ووصل إلى سلطان دياره بونابارته(٤). بضم الموحدة، فواو ساكنة فنون فألف فموحدة فألف فراء مهملة ساكنة فمثناه فوقية مضمومة فهاء ساكنة، وكان فى نفسه فى مصر لما يسمع من خيراتها، فعبأ أثقاله، وطلب رجاله، وأصلح أحواله، وهيأ خيوله وجماله، وسار فى مراكبه يخوض لجج البحار، وقدم فحول أصحابه الفجار، فوصلوا إلى سلطان الإسلام سليم بن مصطفى خان، فقدموا بين يدى نجواه هدايا وتحف، وسألوه الاذن لهم بالخروج إلى الاسكندرية، ليعبروا منها إلى بحر السويس لحاجات لهم بالهند فأبى ذلك، ولم يسعفهم إلى ما هنالك، فتخللوا أخباره، وتفقدوا آثاره، فوجدوه منهمكا فى لذاته، شغفاً بطيباته، ورأوا أمه تحل الأمور وتعقد، وتصلح ماشاء وتفسد، فقدموا إليها مالا واسعًا، وسألوها طلبتهم، فأسعفت أمينتهم، فجعلوا إليها صكا فى الاذن بالعبور من الاسكندرية، فوضعت خاتم السلطان على ذلك، فراحوا عن ديار الروم وقد تبلجت لهم المسالك، فمروا بجزيرة مالطة من أعمال الغرب وهى تحت حوزة الانجليز(٥)، فرأوها حاكمة على بحر الروم فبغتوها خوفاً من أن يفجأهم أمر من بعد، فلا يجدون بدا من المرور بحوالى الجزيرة، وكانت بينهما العداوة التى أخبر الله عنها فى كتابه فاستولوا عليها واستباحوا مافيها، وهدموا قلاعها وحصونها، وعاثوا تجارتها، وقتلوا كبراءها. وخلص الانجليز عنها وهو السلطان قنصل(٦). بقاف مضمومة فنون ساكن فصاد مضمومة فلام، وقصد سلطان الإسلام يشكو ما صنع به بونابارته، وجاءت الأخبار بأنه قد فاجأ الإسكندرية، وغلب

عليها، فعجب السلطان من ذلك وبقى بحضرته قنصل شهوراً يستغيث به، ويسأله الإعانة على الأفرنصيص، فأجابه بعد اللتياواللتى(٧) وأذن له بالخروج عليه وقصده إلى مصر، وجعل له مرسوماً(٨) ينهج له السبل، فخرج فى جيش جرار وركب البحر، ووصل إلى حذا دمشق، فخرج من عكا جماعة يستفصحون خبره ومراده، فأطلعهم على مرسوم السلطان، فانهوه إلى أحمد الجزار، فاستنزله فنزل عليه وأخبره بما توجه إليه، فاستوقفه وأخبره أن الفرنساوية قاصدة له، وأنه مستعين به، وواصل سببه بسببه، فكانت القتلة العظمى، والداهية الدهياء بعكة، وقد ذكرنا وصف خروج الفرنسيس على أحمد الجزار، ومادار بينهم وبينه، وكيف أوقع بهم، وذكر أسماء الخارجين عليه من أمرائهم وعظمائهم وقتلته لهم، وأتينا على أخبار دخولهم الإسكندرية وما الذى أعملوه من المكر والخداع، وفصلنا ذلك فى كتابنا «قرة العين» فلا نطول بالاعادة، ففيه مطلوب المتطلع وزيادة،وسنثبت الكتب التى وردت من الشريف(٩) غالب فى هذا الحادث العظيم، والخطب الجسيم، عام ثلاث عشرة ومائتين وألف، إذ فيه كان وصولها، وننقل الكتاب الذى بعثه عتاه الفرنساوية إلى بونابارته تحضه على إعمال النظر الدقيق، واستعمال الخداع بذلك الفريق، وإنزال الضر بجماعة المسلمين، والمكر بهم وبمن أعانهم من سائر الكافرين.

[٣]

الصدام البحرى بين انجلترا وفرنسا بالقرب من عدن بعد استيلاء الفرنسيين على مصر

سنة ١٢١٢هـ.

وفى ربيع الآخر: اتفق مركب للفرنساوية ومركبان للانجليزية باب عدن(١٠)، فكانت بينهم ملحمة بعد بلوغ الأخبار فى البحار بدخول الكفار ديار مصر، وكانت الدائرة على الفرنساوى.

[٣]

تعاون سلطان مسقط مع الانجليز ضد الفرنسيين

وكان صاحب مسكات(١١) قد شحذ همم من بالجزائر هناك على مصاولة الفرنصيص لأسباب منها أخذ جماعة من الفرنصيص داوا(١٢) وكانت به أموال جمة، وأخذ عليهم بعدها ثلاثة غرابات(١٣). وكان الافرنصيص قد أخذ ثلاثة مراكب من حوزة محمد على خان صاحب الهند(١٤)، وبها جماعة من الانجليز، ومركب للشلبى، فمازالت المراكب تمر من بحر الهند آمنة إلا ما كانت من مراكب الفرنساوى فانها لا تمر إذ ذاك من عدن إلا على مخافة.

[٤]

حروب متطوعى الحجاز مع الفرنسيين بصعيد مصر

ودخلت سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف:

وفيها قام فى البلدة الحرام، بوظيفة الدعاء إلى إقامة شعار سنام الإسلام، محمد المغربى الجيلانى(١٥) الهاشمى لما وردت الإعلام، بما صنعه الكفرة اللئام، من الهجوم على ساحات مصر، وتصدر بالحرم الشريف فالتف عليه خلايق، واستمعوا إرشاده إلى أنهج الطرايق، وفعل دعاه بالقلوب مافعل، وتسامع الناس بأخباره فوردوا إليه،

وبذلوا نفوسهم وأموالهم بين يديه، وكانت النساء تأتى فتستمع مايمليه من أحاديث الحض على الجهاد، فيلقين إلى الحلقة فتخاتهن(١٦) وعقودهن وملبوسهن، ويقلن ذلك الذى علينا، فاجتمعت عنده أموالا واسعة، ووردت إليه المتطوعة من البلاد الشاسعة، فسار بهم لمناجزة أعداء الله الفرانسة، فكان من خبره ماقصصناه فى كتابنا «الرحلة إلى الحرمين»، غير أنا لانخل بهذا الكتاب من فائدة زائدة.

كان السيد محمد الجيلانى قد دعا العباد بالحرمين إلى فريضة الجهاد، فممن أعانه بالحرمين محمد باصلاح الحضرمى، فإنه تصدق فى سبيل الله بخمسماية بندق صغار مغربية، ومايتى حربة من حراب الشام، ومايتى سيف، وأربع ماية كيس حبوب الرز، وألفى نعل ينتعلها فقرا المجاهدين، ومنهم الشيخ عبدالرحمن العسيرى بمهمات جهز ثلاث سواعى(١٧) يركبها المجاهدون وملاها لهم ميره، ومنهم الشيخ أحمد فاس جهز داوين [مركبين] فى سبيل الله، ومنهم الشريف غالب بن مساعد، جهز خمس سواعى فى سبيل الله شاحنة، ومن أهل ينبع محمد أبوالعسل جهز داوا من داواته وثلاث سواعى أخرات من أهل ينبع، فسيّر السيد محمد الجيلانى جماعة المطوعة من جدة فى تلك الداوات فكانوا نحواً من أربعة آلاف مقاتلا ثم سار ناحيا نحو المدينة المنورة فمر بأهل رابغ(١٨) والخليص(١٩) فدعاهم فأجابوه، وبذلوا له أموالا واسعة، وسار إلى بدر فأنالوه وخرج منهم جماعة متطوعة، وكان له وكلاء يجمعون الأموال معه، ثم نزل بالصفر(٢٠)!

فدرس بها ودعا إلى الجهاد. فجاءوه بأموال واسعة، فقال له بعض العوام أنهم زيدية، فقال قد زادهم الله عليكم فضلا، فإنى وجدتهم يدفعون أموالهم فى سبيل الله وقبضها منهم. وسار إلى المدينة، فتسلم من أهلها أموالا جزيلة، وخرج منهم ثلاث ماية متطوعة، فنزل بالجميع إلى ينبع، وجاءه الخبر بأن المطوعة من ديار مكة قد مرت مراكبهم فحمد الله، وسار بمن معه، وكان السابقون من مكة قد خرجوا من ريف مصر وعليهم السيد حسن الجيلانى ابن أخت السيد محمد، والسيد طاهر أخو السيد محمد فنزلوا بقنا(٢١)، فقيل لهم أن النصارى بمدينة سمهود(٢٢) قريباً منكم، فخرجوا نحو النصارى فاقتتلوا فكانت الدائرة ذلك اليوم على المسلمين، ففروا إلى قنا، فحصرتهم النصارى بها فخرجوا عنها إلى بئر عنبر من أعمال الريف، وسار بعضهم إلى اللقيطة(٢٣) وعادت النصارى إلى سمهود، وورد على المسلمين الخبر بنزول الجيلانى من البحر، فالتقاه جماعة منهم فطلبهم جميعًا وسار بهم حتى إذا حاذى مدينة أبنود(٢٤)، كتب إلى النصارى كتاباً يدعوهم إلى الإيمان بالله ورسوله، فإن أطاعوا وإلا فهو مقاتل لهم، فأجابوه إلى القتال، وأنشالت جموعهم براً وبحراً، فخرجت إلى مرسى أبنود اثنى عشر مركباً، فقصدها من المسلمين فانتهبوها، وغرقوا كثيراً من أهلها وملكوها، ووجدوا بأحدها ثمانين ألف ريال. ووصلت بعد ثلاث ليال جموع لاتعد من النصارى فتوجهت فى البر على أبنود، فقام المسلمون وجابهوهم، فاقتتلوا من آذان الظهر إلى أن تضيفت

الشمس للغروب، وكان الدائرة بعد على المسلمين فإنهم بعد ذلك تفرقوا فرقاً، وذهب كل منهم قبل وجهة بعد أن قتل من الطايفتين خلق لاتحصى. وعاد السيد الجيلانى فى أربعين نفراً من أهل اليمن(٢٥)، وطلع قلعة أبنود فتبعته النصارى بجمع لايحصى، فأحرقوا مدينة أبنود، وتوجهوا على القلعة فأحرقوا بابها، غير أن السيد ومن حضرته أحربوا حربًا حارًا ذلك اليوم، ومازالوا كذلك ثلاثة أيام حتى نفد مابها من الماء والزاد، فخرج بمن معه ليلا وسار بهم إلى بئر عنبر، فلقى بها جماعة من المسلمين، فسألهم عن إخوانهم، فأخبروه بتشتتهم، فسار عنهم تلك الليلة إلى محله يقال لها حجازة(٢٦) فى نفر خفيف وأبقى ببئر عنبر السيد حسن الجيلانى، وكان بها من الصناجق(٢٧) حسن بيه الجداوى(٢٨) الخارج أيام أبى الدهب إلى الحرمين، وكذلك عثمان بيه حسن(٢٩) صنجق آخر، قد التف جمعهما العظيم مع متطوعة المسلمين، وراح الجيلانى من هنالك وقد أدرك عله، فاستقر بحجازة ثلاثة أيام وأدركه الأجل. وجاءت الرسائل إلى من بأبنود وبئر عنبر مخبرة بوفاته رحمه الله، وطالبة من المسلمين الوصول للاطلاع على الوصية، فانثال إلى حجازة جمع من المسلمين للنظر فيما أوصى به، فوجدوه قد أوصاهم بتقوى الله، والجهاد فى سبيل الله، والصبر على ملاقاة الأعداء، غير أنه تبدد النظام، وكثر الكلام، وأجمع رأى المسلمين على النزول إلى ديار النصارى، فساروا إلى قبايل هلة وجهينة من أهل مصر، فالتقوا مع النصارى، فاقتتلوا قتالا شديداً فنى فيه خلق. ثم ساروا بعد ذلك فنزل المسلمون على برارى جرجة فتلقاهم هنالك الشيخ عبدالمنعم الهوارى وأخبرهم بأن النصارى بالقرب من محله فنزل المسلمون عليه فلم يشعروا إلا بطلايع النصارى قد أقبلت عليهم، فخرجوا فكانت ملحمة عظمى فنى بها من الفريقين خلق، واحتز عبدالمنعم رؤوساً من قتلى النصارى. وانفصم بها عقد نظام المتطوعة، وذهب الناس إرسالا لا أمير لهم، منهم الذاهب إلى مصر، والذاهب إلى الشام، والعايد إلى الحرمين.

وسنقص عليك بعض ما كان عام أربع عشرة، وسنذكر إن شاء الله تعالى ما كان من مصالحة الشريف غالب لسلطان النصارى بونابارته وتفصيله.

[٥]

خطاب الشريف غالب بن مساعد إلى الإمام المنصور على بأخبار الحملة وبالاستعداد لحماية سواحله

سنة ١٢١٣هـ

وفى شهر رجب من هذا العام ديسمبر ١٧٩٨/ يناير ١٧٩٩، وصل إلى الإمام(٣٠) من الشريف غالب بن مساعد كتاب مخبر بثورة الفتنة العظمى، ووثبة الطايفة الشقية الصما، طايفة الفرانسة الأفرنجية، على الإسكندرية، وبلوغها بالخداع والمماكرة، إلى ديار مصر القاهرة، وأرسل باطنه فرمان سلطان الإسلام سليم بن مصطفى خان.

قال الشريف: «الحمد لله الذى كل يوم هو فى شأن، والصلاة والسلام على سيد ولد عدنان، وعلى آله الطاهرين، وصحبه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين، ثم نهدى مزيد سلام نشأ من خالص الوداد، وأعرب عن صدق المحبة والاتحاد، مع تحيات طاب نشرها من المآثر العظام، وبيت الله وزمزم والمقام، إلى الحضرة الباهرة المنصورية، والفتوة الزاهرة الهاشمية، والسدة العلية العلوية، ناصر الخلافة اليمنية، وواسطة نظام السادة الحسنية، الجناب العالى الكريم، والمآب الغالى الوسيم، أخينا الأكرم، وعالى الهمم، الإمام بن الإمام بن الإمام، المنصور، وفقه الله لاصلاح الجمهور، ولازالت العناية الربانية له ملاحظة، والكلاءة الصمدانية له حافظة، آمين بجاه جده سيد المرسلين.

وبعد إهداه شريف السلام، وإسداه واجب التحية والاكرام، فالسؤال عن حالكم كثير، لموجب مالكم عندنا من جميل الود الوفير، فإن سألتم عنا فنحمده سبحانه على جزيل فضله، وعظيم امتنانه، طيبين بخير وعافية، ونعمة من المولى الكريم وافية. والذى نبديه إلى مسامعكم العلية، وأفهامكم الذكية، من الأحوال الحادثة فى الوجود، وجريان أحكام الملك المعبود لموجب اجتناح أهل الإسلام، إلى الترفهات عن نهج المهام، وترك حزم الأمور، وغفلتهم عن حفظ الثغور، حتى صار ما صار، من شر ذمة أهل البغى والإنكار، من التهجم على بلاد اسكندرية مصر القاهرة، بجنود من البحر على سفاين متواترة، وهم طايفة من جمهور الفرانسة، والملة الباغية، التى بفضل الله أعلامهم ناكسة، لمشاهدتهم فى أحوال المسلمين، ترك ثغورهم عن التحصين، فهجموا على تلك البلاد، فلم يجدوا لجامحهم مدافع ولاحصن راد، فأفسدوا كافة من بجوارها من العربان بأنواع السياسة الموهمة بأنهم من طارفة السلطان، وأبرزوا للبوادى كتبا مزورة، [منشور بونابرت إلى المصريين] بألفاظ عربية بتعظيم الله ورسوله مسطرة، حتى انقادوا لهم بالطاعة، ظنًا بأنهم من جنود الدولة المطاعة، وليس يخفى عليكم حال البوادى الطغام، الذين لايعقلون إن هم إلا كالأنعام، فسلكوا بهم الطريق، وصاروا للمشركين أعظم مساعد وأعز رفيق، فجرى قدر ربنا سبحانه، باستدراج جند الشيطان أرباب الخيانة، بتملكهم للقاهرة، ودخولهم إلى مصر بحكمته الباهرة، فلا راد لقضاه، ولا محيص عما ارتضاه، فهو الملك المختار وله المشيئة فيما يختار، فحينئذ بلغ الخبر حضرة سلطان الإسلام، أدحض الله بصوارم سطوته جنود الليام، فجهز عليهم من أبطال الأجناد، ما يعجز عن حصرها جميع الأعداد، وسير عليهم من جنود الإسلام وزراه العظام، وجعل مقدمهم الوزير الشهير الجزار أحمد باشا، بلغه الله من الخير ماشاء، فاجتمعت عليه طوايف العربان، وتحشدت تحت رايته كافة أهل الإيمان، وهرع إلى جهادهم المسلمون من كل مكان، حتى أقطارنا الحرمية ظهرت منها للجهات سبعة آلاف، يردون فى طاعة الله موارد الموت والاتلاف، ونرجو الله العظيم، من فضله الصميم، أن يؤيد بالنصر أجناد الموحدين، ويبدد بالقهر شمل الكفرة الملحدين. والحمد لله قد وردت إلينا الأخبار، بتضايق حال المشركين من الحصار،

لتزاحف جنود أهل الإسلام، وإحاطتهم بجميع المنافذ المصرية والشام، فانتظم أمر التجهيز، وانتدب لنصر الدين كل ذليل وعزيز، ﴿ولينصرنّ اللهُ من ينصُرُه إن اللهَ لقويٌّ عزيزٌ﴾.

وفي هذا الأوان، ورد إلينا هذا الفرمان، الصادر إليكم منه صورتان، المعلن بدواعي الفلاح، والمحرض لكافة المسلمين على ما يرجى منه النجاح، من استعداد القوة للمصادمة والكفاح، كما هو متحتم على أهل الإسلام، خصوصاً في مثل هذه الأيام، ومن أعظم الشيم والمروة امتثال قوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ فبذل غاية المجهود، في محافظة الثغور وتحصين الحدود، والمرابطة في بلدان السواحل، والذب عن الأديان بسهم المرامي وبيض الصواقل أمر محتوم على كافة الإسلام وساير القبايل، فواصلكم صورة الأمر الشريف والخطاب المنيف، وما المقصد من إرساله إلا تنبيهكم لحفظ البلاد، والتحذير من أرباب الكفر والعناد، كما هو مصرح في الفرمان السلطاني من ذكر مكايد الكفرة في جميع المعاني. ولا يغرب عن فهمكم الثاقب، أن ملوك الروم أمس بما تبنى الكفرة أمورهم من المعاطب، فحثوا على المرابطة جميع المسلمين، وقووا ثغور بلدانكم بالتحصين الرصين من البنيان، وشيدوا بروج المناطق بذوى البأس من الفتيان، فإن بحر الهند تجرى فيه سفاينهم، وقد ظهرت فيه بأخذ الموسم(٣١) ضرايرهم فيجب من عزيز جنابكم كمال التحرى لدفع مفاسدهم، والاستعانة بالله تعالى في إدحاض مكايدهم، ومن أكبر اللوازم نشر هذه الفرمانين في كافة أقطار أوامركم، وأقصى ما يحادد بلدانكم ومحاكمكم.

هذا ما عن لنا به الأخبار، لا زلتم في كلاة الملك الستار، وإن شا الله عن قريب نفيدكم بمسرة نصر الإسلام.

والمرجو من جنابكم، عدم إخراجنا من الضمير المنير بأسرار صحة أخباركم ومسوق آثاركم، ولا سيما تفيدوا بما جد وحدث، وبلغكم من الإسلام والأخبار، ودمتم سالمين، وبعين عناية الله ملحوظين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

[٦]

الفرمان السلطاني إلى الشريف غالب والمرسل صورته إلى الإمام

فهذا كتاب غالب، وهذه صورة ما نقله الشريف من الفرمان السلطاني: بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيماً ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ وبعد فهذا مرسومنا المبجل الشريف، وخطابنا المعظم المنيف، لازال نافذاً بعون الله تعالى في سائر الأرجاء والأقطار، مادام الفلك الدوار، صدرناه على نظيم فرائد التحية والتسليم، منطوياً على قلائد التبجيل والتكريم، محتوياً مبنيًا عن أحكام قواعد صيانة الدين، ومؤيداً لمعاقد حماية سنن سيد المرسلين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، صدرناه إلى عالي جناب الأمير الأمجد، المبجل الأجل الأوحد، المقتفي آثار أسلافه

الأشراف، من آبايه الغر صناديد آل عبدمناف، وأجداده السعيدى السير الجميل الأوصاف، فرع الشجرة الزكية النبوية، طراز العصابة العلوية المصطفوية، زيادة آل الرسول، غرة بنى الزهراء البتول، المحفوف بصنوف عواطف الملك الماجد، حالا شريف مكة المشرفة الشريف غالب بن مساعد، لازالت العناية الربانية له ملاحظة، والكلاة الصمدانية عليه حافظة، والي قدوة العلما، وعمدة الفضلا نايب مكة المكرمة، وكافة السادات الأشراف، الأجلاء الميامين، ومفاتى المذاهب الأربعة والعلماء والأيمة المحترمين، ووجوه كافة المسلمين، من ساكن بلد الله الأمين، من حاضر وباد، وفقهم الله إلى سبيل الرشاد.

يحوطون علما أن طايفة كفار الفرانسة، جعل الله ديارهم دارسة، وأعلامهم ناكسة، قد نقضوا العهود، وخانوا مواثيق المعبود، وخرجوا من أطوار الحدود وهجموا على بلدان مصر وسكانها، وعلى حين غفلة من أهلها، فملكوا البلاد، وأفشوا الكفر والفساد، وخاضوا بحار الضلال والطغيان، وتحشروا تحت راية الشيطان وتمكن البغى فى أحشاهم، وأن الشياطين ليوحون إلى أولياهم، لا حاكم يردعهم، ولا دين واعتقاد يجمعهم، يعدون النهبة غنيمة، والنميمة أكبر شيمة فقد اتفقت اراهم، وارتبطت أشوارهم على الهجوم على ساير بلدان المسلمين، وأقطار عباد الله الموحدين، بأن أهل الإسلام قويين، ولهم مزيد الصلابة فى الدين، فإذا وصلنا أقطارهم، وحللنا بديارهم، فالضعيف منهم نباشره بالحرب والضرب، والقتل والنهب، والقوى منهم تنصب له شرايك المكر والحيل حتى تطمين خواطرهم وتأمن ضمايرهم، إلى أن يقعوا فى أشراكنا ونعمل فيهم ماشئنا من مقاصدنا ونلقى بين ساير المسلمين المكايد الخفية بالفساد، لإيقاع العداوة المباينة للاتحاد، فى أحوالهم وأديانهم، ولم يعلموا لعنهم الله أن الإسلام مغروس فى قلوبنا، والإيمان ممزوج بلحمنا ودمنا، أكفر بعد إيمان؟ أضلال بعد هدى؟ كلا ورب الأرض والسماء ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾. خصوصاً فى طوايف العرب لنبلغ فيهم أقصى مرام وأعز مطلب، ونبذل الجهد فى تخريج الرعاية من الإسلام، عن طاعة من ولى عليهم من الأحكام، حتى تكون لنا الصولة العظمى، ويصيرون الجميع لنا مغنما، فينقطع بذلك سلك نظامهم، وينفصم عقد انتظامهم، فنملك حينئذ رقابهم وأموالهم، فإن العرب أسرع ما يستولى على ديارهم، لتفرقهم فى أوديتهم من أقطارهم، وغفلتهم عن حزم أحوالهم، فإن أعظم ما يشتت جموع الإسلام ويفل حد سنانهم عن الانتظام، هدم قبلتهم، وحرق مساجدهم، وإذا ظفرنا بأقطارهم، وهدمت كعبتهم، ومسجد نبيهم، وبيت مقدسهم، انقطع أملهم، وتفرق شملهم، وملكنا ديارهم، فإن الأمور لايدركها إلا اتفاق الجمهور، فنقتل جميع رجالهم، ومن يعقل من صبيانهم، فحينئذ تقتسم ديارهم وأموالهم وأملاكهم ويحول بقية الناس إلى أصولنا وقواعدنا ولساننا وديننا، فينمحى الإسلام وقواعده وشرايعه، وتتدرس رسومه وآثاره من وجه الأرض من شرقها وغربها، وجنوبها وشمالها وعربها وعجمها. فهذا ما اتفق رأى الفرنسيس اللعين، من سو المقاصد فى المسلمين جعل الله دايرة السو

عليهم، فلايستطيعون صرفًا ولانصراً، ونرجو الله أن يعاملهم بعدله فى قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾، فهذا حال الفرانسة فى اتحادهم وحيلهم وعنادهم، وما اقتضاه فاسد اجتهادهم: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾، فكيف لايكون فرضًا على كل أحد من مسلم وموحد، أن يشمر عن ساعد الجد، ويبذل نفسه وماله فى مرضاة الواحد الفرد، ويمتثل قول أصدق القايلين: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، ويكون رابحًا فى بيعه عن الخسران مستبشرًا بإبذال نفسه فى سبيل الرحمن، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾، إلى غير ذلك من الآيات البينات، والأحاديث الصحيحة المروية عن الثقات، مما يحث على نصرة الدين، ويلم شعث الموحدين، فالآن أنتم ياشريف مكة، وسادات الأشراف، قرنات العرب وحماة الدين، وكمات المسلمين، وغزاة الموحدين، وأبطال الحروب الماحين بصوارم عزمهم عن الدين ظلام الكروب، يارجال الغارات، ويا أركان الشريعة والعبادات، وياحفظة الدين والأمانات، يا باذلين النفوس عند انتهاك الحرمات، ويا كافة إخواننا فى الدين، والذين هم لشريعة نبيهم ناصرين، البدار البدار، إلى طاعة الملك الغفار، لمحافظة قبلتكم، ومحتد نبيكم، منشأ الإسلام، ومسجد نبيكم عليه السلام وموطن مضاعفة عباداتكم من ساحة بيت الله الحرام، فالغيرة الغيرة، والحمية الحمية، من صولة أعداء الدين، الذين هم عن كل ملة مارقين، وبكتب الله ورسوله مكذبين، فشدوا عزايمكم للقاهم، واحفظوا جهاتكم وسواحلكم ومنافذ بلدانكم، وسارعوا إلى الرباط إلى حدود الكفرة اللئام، ببندر جده وينبع وما والاهما مما فيه صيانة المسلمين، وحفظ أعراض الموحدين، وكونوا عبادالله إخوانًا، ولاتنازعوا فتفشلوا، وفى سبيل الله اتفقوا وتحملوا، وكونوا كلمتكم واحدة، وأيديكم متناصرة متعاهدة، ولتكن سيوفكم بالغة، وسهامك راشقة، وألسنتكم فى الطعن متلاحقة ومدافعكم صاعقة، ونبالكم إلى أفئدتهم متسابقة، ولتقصدون بذلك إعلاء كلمة الله، والذب عن بيت الله، ومسجد رسول الله ﷺ، ونرجو الله أنكم مؤيدون بنصر الله، محفوظون بروحانية رسول الله، ولا يكون لكم تخلف عن ذلك، ولاتراخى فى حفظ تلك المسالك، ونحن فى طرف السلطنة السنية، نشرنا رآياتنا العلية وبحول الله وقوته وباهر عظمته، تملكهم عساكرنا المنصورة، وتقطعهم سيوفنا المشهورة، وقد سيرنا عليهم شجعان لايبالون بالموت لإعلاء كلمة الله، وغزاة يقحمون على النار محبة فى دين الله، فنتعقب بقدرة الله أدبارهم، لعل الله تعالى يرزقنا بهلاكهم ودمارهم، فنجعلهم إن شاء الله هباء منثوراً، كأنهم لم يكونوا شيأً مذكوراً. فبادروا أيها المسلمون إلى الرباط بجده وينبع، ومن تخلف فقد عصى الله وخالف أمرنا فإن أمرنا إليكم، وحتمنا عليكم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، واستجلبوا صالح الدعوات من عجازكم، وصالحيكم وأفاضلكم عند البيت الحرام،

وقد قال تعالى: ﴿انفروا خفافًا وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم﴾ وقال عليه السلام: (المؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضًا)، وهذا يوم ينفع الصادقون صدقهم: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقًا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين (١٠٠) وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم (١٠١) يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون (١٠٢) واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون (١٠٣) ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون (١٠٤) ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم (١٠٥) يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون (١٠٦) وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون (١٠٧) تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلمًا للعالمين (١٠٨) ولله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور (١٠٩) كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرًا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون (١١٠) لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون (١١١) ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (١١٢)﴾. فالبدار البدار إلى ما أمرناكم من الرباط، والحذر ثم الحذر من خلاف ذلك، هذا ما انتهى أمرنا إليكم، ولازلتم موفقين بعون الملك المعين، وصلي الله علي محمد وآله وصحبه الميامين، آمين، آمين.

[٧]

ترجمة خطاب حكومة الإدارة بفرنسا إلى بونابرت عند قيامه بالحملة على مصر والمرسلة من السلطان إلى الشريف ومنه إلى الامام

انتهى لفظ كتاب السلطان لم ينحرف منه حرف واحد، وطيه كتاب الفرنسيس فى مخادعته للإسلام، ولفظه:

هذا صورة ما وقع من الاتفاق بين طايفة الفرانسة الفراعنة الأبالسة والأمر الذى دبروه، والمجلس الذى قرروه وحرروه، وإجماعهم فى ذلك على أخذ إقليم مصر وغيرها، بأنواع الحيل ومكرها، وأبواب الحرب والقتال، والطعن والجدال وتعيينهم لذلك بونابارته سر عسكر إلى الجهة المذكورة، وخطابهم له فى الأمور المزبورة، نقلت هذه الصورة عنهم بيد بعض عيون المسلمين بالتركية، فعربت بالعبارة العربية، الواصلة إلينا من نفس الدولة العالية لفظها، قالوا:

إن إقليم مصر من الأقاليم العظيمة، التى خيراتها جسيمة، إيراد أموالها كثيرة، ومنافعها غزيرة، وفوائدها لاتحصى، وعوايدها لاتستقصى،

وأمر ذلك مفهوم، عند ذوى الفهم. وقد استولوا عليها وعلى خيراتها الضخم، السناجق والمماليك الظلمة، وظلمهم زاد فى النهاية، ووصل إلى الغاية، مما لايخفى على ساير الناس، المحفوظين الحراس، والطايفة الفرنساوية، لهم همم عليّة، كل شى أرادوه وتوجهوا إليه، أخذوه واستولوا عليه، فالمطلوب والواجب نزع هذا الإقليم العظيم من أيدى تلك الظلمة الذين ظلمهم عظيم، وتحوزه الطايفة الفرنساوية، وتختص به دون البرية، وقد آن لنا وقت أخذه والاستيلاء عليه، ونظفر بعدها بما حواليها. ومن المعلوم لدينا أن دولة الانجليز علينا عدو كبير، فتحتاج الفرنساوية أن تفعل مع أعداهم من الانجليز وغيرهم أموراً تنكد عليهم الأحوال، وتخيب فيهم الآمال، فهذا لازم لابد منه، ولا محيد عنه، مقدم على ساير الأمور، عند جميع الجمهور، فإذا ملكتم أيها الفرانسة إقليم مصر المذكورة يهون عليكم ضبط الهند والبحر المحيط المبحور، من جهة السويس المعلوم، فتنقطع تجار الانجليز كما هو مفهوم، ويسهل عليكم أيضاً أخذ الأماكن الهندية، التى فى تصرف أعدايكم الانجليز، وتبلغوا الأمنية وتخلطوا البحر السويسى ببحر النيل، كما كان عزم مصر على ذلك من تقدم قبلكم من الجيل، فقد كان أعيانكم السابقون، قصدهم خلط هذين البحرين لما فى ذلك من عظيم الشئون، فلم يتيسر لهم ذلك، وما سلكت بهم مسالك، فإذا أنتم فعلتم ذلك، تكونوا ظفرتم بما لم تظفر به الأوايل، وحصلتم على مطلوب عزمهم الكامل، فإذا حصل المقصود الشامل، سهل عليكم أخذ بلاد العرب التى فى حكم بنى عثمان، وكذا البلاد التى فى سواحل البحر المحيط إلى الهند، ويمتد أمركم إلى باقى البسيط، فإذا فعلتم هذه الأحوال انفردتم بالقوة والظهور فى ساير الأنحاء، وكامل القرانات، ولم يكن لكم نظير فى ساير الجهات، ولا يوجد لكم مثيل فى ساير الدول، وأرباب الحسم والحول، بل ربما تفوقوا اسكندر ذو القرنين، وساير أهل القوة فى المشرقين والمغربين، ويصير لكم شأن واشتهار بين العالمين، فى ساير الأمصار والأعصار، يابونه بارته أنت صاحب قوة واقتدار، ورفعة ومقدار، فى هذه الأمور المذكورة، والأفعال المسطورة، لأنك شاويش عاقل، ومدبر كامل، ولم يكن من مضاهيك فى القوة والعقل والتدبير، والرحيل والمسير فلهذا حيث كنت كذلك، وانفردت من بين أوليك، فوضنا هذا الأمر إليك، وقلدناه فى عنقك، وعولنا فيه عليك، وخرج من عهدتنا إلى عهدة عزمك، والرأى لديك، وهذا الحال الذى ذكرناه إليك، من أخذ إقليم مصر وبقية الأقاليم، على ماقررناه لك يافهيم، تحمله فى مدة قليلة، على حالة جميلة، ولا شك عندنا فيه، ولا وهم يعتريه، ويؤيد ذلك أن الظلمة المسيولين على الأقاليم، حالهم وخيم، لأن عقولهم خفيفة، وقلوبهم ضعيفة، وليس عندهم رأى ولا تدبير، والطمع أعماهم وأورثهم التدمير، فاتصفوا بكامل الحماقة والغرور، وتزايدوا فى الفسق والفجور، ولم يوجد فيهم صغير ولاكبير، عنده فهم أو تدبير، ولا نظر فى العواقب للأمور، ولا خشية من الجمهور، فالغفلة والبلادة استولت عليهم أجمعين، وكذلك من يكون لهم من التابعين، فهم على هذه الحالة

الشنيعة، والأفعال الفظيعة، ليس لهم همة إلا جمع الأموال بساير طرق الوبال من التغلب والظلم وأضرار العباد، وتخريب البلاد، كلما رأوا جهة نفع مالوا إليها، واستأصلوها واحتالوا عليها، فنفرت منهم قلوب الرعية، وبغضتهم ساير البرية، فأنتم يافرنساوية، إذا أخذتم إقليم مصر بالسوية، تحتاجون أن تفعلوا مع الناس مكراً وحيلا بالإيناس، من حيث يرغبون إليكم، ويكونون لكم لا عليكم، ويصيرون معكم شيًا واحداً، ويداً وساعداً، بأن توعدوهم بمواعيد الخير المعروف، وتخادعوهم بأنواع الخداع المألوف، وتكرروا عليهم أمثال ذلك، حتى تتمكنوا هنالك، وتتملكوا أوليك، فبعد ذلك تفعلون ما بدا لكم فعله، ويتفرق جمع كل منهم وشمله، وهذا الأمر محقق عندنا، ومعلوم لنا، فإنكم إذا سلكتم هذه الطريقة المذكورة، ملكتم بها القلوب المغرورة، وانتصرتم على المماليك الظالمين، وبقية من يعاندكم من المقدمين، فأنتم إذا توجهتم إلى تلك البلاد، وحللتم بذلك الواد، مخيرون بين أمرين، لابد من أحدهما بغيرِ ميْن، إما خداع ومكر وحيل، وإما حرب قوى يزلزل الجبل، فالذى يقتضيه الحال فاسلكوه ومالا احتياج لكم إليه فاتركوه.

وقد بينا لكم ما يلزمكم فى سفركم، وما تحتاجون إليه من نفركم، فأول الأمور المراكب التى عندنا فى بلاد طولون عدتها كثيرة، وفيها عساكر وافرة غزيرة، وأهل استعداد متين، وتدبير مبين، وفيهم من يعرف التركية والعربية، وغيرهما من اللغات النصرانية، وفيهم أرباب الصنائع المحتاج إليها فى الحروب لفتح البلاد، وقمع أهل العناد، فهؤلاء تصحبوهم معكم جميعاً، وتتوجهون بقوة سريعا، إلى ثغر اسكندرية، وترسلون أخباراً إلى أمرا مصر البهية، وتعرفونهم بطريق المكر والخديعة، إننا مقصدنا يا أمرا مصر وأعيانها، أن نعمل معكم كل خير، ونبعد عنكم على ضير، ونجعلكم مستقلين ومنفردين بأحكامكم فى ساير اقليمكم، ولا نجعل لأحد عليكم سبيلا، وتكونوا أقوى قبيلا، ونخرجكم من تحت يد من يحكمكم من الانام، من كلّ خاص وعام، بحيث لاتكون عليكم يد من أحد ونكون وإياكم حالة واحدة إلى الأبد، وإذا أخذنا بلاداً أخرى من غير بلادكم، جعلناها لكم، فأنتم أولى بها وأحرى، ونفوض أمر البلاد إليكم، ونعتمد فى أمورنا عليكم، فإذا كنتم أيها الأمرا على هذا المنوال، حصل لنا ولكم المقصود الأعظم وامتنع الاختلال، ومعلوم عندنا أن فيكم قوة لذلك، واستعداداً لما هنالك، بل همتكم أعلى، ورأيكم أجلى، لأنكم موصوفون بالقوة والشجاعة، معروفون بالمهابة والبراعة فبناء على ذلك أردنا أن نكون معكم أيها الأمرا على هذا المجال، ومعينين لكم فى ساير الأحوال.

ثم إنكم أيها الفرنساوية، أهل العصابة القوية، تدخلون على أهل مصر من أمرا وغيرهم بهذه المداخل، وتوزعون عليهم أنواع الحيل والمشاكل فمهما ظهر لكم مما يناسب حالكم، فافعلوا ما بدا لكم، فلاتهملوه، فانكم بهذه الطرق لابد أنكم حبل قوتهم تحلوه، وتأخذوا مصر وتملكوها، وتحوزوها وتسلكوها، فإذا حصل لكم ذلك،

ووصلت عساكرنا هنالك، وتمكنتم من البلاد، فلا تغفلوا عن أحوال البلاد، ولاتسكتوا عن المماليك، أهل الظلم الصعاليك، ولا تطولوا مدة شاسعة، بل بعد شهرين أو أربعة، تعملوا عظيم الهمة، بقوة وعزمة، وتقطعوا روس السناجق والأمرا ومن معهم من جنسهم، أو من يتبعهم، وتجتهدوا الاجتهاد الزايد فى حصول ذلك، ولا تهملوا هذه المسالك.

ومما يؤيد هذا الرأى السديد، الذى آخره لنا حميد. إنه سابقًا لما أرادت الدولة الروسية أخذ القرم من الدولة العثمانية، حصل بينهم وبين متوليه شاهينكير أى(٣٢) مراسلة، وموافقة ومواصلة، وخادعوه بالأموال، وأوعدوه بالآمال، على أن يسلمهم بلاد القرم المذكور، فاستولى عليه الغرور، بسبب وعودهم الكبيرة، وأطماعه الغزيرة، حتى مكنهم من ذلك، وسلمهم تلك الممالك، فأخذوا القرم وضبطوه، واستأصلوا ما فيه وربطوه، ثم بعد ذلك أخرجوا شاهينكير أى من بلاده، وأذاقوه طعم الكيد وعناده، حتى آل أمره إلى قتله، وتمزق حاله من أصله، لكنما خرج بعد نحو ثلاث سنين، وفيها كان يفعل من الروسية كل مبين، ويستحملونه لأجل مقصودهم، وحصول مأمولهم، فلو كان بالقتل والإخراج، لما حصل لهم تعب ولا انزعاج، فالأولى لطايفة الفرنساوية أن لايطولوا مدة الأمراء المذكورين، بل يبادروا بهلاكهم أجمعين، حكم ما أشرنا إليكم، لئلا يحدث منهم أمر يوجب التعب عليكم، فاراحة الطريق منهم أمر لازم، وهو من المصالح التى حالها حازم، وإن هرب أحد منهم إلى جهة من الجهات، فلابد أن تتبعوه حتى تقتلوه على أى حال من الحالات، ولاتبقوا منهم فى مصر ولا فى غيرها أحداً، بل استأصلوه إنهم أعداء، وإذا رأيتم فى مصر وغيرها من تكون له كلمة أو شوكة أو رأي أو انفراد، بادروا بقتله يحصل لكم المراد، وسواء كان من الأعاجم أو العرب، ممن بعد وقرب. ومما يعينكم بالظفر على الأمرا، أنكم تخادعون غيرهم سراً، وتقولون لهم نحن قاصدون لكم خيراً، بأن نرفع عنكم الظلم والمشقات، من هولا الظلمة أهل الظلمات، وتكونوا أنتم أرباب الحل والعقد والمناصب كلها بأيديكم، والأحكام مفوضة إليكم، ولايكون لأحد عليكم صولة، ولاتكلم ولاجولة، فإذا خادعتموهم على هذا الحال، بلغتم أعظم الآمال، فى الإعانة على هلاك المصريين، ووقعت الفتن بينهم أجمعين، واختلفوا بيقين، فيكون ذلك أقوى عدة لنا، ومن مصالح أمورنا، ومتى ظفرتم بذلك، تبادروا حالا هنالك، بضبط أموال الأمرا والتجار، قبل أن يخفوا منها شيًا أو يحصل لهم فرار، لأن هذا أمر لازم، ومتحتم من اللوازم.

والأمر الثانى من الأمور التى اتفق عليها الجمهور الفرنساوية، أنه إذا تعسر عليكم أخذ مصر، وقهر أهلها من الأمرا وغيرهم، بالحيل والمكر بهم، فانكم ولابد تحاربوهم بأنواع المحاربات القوية، بالهمة العليّة، ولا تقطعوا إهمالا فى هذه القضية، والابتدا يكون من الاسكندرية، فإذا حضرتم إليها، وحصلتم عليها، فإن أمكنكم أخذها بالحيل والخداع، فبها ونعمة بلا نزاع، وإلا فحاربوهم وأحرقوهم وأخربوا ديارهم، وأهتكوا أعراضهم، ولاتخشوا من أحد فيها، فإنه ثابت عندنا، ومحقق لدينا، بأن قلاعها خراب، وأسوارها

متهدمة بلا ارتياب، وليس بها أسلحة ولا آلات حرب تردكم، ولاشجعان مثلكم، ولا بها من يصدكم، فلا تهملوا أمرها، ولا تعتبروا أهلها، فإن أردتم السير فى النيل، فقد أعددنا لكمماية مركب صغير، صالحة لكم فى المسير، فتدخلوا بها إلى مصر وتحاصروها، وتقطعوا طائفة المماليك الذين فيها، هذا أول أشغالكم، وآخر أعمالكم، فالذى ترونه مسعفًا لكم فى أخذ البلاد، أما تدبير الحيل والخداع، أو الحرب والقتل والدفاع، تفعلوا ما بدا لكم، وما يقتضيه رأيكم، ثم بعد أخذكم البلاد، تجتهدوا غاية الاجتهاد، فتقطعوا كافة من فيها من المسلمين، ولاتبقوا أحد من هؤلاء العالمين، لأن البلاد لاتصفوا لنا معاشر الفرنساوية، إلا بقطعهم بالكلية، وحاصل الكلام، فى هذا المقام، أنه إذا أمكنكم أيها الفرنساوية أخذ مصر بالمكر والتحيلات الخفية كما قلنا، وفعلتم مثلما أشرنا، كان ذلك فعلا حسنًا، وشيئًا مناسباً بيناً، وإن لم يمكنكم أخذها إلا بأنواع الحروب وأصناف القتال والضروب، كان أحسن وأجمل وأولى وأجل، وأنتم فى ذلك بلغتم النهاية إلى الغاية، وفى العقل والتدبير، ليس لكم نظير، فإذا تم لكم الاستيلا على مصر وكامل أعمالها، حصل لكم مع القوة مزيد كمالها واشتهرتم بين الأقران، واستمر ذكركم في ساير الأزمان، وفيكم الكفاية لما قلناه، بل أبلغ مما ذكرناه، فلا يقع منكم إهمال، ولايحصل بينكم امهال.

هكذا آخر الصورة التى خاطبت بها الفرنساوية، ريس عساكرهم إلى مصر المحمية، وأهلكهم رب البرية، واسم ريس العساكر الملعون بونابارته. وهذه الصورة وصلتنا من حضرة السلطان، فنقلناها بعينها لكم، لتحيطون بذلك علماً وتقيدوها عندكم، فإنها من المناكر الغريبة، وليست من مثلهم غريبة، والله الناصر عليهم.

[٨]

اتصال الشريف غالب ببونابارت فى مصر ليأمن جانبه

ولما بلغ هذا المرسوم إلى الشريف غالب، خاف على الحرمين الشريفين، فبعث كتاباً إلى بونابارته يسالمه ويصالحه، وأهدى له سبع سواعى نواخيذها [بحارتها] جواسيس وشحنها من البن والملابيس، واستعطفه على بلاده، وسأله فرمانًا يسأله فيه أن يضع خاتمه عليه ليكون به آمنًا ممن جاء إليه، فاستحسن ذلك، ورأي شريف مكة عاقلا، فوضع له مرسومًا يذكر فيه أن له عنده جلالة وقدرًا، وأن له فى قومه خطرًا وذكرا، وأنه محمى الجانب، مصان من النوايب، مقبول الكلمة، لاينال بلاده أحد من الجبابرة الظلمة، وليثق بالأمر الدافع عن بلاده الأهوال، ويقر عيناً بأن لاينال دياره أحد من الأبطال. ولما ورد عليه هذا الجواب أنس به، وأرسل من يستفصل له أخبار الكفار بمصر، فجاءته أخبار مضطربة، فكتب هذا المرسوم الأول الذى عرب كتاباً آخر إلى المنصور لفظه.

الكتاب الثانى من الشريف غالب إلى الإمام المنصور

«الحمد لله تعالى شأنه، نهدى سلامًا أعبق الكون شذاه، وأخجل البدر لحسن طلعته ورئاه،

وتحيات مكية الأرج، مدنية المدد تحمل النصر والفرج، إلى جانب معدن الخلافة العلوية، ومنبع الكمالات الحسنية، وطراز عصابة الهواشم، وصفوة القادة الفواطم، من دانت له رقاب الفراعنة في أقطاره، وخضعت له روس الأكبار في جميع أمصاره، ذى الأخلاق المرضية، والشمايل الرضية، المنظور بعين عناية الله المتين، والمنصور بسلطانه في كل حين، أخينا وعزيزنا الإمام بن الامام بن الامام أمير المؤمنين، أدام الله له الإقبال، وبلغه بجاه جده خير الآمال. وبعد، فباعث تحريره، وموجب تنميقه وتسطيره، حمدالله سبحانه وتعالى على نعمه وآلائه، ومننه ونعمائه، والسؤال عن جنابكم، والفحص عن أخباركم، باعلان الدعا وتبيان صدق الوفا. وثانياً غير خاف جنابكم أنه «من» قبل، صدر منا إليكم كتاب بأخبار حوادث المشركين بمصر، وصورة جميع ماورد إلينا من الخطاب المعلن ينصح مضمونه نهج الصواب، وله الحمد سبحانه على جزيل فضله، وعظيم امتنانه، الذب (كذا) إعانه على الحق وأعوانه، بنصرة عباده المسلمين وتمام إحسانه، والذى نبديه إلى مسامعكم الزكية، أنه ورد إلينا يوم تاريخه نجاب، من جانب مصر ببشاير النصر وأهنا الخطاب، وذلك أن أمير الجمهور الفرنساوى اللعين، جمع كافة أعيان رعاية مصر المسلمين، وضبط عليهم جميع البيوت والحارات، وحط على كل بيت من المسلمين شى من المبالغ والبلغات[الغرامات)، بحيث لا طاقة لأهل الإسلام تسليم ما افترض عليهم من الجور العام، وقد (حدد) عليهم جمع تلك الأموال في نهارين، وأوعد من لم ينجز وعده بالهلاك والشين، فخرج من عنده المسلمون في حيرة، واجتمعوا في أماكنهم لأجل التشاور والبصيرة، فألهم الله قلوبهم الإسلامية، ووفق حميدا آراءهم الإيمانية، بالهجوم من كل جانب علي المشركين، وأبذلوا نفوسهم لمرضات رب العالمين، فخرجت كافة رعايا الإسلام من منازلهم وهجمت على المشركين في أماكنها، وصار الجهاد خلال بيوتهم، والقتال في مجامع المشركين ودورهم، وابتهجت مصابيح وجوه الإسلام، وبسطت صوارم سيوفهم في أعناق الكفرة الليام، وأيد الله جنود الرعايا المسلمين بعظمته الباهرة، وأهلك بسيوفهم كافة المشركين بالقاهرة، وكان ذلك يوم حادى عشر جمادى الأولى(٣٣)، وله الحمد في الآخرة والأولى، فأرسلت الرعايا المنصورين، نجاجيب الرعية لأمرا مصر المحترمين، وكان أقربهم لمسيرة يوم عن البلاد، حضرة محبنا الأمير مراد (٣٤)، ففزع بكافة من حوله من العشاير والأجناد، ودخل بلاد مصر يوم ثاني عشر شهر جماد، وظفر بقتل ما بقى من الكفار، وانتظم شمل المسلمين بصفاء الدار، فلله مزيد الحمد والثناء، على تلك المسرة والهناء، فبقصد مسرتكم حررنا على الفور هذا الرقيم، بحصول المخبرة على نصرة الدين القويم، هذا ما عن لنا به إخباركم لازلتم في حفظ مولاكم ودمتم سالمين، ومهما جد عرفناكم، وما حدث تعرفونا به وتكون الأخبار بيننا غير منقطعة هذا وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

حرر في شهر جمادى أول سنة ثلاث عشرة ومايتين وألف سنة.

ولا يخفاكم عن حال داواتنا المتعودة بالوفود إلى مراسى بنادركم، لا تزال دايمًا متأخرة فى شحنتها عن سفن التجار فى ناديكم، فالآمال وفودها فى كل عام أربعة أجواش [سفن] بشحنتها إلى بندر جدة، ونرجو الله بهمتكم نستدرك الآمال، وتنتظم مراجينا فى كل حال، فالمرجو من حميد توجيهات همتكم العليّة، بروز أمركم لكافة من كان بالبنادر البحرية من أمرائكم، بأن تكون داواتنا مقدمة فى الشحين قبل كل داو وغراب، وتكون جارية تلك القاعدة بهمتكم، فى جميع مراسيمكم، كما هو المأمول من جنابكم، والمسئول من مزايا أخلاقكم، ونرجو الله تعالى أن رجانا غير مردود، وفضل الله غير محدود، هذا ما عن لنا به التماس، ودمتم سالمين، انتهى.

رد الإمام المنصور على كتابي الشريف غالب

فأجاب الإمام المنصور، على ذلك المسطور:

الحمد لله ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز﴾، سلام تنضح أردان الأمصار بنوافح نشره، وتتعطر أكوان الأعصار بروايح بشره، وتتضاحك ثغور الأزهار لشميم شذاه، وتتمايل قدود الأبكار لنسيم رئاه، وتطلع أنوار بدوره فى سماء المعاهد الشريفة المعظمة، وتسطع أشعة شموسه فى فلك المشاهد المنيفة المفخّمة، يخُص حضرة جناب سليل الهواشم، ويحل بساحة نبيل الدوحة المطهرة من أبناء الفواطم، ويلم بمقام جليل السادة القادة الأكارم الخضارم، رئيس حرم الله، أمير مهابط وحى الله، مقيم شعار الجهاد، هادم أركان الفساد والعناد، أخينا الأكرم، حبيبنا الطاهر الشيم، أمير الشرفا، شريف الأمرا، كبير العظماء، عظيم الكبرا، الشريف الأوحد، غالب بن مساعد، أدام الله إسعاده، وثبت فى ملكه أطنابه وأوتاده. وكثر أعداده وأجناده، وأباد حساده وأضداده، وتولى بعين عنايته إصداره وإيراده، وبعد حمد واجب الوجود، وشكر مفيض الكرم والجود، والصلاة والسلام على حامل لوا شرايع الإسلام، القايم بأعباء الرسالة أنهض قيام، وعلى آله الناشرين لأعلام الدين، التابعين بسطواتهم روس العايدين، وعلى أصحابه القاصمين حبايل الكفران، الفاصمين عقد الشرك والطغيان، فإنه وصل من جنابكم العظيم، ومقامكم الفخيم، كتاب كريم، يحكى ما صنعته أيدى الكفر، بمصر صانها الله عن كل نكر، فياله من حادث يبلبل الألباب، ويجب من الأحزان ما لم يكن فى حساب، وواها له من خطب يصك مسامع الإسلام، ويخدد الخدود بفيض مدامع الأيام، ولعمر الله لقد أبكى وأنكى، وروع وفجع وأوجع، وأقام وأقعد، وشتت شمل كل أنس وبدد، لا سيما وتلك ديار مطهرة عن أدناس الكفران، مقدسة عن أرجاس الطغيان، معمورة بالإيمان، وعبادة الملك الديان، على مرور الأزمان، منذ افتتحها سيوف حزب الله، ومحت أدران كفرها صوارم صحابة رسول الله، فلقد أظلم الخطب، وأدلهم الكرب، وضاقت الصدور، وغلت من الأحزان قدور، ورغب فى النفير إلى سبيل الله الصغير والكبير وتشوق إلى جهاد أعدا الله كل جليل خطير، وكيف لا وهذه نازلة قد نزلت بالإسلام والمسلمين، وفادحة

قد عمت المؤمنين أجمعين، لأنها فى الدين، ومن بعدت عنه ديارها، فقد أحرقت قلبه وقالبه نيرانها، ولقد كنا على عزم بعث الغارة، وإرسال طايفة من جنودنا المختارة، ليكونوا من الفايزين، بجهاد الكافرين، والظافرين بثواب هذه الطاعة التى هى سنام الدين، كما صح عن سيد المرسلين. وأما الثغور فى جهاتنا فهى بحمد الله محفوظة، وبعين العناية الربانية إن شاء الله تعالى ملحوظة، فقد وكلنا بحفظها من الأجناد من يقوم بهم الكفاية فى الإصدار والإيراد، وعند ذلك العزم المكين.

وأما كتابكم الآخر المبشر بالفتح المبين، الحاكى لاستئصال شأفة الكافرين أجمعين، فأنشدنا لسان حال السرور، وحدا بنا حادى الحبور، الذى عم الجمهور:

ثناء محا ذاك الأسى المتقدما

فما عبس المحزون حتى تبسما

فلقد انجابت ظلمات الهموم، وتقشعت غيوم العموم، وابتلجت الخواطر، وقرت النواظر، وعند بلوغ تلك الأخبار، أشعرنا هذه المسارات الكبار، بما شاع فى جميع الأقطار، وذاع بين أهل البوادى والحضار، فيالها من مسرات شدت عضد الدين، وفتت سواعد الملاحدين، وقصمت ظهور الكافرين، وقلقلت معاقل المعاندين، اللهم إنا نحمدك حمداً لا يحيط به الحصر، ونشكرك على ما منحت أمة نبيك من هذا الفتح والنصر.

وما لمحت إليه أيها الجناب الفخيم، والأخ العظيم الكريم، من أمر الداوات، فما زالت أوامرنا إلى نوابنا فى الجهات، برفع الظلامات، والأعمال بالنيات، وغير خاف على فهمكم السليم، وفكركم الراجح القويم، أن من العدل الذى قامت به الأرض والسموات، أن يستوى القوى والضعيف، والوضيع الشريف، فى أنواع المكاسب والتجارات (٣٥)، كما حكم بذلك بارى البريات، ولا زلتم فى حفظ الله محوطين بعين كلاته ورعايته وحمايته، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

زحف بونابارت إلى الشام وحصار عكا

وفى شوال من هذا العام، تعدت الكفرة اللئام، إلى أطراف الشام، فخرجوا فى خمسين ألفًا وقصدوا عكا بلدة أحمد الجزار، فحاصروه أربعة وستين يوماً، واشتد الكرب على المسلمين، وجهز السلطان ثمانية عشر مركباً حربية، وخرج الجزار فكانت ملحمة هلك فيها من الكفار أكثر من ستة عشر ألفًا (٣٦)، وتبدد جمع الكفرة، وقد أتينا على تفصيل الخبر، وما كان من أمر الجزار، وتعلله بالمرض فى أيام الحصار، واستدعاه لكبار الفجار، ودخولهم إليه، ومثولهم بين يديه، واستدعاه لكبير الإنقليز قنصل «صاحب مالطة» وتحكيمه له فى أوليك بأن يمضى سيفه فيهم ويستأصل. وذكرنا الأمراء وما كان من أبى خشبة ابن كليون الملعون [كفاريللى] وذكرنا حيلة الجزار فى إيقاد النار على الكفار بقلعة عكا فى كتابنا «قرة العين بالرحلة إلى الحرمين» فأغنانا عن الإعادة.

إتصال الإنجليز بالإمام لإقامة قاعدة لهم عند باب المندب ورفضه لذلك

ودخلت سنة أربع عشرة ومايتين وألف.

وفى مفتتحها يوم الأحد عشرين شهر محرم [يوافق ٢٤ يوليه ١٧٩٩م] وصل القنطبان [القبطان] ولسان (٣٧) رسول ملك الإنقليز إلى الإمام فاحتفل لوصوله، ونصب له بدار الصافية (٣٨) خيمة عظمى، وأحضر عساكر الباب، وجمع الخيول وألبسها فاخر الثياب، وجعلها صفين، فدخل من خارج بئر العزب(٣٩) مترجلاً، يقدمه عشرون نفراً بالسلاح، ويحفه عشرة من الخدم، وبيد رجلين منهم مذبات ثخينة، يذبون بها عنه فى الطرق الغبار، ولما رأى الإمام على سريره، خلع عن رأسه قلنسوته وألقاها وأقام ترجمانه بين يديه، يعبر عن سبب وصوله إليه، فأجمل الأمر فى ذلك الموقف، وأنزله الإمام بالقرب من داره. والسبب الحاصل فى وصوله، أنها لما دخلت الفرانسة ديار مصر، وكان الإنقليز معينًا لسلطان الإسلام، فطعموا فى تملك السواحل اليمنية، وراموا أن يعمروا بباب المندب (٤٠)، فخرجوا إليه، ونزلوا عليه، وهموا به العمارة، فمنعوا من ذلك، وأرسل إليهم أهل عدن، يخبرونهم بأنه لا يسعهم ذلك، إلا أن يأخذوا إذنًا من الإمام. فتماروا فى ذلك، وباطنهم مضمر للشر، فاضطروا إلى بعث ولسان، وهو من دهات الإنكليز، فطلع وأفصح عن مطلوبه، فلم يجبه الإمام، إلى ذلك المرام، فرجع خايبًا، وكان خبر هذا الإنكليزى، وما هم به قد طار كل مطار، فلم يسعه المقام هنالك، فسيره الإمام، وأصحبه جماعة من جنده يحفظونه من رعاياه، فخرج من بئر العزب يوم الجمعة ثانى شهر صفر، منكسراً خايباً، و كان بصنعا قد اشتد الأمر عليه، لما وصل رسول الإنكليز إليه من باب المندب فى يوم الثلاثاء تاسع وعشرين شهر المحرم [يوافق الثالث من يونيو عام ١٧٩٩م] بكتاب ظهرت عليه به الكآبة، فأفهم أن السلطان قد بعث بجنود جرارة، وأنه قد شارف على الظفر بديار مصر.

الشريف غالب يحرض الإمام على عدم السماح للإنجليز بإقامة قاعدة لهم بباب المندب

وتعقب مسيرة وصول كتاب من غالب بن مساعد أمير مكة المشرفة يذكر فيه بعد الترجمة أنه ورد إلينا كتب من جانب كبار الإنكليز من الكفار، بقصد بناء قلعة فى باب المندب، الذى عليه طريق كل داو ومركب، وهذا أمر يتفاقم خطبه، ويعز بعد وقوعه معاناته وطلبه، ويشمل كافة المسلمين، ثم قال بعد كلمات يسيرة فى الشكوى: ثم إنه أمر لم يقع فيما قبله مثله، ولا فى قديم الزمان فعله، ولا جرى فى سابق الزمان، ولا جرى فى دولة آبايكم ولا كان ، وداؤه يسرى فى جسد الإسلام سريان العلل والأسقام، ويعيى داؤه الأساة والأطبا ، وتحار أفكار العقلا فيه والألبا ، فتداركوا الأمر قبل تحكمه، وأبذلوا الجهد فى إطفا هذا الشر قبل تضرمه:

وإن الشر أوله شرارة
ويوشك أن يكون له اضطرام

وهناك يقع الندم حيث لا ينفع، ويتحكم الداء الذى يعسر أن يدفع، والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق، وهو المرجو للهداية إلى أقوم طريق، فابذلوا

همتكم الهاشمية، ولا تمكنوا أعدا الله من هذه الحيل.

هذا محصل تحريضه نقلناه من كتابه.

الإمام يطمئن الشريف غالب على موقفه من طلب الإنجليز

وبعد، فإنه وصل من جنابكم الشامخ، ووفد من مقامكم السامي الباذخ، كتاب طابت فوايد معانيه، فطالت قواعد مبانيه، يحكي ما اتصل لمسامعكم من الأخبار، المترجمة عن احتفال طايفة الكفار، ببنا المعاقل في أطراف هذه الديار، وأنهم قد انتدبوا إلى باب المندب. وراموا رفع أساس الأبنية، وذب من عنه ذب، وذكرتم ما يترتب على ذلك من المفاسد، التي يشمخ بها أنف كل جاحد، فلا جرم قد أرشدتم إلى منهج الرشاد، ونظرتم إلى نوايب العواقب بعين الانتقاد، بيد أن ذلك الخبر غير مطابق للواقع، ومن دون صحته خطوب زعازع، ومعارك سواطع، وصواعق صواقع، ووقايع روايع، ودوافع ، وموانع، وهيهات هيهات، فبينهم وبين إدراك هذه الطلبات قلاقل وزلازل، وقساطل [صوت الجمال]وصواهل، وذوابل [بنادق] ومكاحل [مدافع]،وصوارم ولهاذم ومخازم [سيوف]وملاحم، انتهى.

تحقيق اسم قائد الجيوش العثمانية التي زحفت إلى مصر لإخراج الفرنسيين منها

قلت: اشتهر أنه خرج من جند السلطان شيخ العربان، متجهزاً على حزب الشيطان، الباشا أحمد طاطبا، في الإثنى وعشر ألف مقاتل الرجالة وثلاثة آلاف فرساناً، (يحمل) زاده واثقاله وخيامة عشرين ألف جمل وسمعنا بهذا أحمد طاطبا عن بعض الناس من أهل اليمن، قال أنه رأى في كتاب ورد أن اسم الخارج أحمد طاطبا، والذى سمعناه بمكة وتلقيناه من المتطوعة مع السيد الجيلاني أن اسم الرجل أحمد جرار، بجيم ومهملتين، وهو الذى خرج عن أحمد الجزار صاحب عكا، وهو بجيم بعدها زاى معجمة فألف فراء مهملة، وهذا تجهيز أول ولا يباين ما في كتاب غالب.

خطاب يوسف باشا والى المدينة المنورة العثماني إلى الإمام

وفيها وصل من الباشا يوسف صاحب المدينة(٤١) إلى الإمام جواب أجاب به على الامام، وكتاب من وزير الختام يوسف مدبر حضرة السلطان، فيه أن وزير الختام، سينهض بنفسه لذلك المرام، ولم يكن من الإمام كتاب إلى يوسف باشا صاحب المدينة، ولا إلى السلطان، فلعله افتعله بعض المفتعلين.

ولفظ كتاب الباشا يوسف صاحب المدينة إلى الامام:

الحمد لله حمداً لا نحصى ثناء عليه جل وعلا، وكم وكفى أنا مؤمنون، والصلاة والسلام على سيدنا وسيدنا رسول الله ، نحن في جواره، من جاهد في الله حتى أتاه اليقين، وعلى آله وصحبه الذين بذلوا نفوسهم ابتغا مرضاة الله رضوان الله عليهم أجمعين، وبعد:

نبدى ذلك ونهديه إلى المحب فى الله والصديق لنا وإلينا، خالصاً مخلصاً لوجه الله، الأجل الأمثل الأبر المؤتمن العظيم، إمام الزمن فى أقطار اليمن، كان محروسًا ومطهراً من كل ألم ودرن، بحرمة النبى الأمين.

بعد السلام عليكم ورحمة الله، الذى نعلمكم به، وهو كل خير لما بيننا من المحبة السابقة، والأخوة الإسلامية، يا حبذا هى الرابطة القوية، تقدمت إلينا من طرفكم، كتب مفصحة لنا، واستعلام وقايع الطايفة المنحوسة الفرانسة، دمرهم الله وخذلهم بجاه محمد خير البرية، وطلبتم منا إيضاح المبهم وأحوال طوايف الإنكليزية وأن المؤمنين لبعضهم معينون فى نصرة الدين، ولما أوعد الله مترقبين، كما قال فى محكم التبيين: ﴿وكان حقًا علمنا نصر المؤمنين﴾، ولإمداد الدولة العلية منتظرين، فلما أن علمنا منكم ذلك، أعدنا الجواب إليكم سريعًا وأعلمناكم بها هنالك، هو أن طايفة الفرانسة، جعل الله ديارهم دارسة، وأعلامهم ناكسة، قد اختلفوا ونقضوا العهد القديم والميثاق، وتعدوا بقهر مصر والآفاق، وطوايف الإنكليز بيننا وبينهم رابطة قوية، وصحب للإسلام، فمن أتاكم من طوايف الفرنساوية اللئام، أجرعوه وجرِّعوه كؤوس الحمام، ولا تبلغوه مرام، وأصدقانا الإنكليز أعطوه ما يهوى من مطاعمهم الشهوى، والمشارب الحلوى. هذا وحين ما ورد كتابكم، أرسلت من خواص أتباعى إلى الدولة العلية وشرحنا لهم شأن صلابتكم فى الدين، وشجاعتكم فى الميادين، وإقدامكم معنا أيها المؤمنين، وإنكم متيقظون لستم بغافلين، كما صدق من نطق فيما به الله عليكم قد تفضل وأمتن: «إن الإيمان يمان». فبعد أن علموا (كذا) الدولة العلية أحوالكم وأوصافكم، وما أنتم عليه شكروا صنيعكم على قولكم، وأرسلوا إليكم جواب كتابكم من صاحب الدولة العلية العثمانية، وهو وزير الختام الآن، مدبر الجمهور الصدر الأعظم، «ضياء الحاج يوسف باشا» (٤٢)، و ها هو مرسل إليكم صحبة كتابنا هذا على يد تابعينا الحاج إسماعيل أغا والحاج يحيى أغا. فمع سلامة الله تعالى إذا وصلا إليكم وقرأتموهما(٤٣) وعلمتم وأعلمتموهما للحاضر والباد، فيلزم لكم بعد الآن أتم الجهاد والاجتهاد فى ذلك الناد، لأن الفرنسيس عدو الدين، ربما يفر أحد منهم من طرف القصير(٤٤) ويأتى من نواحيكم، فأذيقوه حربًا حاراً، ليتوصل به إلى آية الهاوية بئس القرار، ولا تهابوه فإن قلبه طار، وقصده النجاة لا بلغه الله الأوطار، فلا تغفلوا واحذروا مكر الفجار، وكونوا على قلب واحد أيها المؤمنون، فالله معنا والنبى المختار، فلأنه سابقًا فى أوسط شوال قد تعدوا الكفرة اللئام، إلى أطراف الشام، وحاصروا عكا بلدة الجزار، بعسكر ينوف على خمسين ألفا من الكفار، وتم الحصار بتلك النواحى أربعة وستين يوماً، واشتد الكرب على المسلمين، فوفدت نجدة من الدولة العلية ثمانية عشر مركبًا، مدافعها وبارودها، ومن يعطى حقها رجالها، فقابلوا الكافر، وقتلوا ما ينوف على ستة وعشرين ألفًا من الكفار، أهوى بهم إلى بئس القرار، واستشهد من المسلمين مقدار، فبعد إذ عاين عدو الله القتلى، والآية الكبرى، انهزم وولى الأدبار، وإلى أطراف مصر

طالبًا الفرار. وإلى يوم تاريخ كتابنا نرجوه سبحانه، عم نواله، إنهم وصلوا وبلغوا المنى، وإن شاء الله عما قريب نسمعكم بشراها، ونحمد عقبى مسراها،بحق ﴿بسم الله مجراها ومرساها﴾.

هذا ونبشركم بما جرى سابقًا ولاحقًا، وأن يلقب مليكنا ويتلى له على المنابر غازيًا صادقًا، هو أنه لما بلغ الدولة العلية خبر قهر مصر جهزوا على ساقية عدو الدين، وذلك إقليم الونديك التى فيها الضرب للمستخص العتيك التى هى من حوز حكومة الفرنسيس، وتحت تصرفه براً بحراً، وضبطوا ذلك الإقليم جميعه وتلك النواحي ، وما فى ذلك الإقليم فى البر ثمان بلدان بقلاع من أحسن ما تسمع، ومقر سلطنتهم بلدة أوصف وأوسع، وغير ذلك قلاع صغار ما تعد، وقرى لا تعد (٤٥) ، فقتلوا من صد، وأسروا أسراً لا يوصف بحد ، ما ذكرناه فى البر وفى البحر، أربع جزائر منيعات حصينات، صارت الجميع فى قبضة الإسلام ومحى منها شرك الظلام، وجاءت مفاتيحها إلى مليك زماننا، وصارت فيها من طرف الإسلام، وزراءعظام، وأمراء كرام، بحمد الله الملك العلام، وبعدما قطعوا ساقية عدو الدين، وجهت الدولة العلية وجه وجهتها إلى أخذ الثأر إلى مصر براً وبحراً، وهذا الخبر ورد إلينا مع تابعينا السابع عشر من صفر الخير بتحريرات من الدولة العليةالعثمانية موضحة لنا ما شرحناه لكم من فتوحات إقليم الونديك والتوجه إلى أخذ الثأر، وقمع أولئك الفجار، وها حضرة صاحب الختام، أقبل بعساكره والصافنات الجياد براً، والسفن السايرات بحراً، قاصدين مصر وتخليصها من لوث الشرك والكفر، نرجو. مولانا سامع دعانا أن يدمر الأعدا حيث ما دانوا، ويعلى ويعمر كلمة الإيمان أينما كانوا بحق من أنزل عليه ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾ إنه سميع مجيب.وكما شرحنا إليكم ربما أن بعض الكفرة الفرنسيس الليام يفرون من القصير إلى نحوكم فإن رأيتم أحداً منهم اقتلوه، وأسروه حيثما ثقفتموه، وأتباعينا المرسلين إليكم سهلوهما إلينا، بجواب كتاب صاحب الدولة العلية وجودة (كذا) كتابنا، وأخبار تلك الأقطار أفصحوه إلينا سريعاً إنه جل المرام، والسلام ختام.

المحتاج إلى عفو الله الحاج يوسف باشا والى جده ومحافظ المدينة المنورة.

خطاب الصدر الأعظم إلى الامام المبلغ مع خطاب والى المدينة المنــورة

هذا لفظه، ولفظ وزير السلطان بن عثمان فى كتابه إلى الامام: سلام يعطر ريا رياض الوداد، وثنا يفيض بسلساله حياض السداد، إلى حضرة من حف بالأبطال الإلهية، والعترة المحمدية، وأنواع المنن، إمام صنعا اليمن، وبعد:

فالذى ننهى إليكم، ونهديه لديكم، أن الطوايف الفرنساوية، دمرهم الله بنواير صواعقه القوية، نقضوا عهود الصلح والميثاق، وسعوا فى الأرض الفساد والشقاق، وخانوا الملة الأحمدية البيضاء، وقاموا على الأمة المحمدية السمحاء . حيث هجموا بغتة على بلاد الإسلام، وما راعوا قوانين الدولة فى الأخبار والإعلام، وأبدعوا من الدسايس والحيل والخدع، ما لم يرتكبه أحد من

أهل الغى والبغى والبدع، فاستولوا فجأة على الاسكندرية، ومصر القاهرة، وتحكموا على علمايها وفضلايها وساداتها الفاخرة، وسبوا صبيانها، وهتكوا أعراض نسوانها الطاهرة، ففرضت علينا فرض العين إقامة الغزو والجهاد، والمحاربة معهم فى كل ناحية وناد، لازالت جمعيتهم طعمة لسيوف الموحدين، وجملتهم متشتتة لسطوة صفوف المؤمنين، فانعقدت بيننا وبين الدولة الإنجليزية والروسية على محاربتهم روابط الإنفاق والاتحاد، وظهرت من هاتين الدولتين آثار الإقدام والأحجام لأوليك الفساد، حيث ترافقت سفن الروسية مع سفاين سلطاننا الأعظم، وخاقننا الأفخم، لازالت روضة سلطنته منظرة بنسيم النصر والنجاح، وشمس شوكته مشرقة فى سماء الفوز والفلاح، وهجموا على قلعة قُورْفة(٤٦) التى كانت أخذتها تلك الطائفة الباغية من أيدى الونديك (بحراً) جبراً، وحاصر جيش من جيوشنا المنصورة المرسلة براً، فنزعوها منهم، فاستؤصل منهم الأكثرون، واسترق الباقون، فجاءت مفاتيحها (كذا) إلى يد سلطاننا سلطان الأنام، ودخلت الباقون، بحمد الله فى حوزة ممالك الإسلام، فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فتصبح من شرذمتهم السائرة بعضهم جريحًا طريحًا وبعضهم قتيلاً: ﴿ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا﴾.

وسفاين الإنكليز أيضًا مع سفايننا السايرة صدوا سبيل المسئولين على مصر القاهرة، من أوليك الكفرة، الفجرة، وقصدوا إلى محاربتهم بالغيرة الكاشرة، فأخذوا من سفاينهم المخذولة بعضًا وأغرقوا بعضًا. ونهضت عليهم عساكرنا المنصورة من طرق البر، فتضيق عليهم بعون الله الأرض بما رحبت طولاً وعرضًا.

وهذا المحب الودود بعون الله المعبود ناهض بالذات عليهم، بترتيبات مهمات السفر، وتداركات أسباب الظفر، بجنود لا قبل لهم بها من الأتراك والأعجام واللزكية والأكراد، وغيرهم ممن لهم فى الحرب صولة واعتياد، ففى ما صدر من أوليك المخذولين الخاسرين، عليهم لعنة الله والملايكة والناس أجمعين، من الخيانة والخبائث والفساد، والعلو والعتو والعناد، يفرض على كل مومن فرض العين، أن يعين الدين، ويهين الكافرين، ويعامل من كان بيننا وبينهم الإتفاق والاتحاد، معاملة الحب الوداد، فالمأمول من غيرتكم الدينية، وحميتكم العربية، أن تكونوا منتبهين ومتيقظين، وأن تراعوا مع طايفة الإنكليز والروسية مراسيم الوداد والوفاق، وتخابروا دايمًا مع الوزير المكرم والى جده ومحافظ المدينة المنورة الضياء يوسف باشا دام فى حفظ الله الخلاق، وتكونوا على رأيه وتدبيره، ومقتضى تفهيمه وتحريره، ودمتم سالمين، بجاه محمد الأمين، آمين.

حرر فى أواسط شهر ذى القعدة الشريفة لسنة ثلاث عشرة ومائتين وألف يوافق: ٢١ أبريل سنة ١٧٩٩ ميلادية.. المستمد من البر الأكرم الحاج يوسف ضياء الوزير الأعظم، انتهى.

قلت: ووصل هذا إلى الامام فى ربيع الأول من عام أربع عشر ومائتين وألف. [يوافق: أغسطس/ سبتمبر ١٧٩٩ م] وفى ألفاظهم وتسجيعاتهم هذه ركة ظاهرة، وتنافر فى نظم الكلام، غير أنه مفهوم المراد.

الهوامش:

(١) يلاحظ أن أحداث الحملة وقعت فى عام ١٢١٣ هـ. وليس فى عام ١٢١٢ هـ وكانت بداية هذه الأحداث فى شهر محرم من العام المذكور.

(٢) يرجح أن المؤلف يشير بذلك إلى «شارل مجالون»، أحد التجار الفرنسيين الذين أقاموا فى مصر مدة طويلة قبل مجئ الحملة الفرنسية إليها، وفى خلال هذه المدة توثقت علاقته بحكامها وخاصة بمراد بك. كذلك اعتمدت عليه حكومته فعينته مشرفا على المصالح الفرنسية فى القاهرة عندما نقلت قنصليتها إلى الأسكندرية ثم أصبح القنصل العام الفرنسى فى مصر بعد قيام الثورة الفرنسية. وكانت شكاوى مجالون إلى حكومته من سوء معاملة المماليك التجار الفرنسيين، وتقاريره عن أحوال مصر الداخلية ومدى ضعفها، من الأمور التى أغرت فرنسا على غزو مصر.

(٣) إشارة إلى حادثة فرض الغرامات المالية الكبيرة على التجار الأوربيين عمومًا بواسطة إبراهيم بك، ثم محاولة بعض التجار الفرنسيين مغادرة القاهرة فقبض عليهم مراد بك وسجنهم ثم أطلق سراحهم بعد بضعة أشهر.

(٤) يلاحظ أن نابليون بونابرت لم يكن «سلطان بلاده» حينذاك، بل كان فقط أحد قادة فرنسا الكبار فى ذلك الوقت، وعين قائدًا عامًا للحملة الفرنسية على مصر لنجاحه الساحق فى حملته على إيطاليا، أما حكومة فرنسا وقتئذ فهى التى اشتهرت باسم «حكومة الإدارة». وحرص المؤلف على ضبط الإسم يدل على ميله إلى الدقة.

(٥) لم تكن جزيرة مالطة «تحت حوزة الإنكليز» حتى ذلك الوقت، بل كانت تحت سيطرة وحكم فرسان القديس يوحنا منذ انتقالهم إليها عقب هزيمتهم فى جزيرة رودس أمام السلطان سليمان القانونى واستيلاء العثمانيين على الأخيرة فى عام ١٥٢٢م.

(٦) المقصود هنا هو قنصل انجلترا فى مالطة، ولكن المؤلف استعمل اللقب القنصلى كاسم فقال: السلطان قنصل، ويبدو أن ذلك يرجع إلى عدم إنتشار التعبيرات القنصلية والدبلوماسية فى ذلك الوقت. ومن المعروف أن الفرنسيين قبضوا على القنصل الإنجليزى والقنصل الروسى ونفوهما إلى روما بعد إستيلائهم على جزيرة مالطة. ومن الطريف أن المؤلف استعمل هذا الاسم الوهمى للتعبير عن النشاط الدبلوماسى الإنجليزى لدى السلطان العثمانى الذى قام به فى الواقع السفير الإنجليزى فى استانبول السير سبنسر سميث، وأخيه السير سيدنى سميث الذى أوسلته حكومته إلى هناك بعد مجئ الحملة إلى مصر لحث الإمبراطورية العثمانية على إعلان الحرب على فرنسا.

(٧) تعبير عامى ما زال مستعملاً فى اليمن بمعنى الأخذ والرد، ويقصد به هنا: بعد طول المفاوضات.

(٨) المقصود بهذا المرسوم هى المعاهدة الإنجليزية العثمانية التى أبرمت فى يناير ١٧٩٩م.

(٩) هو الشريف غالب بن مساعد بن سعيد الحسنى المتوفى عام ١٢٣١ هـ (١٨١٦م)، من أشراف مكة وتولى حكمها بعد وفاة أخيه الشريف سرور فى ١٢٠٢ هـ (١٧٨٧م). وفى بداية حكمه، نازعه بن أخيه عبدالله بن سرور ولكنه تغلب عليه واستقرت له الأمور مدة من الزمن. وعندما اشتد ساعد سعود بن عبدالعزيز بنجد، وهاجمت جيوشه الحجاز، تصدى لها الشريف غالب ولكنه هزم وتقهقر إلى جدة، ثم دخل فى طاعة السيطرة السعودية وحكم مكة مرة أخرى باسمهم. وقد استمر فى منصبه بعض الوقت حتى بعد أن زحفت جيوش محمد على باشا إلى الجزيرة العربية بناء على أمر السلطنة العثمانية، إذ حول الشريف ولاءه إلى محمد على. ولكن قوات الأخير قبضت عليه بعد مدة، وأرسل إلى القاهرة، عام ١٢٢٨ هـ، فبقى بها شهراً، ثم أرسل إلى الآستانة، فنفته السلطنة إلى سالونيك حيث توفى بها. وهو من أشهر أشراف مكة فى القرن التاسع عشر، عرف عنه المكر والدهاء والسياسة المرنة والقدرة على المناورة، وقد اهتم به كثير من مؤرخى عصره مثل مؤرخنا لطف الله حجاف والجبرتى وابن غنام وابن بشر وغيرهم (الزركلى: الإعلام، جـ ٥، ص ٣٠٤).

(١٠) المقصود هو مدخل ميناء عدن لأنه محاط بالجبال العالية.

(١١) وهى مسقط المعروفة على ساحل شبه جزيرة العرب الجنوبى، وما زال أهالى المناطق اليمنية الجنوبية ينطقونها كما وردت عند المؤلف: مِسكات بكسر الميم.

(١٢) الداو: سفينة النقل التجارية.

(١٣) مفردها غراب، وهى سفينة النقل الكبيرة التى تمخر أعالى البحار، وربما ترجع هذه التسمية إلى أن غوارب الماء تعنى أعالى الموجه، أى السفينة التى تسير فى البحار ذات الأمواج العالية.

(١٤) هو أحد القادة الهنود فى جهات البنغال، الذى استطاع أن يصل إلى حكم إحدى المقاطعات الهندية، وأن يحول هذا الحكم إلى عرش وراثى، عن طريق الإرتماء فى أحضان شركة الهند الشرقية (الإنجليزية) والحصول منها على القروض الضخمة، وذلك مقابل السماح لها بالتدخل فى شئون البلاد (البنغال) الداخلية، ومقابل الحصول على منح وامتيازات فى هذه المناطق. وقد ترتب على هذا كله التعاون الوثيق فى الشئون التجارية بين الطرفين، وخاصة أن انجلترا كانت تسيطر على التجارة وعلى البحار حينذاك بصورة كبيرة.

(١٥) ذكره الجبرتى باسم الكيلانى أى بالكاف وليس بالجيم، ويلاحظ أن الجبرتى ولطف الله جحاف لم يذكرا له ترجمة خاصة بل اكتفيا بتتبع أحداثه حتى استشهاده.

(١٦) الفتخة والفتخة خاتم يكون فى اليد أو الرجل بفص وبغير فص، وقيل هى الخاتم أيًا كان، وقيل هى حلقة تلبس فى الأصبع كالخاتم، وكانت نساء الجاهلية يتخذنها فى عشرهن، والجمع فتخ وفتوخ وفتخات، وذكر فى الجمع أيضًا فتاخ. وقيل الفتخة حلقة من فضة لا فص فيها فإذا كان فيها فص فهى الخاتم، وقيل أيضًا أنها كل خلخال لا يجرس.

(١٧) مفردها ساعى، وهى السفينة الصغيرة الخاصة بنقل البضائع بين الموانئ المتقاربة. وقيل إنها ما زالت مستعملة إلى الآن بهذا الإسم فى الموانئ الحجازية مع استعمال الآلات لتحريكها بدلاً من الشراع.

(١٨) اسم لواد يقطعه الحجاج ويقع بين مكة والمدينة، وهو يحمل هذا الإسم إلى الآن، وهو كذلك للميناء الصغير الذى يقع بين جدة وينبع على ساحل البحر الأحمر، وهو بذلك اسم للواد والمدينة معًا.

(١٩) هو اسم لواد فيه قرى ونخل بين مكة والمدينة، وكان قديمًا يعرف باسم : الخليص، إلا أن المتأخرين ينطقونه بدون (الـ)، أى خليص وهو يقع على طريق السيارات الآن.

(٢٠) وهى الصفراء، اسم لجهة من جهات المدينة المنورة، وهى زاخرة بالأودية والقرى، تقع بين المدينة المنورة وميناها ينبع، كما أن مياهها تنحدر إلى ينبع، ويحدها من الغرب جبل رضوى المعروف، كما يطلق هذا الإسم على احدى قرى هذه الجهة، وقد وردت كثيراً فى كتب الرحلات لأنها تقع على طريق الحجاج القادمين من مصر والمتجهين إلى المدينة المنورة، كما فى هذه الجهة يكثر إنتاج عسل النحل وهى ما زالت معروفة بهذا الإسم إلى الآن.

(٢١) قنا: هى مدينة قديمة يرجع تاريخها إلى العهد الفرعونى، وكانت تسمى حينذاك شابت (Chabt).

فى العصر القبطى عرفت باسم قونى Kouni وبعد الغزو الإسلامى تحول إلى قونة، كذلك تذكر باسم: قناة، أما سكانها فيطلقون عليها اسم : قنا.

(٢٢) سمهود: اسم لقرية مصرية تقع جنوب الصعيد بالقرب من قوص وقنا، وهى تحمل اسم فرعون قديم ينقسم إلى شقين بمعنى: اتحاد العرش، واختصرت فى العهد القبطى إلى سمهود Semhout وظلت فى العهد العربى تحمل هذا الإسم إلى الآن. وهى تقع على شاطئ النيل الغربى.

(٢٣) عنبر واللقيطة: قريتين صغيرتين بالقرب من مدينة قنا.

(٢٤) أبنود: مدينة تقع بالقرب من مدينة قفط المعروفة، وهى تتبع قوص إداريًا. وهى مدينة قديمة ترجع إلى العهد الفرعونى، وكانت تعرف باسم: بنوت ثم وردت فى معجم البلدان لياقوت الحموى باسم: أبنود.

(٢٥) يرجح أن المقصود بأهل اليمن جنوب الحجاز، إذ لم يرد بالنص ما يدل على وجود متطوعين يمنيين بين صفوف جيش السيد الجيلانى.

(٢٦) إحدى القرى التابعة لمركز قوص، وقد قسمت فترة من الزمن إلى: حجازة بحرى وحجازة قبلى، ولكنهما ضمنًا الآن.

(٢٧) ومفردها صنجق، وتكتب أيضًا بالسين أى سنجق وسناجق، وسنجق فى الأصل بمعنى العلم والراية، ثم استعملت للدلالة على الأقسام الإدارية الكبيرة للبلاد مثل المحافظة والمديرية واللواء، وأصبحت لقبًا لمن يتولى إدارة هذه الأقسام، كذلك ما يعادل هذه الوظيفة العامة من الوظائف الأخرى الكبيرة مثل مدير الجمارك، أو المسئولين عن الثغور أو غير ذلك، ولقب السنجق أيضًا يعادل لقب أمير وبيك وهى ألقاب عسكرية فى الأصل، ورتبة السنجق هى السنجقية والصنجقية.

(٢٨) هو الأمير حسن بيك الجداوى مملوك على بيك الكبير، مات بغزة بالطاعون فى عام ١٥١٥ هـ (١٧٩٩ / ١٨٠٠م) وقد عرف بالشجاعة والإقدام، ولما انفرد على بيك الكبير بحكم مصر، ولى حسن بيك حكم جده مدة من الزمن، وأظهر فيها كثيراً من أعمال البطولة، ولذلك اشتهر منذ ذلك الوقت باسم الجداوى. وقد شارك مثل غيره فى المنازعات المملوكية العديدة التى عرف بها العهد العثمانى- المملوكى، حتى انتهى به الأمر إلى أن عينه إبراهيم بك والياً لإمارة جدة مرة أخرى وذلك لإبعاده عن مصر، وبعد إقلاع سفينته من السويس أمر ربان السفينة أن يذهب به إلى القصير وهدده بالقتل، وعندما وصل إلى هناك، توجه إلى إسنا بالصعيد واستقر بها فالتف حوله مماليكه، وظل هناك أكثر من عشر سنوات: وقد عاد إلى القاهرة وعاش بها مدة عندما انتصر حزبه وسيطر إسماعيل بك على مقاليد الحكم فى القاهرة. وبعد قليل اضطر ثانية إلى مغادرتها والاستقرار فى الصعيد حتى جاء الفرنسيون إلى مصر، أى بعد حوالى سبع سنوات من استقراره هناك وهنا شارك غيره من المماليك فى محاربة الفرنسيين فى مختلف جهات مصر، حتى انتهى به الأمر إلى أن دخل القاهرة ثانية عقب وصول الصدر الأعظم إليها، ومحاربته للفرنسيين. وفى هذه الفترة، شهد بشجاعته كل من المصريين والعثمانيين والفرنسيين.

(٢٩) من أتباع حسن بك الجداوى سالف الذكر، وقد صاحبه فى كل تحركاته حتى خروج الفرنسيين من مصر، غير أنه طال به العمر حتى أنه عاصر بداية عصر محمد على باشا، وقد اشترك عثمان بك فى المصادمات التى وقعت بين المماليك وبين محمد على حتى انتصر عليهم الأخير، وتمكن من تصفيتهم ، ولم يحدد الجبرتى تاريخ وفاته، ولم يكتب له ترجمة منفصلة، ذلك لأنه مات بعيداً عنه مطارداً، إذ كان عثمان بك من بين المماليك الذين طاردهم محمد على فى الصعيد حتى أخرجهم منه إلى السودان، فأقاموا هناك فى «دنقلة» فى حالة يرثى لها يقتاتون ما يزرعونه من الدخن كما ذكر الجبرتى : وقد طال عليهم الأمد ومات أكثرهم ومعظم رؤسائهم مثل عثمان بك حسن وسليم أغا وأحمد أغا.. وغيرهم ممن لا علم لنا بخبره لبعد المسافة حتى على أهل منازلهم، وبقى ممن لم يمت منهم إبراهيم بك الكبير... (حاكم مصر قبيل الحملة). وقد ذكر الجبرتى أخبار بقايا المماليك فى السودان بمناسبة وصول رسول من قبلهم إلى محمد على باشا يطلب الأمان لهم، والسماح لهم بالعودة إلى مصر للإقامة بإحدى الجهات التى يحددها محمد على باشا لهم وبالشروط التى يرتضيها.

(٣٠) هو الإمام المنصور على الذى عاصر أحداث الحملة الفرنسية على مصر، والذى وضع له مؤرخنا اليمنى لطف الله جحاف، السيرة المعروفة بعنوان «درر نحور الحور العين بسيرة الإمام المنصور على ورجال دولته الميامين» ، التى استخرجنا منها هذه النصوص. وهو الإمام المنصور على ابن الإمام المهدى العباس ابن الإمام على المنصور على ابن الإمام المهدى العباس ابن الإمام المنصور الحسين ابن الإمام المتوكل القاسم بن الحسين ابن الإمام المهدى أحمد ابن الحسين ابن الإمام القاسم بن محمد مؤسس الدولة القاسمية فى اليمن. ولد بصنعاء فى عام ١١٥١ هـ (٣٨/ ١٧٣٩م) ونشأ بها وأخذ العلم عن علمائها، ثم فوضه والده لحكم صنعاء وقيادة الجند مدة طويلة حتى بويع بالإمامة بعد وفاة والده فى عام ١١٨٩ هـ (٧٥/ ١٧٧٦م). وقد طال حكمه حتى وصل خمس وثلاثين عاماً، أى حتى عام ١٢٢٤هـ (٩/ ١٨١٠م) وقيل عنه: «آخر الخلفاء الأجواد، وخاتم الملوك الذين قابلهم الدهر باليمن والإسعاد، كريم الكف، كثير المن، أيامه غرة فى جبين الزمن، كانت خلافته فى آل الإمام القاسم، كخلافة الرشيد فى الزمن القادم». ورغم ذلك فقد بدأ فى عهده ضعف حكم الأسرة القاسمية وتفتت اليمن، فقد خرجت تهامة من تحت حكم صنعاء، كذلك تعددت الثورات فى المناطق الجبلية ضد حكم الإمام، وفى أواخر أيامه خرج عليه ابنه نتيجة سيطرة وزراء أبيه على مقاليد الأمور، وانتشار الفساد حينذاك، فقبض على مظاهر السلطة جميعها، وعزل وزراء أبيه، وأن أبقى عليه فى منصبه حتى توفى بعد ذلك بقليل.

(٣١) المقصود هنا هو موسم التجارة، فالسفن حينذاك كانت تعتمد على مواسم الرياح لأنها كانت جميعها سفناً شراعية، و «أخذ الموسم» يعنى افساده نتيجة التعرض للسفن التجارية فى عرض البحار واستعمال لفظ «الموسم» بهذا المعنى كان منتشرا فى المخطوطات العربية القديمة.

(٣٢) هو أحد سلاطين التتار المتأخرين، وكانت بقايا التتار من القبيلة الذهبية تخضع خضوعاً اسمياً للسلطان العثماني منذ أن فرض العثمانيون سيطرتهم على شبه جزيرة القرم في ١٤٧٥م. وكان هؤلاء التتار يقومون بالغارات المتعددة على الدولة الروسية الناشئة في موسكو، وعندما اشتد ساعدها أرادت اخضاعهم لها، وتمكنت قيصرة روسيا الشهيرة كاترين من أن تجبر الإمبراطورية العثمانية- في معاهدة كوبك قينارجه عام ١٧٧٤ - على الإعتراف بإستقلال شبه جزيرة القرم، حتى يسهل التهامها فيما بعد، وهذا ما فعلته بعد سنوات قليلة، إذ أعلنت ضم الإقليم إلى ممتلكاتها في عام ١٧٨٣ .

Encyclopaedia Britannica: Vol. 6, p. 762.

(٣٣) عام ١٢١٣ هـ، وهو يوافق ٢١ أكتوبر ١٧٩٨ م.

(٣٤) كان مراد بك قد فر إلى الصعيد عقب هزيمته في معركة امبابة أمام بونابرت، واستمر في حروبه ضدهم رغم محاولة بونابرت الصلح معه وتوليته أمر الصعيد تحت السيادة الفرنسية، وقد ظل مراد بك على اتصال بالقاهريين ليوقد غضبهم على الفرنسيين وكانت رسله ومراسلاته إليهم من أسباب قيام ثورة القاهرة الأولى، ولكن لم يثبت تاريخياً أنه دخل القاهرة حينذاك كما يشير المؤلف.

(٣٥) في هذه العبارات اعتذار عن تلبية رغبة الشريف غالب في تفضيل تجارته في الموانئ اليمنية وسرعة شحنها بالبضائع قبل غيرها، كما سبق أن طلب في خطابه السابق.

(٣٦) في هذه العبارة، وفي عبارة «فخرجوا في خمسين ألفاً» دليل على المبالغة التي كان يقع فيها المؤرخون القدماء عند التحدث بالأرقام، إذ من المعروف أن عدد أفراد الحملة من مشاة وبحارة وعلماء وفنيين لم يتجاوز الأربعين ألفاً.

(٣٧) ليس هذا هو الاسم الحقيقي للرسول الإنجليزي إلى الإمام، وربما لجأ مؤرخنا إلى استخدام هذا الاسم لجهله باسم الرسول ولسهولة نطقه ولميله إلى السجع. ويدعى الرسول الدكتور برنجل Pringle، وكان يعمل في وظيفة مساعد جراح في وكالة بومباي الإنجليزية. وقد ذهب برنجل إلى البحر الأحمر في صحبة القائد الإنجليزي موراي Murray الذي كلفته شركة الهند الشرقية بإحتلال جزيرة بريم لمنع تسرب السفن الفرنسية إلى المحيط الهندي بعد احتلال الفرنسيين لمصر وعند وصول الجنرال بيرد Baird إلى المخا وجد «برنجل» هناك، فسلمه خطابات وهدايا وكلفه بمهمة مقابلة الامام في صنعاء، هذا مع العلم بأن هذا الجنرال هو الذي كان يقود الحملة الإنجليزية من الهند إلى القصير ليُشارك في إخراج الفرنسيين من مصر، ولقد قيل أن مهمة برنجل إلى الامام كانت لشئون تجارية بحتة، ذلك على عكس ما ذهب إليه مؤرخنا في هذا النص، نظراً لضُعف التجارة الإنجليزية في الهند مع جهات البحر الأحمر في ذلك الوقت. وقد استجاب الامام لمطالب انجلترا- وتدور جميعها حول تقديم تسهيلات تجارية في الموانئ اليمنية- كما استقبل برنجل بحفاوة كبيرة، وتحققت أغراض المهمة التي جاء من أجلها إلى صنعاء.

(٣٨)، (٣٩) حيان من أحياء صنعاء حالياً، وكانا بمثابة ضاحيتان من ضواحيها في زمن المؤرخ ثم امتد إليهما العمران بل وتجاوزَهما. وتقع الصافية إلى الجنوب من مدينة صنعاء الأصلية المسورة، أما بئر العزب فيقع إلى الغرب منها، وضمه إلى صنعاء سور يحيط به وبقاع (بحي) اليهود الذي يقع إلى الغرب من بئر العزب (والقاع في لغة صنعاء هو الأرض السهلية المنبسطة أو الوادي) وذلك مع بقاءالسور والباب الذي يفصل بين صنعاءالقديمة وبئر العزب. وقد تميزتا الصافية وبئر العزب بكثرة بساتينهما المثمرة للفاكهة وغيرها، وبقلة دورهما، فكانتا بمثابة متنزه لصنعاءالأصلية المكتظة بالمنازل والسكان، وكان يجري بهما غيل (نهر صغير) يمتلئ بالمياه بعد سقوط الأمطار.

(٤٠) من المعروف أن انجلترا احتلت جزيرة بريم لعدة أشهر خلال عام ١٧٩٩ لغلق البحر الأحمر أمام تسرب السفن الفرنسية إلى الهند، وذلك عقب مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر.

(٤١) هو أحد قادة العثمانيين الكبار وحارب كثيراً في جهات أوروبا، وأخذ يترقى المناصب حتى وصل إلى منصب الصدر الأعظم، وظل به مدة أربعة أعوام. وقد عرف عنه الرغبة في الإصلاح بعد أن دب الفساد في جسم الدولة، فيقال أنه أعدم بعض الوزراء عقب توليه منصب الصدر الأعظم لفساد أمورهم. ويبدو أنه في آخر رياسته قد أصابه اليأس والتعب ومال إلى التصوف، فطلب من

السلطان أن يعينه واليًا لجده حتى يكون قريبًا من الحرم المكى والنبوى، فلبى السلطان طلبه. وقد شهد الحجاز فى عهده الأمن والاستقرار بعد أن قضى على المتمردين والمفسدين به. (الشوكانى: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، جـ ٢، ص ص٣٥٧ - ٣٥٨).

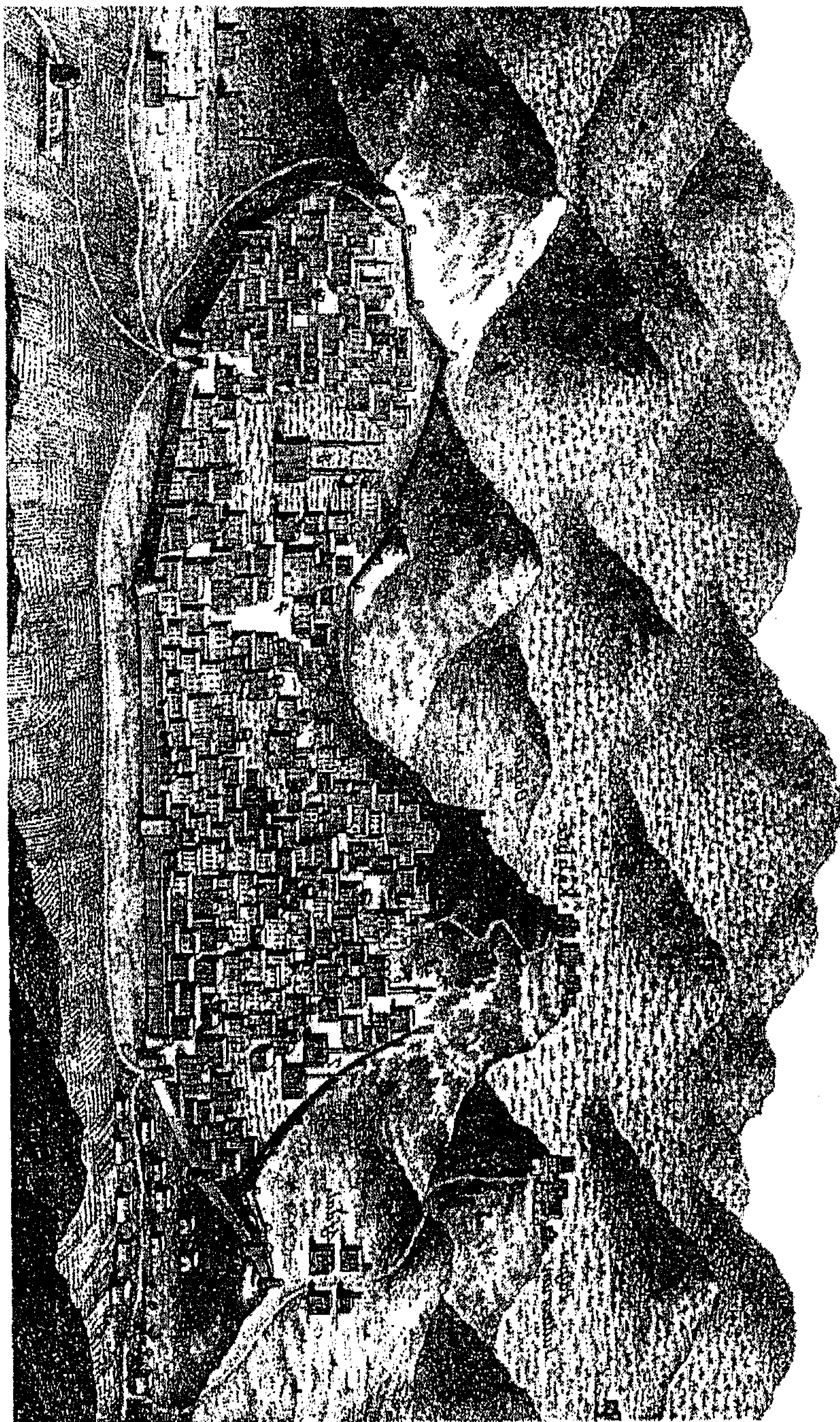
(٤٢) يلاحظ أنه هو الذى قاد الحملة العثمانية التى أخرجت الحملة الفرنسية من مصر بالتعاون مع القوات الإنجليزية.

(٤٣) هكذا وردت، ويرجح أن الضمير المثنى هنا يشير إلى خطاب الصدر الأعظم وإلى خطاب يوسف باشا والى جدة ومحافظ المدينة سابق الذكر.

(٤٤) من أهم الموانئ المصرية على البحر الأحمر منذ أقدم العصور، وكانت تسمى قديماً: تاعو Tae'ou وهى تقع تجاه مدينة قوص - قصبة الصعيد على مر العصور- وكان بينها وبين بلدان البحر الأحمر تجارة واسعة نشطه، والقصير الحالية تقع إلى الجنوب قليلاً من القصير القديمة التى اندثرت تقريباً.

(٤٥) المقصود هنا- من وراد هذه الفقرة جميعها- هو مجموعة جزر الأيونيان (المتناثرة أمام الشاطئ الغربى لجنوب شبه جزيرة البلقان، وأهمها جزر: كورفو، زانتى، سيفالونيا) التى كانت تتبع جمهورية البندقية ثم استولى عليها بونابرت أثناء حملته الناجحة على إيطاليا قبل قدومه إلى مصر. وعقب عقد التحالف الثلاثى العثمانى - الروسى- الإنجليزى، تعاون الأسطول العثمانى والأسطول الروسى فى الإستيلاء على هذه الجزر، وكانت الإمبراطورية العثمانية تخشى انتشار مبادئ الثورة الفرنسية فى الممتلكات العثمانية فى البلقان لقرب المسافة بينهما، وخاصة لأن أهالى هذه الممتلكات فى حالة تذمر على الحكم العثمانى حينذاك. وكان من أهم شروط الصلح- فيما بعد بين فرنسا والإمبراطورية العثمانية - الذى تم فى ١٨٠٢ م- أن تكون هذه الجزر مع البندقية جمهورية مستقلة، وكانت فرنسا لا تجد غضاضة فى ذلك حتى تحرم روسيا من موضع قدم لها فى البحر المتوسط.

(٤٦) صحتها: كورفو، إحدى جزر الأيونيان التى كانت من ممتلكات البندقية ثم استولى عليها الفرنسيون عند اجتياحهم إيطاليا.



* مدينة تعز اليمنية على عهد الجبرتى.

ملحق (٢٦)

مخطوطة من تأليف الجبرتي في ليدن دراسة مقارنة بينها وبين «عجايب الآثار» و«مظهر التقديس».

الدراسة المقارنة بين نصوص مختلفة لمؤرخين مختلفين لها طبيعتها الخاصة، حيث يتجه جهد الباحث فيها إلى التعرف على منهج كل مؤرخ على حدة ثم ابراز مظاهر الاختلاف والاشتراك بين كل منهم والعوامل التي أدت إلى، ذلك، سوا أكانت اجتماعية أم سياسية، وما إلى ذلك من العوامل التي تؤثر في المؤرخ.

أما الدراسة المقارنة بين نصين مختلفين أو أكثر لمؤرخ واحد لفترة زمنية واحدة فلها منهج آخر، حيث يتجه جهد الباحث إلى دراسة الظروف والملابسات السياسية التي دفعت المؤرخ لكتابة هذه الأعمال المتباينة، ثم الإشارة إلى مواطن الاختلاف في كل منها.

وعلى هذا المنهج الأخير سوف تكون دراستنا لقطعة أو كراسة مخطوطة من يوميات الجبرتي الخاصة عن فترة من عهد الحملة الفرنسية، دراسة مقارنة بينها وبين كتابيه: «عجايب الآثار» و«مظهر التقديس».

دون الجبرتي أحداث الحملة الفرنسية بادىء ذي بدء في يوميات خاصة بخط يده، وقد عثرنا على قطعة منها محفوظة بمكتبة جامعة ليدن بهولندا، وقد أشار إليها المستشرق (موريه Moreh) في مقال كتبه عن مجموعة من مخطوطات الجبرتي الأصلية في مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية.

وهذه القطعة من ناحية الشكل تقع في إحدى وخمسين صفحة، تؤرخ لسبعة أشهر من أوائل المحرم (١٠ من المحرم) ١٢١٣هـ حتى نهاية رجب من السنة نفسها، وهي مكتوبة بخط الرقعة الجميل، وعدد الأسطر في كل صفحة يتراوح بين ٣٢،٢٥ سطرا في كل سطر ما بين ١٠ ، ٢٠ كلمة، وتوجد بها بعض الإضافات الهامشية لبعض الأحداث التي يكون قد نسيها الجبرتي، أو لم تكن في متناول يده ابان كتابتها، فاستدركها بعدئذ وسجلها بالهامش باالخط ذاته، ويوجد على صفحة العنوان الكتابة الآتية:

هذا تاريخ مدة الفرنسيس بمصر من سنة ١٢١٣هـ إلى سنة ١٢١٦هـ تأليف العلامة عبد الرحمن الجبرتي المصري بخطه رحمه الله

ومكتوب على الصفحة ذاتها في الركن الأيسر فوق العنوان؛ تمليك باسم الشيخ محمد الأمير الحنفي الرشيدي بتاريخ ٦ ج (جمادى الأولى) سنة ٨١ (١٢٨١هـ) ومدون عليها ثمنها وقتذاك وهو ٩ قروش.

ويتبين لنا من صفحة العنوان الحقائق التالية:

أولا: التنويه بأنها مخطوطة بخط الجبرتي، مما يجعل لها أهمية خاصة، وقد رجح المستشرق (موريه Moreh) أنها بخط الجبرتي؛ لأن خطها يتفق مع مخطوطة أخرى لمظهر التقديس مودعة بمكتبة جامعة كمبردج مكتوب عليها أنها بخط

الجبرتى، ويتفق أيضا مع مخطوطة ثالثة للجزء الثالث من عجايب الآثار فى مكتبة جامعة كمبردج أيضا، مدون فى نهايتها أنها بخط الجبرتى.

ثانيا: أن هذه المخطوطة انتقلت إلى حوزة الشيخ الرشيدى عن طريق الشراء بعد وفاة عبد الرحمن الجبرتى بحوالى أربعين سنة هجرية.

ثالثا: أن هذه المخطوطة من تأليف المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى وحده وهى بذلك تختلف عن كتاب مظهر التقديس الذى اشترك فى تأليفه مع الجبرتى صديقه الشيخ حسن العطار، فهى بذلك تحمل طابعه فى الكتابة وحده، وأسلوبه ومنهجه.

رابعاً: يستفاد من عنوان المخطوطة أن الجبرتى كان قد دون «تاريخ مدة الفرنسيس» كاملا فى مؤلف خاص به إبان حوادث الحملة [1]، وقد ضاعت بقية هذا المؤلف، ولم يبق منه سوى قطعة تؤرخ لمدة السبعة الأشهر التى تضمنتها هذه المخطوطة[2].

وعلى ذلك لم يكن الجبرتى فى حاجة إلى أن يعدل فى كتابه «مظهر التقديس» ويخرج منه الجزء الثالث (الرابع من تحقيقنا هذا) من كتابه «عجايب الآثار» كما ذهب إلى ذلك بعض المؤرخين، لأن الجبرتى كان لديه مؤلف خاص لتاريخ مدة الفرنسيس بمصر، اعتمد عليه فى إخراج الجزء الثالث من عجايب الآثار بعد ما أضاف إليه تاريخ مصر من سنة ١٢١٦هـ إلى سنة ١٢٢٠هـ، مع إضافات بسيطة من أشعار صديقه الشيخ حسن العطار التى كان يشير إليها بقوله: «كما قال صاحبنا الشيخ حسن العطار».

الظروف والملابسات السياسية التى كتب فيها الجبرتى هذه المخطـــوطـــة

كانت مظالم المماليك بزعامة إبراهيم بك ومراد بك قد عمت آفاق القطر المصرى فى أواخر القرن الثامن عشر، وأصبحت الحياة فى مصر لا تطاق، وفجأة هبطت الحملة الفرنسية أرض مصر فى صيف عام ١٧٩٨م وسرعان ما ظهر فشل مؤسسة المماليك العسكرية فى الدفاع عن البلاد، وزحف الجيش الفرنسى على القاهرة بعد اجتياح الاسكندرية بلا مقاومة تذكر، واكتسح امامه قوات المماليك المنهارة وسقطت عاصمة البلاد فى يد الفرنسيين، ووجد الشعب نفسه أعزل أمام قوات أجنبية لأول مرة فى تاريخه الحديث.

وقد سجل لنا الجبرتى فى هذه المخطوطة صورا حية من أحاسيس الشعب المصرى؛ يروى فيها وقوع الصدمة بصدق وأمانة وواقعية.

وبدراسة هذه المخطوطة نرى أن الجبرتى قد سلك فيها منهجا معتدلا، فالحقائق والأحداث التاريخية وإن كانت بها ثابتة، وتتفق مع ما جاء فى كتابيه: «مظهر التقديس» و«عجايب الآثار»؛ إلا أن تفسير الجبرتى لهذه الأحداث وتعليقه عليها هو الذى يختلف.

وجه الجبرتي نقده إلى جميع الأطراف (العثمانيين والمماليك والفرنسيين وحتى العلماء) وأصدر أحكامه عليهم غير هياب ولا وجل، ولم تؤثر فيه عوامل المعاصرة التي تؤثر في المؤرخ: كالرغبة والرهبة التي ظهرت إلى حد كبير في كتابه (مظهر التقديس)، والى حد ما في كتابه «عجايب الآثار»، لأن نظام الحكم الذي ان قائما قد تحطم، وأصبح في مأمن من عسف الحاكم في ظل احتلال لم يستقر بعد.

وعلى سبيل المثال نراه ينتقد الموقف العثماني المملوكي برمته، لتقصير العثمانيين والمماليك في الدفاع عن البلاد وحمايتها من الغزو الفرنسي عقب سماعهم بنزول الحملة بالاسكندرية، وذلك عندما علق على الاجتماع الذي عقد بقصر العيني بالقاهرة؛ ودارت فيه مناقشة حامية بين العلماء وأمراء المماليك، فيقول: «فركب إبراهيم بيك إلى قصر العيني وحضر عنده مراد بيك والأمراء والقاضي والمشايخ وتكلموا في شأن ذلك، فقال بعض المشايخ كل هذا من تغافل أمر الثغور واهمال الأمور حتى تمكن العدو وملك ثغر الإسلام، فقال مراد بيك وايش نعمل وإذا قصدنا تعمير ذلك وتحصينه تقولوا مرادهم العصيان على السلطان فهذا هو المانع لنا من ذلك»، ثم علق الجبرتي على كلام مراد بك بأنه: «أوهى من بيت العنكبوت لأن الثغر من أيام على بيك لم يلتفتوا له جملة كاملة بل أخذوا ما كان به من آلات القتال والمدافع ومنعوا عنه المرتبات التي كان للمرابطين والعسكر المتقيدين وأكلوا علوفاتهم وقطعوا عوايدهم ولم يبق به شي من آلات الحرب إلا بعض مدافع مكسرين لا تنفع ولاتدفع حتى انهم احتاجوا مرة لضرب مدفع العيد بارود فلم يجدوا التعميرة بل اشتروها من عند العطار بعد أن كانت اسكندرية وأبراجها في غاية العمارة والتحصين وحولها السور المتقن الذي اعتنت به الأوايل وبه ثلثماية وستين برجا على عدد أيام السنة كل برج بجبخانته وعدده ورجاله، فأهمل ذلك جميعه حتى لم يبق منه شي وتهدم السور وما به من أبراج وساوت حيطانه من بعض الجهات الأرض إلى غير ذلك».

وعندما صدرت توصية من المجتمعين في قصر العيني بكتابة عرضحال إلى الدولة العثمانية بخبر الحملة وارساله إليها، علق الجبرتي على ذلك متهكما بأسلوب لاذع: «ظنوا أن الموجوع أو المريض الملسوع يستمر بحاله حتى يأتيه الترياق من العراق».

ويلاحظ أن هذه المناقشة وما أعقبها من تعليق لم يسجلها الجبرتي في «مظهر التقديس» وانما قال: «وأما ما كان من حال الأمراء فان إبراهيم بيك ركب لقصر العيني، وحضر عنده مراد بيك من الجيزة لأنه كان مقيما بها وحضروا بقية الأمراء والقاضي والعلماء وتكلموا في شأن هذا الأمر الذي دهم المسلمين فاتفق الرأي على أنهم يرسلون مكاتبة للدولة العلية بخبر هذه الحادثة فأرسلها باشا مصر إذ ذاك وهو بكر باشا على يد قاصد من جهة البر».

وعندما التقى مراد بك الجيش الفرنسي عند شبراخيت وانهزم، قال: «التقى العسكر المصري

مع الفرنج فلم تكن إلا ساعة وانهزم مراد بيك ومن معه ولم يثبتوا لحربهم.. واحترقت ذهبية مراد بيك بما فيها من الجبخانة والعدد.. فلما عاين ذلك مراد بيك ولى منهزما وترك أثقاله وجملة من المدافع وتبعه عساكره وكان فى عدد وافرة».

وتحدث الجبرتى عن العوامل التى تسببت فى خذلان المماليك أمام الفرنسيين، وقارنها بما للجيش الفرنسى من صفات، وأثنى على نظامهم العسكرى المحكم فى الضبط والربط واطاعة الأوامر، وخضوعهم للحياة العسكرية، وغير ذلك من الأشياء التى هى من سمات الجيوش المنظمة، فيقول:

«وهذا بخلاف الطايفة الأخرى الفرنساوية فانهم بالعكس فى جميع ما ذكر كأنهم مقتفين لآثار الأمة فى صدر الإسلام ويرون أنفسهم مجاهدين ولا يستنكرون عدد عدوهم ولا يبالون بمن قتل منهم، ويرون أن من ولى منهم كفر وخرج من دينه وطريقتهم ينقادون لأمر أميرهم ويمتثلون طاعة كبيرهم، مظلة أحدهم شبقته التى على رأسه ومركبه قدميه، وطعامه وشرابه بلغة وجرعة معلقان تحت ابطه، ومتاعه وما يغيره من ملبوسه معلق خلف ظهره كالوسادة، فإذا نام اضطجع عليها كالعادة ولهم علامات واشارات فيما بينهم يقفون عندها ولا يتعدون حدها».

ولم يذكر الجبرتى هذا الوصف المنصف لنظام الفرنسيين العسكرى فى كتابيه: مظهر التقديس، وعجايب الآثار، وحذفه مخافة أن يتهم بأنه يمالىء الجيش الفرنسى.

ولم يكن الجبرتى راضيا عن قيادة المماليك، وانتقد فى مذكراته سوء تدبير المماليك لملاقات الجيش الفرنسى، فبينما كان مراد بك عند امبابة لعدم تمكنهم من عبور النيل، فلم يكن لهذه الجموع الغفيرة أى دور إيجابى فى المعركة، لأن بونابرت قد حسم الموقف بانتصار خاطف فى ثلاثة أرباع الساعة، فقال الجبرتى يصف تجمع الناس بالبر الشرقى وصياحهم غير المجدى:

«هذا وبر بولاق يغلى بكثرة الناس من العامة والخاصة وخلافهم وهم واقفون زمرا ويعضون أكفهم حسرة وأسفا لتخلفهم عن الوصول لعدم المعادى فلم يكن فى قدرتهم إلا رفع أصواتهم وقولهم يالطيف وحسبنا الله ونعم الوكيل، وغير ذلك وصار لهم جَلبة وغاغة عظيمة وكأنهم يقاتلون بضجيجهم وصياحهم».

ويستطرد الجبرتى فى انتقاد موقف إبراهيم بك لفرازه عندما عاين هزيمة جيش مراد بمعركة امبابة، فيقول:

«ولما رأى إبراهيم بك والباشا ومن معهم فى المتاريس وقوع الكسرة على أهل البر الغربى لم يثبتوا بل ركبوا وتركوا المتاريس والخيام وذهبوا إلى جهة العادلية فى الطريق إلى الشام.. فلما رأى الناس هروب إبراهيم بيك ومن معه وتراسل الضرب فهاجوا وانهزموا بأنفسهم إلى داخل بولاق وجهة المدينة وانزعجوا انزعاجا شديدا وولوا الأدبار كأمواج البحار وصار الشاطر فيهم هو الذى يسبق رفيقه».

ولقد كان لموقف المماليك المخزى وقعه المؤلم فى نفسية الشعب، وقد عبر الجبرتى عن خيبة أمل

الجماهير فى جيش المماليك لفشلهم فى الدفاع عن البلاد فقال:

«وخابت فى عسكر مصر الظنون أولا وثانيا وولوا الأدبار وجمعوا بين النار والعار والحكم لله الواحد القهار».

وبطبيعة الحال لم يتعرض الجبرتىَ لنقد الموقف العسكرى المملوكى بمثل هذا الوضوح فى مظهر التقديس وعجايب الآثار، بل أنه حذف أغلب هذا النقد وخاصة تلك الفقرة الأخيرة.

موقف العلماء:

أوضحت لنا هذه المخطوطة بعض الحقائق الغامضة عن موقف العلماء ابان فترة الحملة الفرنسية، وخاصة بالنسبة لخروج بعضهم من القاهرة غداة معركة امبابة، وسلوكهم بالقاهرة تجاه المحتلين بعد هروب المماليك.

وقد أعطتنا بعض التفصيلات الدقيقة بالنسبة لخروج العلماء من القاهرة غداة معركة امبابة، ففى حين يورد الجبرتى الخبر موجزا فى «مظهر التقديس» «وعجايب الآثار» على النحو التالى.

«وخرج أعيان الناس أفندية الأوجاقات وأكابرهم ونقيب الأشراف وبعض المشايخ القادرين».

يقول فى يومياته الخاصة (مخطوطة ليدن): «بعد هجمة من الليل (ليلة الأحد ٨ صفر ١٢١٣ هـ ٢٢ يوليو ١٧٩٨م) أشار بعض أصحاب الشيخ عبد الله الشرقاوى عليه بالرحيل فان الفرنج وصلوا إلى باب الحديد[٣] وحرقوه وعبروا منه وهم الآن ينهبون ويقتلون فى أهل تلك الناحية ويفسقون فى نسائهم وإن مكثنا أو توانينا بعد ساعتين يصلوا إلينا فأرسل الشيخ عبد الله (الشرقاوى) إلى الشيخ السادات من أزعجه وأقلقه استحثه فى سرعة الركوب، فحمل ما خف وما يلزم وركب وخرج بصحبته من باب البرقية[٤] وكذلك ركب السيد عمر (مكرم) النقيب، الشيخ (محمد) الأمير والشيخ خليل البكرى».

ثم تتبع الجبرتى أخبار من خرجوا من العلماء، فذكر أن بعضهم لم يتمكن من اللحاق بجيش إبراهيم بك لأن العربان تعرضوا لهم ونهبوا متاعهم، وهم: «الشيخ السادات والشيخ الشرقاوى فانهم لما رأوا هذا الحال، وأخذ العرب من الشيخ الشرقاوى جملين بما عليهم انحازوا إلى المطرية وأرسلوا إلى أبو طويلة فحضر إليهم ودفع عنهم العربان الذين كانوا محتاطين بهم واستمر محافظا عليهم».

ولم يتمكن من اللحق بجيش إبراهيم بك سوى: «السيد عمر مكرم» النقيب والشيخ (محمد) الأمير والشيخ سالم مسعود شيخ رواق المغاربة ذهبوا إلى عرضى إبراهيم بيك بعد أخذ متاع الشيخ سالم ومتاع حريمه وودايع كانت تصحبهم».

وقد كشف لنا هذه المخطوطة عن معلومات جديدة بشأن تتبع الجبرتى لأخبار من خرجوا من القاهرة، فقد كان السائد قبل ذلك أن الشيخ محمد الأمير قد بقى بالقاهرةولم يخرج منها، وأبى أن يشترك بالديوان الذى أنشأه بونابرت بيد

أن الجبرتى يقطع فى هذه المخطوطة بأن الشيخ الأمير خرج مع عمر مكرم إلى الشام ولم يحضر على الرغم من إرسال بونابرت إلى العلماء بالأمان فيقول: «فحضر الشيخ السادات والشيخ الشرقاوى من المطرية وكذلك البكرى من محل ما كان فى يوم الثلاثاء، وأما النقيب (عمر مكرم) فلم يطمئن للرسالة وذهب مع إبراهيم بك وكذلك الشيخ سالم (بن مسعود شيخ رواق المغاربة).. وكذلك الشيخ الأمير لم يحضر».

[illegible] لنا هذه المخطوطة الجدل القائم حول عدم اشتراك الشيخ الأمير بديوان بونابرت على الرغم من تكليفه فى مشروع تشكيل الديوان، ويبدو أنه لم يعد إلى القاهرة إلا بعد أن أحتل الفرنسيس يافا، فعاد مع عمرمكرم، على الرغم من أن الجبرتى لم يفصح لنا بعد ذلك عن أمر عودته من يافا مع عمر مكرم، فى مظهر التقديس أو عجايب الآثار.

وقد أوضحت هذه المخطوطة كثيرا من مواطن الغموض والتعمية التى لجأ إليهما الجبرتى فى كتابيه «مظهر التقديس» و «عجايب الآثار» ، فكثيرا ما لجأ الجبرتى إلى التعمية مستعملا بعض التعبيرات التى تلتبس على القارىء فعلى سبيل المثال: فى الجلسة الأولى لديوان القاهرة (١٢ صفر ١٢١٣ هـ) أشار العلماء بتعيين بعض أمراء المماليك للمحافظة على الأمن بالقاهرة، غير أنه أورد الخبر فى عجايب الآثار على الوجه التالى.

«وقلدوا محمد أغا المسلمانى أغات مستحفظان وعلى أغا الشعراوى والى الشرطة وحسن أغا محرم أمين احتساب وذلك بإشارة أرباب الديوان، فانهم كانوا ممتنعين من تقليد المناصب لجنس مملوك فعرفوهم أن سوقة مصر لا يخافون إلا من الأتراك ولا يحكمهم سواهم» وتتفق رواية مظهر التقديس مع النص السابق.

ونظراً لهذا الغموض الذى أحاط بعبارة الجبرتى، فقد اختلفت التفسيرات حول من أشار بتعيين هؤلاء، هل هم العلماء؟ أم أن الفرنسيين هم الذين أشاروا بذلك،وقد قطعت مخطوطة ليدن الشك باليقين، فقد ورد فيها صراحة أن المشايخ هم الذين أشاروا بهذا التعيين، قال الجبرتى:

«وعملوا محمد أغا المسلمانى كتخدا [٥] مستحفظان والوالى على أغا الشعراوى والمحتسب حسن أغا محرم وذلك بعد علاج، وقولهم لا يتولى المناصب جنس مملوك وقول المشايخ أن سوقة مصر لا يخافون إلا من جنس المملوك».

ومن الأمور التى لجأ فيها الجبرتى إلى استعمال الغموض، موضوع قيام الشيخ محمد المهدى سكرتير ديوان القاهرة بصياغة منشورات بونابرت باللغة العربية.

فقد كان الشيخ محمد المهدى هو الذى يتولى صياغة منشورات بونابرت باللغة العربية بعد أن تكتب بالفرنسية ثم تقوم بترجمتها إلى العربية أجهزة الترجمة الملحقة بالحملة، وقد ذكر الجبرتى ذلك صراحة فى مخطوطة ليدن، فقال فى نهاية المنشور الذى كتبه الفرنسيون على لسان المشايخ إلى أقاليم مصر، بعد قمع ثورة القاهرة الأولى:

«وذلك إنشاء كاتب الديوان الشيخ محمد المهدى».

ثم عاد الجبرتى فحذف اسم الشيخ المهدى عندما أخرج كتابيه: «مظهر التقديس» و«عجايب الآثار» واكتفى بالإشارة الغامضة إلى الشيخ المهدى، إشارة يفهمها معاصروه، فذكر عن المنشور الذى أذاعه بونابرت على لسان أعضاء الديوان عقب عودته من الحملة على سوريا أنه «من ترصيف وتنميق بعض الفصحاء» وهو يقصد الشيخ المهدى. وتتفق المراجع الفرنسية مع مخطوطة ليدن فى أن الشيخ المهدى هو الواضع لمنشورات بونابرت فى قالبها العربى، فقد ثبت فى رسالة بعث بها بونابرت من يافا إلى «بوسليج» مدير الشئون المالية بالقاهرة أثناء الحملة على سوريا يقول ما ترجمته:

«عليكم أن تأمروا بطبع كل المنشورات التى يبعث بها فانتور إلى الديوان وأن تضيفوا إليها المحسنات والتنميقات التى يرى الشيخ المهدى إدخالها وأن تنشروها فى انحاء مصر».

ومن الأمور التى أوضحتها هذه المخطوطة أيضا، أن الشيخ السادات هو الذى تدخل لحل الموقف المتأزم بين مشايخ الديوان وبين بونابرت بسبب الخلاف على وضع بعض الشارات الفرنسية، وقد شعر بونابرت بنوع من الإهانة من شيخ الأزهر الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيس ديوان القاهرة عندما رمى بالشارة الفرنسية على الأرض بعد أن وضعها له بونابرت، وأبى أن يزين بها كتفه.

فقد حدث أن استدعى بونابرت إليه الشيخ الشرقاوى ومعه جماعة من العلماء، فلما استقر بهم المجلس نهض بونابرت وأتى بشارة الجمهورية الفرنسية، والتى يسميها الجبرتى «الطيلسان» المثلث الألوان، ووضعه على كتف شيخ الأزهر تكريما له، ولكن شيخ الأزهر» رمى به إلى الأرض وامتقع لونه واحتد طبعه» ، كما تغير وجه بونابرت لهذه الإهانة وتميز غضبا، فتدخل الترجمان وقال للعلماء «يامشايخ أنتم صرتم أحبابا لصارى عسكر وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته فان تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس وصار لكم منزلة فى قلوبهم» فرد عليه المشايخ قائلين: لكن قدرنا يضيع عند الله وعند إخواننا من المسلمين» فاغتاظ بونابرت من ذلك، وطلب بقية العلماء من بونابرت اعفاءهم من لبسها، فأذعن بونابرت لطلبهم فى أمر هذه الطيالس، ولكنه أصر على أن يضعوا فى صدورهم الشارة المثلثة الألوان (الجوكار) فطلب العلماء منه مهلة أثنى عشر يوما.

بيد أن بونابرت أرسل فى اليوم ذاته إلى الشيخ محمد السادات فحضر إليه،وصادف أعضاء الديوان منصرفين، ولما استقر به المجلس تملقه بونابرت وأخذ يتحدث إليه بلطيف القول الذى يعربه الترجمان ويضاحكه «ويقبل يده تارة وركبته أخرى» وأظهر بونابرت للسادات المحبة والصداقة، وأهدى إليه خاتما من الماس، وطلب منه الحضور فى اليوم التالى، وعند حضوره وضع بونابرت له الجوكار على كتفه، فسكت السادات وسايره، وهذا مجمل ما ذكره الجبرتى فى مظهر التقديس وعجايب الآثار.

غير أن الجديد فى مخطوطة «ليدن» أن الجبرتى يذكر أن الشيخ السادات تدخل فى اليوم ذاته لحل الموقف المتأزم بين مشايخ الديوان وبين بونابرت، فقال للمشايخ فى الجلسة نفسها: «أجبروا أنتم الآخرين خاطر صارى عسكر ولا تخالفوه فى وضع الوردة وإذا قمتم من مجلسه ارفعوها فسكتوا ونهض (بونابرت) فرشق لكل واحد واحدة وهم مظهرين البشاشة وهو مسرور بذلك» أى أنه أشار عليهم بأن يجعلوهم جواز مرور.

ويبدو أن الجبرتى لم يشر إلى هذا الموقف الأخير المتعلق بتوسط السادات بين بونابرت والمشايخ فى مظهر التقديس وعجايب الآثار، مخافة أن يتهم العثمانيون السادات بالتعاون مع جيش الاحتلال الفرنسى، كما كان للشيخ السادات نفوذ شعبى جارف يخشى جانبه، وكان الجبرتى على علاقة وثيقة به.

وعلى الرغم من أن الشيخ السادات لم يقبل عضوية ديوان القاهرة أو الاشتراك فى أى نشاط سياسى آخر مع الفرنسيين، إلا أنه كان دائم الاتصال ببونابرت كما يبدو من مخطوطة ليدن، فقد سجل بها الجبرتى أن الشيخ السادات أقام حفل عشاء بمناسبة الاحتفال بمولد السيدة زينب فى أوائل رجب ١٢١٣هـ. ودعا إليه بونابرت وجماعة من خواصه، ويقول فى ذلك.

«فى ثالثه (أى فى الثالث من رجب) عمل الشيخ السادات مولد السيدة زينب بقناطر السباع ودعى صارى عسكر بونابرته فحضر فى عصريتها فى البيت الذى سكن به الشيخ وهو بيت أيوب جاوى وتعشى هناك هو وخواصه ثم ركب وعاد إلى داره».

ولم يشر الجبرتى إلى هذه الواقعة مطلقا فى كتابه مظهر التقديس، مراعاة لجانب السادات وحفاظا على سمعته لدى العثمانيين بعد عودتهم، ثم عاد فأشار إليها بصفة عامة بعد وفاة السادات عندما ترجم فى عجايب الآثار فقال:

«ولما قدمت الفرنساوية إلى الديار المصرى فى أوائل سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف لم يتعرضوا له فى شىء وراعوا جانبه وأفرجوا عن تعلقاته، وقبلوا شفاعته وتردد إليه كبيرهم وأعاظمهم وعمل لهم ولائم».

ومن الإضافات الجديدةالتى أبرزتها هذه المخطوطة. مطالبة علماء الأزهر بمرتباتهم التى كان يتقاضونها قبل مجىء الحملة، وقطعت عنهم بسبب ظروف الاحتلال الفرنسى، فطالبوا بها مرارا وتكرارا، بيد أن الفرنسيين ما طلوهم ولم يدفعوا لهم شيئا، وقال الجبرتى فى حوادث شهر ربيع الأول ١٢١٣هـ.

«فيه طلب المشايخ رواتبهم فى الضربخانة وكانوا سألوا فى ذلك عدة مرار وهم يواعدوهم وبعد ذلك قال لهم الترجمان اكتبوا قايمة بعلم الذى يخصكم فكتبوا بذلك قايمة فكان الذى يخصهم ويخص بعض أفراد نحو ألف فضة فى كل يوم فلما اطلعوا على ذلك وواعدوهم بامضاه عدة مرار، قالوا لهم فى هذه المرة نعطيكم عوضه التزام فقالوا وايش نعمل بالالتزام، وهذا شىء متفرق الجزئيات، فينا من له خمسين فضة ومن له

ثلاثين ومن له عشرين، فقالوا يتولى ذلك أحدكم ويجمعه ويفرقه على إخوانه فى كل سنة فلم يرتضوا ذلك ثم أعرضوا عن ذلك لتحققهم شحة نفوسهم به».

ثم أورد مقدار ما كان يتقاضاه العلماء فى كل يوم قبل مجيء الحملة فقال:

«وكانت المرتبات قبل مجيئهم نيفا واثنين وثلاثين ألف فضة فى كل يوم» وقد حذف الجبرتى هذا الموضوع ولم يشر إليه مطلقا فى كتابيه مظهر التقديس وعجايب الآثار مخافة أن يتهم العلماء بالتعامل مع الفرنسيين وحرصا على أن تظل صفحتهم مضيئة أمام العثمانين.

ومن المعلومات الطريفة التى سجلها الجبرتى فى هذه المخطوطة، ذلك التفسير المعقول للصراع الإنجليزى الفرنسى والعوامل التى دفعت الفرنسيين لاحتلال مصر، قال فى حوادث ربيع الأول ١٢١٣هـ أثناء تعرضه لرواية معركة أبى قير البحرية (٦ ربيع الأول ١٢١٣هـ - ١٨ أغسطس ١٧٩٨م):

«وخبر هولا (هؤلاء) الإنجليز أنهم معادين لطايفة الفرنسيس وأن الفرنسيسى (بونابرت) لما أغار على البنادقة والونديك والجورنه وغيرهم قصد الاغارة على الإنجليز أيضا فلم يتمكن للعبور إليهم من طريق البر فحاربهم فى البحر فلم يطيقوهم لأن الإنجليز موصوفون فى الشدة وقوة البأس فى محاربة المراكب فى البحر والفرنسيسى بالعكس فعلم الفرنسيسى أنه لا يتمكن من غرضه معهم إلا من جهة البر ولا طريق له إلا من الهند، ولا طريق للهند إلا من بحر القلزوم والإنجليز يعلم فلما وجده ملك الإسكندرية وعبر الممالك المصرية علم أنه يصل إليهم بعد ذلك من هذه الجهة ولابد من تتابع الإمداد والعساكر فحضر على أثرهم بعدة مراكب مشحونة بالمقاتلين إلى الاسكندرية وحاربوا المراكب التى وجدوها خارج المينة وبوقير فنالوا منهم... واستمروا بمراكبهم قبالة الإسكندرية يذهبون ويجيئون ويشرقون ويغربون وينتظرون ما يأتى للفرنسيس من المدد أو يرسلونه إلى بلادهم فيقطعون عليهم الطريق ويقفون لهم فى كل مضيق.

ولم يتعرض الجبرتى لهذا الموضوع بمثل هذه الإضافة فى كتابيه مظهر التقديس وعجايب الآثار، وكل ما ذكره أنه أورد خبر معركة أبى قير فى صورة موجزة، تكاد تتفق فى كلا المؤلفين، فقال:

«وفيه تواترت الأخبار بحضور عدة مراكب من الإنجليز إلى ثغر اسكندرية، وحاربوا مراكب الفرنسيس بالميناء وكان أشيعت هذه الأخبار من مدة أيام وتتحادث بها الناس فصعب ذلك على الافرنج وشق عليهم».

ولذا نرى أن الجبرتى أدرك تطورات الصراع الإنجليزى الفرنسى ، ولسنا نعرف ما هى الدوافع التى جعلته يحذف هذه المعلومات عندما أعاد كتابتها فى مظهر التقديس وعجايب الآثار.

ومما يلحظ على هذه المخطوطة بوجه عام تلك الأمانة المتناهية فى المحافظة على الوثائق التاريخية التى وقعت فى يد الجبرتى وسجلها فى يومياته ولم

يغير فى صيغتها أو يصحح ما بها من أخطاء لغوية.

ويظهر هذا الأمر جليا فى منشور بونابرت الأول الذى أعلنه على الشعب المصرى، فقد سجله الجبرتى كما وصله بما فيه من أخطاء صارخة صححت غالبيتها فى «مظهر التقديس» و«عجايب الآثار» عند طبعهما، وكان فى استطاعته تصحيح تلك الأخطاء، ولكن أمانته فى المحافظة على النص وصلت إلى درجة متناهية أملت عليه أن يسجله كما هو، ثم أشار إلى هذه الأخطاء وعقب عليها تحت عنوان:

«تفسير ما أودعه هذا المكتوب من الكلمات المفككة والتراكيب الملعبكة» ولم يكن الهدف من هذا التعليق هو اعراب المنشور اعرابا نحويا فحسب، بل كان الهدف الأكبر هو دحض إدعاءات بونابرت التى أوردها بهذا المنشور، بطريقة الإعراب التهكمى، وعلى سبيل المثال قوله: فى اعراب «واحترم نبيه» «قوله واحترم نبيه معطوف على ما قبله عطف الكذب على الكذب لأنه لو احترمه لآمن به وصدقه واحترم أمته» وقوله فى اعراب «مسلمين» من جملة «أن الفرنساوية هم أيضا مسلمين» «مسلمين صوابه الرفع ونكتة العدول إلى النصب إشارة إلى أن إسلامهم نصب» وغير ذلك من الأخطاء التى أشار إليها وأوضح ما اشتملت عليه من مزاعم ظاهرة البطلان.

ولعل هذه الأمانة فى المحافظة على النص عند الجبرتى تعطى لنا مثالا لأسلوب الجبرتى بوجه عام، فهو يستعمل اللغة الشعبية الدارجة فى رواية الحوادث احتراما لنص الرواية التاريخية كما نقلها الرواة إليه، فهو بذلك ينقل لنا صورا حية عن أحداث العصر، فيضع يد القارىء على نبض الحياة المصرية فيجعله يحس أنه يعيش فى الجو الحقيقى لمصر فى عصر الجبرتى (٦).

كما يلحظ أخيرا، أن مخطوطة ليدن ليس لها مقدمة، ولا تحتوى على البسملة، وبدأه الجبرتى مباشرة بذكر اسم سلطان الدولة العثمانية «السلطان سليم بن مصطفى العثمانى»، وأسماء حكام مصر والشام وعكا، وأسماء أمراء مصر من المماليك وأتباعهم، وليس لها خاتمة، وانما أنهاها بقوله: «والحكم لله الواحد القهار» ويبدو من بدايتها أن عبد الرحمن الجبرتى كان يعتبرها من مقتنياته الخاصة وليست للتداول، نظرا لما تحتوى عليه من آراء لا يرضى عنها أهل عصره، ولو كانت معدة للتداول لالتزم فيها القواعد السائدة فى التأليف فى عصره، وهى البداية بالبسملة ووضع مقدمة وخاتمة.

غير أنه مما لا شك فيه أنه اعتمد عليها فيما بعد فى إخراج كتابيه: مظهر التقديس وعجايب الآثار، بعد أن حذف منها تلك الآراء الصريحة والأخبار التى تسىء إلى سمعة بعض الأشخاص، والواقع أن الجبرتى قد تغيرت آراؤه بتغيير الظروف والملابسات السياسية عندما أعاد كتابة فترة الحملة الفرنسية التى غيرت آراء الجبرتى، وهذا ما سوف نحاول التعرف عليه فيما يلى:

عقب جلاء الفرنسيين عن القاهرة فى صفر ١٢١٦هـ (يوليو ١٨٠١م) دخلت النفوات

العثمانية مدينة القاهرة بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا، وعادت البلاد بذلك إلى حظيرة الدولة العثمانية مرة ثانية، بعد احتلال دام أكثر من ثلاث سنوات.

بدأ الجبرتي في تصنيف كتاب «مظهر التقديس» على أثر خروج الفرنسيس من القاهرة في أواخر صفر من عام ١٢١٦هـ، وانتهى منه كما يقول في سلخ شعبان (آخره) من السنة نفسها، أي أنه استغرق في ذلك حوالي ستة أشهر، وأهداه إلى الصدر الأعظم، فقال في خاتمته: «ثم في الختم به إيماءة إلى أن من ألف الكتاب باسمه وحليت ديباجته برسمه، وهو مولانا الوزير دام علاه وتحلت الأيام بوجودها فيه وبقاه.. ثم لسدته التي هي ملثم شفاه الإقبال، ومحطّ رحال أفاضل الرجال أهدى كاسد هذا التصنيف وخامل هذا الترصيف، فان لاحظه بعين القبول، وذلك هو المبتغى والمأمول، راج في معالم الأدب سوقه وبطابع السعود لاح شروقه».

ويبدو من هذا الاهداء أن الكتاب ألف بإشارة من الصدر الأعظم، فأخذ بذلك طابعه الرسمي.

والكتاب من حيث اشتراك العطار في تأليف يختلف بعض الشيء عما سجله الجبرتي في يومياته الخاصة (مخطوطة ليدن)، فهو يحمل بذلك طابعا مزدوجا لمنهج المؤلفين (الجبرتي والعطار)، حيث نرى فيه اهتماما بالمحسنات اللفظية في كثير من المواطن، وتضمن كثيرا من القطع الأدبية والشعرية، لأن العطار أديب وشاعر يأسره الأسلوب الأدبي، ويعبر عن الحوادث بشعر أخاذ، وعلى سبيل المثال، قال في قصيدته التي أهداها إلى الصدر الأعظم:

لا رعى الله ما مضى من زمان

فيه سارت أسافل الأوغاد

واستبدت بملك مصر الفرنسيس

وعاثوا فيها بكل فساد

حل فيها منهم شياطين أنس

هم بقايا الهلاك من قوم عاد

شوهوا حسنها بأسود كفر

حين جاءوا بجيشهم كالجراد

واستباحوا الأموال والدم والـ

عرض وجاءوا بالخسر والإلحاد

ثم زالوا عنها سريعا وبادوا

وعليهم خزى المخاوف بادى

بقدوم الوزير دام علاه

مقدم الغيث حل محل البلاد

فاكتست مصر بهجة وسناء

وأماطت عنها ثياب الحداد

والكتاب من حيث تأليفه (برسم) الصدر الأعظم يعد بمثابة التاريخ الرسمي للحملة، فاشتمل على مقدمة ضافية حمل فيها الجبرتي المماليك وحدهم مسئولية وقوع البلاد تحت وطأة الاحتلال الفرنسي، وأرجع ذلك إلى تطرق الخلل إلى دولتهم بسبب ما ابتدعوه من المصادرات التي أفقرت البلاد، وإهمالهم تحصين الثغور حتى داهمها الفرنسيون. وأثنى على حكومة الدولة العثمانية

بقيادة سلطانها (الغازى سليم) التى «توجهت انتصارا للإسلام عزيمته وتسامت لاستنقاذ مصرمن أيدى أولئك الأشرار همته فوجه إليها بوجوه دولته وعساكر حمايته من كل رئيس بصير بأمور العواقب»، ورحب بعودة الجيش العثمانى بقيادة الصدر الأعظم «لأنه أزال دولة الكفار وجدد دولة الأخيار وعادت به بهجة مصر بعد انمحاقها وأشرقت شمس طلعته على آفاقها فانصلح بعد الفساد حالها».

ومن ثم كان طابع الكتاب الظاهر هو الإشادة بالدولة العثمانية، بالثناء عليها والحط من قدر المماليك الذين انحدرت جماعتهم، وأهملوا أمر الدفاع عن البلاد، ثم الحملة الشديدة على فترة الحكم الفرنسى الأجنبى للبلاد، وإظهار الفرج بزوالهم. وحذف كثيرامن المواقف التى ظن أنها تسىء إلى سمعة العلما أو تضعف من مركزهم أمام السلطات العثمانية العائدة.

والكتاب من ناحية ثالثة؛ يمثل تسجيلا أمينا لشعور المصريين وابتهاجهم لجلاء الفرنسيين عن البلاد، وتعليقات الجبرتى فيه تدل على كراهية ظاهرة لهذا الاحتلال، ومرد هذه الكراهية ما رآه من استيلاء دولة أجنبية لوطنه تختلف فى دينها وعاداتها وتقاليدها عن المصريين..

وتأصلت كراهية الفرنسيين فى نفسية الجبرتى بسبب فظائعهم التى ارتكبوها فى البلاد بسبب مقاومة الشعب لهم، وخاصة أنهم استهدفوا الأزهر بسخطهم، وانزلوا بأهله أشد ضروب الانتقام، وكانت أشد الفعال وقعا فى نفسية الجبرتى، هى دخول الفرنسيين الجامع الأزهر بخيولهم بعد قمع ثورة القاهرة الأولى (فى ليلة الثلاثاء ١٣ جمادى الأولى ١٢١٣هـ ـ ١٣ أكتوبر ١٧٩٨م)، يقول الجبرتى فى وصف هذا المشهد.

«ثم دخلوا أولئك الوعول إلى الجامع الأزهروهم راكبون الخيول.. وداس فيه المشاة بالنعالات، وهم حاملون السلاح والبندقيات وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته وعاثوا بالأروقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات.. وشققوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها، وأحدثوا بالمسجد وبالوا وتغوطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيه وألقوها بصحنه ونواحيه، وكل من صادفوه به عروه ومن ثيابه أخرجوه».

ونلاحظ أن الجبرتى فى كتابه «مظهرالتقديس» يشير إلى الفرنسيين فى كثير من المواطن بقوله: «الكفار» يقول: «وان من أعظم الدلائل على ما رميت به مصر وحل به لأهلها تنوع البؤس والاصر بحلول كفرة الفرنسيس» وقوله عن الصدر الأعظم «أنه أزل دولة الكفر» و«عصابة الكفار» وقوله عنهم أيضا: «خسرة الكفار» ولا يذكر اسما لقائد من قوادهم الا مصحوبا بوصف مهين كقوله: «اللعين دبوى» و«التعس بونابرته» وغير ذلك من الأوصاف التى يلحظها من يتصفح الكتاب.

بيد أن الجبرتى عندما أعاد كتابة فترة الحملة الفرنسية مرة ثالثة فى كتابه الأخير «عجايب الآثار فى التراجم والأخبار» غير آراءه هذه، وحمل على الدولة العثمانية فى أحكامه واعتبرها مسئولة عن

الشقاء الذى عانى منه المصريون، ثم أثنى على الفرنسيين فى عدة مواضع، وكانت هناك ظروف وملابسات جعلت الجبرتى ينهج هذا المنهج الجديد، وهذا ما نحاول أن نوضحه فى النقطة الأخيرة من هذا البحث.

عقب جلاء الفرنسيين رزحت البلاد تحت وطأة عهد من الفوضى السياسية امتد من سنة ١٨٠١ ـ ١٨٠٥ ، فقد عاد الأتراك إلى مصر والفكرة المسيطرة على أذهانهم هى أنهم نظروا إليها على أنها فتح جديد، ولهم بفضل هذا الفتح أن ينهبوا ويسلبوا أرزاق المصريين ويسيئوا معاملة الشعب أبلغ إساءة، وانعكست هذه الفكرة على معظم تصرفاتهم فى البلاد عقب عودتهم، فقد عزلوا قاضى القضاة المصرى الشيخ أحمد العريشى الذى عينه الفرنسيون، وعينوا تركيا مكانه.

وطلب القاضى العثمانى الجديد من أرباب العقارات والأملاك أن يشتروها مرة ثانية من الدولة العثمانية، لأنها «صارت ملكا للسلطان لأن مصر قد ملكها الحربيون وبفتحها صارت ملكا للسلطان فيحتاج أن أربابها يشترونها من الميرى ثانيا» وعاد الفساد إلى القضاء مرة أخرى، وتدخل العساكر العثمانيون فى الدعاوى فكانوا يأخذون ضريبة لهم على الدعاوى الشرعية، وقال الجبرتى فى ذلك:

«وإذا تداعى شخص على شخص أو امرأة على زوجها ذهب معهم أتباع القلق إلى المحكمة ان كانت الدعوى شرعية فإذا تمت الدعوى أخذ القاضى محصوله ويأخذ مثله أتباع القلق على قدر تحمل الدعوى.

وتمادى العثمانيون فى سياستهم، فامتدت أيديهم إلى أموال الشعب، فراحوا ينهبون أرزاقه ويسيئون معاملته أبلغ اساءة.

وفى غضون ذلك بلغ التذمر الشعبى مداه بسبب خيبة الأمل التى منى بها الشعب، فقد كان ينتظر العدل والانصاف من العثمانيين المسلمين بعد جلاء الفرنسيين المسيحيين. وأعلن العلماء رفضهم للظلم أيا كان مصدره، سواء أكان مصدره الفرنسيون (أعداء الدين)، أم كان مصدره العثمانيون حماة الدين كما يدعون.

وبلغت موجة العداء للعثمانيين فى هذه الأثناء درجة كبيرة، جعلت علماء الأزهر يرحبون بمبعوث فرنسا (المسيو سباستيانى) (Sebastiani) الذى وصل القاهرة فى ٢٦ من أكتوبر ١٨٠٢م،وصارحوه بأنهم يتمنون عودة الحكم الفرنسى لمصر مرة أخرى.

فقد بادر المبعوث الفرنسى بعد وصوله إلى القاهرة بزيارة الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر فى بيته فى ٢٧ من أكتوبر، وعقد معه اجتماعا حضره عدد كبير من كبار العلماء، ودار الحديث حول اهتمام بونابرت بمصر، وأظهر العلماء فى كلامهم مقدار ما يكنونه لشخص بونابرت من محبة وود، وعلق سباستيانى على هذا الاجتماع فى تقريره إلى حكومته بقوله: «انه دهش مما أبداه المشايخ من شجاعة فى إعلان رغبتهم فى أن يصبحوا مرة أخرى رعايا القنصل الأول».

ويبدو من تقارير المسيو سباستيانى أن علماء الأزهر بدأوا يعيدون تقييمهم لفترة الحكم الفرنسى

لمصر، وبدأوا يقرون أن العدل يمكن أن يتأتى من الحاكم غير المسلم، وأن الحكام المسلمين ليسوا فى كثير من الأحيان عادلين

وقد ترجم الجبرتى عن هذا التغيير الجديد عندما أعاد كتابة تاريخ الحملة الفرنسية مرة ثالثة، وأخرج عنها الجزء الرابع من كتابه الضخم: «عجايب الآثار فى التراجم والأخبار» بعد أن أضاف إليها حوادث ما بين ١٢١٦هـ وسنة ١٢٢٠هـ (١٨٠١ ــ ١٨٠٥م)، ففى هذه الصياغة الأخيرة تظهر آراء الجبرتى المعتدلة، فقد أشاد ببعض أعمال الفرنسيين، وأبدى اعجابه ببعض نظمهم الحضارية؛ فى عدة مواضع من كتاب عجايب الآثار، وكان قد أغفل الإشارة إليها فى كتابه مظهر التقديس.

مثال ذلك اعجابه بتفوق الفرنسيين العلمي،وكان قد سجله فى مخطوطة ليدن «تاريخ مدة الفرنسيس بمصر ثم أشار إليه إشارة سريعة فى مظهر التقديس، ثم توسع فيه أخيرا فى عجايب الآثار.

وقد سجل الجبرتى منشور بونابرت الأول الذى أعلنه على الشعب المصرى فى يومياته الخاصة «تاريخ مدة الفرنسيس بمصر»، وفى «مظهر التقديس»، وعلق عليه بالنقد والتجريح لجميع ما فيه من أخطاء ومزاعم،وذلك تحت عنوان: «تفسير بعض ما أودعه هذا المكتوب من الكلمات المفككة والتراكيب الملعبكة». وهى التعليقات التى سبق أن أشرنا إليها، أما فى «عجايب الآثار» فقد حذف هذا النقد برمته.

ثم أثنى على تنظيمهم للديوان، واعطائهم مرتبات مجزية لأعضائه تغنيهم عن الارتشاء، فيقول فى ذلكك «ورتبوا لكل شخص من مشايخ الديوان التسعة أربعة عشر ألف فضه فى كل شهر عن كل يوم أربعمائة نصف فضة وللقاضى والمقيد والكاتب العربى والمترجمين وباقى الخدم مقادير متفاوته تكفيهم وتغنيهم عن الارتشاء».

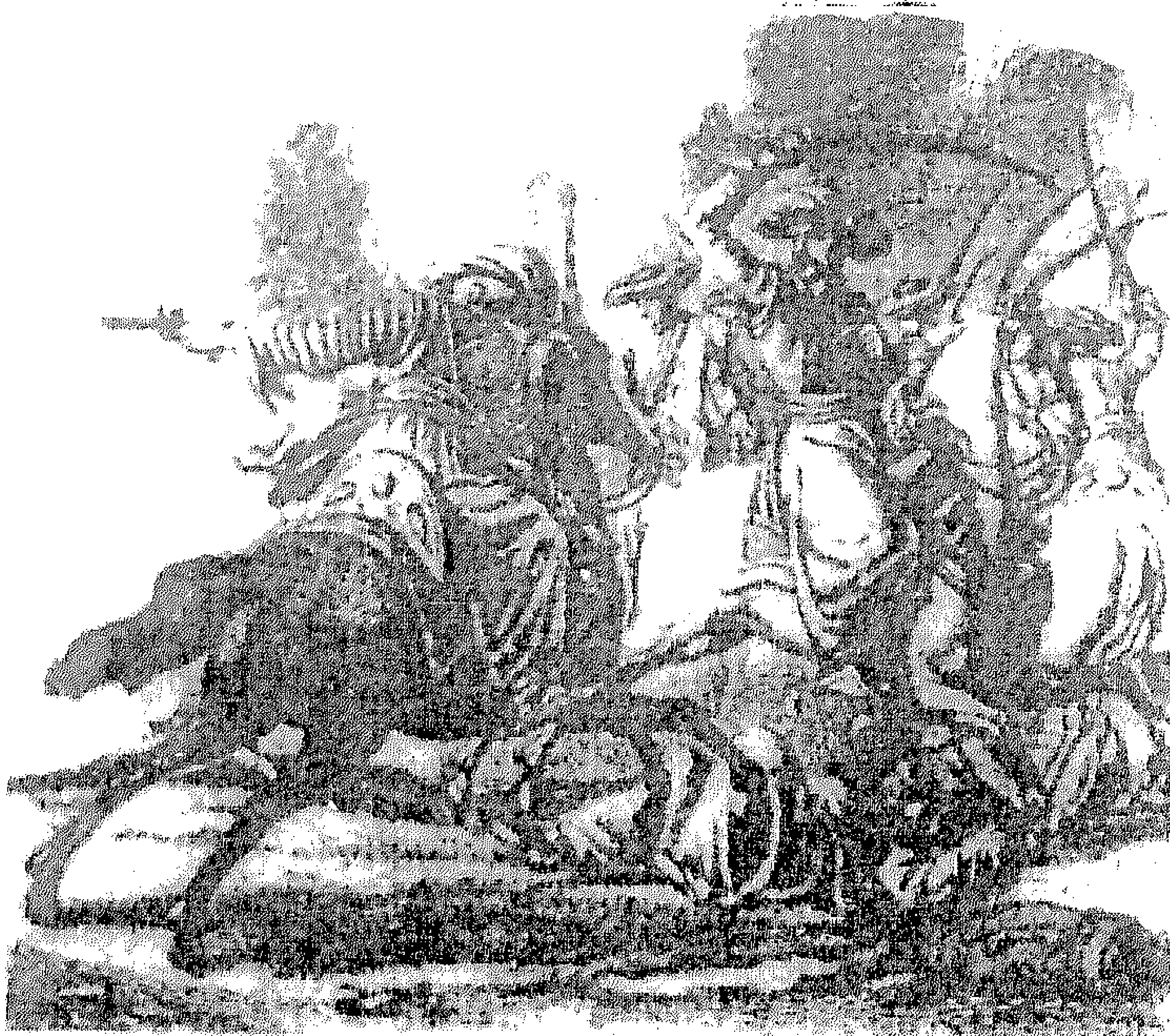
ولعل أوضح صورة لهذه المقارنة تظهر عندما نقارن ما كتبه الجبرتى عن حادثة مقتل كليبر ومحاكمة قاتليه ــ فى كلا المؤلفين: ففى (مظهر التقديس يورد خبرالحادثة موجزا، ولا يسجل محاضر التحقيق ولا محاضر جلسات المحاكمة التى نشرها الفرنسيون فى حينها.

أما فى (عجايب الآثار) فيورد هذه المحاضر بنصها العربى كما نشرت ويعلق عليها تعليقا يدل على اعجابه الظاهر بنظامهم القضائى وضبطهم الأحكام؛ فيقولك «وقد كنت أعرضت عن ذكرها (يعنى محاضر التحقيق) لطولها وركاكة تركيبها لقصورهم فى اللغة، ثم رأيت كثيرا من الناس تتشوق نفسه إلى الإطلاع عليها لتضمنها خبر الواقعة وكيفية الحكومة (محكمة) ولما فيها من الاعتبار وضبط الأحكام من هؤلاء الطائفة الذين يحكمون العقل ولا يتدينون بدين وكيف وقد تجرى على كبيرهم ويعسوبهم رجل آفاقى أهوج وغدره وقبضوا عليه وقرروه ولم يعجلوا بقتله وقتل من أخبر عنهم بمجرد الإقرار بعد أن عثروا عليه، ووجدوا معه آلة القتل مضمخة بدم سارى عسكرهم وأميرهم بل رتبوا حكومة ومحاكمة وأحضروا القاتل وكرروا عليه السؤال والاستفهام

مرة بالقول ومرة بالعقوبة ثم أحضروا من أخبر عنهم وسألوهم على انفراد ومجتمعين ثم نفذوا الحكومة (الحكم) فيهم بما اقتضاه التحكيم.. بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أفعال أوباش العساكر الذين يدعون الإسلام ويزعمون انهم مجاهدون وقتلهم الأنفس وتجاريهم على هدم البنية الإنسانية بمجرد شهواتهم الحيوانية مما سيتلى عليك بعضه بعد».

ويؤخذ من قول الجبرتي الأخير «مما سيتلى عليك بعضه بعد» أنه قد وضع لنفسه منهجا جديدا لبيان مفاسد النظام العثماني والمقارنة بينه وبين الحكم الفرنسي، وهذا ما أوضحه في تلك الصياغة الأخيرة لأحداث الحملة في كتابه «عجايب الآثار».

ويتضح من هذا العرض السريع؛ أن الجبرتي سجل أحداث الحملة الفرنسية بادى ذى بدء في يوميات خاصة (مخطوطة ليدن) كان يحتفظ بها لنفسه، وكان في هذا التسجيل الأول مؤرخا أمينا، يوجه النقد إلى جميع الأطراف بموضوعية ونزاهة، ولم تؤثر فيه عوامل المعاصرة كالرغبة في التقرب إلى الحكام والرهبة منهم، أو التحرج من بعض الأشخاص ذوى النفوذ، أو من له بهم صلة، وهي الأمور التي ظهرت إلى حد كبير في كتابه مظهر التقديس، وإلى حد ما في «عجايب الآثار».



انظر: عبد الرحمن الجبرتي/ دراسات وبحوث. ص ٢٣٣ دراسة للدكتور مصطفى محمد رمضان. الهيئة العامة للكتاب. القاهرة ١٩٧٦.

هوامش الملحق (٢٦)

(١) أشار الجبرتي إلى هذا المؤلف في مقدمة مظهر التقديس بقوله: «ولقد كنت سطرت ما وقع وحصل من الوقائع من ابتداء تملك الفرنسيس لأرض مصر إلى أن دخلها مولانا الوزير في أوراق منظومة في سلك الاجتماع والاتفاق وكثيراما كان يخطر ببالي وان لم يكن ذلك من شأن أمثالي أن أجمع افتراقها ولبسها بالترصيف اتساقها ليكون ذلك تاريخا مطلعا للبيب على عجايب الأخبار وغرايب الآثار وتذكرة بعدنا لكل جيل». ويبدو من هذه الإشارة أن هذا المؤلف كان قطعاً في كراريس تشتمل كل قطعة منها على عدة أشهر، ولهذا فضلنا تسمية هذه المخطوطة التي نعرضها الآن باسم قطعة من يوميات الجبرتي.

انظر: «مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس» طبعة لجنة البيان العربي في مجلد واحد، تحقيق حسن جوهر وعمر الدسوقي، القاهرة ١٩٦٩ ص ١٤.

(٢) بذلك يكون الجزء الضائع هو غالبية تلك المخطوطة (من بداية شعبان ١٢١٣هـ حتى أواخر صفر ١٢١٦هـ) لأن هذه المدة هي التي حددها الجبرتي في كتابه «عجايب الآثار» فهو يقول: «فكانت مدة الفرنساوية وتحكمهم الديار المصرية ثلاث سنوات وإحدى وعشرين يوما فانهم ملكوا بر امبابة والجيزة وكسروا الأمراء المصرية يوم السبت تاسع عشر صفر سنة ثلاثة عشرة ومائتين وألف وكان انتقالهم ونزولهم من القلاع وخلو المدينة منهم وانخلاعهم عن التصرف والتحكم ليلة الجمعة الحادى والعشرين من شهر صفر سنة ست عشرة ومائتين وألف» وبذلك تكون المدة التي اعتبرها الجبرتي هي مدة إقامتهم بالقاهرة وضواحيها فقط، أما المدة من بداية احتلالهم الاسكندرية حتى جلائهم عنها فهي من ١٩ محرم ١٢١٣هـ إلى نهاية ربيع الثاني ١٢١٦هـ (٢ يوليو ١٧٩٨م - ٨ سبتمبر ١٨٠١).

(٣) باب الحديد: من أبواب سور القاهرة الصلاحية الشمالي التي شيدت في عصر السلطان صلاح الدين الأيوبي، وكان يعرف أيضا بباب المقس لوقوعه في قرية المقس التي كان يقال لها المقسم أو باب البحر لأنه كان يشرف على النيل، ثم عرف باسم باب الحديد لأنه كان مركبا عليه بوابة من الحديد، ونسب إليه ميدان باب الحديد (ميدان رمسيس الحالي)، وان هذا الباب يقع عند مدخل شارع فم البحر من جهة الميدان المذكور وقد هدم حوالي عام ١٨٤٧م.

(٤) باب البرقية: من أبواب سور القاهرة الصلاحية، ونسب إلى جنود برقة في الجيش الفاطمي، وقد عرف أيضا بباب الغريب، ولا يزال هذا الباب موجودا بأكمله، ومحتفظا بشكله الأصلي من الأساس إلى الشرفات.

(٥) الأصح أغا مستحفظان (يعني رئيسا لقوات حفظ الأمن بالقاهرة) أما منصب كتخدا (وكيل أول نائب) مستحفظان فقد عين به برتلمي اليوناني كما ذكر الجبرتي بنفس الصفحة.

(٦) يغير الجبرتي في أسلوبه عندما يترجم لأحد الأعلام؛ فنراه يتخير الألفاظ الجزلة ويلتزم السجع، فتبدو في كتابته الصنعة والمحافظة عن طابع الكتابة الذي كان سائدا في عصره.

كذلك كان حالة في أول كتابه عجايب الآثار عندما كان يعالج أحداث تاريخ مصر في عجالة مضغوطة.

ملحق (٢٧)

يمكن أن نضع توزيعا جغرافيا للقبائل العربية فى أنحاء مصر تبعا لما ورد فى كتاب وصف مصر.. والوثائق والمصادر المعنية بالمنطقة.

«توزيع قبائل العربان»

الشرقية:

الهنادى، النقيعات، أولاد موسى، البياضين، أولاد سليمان، العقايلة، بنى غازى، القطاوية، جهينة، بلى، الطميلات، وائل، بنو عطية.

بلبيس: العايد، الطحاوية ، البياضين، الحويطات، المعازة، العبايدة، مطير.

البحيرة:

أولاد على، الجمعيات، سمالو، الجوابيص، هوارة، الجوازى، الحرابى، الجويلى، غزالة، عرب الطارة.

المنوفية:

العبايدة، البراعصة، الجوابيص، الهنادى، الحويطات، النجمة ، طرهونة.

القليوبية:

العبايدة، الهنادى، المعازة، النجمة، الصوالح، الطرابين، الحويطات، بلى، العليقات، جهينة، الحبابية.

الغربية:

بنى عون، الضعفا، أولاد سليمان، الصهب، الحرابى، الفرجان.

الجيزة:

الطرابين، العبايدة، الصهب، الضعفا، النجمة، بنى حرام، بلى.

الفيوم:

الحويطات، سمالو، خويلد، الهنادى، البراعصة، الضعفا، الفرجان، الفوايد، هيثم.

البهنسا:

عرب خويلد، النجمة،عربان ابن وافى.

بني سويف

طرهونة، الطميلات، المعازة، الضعفا، الجوابيص، الهنادى، الجمعيات، الفوايد، المحارب، بنى واصل، العزايزى.

أسيوط:

هيثم، طرهونة، الجوازى، الجليلات، الجهمة، العمايم، عرب عايد، هوارة.

المنيا:

الفوايد، الجوازى، الفرجان ، الجليلات، المعازة، مطير، خويلد، الهوارة، بنى رايل، أبو كريم.

قنا:

الهوارة، المعازة، العبايدة، العوازم، الجعافرة، الصعب.

أسوان:

العبايدة، الجعافرة، العليقات.

جرجا:

العطيات، بلى، الصهب، العوازم، بنى واصل.

منفلوط:

عربان ابن وافى، عرب العطيات

النطرون:

عرب السمالو، مطير، أولاد على، جوابيص.

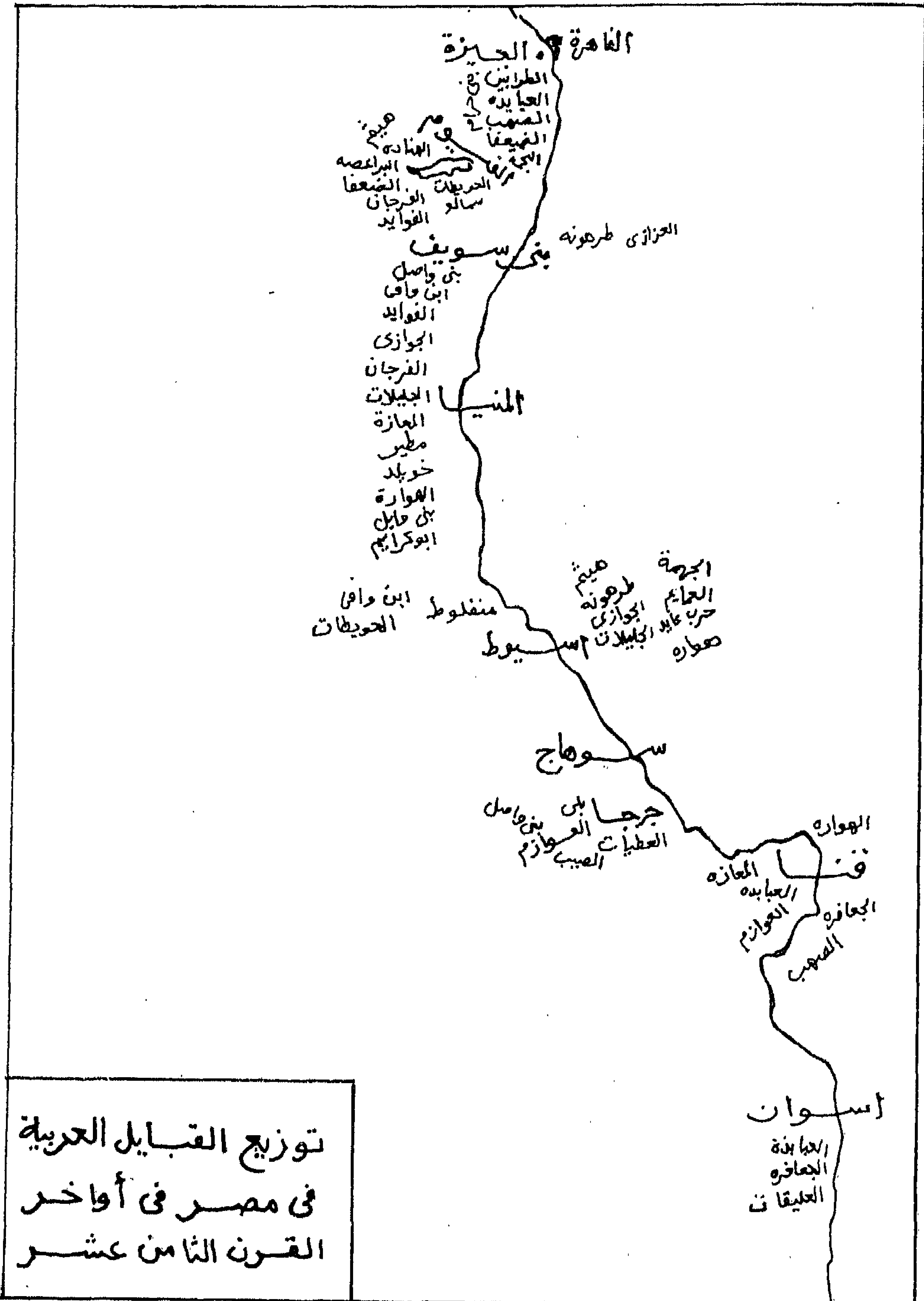
مرسى مطروح (الساحل الشمالى):

أولاد على، أولاد خروف، جمعيات ، جوابيص.

طور سيناء:

الجوازى، حويطات، صوالحة، عبابدة، طرابين.

الجبرتى/ ملحق (٢٧)


القاهرة
الجيزة
الطرابين
العبايدة
الضعفا
الفيوم
الحويطات
بني سويف
طرهونة
العزازي
بني واصل
ابن وافي
الفوايد
الجوازي
الفرجان
المنيا
الجبيلات
المعازة
مطير
خويلد
الهوارة
ابوكرايم
منفلوط
الحويطات
اسيوط
هيثم
الجوازي
الجهمة
هوارة
سوهاج
جرجا
بني واصل
العطيات
العوازم
الهوارة
قنا
المعازة
العبابدة
العوازم
الجعافرة
اسوان
العبابدة
الجعافرة
العليقات
توزيع القبايل العربية
في مصر في أواخر
القرن الثامن عشر

ملحق رقم (٢٨)

نص رسالة مراد بك إلى الجنرال منو

صور ....

جواب من حضرة أمير اللواء مراد بك أمير الحاج سابقا خطاباً إلى حضرة سارى عسكر عبد الله منو أمير الجيوش الفرنساوية مضمونه إن سألتم عننا فإنا طيبين بخير ولم نسأل إلا عنكم وغير ذلك أن حضر لنا جوابكم وعرفتونا بما حصل إلى حضرة محبنا العزيز صارى عسكر كليبر وهذا أمر الله تعالى لم أحداً بيده حيلة وأمر الله تعالى لابد عن نفاذه والذى سلط على قتله مثل واحد كبير زى ده لم هو شأن... ويبقا خاين وقليل المروة ولكن من قديم الزمان الخوانة لهم وكل احدا جزائه على الله تعالى وذكرتوا لنا فى جوابكم أن الجمهور سلموا لكم كامل الأمر والحكم وحصل لنا غايت الفرح والسرور لأن سابق بلغنا عنكم الأخبار الطيبة وشكرانية عن حضرتكم والناس جميعا يمدحوكم بكل خير وإحنا الآخرين حصل لنا فرح بذالك وزاد حبنا لطرفكم وإنشا الله تعالى يكون راحتنا على الله تعالى وعلى حضرتكم السعيدة وإننا على المحبة والشروط على ما هو عليه حكم الأول وإنشا الله تعالى تزيد المحبة والتوفيق وقبل تاريخه أرسلنا لكم جواب بصحبة الأمير إبراهيم كتخدا تابعنا وعرفنا الأمير إبراهيم كتخدا يعرف حضرتكم عن راحتنا وحضرتكم تتحملونا وتقبلوا عذرنا فى سنة تاريخه لأن حاصل لنا تعب من قبل المعايش والأمر إلى الله تعالى وإلى حضرتكم السعيدة وترسلوا لنا كامل أخباركم لأجل الطمأنينية عليكم والله تعالى يحفظكم.

فى ١٥ شهر صفر الخير سنة ١٢١٥

الجبرتى/ ملحق (٢٨)

ملحق رقم (٢٩)

نص عريضة زعماء الأقباط إلى الجنرال منو

حضرة صارى عسكر العام

إن جنابكم من قبل ما فيكم من العدل والحلم والفطنة أرسلتم تسألونا بأن نوضح لكم ما نحن به من القهر فنحن قبل الآن لم نقصد كشف جراحنا التى كانت فى كل يوم تتسع شيأ فشيأ أولا تسليما للمقادير وعشماً بكون كل واحدا منا يرجع لذاته ويحاسب نفسه تانيا خوفا من أن يقال عنا إننا نحب السجس [الظلم] ونواخد (نؤاخذ) بذلك من الحكام ثالث ليلا (لئلا) يتضح كأننا أخصام لأخواتنا وقاصدين الشكوى عليهم ولكن من حيث جنابكم أبو الجميع وطبيب الرعايا وقد زاد علينا الحال حتى ظهرنا من جملة العصاه على أوامركم وقد قاصصتمونا لذلك فاقتضى الحال أن نستغيث بكرسيكم تعيّنوابأمركم أناسا من أهل الفطنة خاليين الغرض ممن ترونهم أنتم يقعدوا فى ما بيننا ويتبصروا فى حال حسابنا وفى النهاية بعد أن يردوا الجواب لجنابكم لكم التبصر فى ما تأمرون به ومع ذلك فنرجوكم بأن لا تظنوا بكوننا قاصدين بعرضحالنا الشكوى على أحدٍ ام قصاصه بل قصاصنا نحن بوجه خاص إنكان (إن كان) يظهر كلامنا هذا بخلاف الواقع ثم إن هذا أمر يدركه أيضا خادمكم الخاص حضرة الجنارال يعقوب ومع ذلك لأجل طبعه الوديع محتار كيف يتصرف فى مثل هذه الدعوة والله تعالى يحفظكم.

من عند توابعكم المباشرين

ملطى وأنطون*

(*) كان ملطى من أكبر زعماء الأقباط أيام الحملة الفرنسية. وقد تولى فى عهد بونابرت رئاسة «محكمة القضايا» بالقاهرة، وهى تجمع بين اختصاصات المحكمة المدنية التجارية وإدارة الشهر العقارى وتتكون من اثنى عشر عضوا. وكذلك كان أنطون من كبار الأقباط وأكثرهم غنى وكان يعرف باسم «أبو طاقية».

ملحق رقم (٣٠)

الجنرال يعقــوب والفــارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصــر فــى ســنــة ١٨٠١

تأليف : محمد شفيق غربال

مطبعة المعارف/ ١٩٣٢/القاهرة.

فى الأيام الأولى من شهر يوليه سنة ١٧٩٨ نزل بأرض مصر جيش فرنسى يقوده نابليون بونابرت. ولم تكن هذه أول أغارة لهم عليها. ففى القرنين الثانى عشر والثالث عشر حاولوا امتلاكها، وتلاقت صفوة فرسانهم بمماليك مصر فى أكثر من موقعة.

وكان الفرنسيون فى تلك الأيام الغابرة ـ كما كان أهل الغرب عامة ـ أقل حضارة وإتقانًا لفن الحرب كما مارسته العصور الوسطى، وكان الفارس من الفرنجة صورة سقيمة من المملوك الشرقى، فكانت عاقبة تلك الاغارات الفشل.

ومضت خمسة قرون تحول فيها فارس العصور الوسطى كما عرفه سان لويس وبيبرس إلى الرجل الغربى الذى سيعرفه مراد والألفى والبرديسى فى ١٧٩٨. خمسة قرون زال فيها النظام الإقطاعى وما ترتب عليه من طرق الحكم والحرب وعلاقات طبقات الأمة بعضها ببعض، خمسة قرون رأت انفصام وحدة الغرب الدينية والسياسية وظهور مناهج العلم الحديثة وطرق التنظيم السياسى والاقتصادى الجديدة. أما مماليك مصر فكانوا فى ١٧٩٨ كما كانوا فى ١٢٥٠ فى الحرب والتفكير أو كانوا على حال أسوأ بفقدان استقلالهم ودولتهم وما كانوا يجبونه من مكوس مفروضة على تجارة الشرق المارة فى أرضهم. كذلك أهل مصر لم يصلهم عن انقلابات الغرب إلا أضعف الأنباء وظلوا فى كل مقومات الحياة الوطنية حيث كانوا أباؤهم.

اصطدم المماليك فى صيف ١٧٩٨ بغرب غير الغرب الذى عرفوه أيام الحروب الصليبية. وسرعان ما رأوا أن لا أساس لما زعموه «من أنه إذا جاءت جميع الأفرنج لا يقفون فى مقابلتهم وأنهم يدوسونهم بخيولهم» [1] وتمكن الفرنسيون من احتلال مصر وحكم الفرنسيون مصر مدة تزيد قليلاً على ثلاثة أعوام. وقد تخللت هذه المدة محاولة من جانبهم لفتح الولايات السورية. وضيق عليهم أثناءها حصار بحرى انجليزى. وقام المصريون على حكمهم كلما أمكن ذلك. وأباد منهم الطاعون وغيره من الأمراض الوبائية عددًا لا يستهان به. وظل مراد ومماليكه ومن انضم إليه من عرب مصر والجزيرة العربية شهورًا عديدة ينازعونهم دارفور وسنار وفزان وبرقة وغيرهما من بلاد المغرب. ولم تطب للفرنسيين الإقامة بمصر فقد وجدوها دون ما توقعوا وشق عليهم البعد عن وطنهم وبخاصة بعد ما بلغهم من تألب الدول الأوربية من جديد ضد فرنسا وارغامها على التخلى عن فتوحها فى إيطاليا وغيرها. وحتى مصر نفسها، عرفوا معرفة أكيدة أن السلطان قد اعتزم الاّ يتخلى عنها، وأرسل نحوها من ناحيتى البحر والشام جموعًا من جنده قد لا تكون قيمتها الحربية مما يأبه له الغربيون ولكنها، ولا بد، لها مع الزمن أثر.

لا بد من تذكر هذه الظروف عند الحكم على الاحتلال الفرنسى. ولابد إذن من الفصل بين أمرين مختلفين تماماً: الحكم الفرنسى كما كان والحكم الفرنسى كما يمكن أن يكون لو خلص مما انتابه من ظروف الحرب والفتن واتسع له الزمن ليجرى على أسس الاستعمار الحديث.

ولا يمكن الشك فى أن الفرنسيين لو خلص لهم ملك مصر لحكموها كما ينتظر من حكومة جمهورية قائمة على قواعد الثورة الفرنسية أتيح لها فى عصر بدأ فيه الانقلاب الاقتصادى الكبير أن تحكم قطراً زراعياً خصباً ذا مركز جغرافى فذ كوادى النيل وأمة ذات تاريخ مفعم بعبير الدهر كالأمة المصرية. لو خلص لهم حكم مصر لبذلوا جهداً صادقاً فى تنمية الموارد بتنظيم الرى وضبط النيل. وقد كتب بونابرت فى مذكراته فصلاً رائعا عن ضبط النيل بإنشاء سدين على فرعيه عند رأس الدلتا. ولو دامت مدتهم فى مصر لعملوا كل ما يستطيعون للاستفادة من مركز مصر الجغرافى، ولوصلوا بين البحرين الأبيض والأحمر - وكتاب وصف مصر يشتمل على الدراسات العلمية الأولى لهذا المشروع الخطير. واستعمار مصر كان لابد له أن يؤدى إلى اتساع النفوذ الفرنسى على ساحل البحر الأحمر وإلى ما وراء سيناء من ناحية فلسطين والشام. وأن يؤدى أيضاً للتقدم نحو منابع النيل وجعل مصر المدخل والمخرج لتلك الأرجاء الأفريقية الواسعة وحل اللغز الجغرافى القديم. وقد سجل تاريخ القرن التاسع عشر تحقيق الكثير من هذا على يد محمد على. مما يدل على أن خطط الحكومات ليست مما يستنبط من بطون الكتب ولا مما تجود به القرائح إنما هى مما يمليه الواقع الجغرافى ويكرره التاريخ فى أدواره المتباينة.

ولو دام الاحتلال الفرنسى لسلك نحو المصريين مسلكا يكون من أثره تحسين كثير من أحوالهم ثم يعمد بعد هذا التحسين إلى أبطال النمو - أو إلى أبطاله فى بعض النواحى وتوجيهه فى الاتجاه الذى يريد. ولم يكن بد من اهتمام الفرنسيين بهذا التحسين الأبتر بحكم الإنسانية المشتركة وبحكم منفعتهم: يُقَاوم الأوبئة بإنشاء المستشفيات وما تستلزمه من مدارس الطب والمحاجر الصحية حفظًا للقوى العاملة فى الإنتاج الزراعى الذى يغذى الخزانة العامة ويمون التجارة، ومنعاً لانتقال المرض إلى الفرنسيين. يصلح الأداة الحكومية وينوع الإدارات صيانة للأمن وضبطًا للأموال العامة. ويستلزم هذا إصلاح نظام الجباية ونظام الضرائب. ويتبعه إلغاء الالتزام واستقرار ملكية الفلاح للأرض. يفتح الأبواب لرؤوس الأموال الفرنسية ولنظم التجارة والمعاملات الغربية. ويؤدى هذا لتنظيم القضاء على أساس غربى ولدخول التجارة والمعاملات الغربية. ويؤدى هذا لتنظيم القضاء على أساس غربى ولدخول القوانين الغربية: ويعنى بإعداد طائفة من أبناء البلاد تسد حاجة الإدارة من صغار الموظفين. ولو دام الاحتلال الفرنسى لاعتمد بعض الاعتماد فى الدفاع عن البلاد على جيش وطنى من أبنائها.

ولو دام الاحتلال الفرنسى لاحتاط أشد الحيطة فى كل ماله علاقة بالتفكير الدينى من المسائل

الاجتماعية وموضوعات البحث العلمى. فالحاكم الغربى يحب أن تكون قواعد الإنتاج الاقتصادى غربية صرفة لأن هذه القواعد تزيد الإنتاج والزيادة مما يهمه. ولكنه يكره من المحكومين الشرقيين الانقلاب الاجتماعى والبحث العلمى الحر. وذلك لأسباب: منها حرصه على أن لا يظهر للعامة فى مظهر الهادم للعادات المشجع على التحرر من قواعد الدين ومنها ظنه أن تلك الانقلابات لابد وأن تؤدى فى النهاية إلى الرغبة فى الاستقلال. ومنها الميل إلى المحافظة على المظاهر الشرقية من قبيل الاحتفاظ باللطائف والتحف.

والمتأمل فى أحوال الأمم الإسلامية فى الوقت الحاضر يتحقق صدق ما ذهبنا إليه. فانه يجد أن أشد هذه الأمم تطرفاً فى الهدم والتغيير الأمة التركية العثمانية والأمة الفارسية وهما الأمتان اللتان تخلصتا تخلصاً تامًا من حكم الغرب السياسى.

أما عن نظام الحكم فالمنتظر من الاحتلال الفرنسى لو أن أيامه دامت أن يبقى حكم القرى على ما عرفته مصر فى عصورها المختلفة فى أيدى العمد والمشايخ، وأن يعهد للفرنسيين فى إدارة الأقاليم وأن تسود المركزية الشديدة. وأن يبقى الفرنسيون على الدواوين التى أنشأها فعلاً بونابرت ولم يرم بها إلى خلق النظام البرلمانى كما توهم البعض فبونابرت لم يكن مما يعجبون به أو يرتضيه لفرنسا دع عنك مصر. بل رمى بها إلى إنشاء وسائل تمكنه من الاتصال بالزعماء المصريين وتفهم ما يجرى فى نفوسهم وتفهيمهم حقيقة مشروعاته ونواياه حتى لا يبقى مجال لدس الدساسين ولا لسوء الفهم.

هذا بعض ما نتصوره عن تطور الحكم الفرنسى فى مصر لو استقام للفرنسيين أمرها. وليس هذا التصور مما يخلو من الفائدة التاريخية أو مما لا يقوم على أساس من الواقع. فأكثره مستمد مما كتبه بونابرت وغيره من نواياهم ومما شرعوا فى تحقيقه فعلاً ومما رأيناه من طرق الحكم الفرنسى فى غير مصر لكن الزمن لم يتسع لتحقيق ما صورناه. ووجد القواد الثلاثة الذين تعاقبوا على حكم مصر ـ بونابرت وكليبر ومينو ـ أنفسهم مضطرين لتوجيه كل جهدهم للتغلب على الأخطار الداخلية والخارجية المحدقة بجيشهم وحكمهم. ولم يكن ما قام به أولهم بونابرت وثالثهم مينو من التجارب الإدارية الأداة الحقيقية لحكم البلاد ولم تتغير فى أيامهم كلها طرق الجباية ولا الضرائب ولا العمال. بل ظلت كما كانت أيام المماليك ولذلك لم تكن الأعوام الثلاثة التى قضاها الفرنسيون فى حكم مصر عهداً سعيداً لسكانها. حقيقة أن المصريين اعتادوا قبل قدومهم الانقلابات السياسية: اعتادها أهل الريف وأهل الحواضر، وعرفها بصفة خاصة أهل القاهرة. وكانت الانقلابات التى عرفوها مما يصحبه الشىء الكثير من اختلال الأمن وضروب العنف والتعسف وأعادة الطلب عليهم فيما أدوه من الضرائب والمغارم. إلا أن هذه الانقلابات كلها كانت على نمط واحد. لا يأتى واحد منها بجديد ولا يصطدم بمألوف لديهم: فمثلاً يتغلب علىّ بك الكبير على خصومه ويحكم البلاد كما حكمها

خصومه؛ ثم يتغلب عليه أبو الذهب ويحكم كما حكم عليّ وهكذا دواليك.

ولم يكن للمصريين من نصيب فى هذه الانقلابات إلا عمال الإدارة المالية من الأقباط ورؤساء القبائل العربية والشيوخ من العلماء: فالفريق الأول بحكم اضطرار الأمراء جميعاً لاستخدامه، يعمل للمنتصرين كما عمل للمنهزمين. ورؤساء العربان بسبب قوتهم الحربية قد يرجحون كفة طائفة من الأمراء على كفة خصومها. والشيوخ العلماء بحكم تصدرهم ونفوذهم فى الناس وتحليهم بصفات الفضل والاعتدال. يلجأ إليهم الناس للوساطة فى رفع الحيف إذا ضاقوا به ذرعًا. وقد يحتكم إليهم المتخاصمون من الأمراء. وكان تدخل الشيوخ عادة لرفع الضيم واحلال الوئام محل الخصام أو للتخفيف من عنف الانقلابات.

أما الحكم الفرنسى فكان انقلاباً من نوع لم يعرفه المصريون. إذا لما زال حكم مراد وإبراهيم حل محلهما بونابرت ولم يكن مسلماً ولا مملوكاً. ومهما قيل فى قلة تدين الفرنسيين فى تلك الأيام فهم غير مسلمين قد تصل بهم الضرورة الحربية أو ما ظنوه الضرورة الحربية إلى انتهاك الحرمات الإسلامية.

كذلك ترك الوالى العثمانى مصر عند الاغارة الفرنسية وزال بغيابه مظهر التبعية للسلطان العثمانى خليفة المسلمين وسمع المصريون عن تبعية بلادهم لدولة غربية فرنجية سُمِّى لهم نظامها السياسى بأسماء شتى لا تدلهم تجاربهم السياسية على معانيها فنشر عليهم منشور «من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية»[٢] وأُرِّخت لهم الحوادث بشهور غريبة من سنين تبدأ «من انتشار الجمهور الفرنساوى»[٣].

وكانت للفرنسيين طرقهم فى مخالطة النساء. وكانت هذه الطرق مما تكرهه الخاصة كرهاً شديداً. وأدى انتشار العسكر فى أنحاء المدن والأقاليم، وتشتت شمل أسرات الأمراء وانطلاق جواريهم عقب تركهم القاهرة، إلى ضروب غير مألوفة من الفساد والرذيلة.

جاء فى الجبرتى فى حوادث ربيع الأول سنة ١٢١٤ «وفى يوم الاثنين رابع وعشرينه كان وفاء النيل المبارك..... ووقع فى تلك الليلة بالبحر وساحله من الفواحش والتجاهر بالمعاصى والفسوق ما لا يكيف ولا يوصف وسلك بعض غوغاء العامة وأسافل العالم ورعاعهم مسالك تسفل الخلاعة ورزالة الرقاعة بدون أن ينكر أحد على أحد من الحكام أو غيرهم بل كل إنسان يفعل ما تشتهيه نفسه وما يخطر بباله وإن لم يكن من أمثاله.

إذا كان رب الدار بالدف ضارباً

فشيمة أهل الدار كلهم الرقص

وجاء فيه أيضاً فى ختام حوادث سنة ١٢١٥: «ومنها تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء وهو أنه لما حضر الفرنسيس إلى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه .... ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقاً عنيفاً مع الضحك

والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش فتداخلن معهم لخضوعهم [أى الفرنسيين] للنساء وبذل الأموال لهن وكان ذلك التداخل أولاً مع بعض حشمة وخشية عار ومبالغة فى إخفائه. فلما وقعت الفتنة الأخيرة وحاربت الفرنسيس بولاق وفتكوا فى أهلها وغنموا أموالها وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات صرن مأسورات عندهم فزيوهن بزى نسائهم وأجروهن على طريقتهن فى كامل الأحوال فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالمرة وتداخل مع أولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر. ولما حل بأهل البلد من الذل والهوان وسلب الأموال واجتماع الخيرات فى حوز الفرنسيس ومن والاهم وشدة رغبتهم فى النساء وخضوعهم لهن وموافقة مرادهن وعدم مخالفة هواهن ولو شتمته أو ضربته بتاسومتها فطرحن الحشمة... واستملن نظراءهن (لمخالطة الفرنسيين)... وخطب الكثير منهم بنات الأعيان.. فيظهر حالة العقد الإسلام... لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها وصار مع حكام الأخطاط منهم النساء المسلمات متزييات بزيهم ومشوا معهم فى الأخطاط للنظر فى أمور الرعية... وتمشى المرأة بنفسها أو معها بعض أترابها على مثل شكلها وامامها القواسة والخدم وبأيديهم العصى يفرقون لهن الناس مثل ما يمر الحاكم ويأمرن وينهين فى الأحكام... ولما أوفى النيل أذرعه ودخل الماء إلى الخليج وجرت فيه السفن وقع عند ذلك من تبرج النساء واختلاطهن بالفرنسيس ومصاحبتهم لهن فى المراكب والرقص والغناء والشرب فى النهار والليل فى الفوانيس والشموع الموقدة وعليهن الملابس الفاخرة والحلى والجواهر وصحبتهم آلات الطرب وملاحو السفن يكثرون من المجون والهزل. وخصوصا إذا دبت الحشيشة فى رؤوسهم وتحكمت فى عقولهم فيصرخون... ويتجاوبون بمحاكاة ألفاظ الفرنساوية فى غنائهم وتقليد كلامهم الشيء الكثير. وأما الجوارى السود فانهن لما علمن برغبة القوم فى مطلق الأنثى ذهبوا إليهم أفواجا فرادى وأزواجا فنططن الحيطان وتسلقن إليهم الطيقان ودلوهم على مخبآت أسيادهم وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك».

وفى أيام الاحتلال الفرنسى حرَّر غيرُ المسلمين من وطنيين وأجانب أنفسهم من قيود مختلفة من المذلة كان المسلمون يعدونها إذ ذاك شرطًا من شروط بقاء الإسلام. وقد عرف بونابرت ما فى هذا التحرر من إساءة للشعور الإسلامى وبيّن فى مذكراته تقديره أهمية هذا الأمر بيانًا واضحاً فقال: «لا فائدة فى إظهارنا الاحترام العميق للدين الإسلامى إذا كنا نسمح للأقباط والروم والمسيحيين الغربيين بقدر من التحرر يغير من منزلتهم الماضية. وقد أردت أن يكونوا أكثر خضوعاً وأكثر احتراماً لكل ما يتعلق بالإسلام وبالمسلمين مما كانوا فى الماضى». نجد فى الجبرتى تأييداً لصدق هذه الرغبة. فيذكر فى حوادث رمضان سنة ١٢١٣ «رجوع نصارى الشوام إلى لبس العمائم السود والزرق والى ترك لبس العمائم البيض والشيلان الكشميرى الملونة والمشجرات وذلك بمنع الفرنسيس لهم من ذلك ونبهوا (أى الفرنسيون) أيضًا بالمناداة فى أول رمضان بأن نصارى البلد

يمشون على عادتهم مع المسلمين أولاً ولا يتجاهرون بالأكل والشرب فى الأسواق ولا يشربون الدخان.....»

لم تستمر الحالة على ذلك. ولم يكن استمرارها مما يمكن فى ظل حكم غربى جمهورى شعاره المساواة والحرية الدينية. وما كانت الاعتبارات السياسية لتستطيع محو هذا الشعار تمامًا. هذا إلى حاجة الاحتلال الفرنسى لغير المسلمين: لأموالهم ودرايتهم بأحوال البلاد ونظمها وعادات أهلها ولا مكان الوثوق بهم يفضل اتفاق المنافع.

فعاد غير المسلمين إلى ما عبر عنه الجبرتى بقوله: (ومن الحوادث) ترفع أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود وركوبهم الخيول وتقلدهم بالسيوف بسبب خدمتهم للفرنسيس ومشيهم الخيلاء وتجاهرهم بفاحش القول واستذلالهم المسلمين....»(٤).

ولم يكن للحكم الفرنسى فى مدته القصيرة، وفى ظروف الحرب والفتن الملابسة له، من المآثر ما يحمل الخاصة والعامة من أهل مصر على الاغضاء عما صحبه من الانقلاب الاجتماعى. فقد كان حكمًا عسكريًا شديدًا عنيفًا. ولم يكن الإصلاح الذى فكر فيه الفرنسيون، وما استحدثوه من الدواوين وغيرها، والبحث العلمى الذى شرعوا فى إقامة قواعده مما يجتذب إليهم المحكومين إلا بعد زمن طويل. ذلك لأن النظم الحكومية التى اعتادها المصريون وغيرهم من أهل الشرق فى آخر القرن الثامن عشر كانت ترمى لأغراض ثلاثة أساسية: جمع الأموال المفروضة، والأيدى العاملة اللازمة للأعمال العامة، واستتباب الأمن. وفيما عدا هذه الأمور الثلاثة لا تتدخل الحكومة فى أحوال الرعية؛ بل تدع كل ما لا يتعلق من هذه الأحوال بأغراضها تنظمه الجماعات أو لا تنظمه كما جرت به العادات. وإذا شئنا اجمال وصف ما اختص به نظام الحكم المملوكى، قلنا أنه يمتاز بقلة التدخل الحكومى كما نفهمه الآن وبالعنف والتعسف. ويجب ألا يحملنا ما نراه من جنوح الحكام لهذا العنف والتعسف إلى تصور نظم الحكم على غير ما صورناها من ترك الرعية وشأنها فى ما لم يتعلق بأغراض الحكومة الأساسية. ويجب كذلك ألا يحملنا ما نسمع عنه من الظلم على الظن بأنه لم تكن أمام المحكومين وسائل مختلفة لتجنبه أو لتخفيفه. فان ارتباك الإدارة الذى نجم عن الانقلابات المتتابعة، وسوء ذمة العمال، وفوضى السجلات، وما إلى ذلك فتح للرعية أبواب الخلاص من الفرض المختلفة سواء منها الشرعية وغير الشرعية.

لا ننتظر إذن أن يرحب المصريون فى ١٧٩٨ بالتدخل الحكومى وبما يصحبه من النظم الدقيقة. ولا أن يعدوها ـ كما نعدها الآن ـ ضمانًا لحقوقهم. لأنهم على العكس كرهوا ضبط الدفاتر، واعتبروه اشتطاطًا فى الطلب، ولم يروا فيما اتخذته الحكومة من الوسائل لمنع الأمراض، كتخطيط المدن من جديد، ومنع الدفن فيها حيثما اتفق، وكنس الطرقات، وعزل المرضى عن الأصحاء إلا استبدادًا لا يطاق وفضولاً لا يفهم.

كره المصريون الحكم الفرنسى وقاوموه. ثار أهل القاهرة ثورتين عنيفتين، وقام الفلاحون فى الأقاليم كلما أتيحت لهم فرصة. وقد ذكرنا من الأسباب ما يكفى لتفسير هذا الكره دون أن نلجأ إلى تعليله بانتحال تعبيرات من تاريخ الغرب فى القرن التاسع عشر. والتاريخ الصحيح لا يجد فى الفتن الشعبية بالقاهرة والأقاليم إلا باعثًا إيجابيًا واحدًا، هوالرغبة فى العودة لما ألفه الناس. ولا يمكن تسمية ما ألفوه استقلالاً. إنما اسمه الوحيد حكم المماليك تحت السيادة العثمانية.

وصفنا الفتن بأنها كانت شعبية. كرهها كبار العلماء دون أن يحبوا الحكم الفرنسى وحاولوا أن يقوا الناس أذى بطش الفرنسيين جهد استطاعتهم. فكان موقفهم فى أيام الاحتلال الفرنسى هو نفس موقفهم فى الانقلابات الماضية إلاّ أن منهم ومن كبار الخاصة من عمل على التخلص من الحكم الفرنسى وإعادة الحالة التى سبقته. يذكر التاريخ مثلاً السيد عمر مكرم الذى ترك مصر عند الاحتلال الفرنسى واشترك فى ثورة القاهرة الثانية عند قدوم الجيش العثمانى لتسلم البلاد من الفرنسيين بحسب اتفاق العريش. وكان للسيد عمر فيما بعد نصيب فى قيام العامة على خورشيد باشا الوالى العثمانى وتنصيب محمد على واليًا على مصر. وجرى له أثناء هذه الحوادث حديث مع مندوب خورشيد باشا ينص على حق الرعية فى مقاومة الظلم(٥). ولكن لا يمكن وصف جهود السيد عمر لإخراج الفرنسيين من مصر وتسليمها للسلطان سعياً لاستقلال مصر. والظاهر أن السيد عمر كان على جانب من علو الهمة وقوة الشخصية بعثه على العمل للنفوذ السياسى. وقد رأى عاقبة أطماعه لما حاول أن يتحكم فى محمد على كما تحكم فى خورشيد من قبل. فذاق النفى عن القاهرة وانتهاء حياته السياسية(٦).

وكان السيد أحمد المحروقى ممن ظهر أيضًا فى فتنة القاهرة الثانية. ولكنه لم يتصف بصفات الزعامة التى ظهرت فى السيد عمر مكرم مثلاً. بل كان رجلاً من رجال المال من نمط فوكيه ومن يماثله فى أيام الملكية الفرنسية. وأصدق وصف له قول البرديسى له «مثلك من يخدم الملوك»(٧).

وظهر فى هذه الفتنة أيضا السيد السادات. وكان من أكثر العلماء نفوراً من الفرنسيين وما أحدثوه، ومن أشدهم سعياً لاعادة الحكم العثمانى. ثم تبين له خطؤه عند فرار الجيش العثمانى بعد هزيمته فى واقعة المرج أو هليوبوليس وترك رجال الدولة العثمانية أهل القاهرة وشأنهم مع الفرنسيين بعد أن أثاروهم وحمسوهم. فكتب لعثمان كتخدا الدولة كتاباً جاء فيه؛ «ألزمتهم الغنى والفقير والكبير والصغير إِطعام عسكركم الذى أوقع بالمؤمنين الذل وبلغ فى النهب غاية الغايات فكان جهادكم فى أماكن الموبقات والملاهى... أخفتم أهل البلد بعد أمنها وأشعلتهم نار الفتنة ثم فررتم فرار الفيران من السنور(٨).

وتبين لأهل القاهرة بعد هذه الفتنة كما سيتبين لهم بعد جلاء الجيش الفرنسى أنهم كانوا مخدوعين فى قيامهم على الحكم الفرنسى من أجل العثمانيين. وأنهم كانوا فى فتنتهم ضحية

«الدجاجلة» كما سماهم الجبرتى الذى اختص منهم رجلاً مغربياً لا ناقة له فيها ولا جمل. يدعو للجهاد ويحرص على الابتعاد عن مواطن القتال، يهدد من يتكلم فى الصلح برمى العنق ولا يأكل إلا الدجاج(٩).

وإذن فلا يرى التاريخ الصحيح فى موقف العامة وزعمائها وأهل الرأى فيها أثراً لفكرة الاستقلال الوطنى. ولا يسجل إلا لمصرى واحد من أهل هذا العصر فضل اعتبار الاحتلال الفرنسى لا فترة نحس يُرجّى زوالها وعود ما سبقها. بل بدء حياة جديدة لمصر والمصريين مهدت لها الحملة الفرنسية بقطع التبعية العثمانية وهدم قوة المماليك. ذلك المصرى هو المعلم يعقوب حنا(١٠) : موضوع هذه الرسالة.

لا أحب أن أغلو فأزعم أن يعقوب فَهِم تمامًا كل الاحتمالات التى انطوى عليها هدم النظم القائمة فى مصر وحكم أمة غربية لها أو أنه تحول فى هذه الأشهر القليلة التى قضاها مخالطًا للفرنسيين من جابٍ من جباة الأموال نشأ ودرج فى بيت من بيوت الأمراء المماليك فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر إلى داعٍ من دعاة الحركات الوطنية التى يعرفها الغرب فى القرن التاسع عشر. بل أجد يعقوب يحتفظ حتى بعد مخالطة الفرنسيين ببعض صفات الجباة وعمال الإدارة المالية من أبناء طائفته فى ذلك الوقت(١١). ولكنه رغم ذلك تأثر تأثرًا بيناً باتصاله بالفرنسيين وبالغرب وكوّن رأياً خاصًا عن حكمهم لمصر وما يمكن أن يؤدى إليه ولا يشاركه فى هذا الرأى الزعماء من أبناء طائفته (وقد خدموا الاحتلال الفرنسى كما خدموا الانقلابات السابقة) ولا أهل الرأى من مواطنيه المسلمين (وقد شرحنا موقفهم من الحكم الفرنسى).

يرد ذكر يعقوب فى تاريخ الجبرتى فى أكثر من موضع. ويرد ذكره فى كل هذه المواضع مقروناً بأعمال تمنع القارىء من أن يظن به خيراً وتمثله فى صورة المتفانى فى خدمة الاحتلال الفرنسى.

يذكر الجبرتى عنه تأييده الحكم الفرنسى أثناء ثورة القاهرة الثانية بينما الرويسا الأقباط الآخرون بما فيهم أكبرهم جميعاً جرجس جوهرى يدارون الثوار ويمدونهم بالمال واللوازم صيانة لأرواحهم لا عطفاً على حركتهم. «أما يعقوب ـ كما سجل الجبرتى فى حوادث شوال سنة ١٢١٤ ـ فانه كرنك فى داره بالدرب الواسع جهة الرويعى واستعد استعداداً كبيراً بالعسكر والسلاح وتحصن بقلعته التى كان شيدها بعد الواقعة الأولى (أى ثورة القاهرة الأولى أيام بونابرت) فكان معظم حرب حسن بك الجداوى معه».

ويرد ذكره أيضًا فى وصف ما حاق بأهل القاهرة من الشدة فى جمع الغرامة المالية التى ضربها عليهم كليبر بعد اخماده الفتنة فيقول الجبرتى فى حوادث ذى الحجة سنة ١٢١٤ : «وكل كليبر يعقوب يفعل فى المسلمين ما يشاء».

زاد نفوذ يعقوب فى الأيام التالية لفشل الثورة فى القاهرة. والسابقة لقتل كليبر ـ زهو الأقباط وخيلاؤهم ـ أو على الأقل زهو من كان يعمل للحكومة الفرنسية منهم. وترى امتعاض المسلمين ظاهراً فى الجبرتى فى أكثر من موضع: «منعوا

المسلمين من ركوب البغال سوى خمسة أنفار وهم الشرقاوى والمهدى والفيومى والأمير وابن محرم، والنصارى المترجمين وخلافهم لا حرج عليهم وفى كل وقت[١٢]». وأيضاً، «وتطاولت النصارى من القبط والشوام على المسلمين بالسب والضرب ونالوا منهم أغراضهم وأظهروا حقدهم ولم يبقوا للصلح مكاناً وصرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين»[١٣]. وبيّن الجبرتى أن تعسف الفرنسيين فى الطلب كان بارشاد القبطة.. «لأنهم هم الذين تقلدوا المناصب الجليلة وتقاسموا الأقاليم والتزموا لهم بجمع الأموال ونزل كل كبير منهم إلى إقليم وأقام بسرة الإقليم مثل الأمير الكبير ومعه عدة من العساكر الفرنسية وهو فى أبهة عظيمة وصحبته الكتبة والصيارف والأتباع والأجناد من الغز (أى المماليك) البطالة وغيرهم، والخيام والخدم والفراشون والطباخون والحجاب وتقاد بين يديه الجنائب والبغال والرهوانات والخيول المسومة والقواسة والمقدمون وبأيديهم الحراب المفضضة والمذهبة والأسلحة الكاملة والجمال الحاملة ويرسل إلى ولايات الإقليم من جهة المستوفين من القبط أيضاً بمنزلة الكشاف ومعهم العسكر من الفرنسية والطوائف والجاويشية، والصرافين والمقدمين على الشرح المذكور فينزلون على البلاد والقرى ويطلبون المال والكلف الشاقة بالعسف ويؤجلونهم بالساعات فإذا مضت ولم يوفوهم المطلوب حل بهم ما حل من الحرق والنهب والسلب وخصوصاً إذا فر مشايخ البلدة من خوفهم وعدم قدرتهم وإلاَّ قبضوا عليهم وضربوهم بالمقارع والكسارات على مفاصلهم وركبهم وسحبوهم معهم فى الحبال وأذاقوهم أنواع النكال، وخاف من بقى فصانعوهم وأتباعهم بالبراطيل بما يستميلون قلوبهم به وما يستجلبونه لهم من المنافع والمظالم، وأجهدوا أنفسهم فى التشفي من بعضهم وما يوحيه الحقد والتحاسد الكامن فى قلوبهم إلى غير ذلك مما يتعذر ضبطه وما كنا بمهلكى القرى إلاَّ وأهلها ظالمون[١٤]».

ويصف الجبرتى اهتمام يعقوب بتحصين القاهرة عند اقتراب العثمانيين منها للمرة الثانية، فى الأيام الأخيرة من العهد الفرنسى. فيقول فى حوادث المحرم سنة ١٢١٦ : «فى عشرينه توكل رجل قبطى يدعى عبد الله من طرف يعقوب يجمع طائفة الناس للعمل فى المتاريس فتعدى على بعض الأعيان وأنزلهم من على دوابهم، وسب وضرب بعض الناس على وجهه حتى أسال دمه، فتشكى الناس من ذلك القبطى وأنهوا شكواهم إلى بليار قايمقام فأمر بالقبض على ذلك القبطى وحبسه بالقلعة. ثم فردوا «كذا» على كل حارة رجلين يأتى بهما شيخ الحارة، وتدفع لهما أجرة من شيخ الحارة».

«ولم يكتف بكل هذا. بل نظم جيشًا من الأقباط يخدم فى صفوف الفرنسيين. وكان هذا التنظيم على نفقته الخاصة فقد كان يعقوب صاحب مال لأنه لم ينس أن يجمع لنفسه عندما جمع للفرنسيين. وقلده كليبر قيادة هذا الجيش ملقبًا إياه بلقب أغا. وفى عهد قيادة مينو رُقى يعقوب جنرالاً ومنح براءة هذا اللقب». وقد وصف الجبرتى هذا الجيش الوطنى ـ نلاحظ أنه أول جيش

كوّن من أبناء البلاد بعد زوال الفراعنة ـ فى كلامه عن حوادث المحرم سنة ١٢١٥ ـ «وفيه طلبوا عسكراً من القبط فجمعوا منهم طائفة وزيوهم بزيهم وقيدوا بهم من يعلمهم كيفية حربهم ويدربهم على ذلك وأرسلوا إلى الصعيد فجمعوا من شبانهم نحو الألفين وأحضروهم إلى مصر وأضافوهم إلى العسكر». ثم قال فى كلام عام عن السنة كلها: «ومن حوادث هذه السنة أن يعقوب لما تظاهر مع الفرنساوية وجعلوه سارى عسكر القبط جمع شبان القبط وحلق لحاهم (وان احتفظ هو بلحيته) وزياهم بزى مشابه لعسكر الفرنساوية مميزين عنهم بقبع يلبسونه على رؤوسهم مشابه لشكل البرنيطة وعليها قطعة فروة سوداء من جلد الغنم فى غاية البشاعة على ما يضاف إليها من قبح صورهم وسواد أجسامهم وزفارة أبدانهم وصيّرهم عسكره وعزوته وجمعهم من أقصى الصعيد وهدم الأماكن المجاورة لحارة النصارى التى هو ساكن فيها خلف الجامع الأحمر وبنى له قلعة وسورها بسور عظيم وأبراج وباب كبير يحيط به بدنات عظام وكذلك بنى أبراجاً فى ظاهر الحارة جهة بركة الأزبكية وفى جميع السور المحيط والأبراج طيقانًا للمدافع وبنادق الرصاص على هيئة سور مصر الذى رممه الفرنساوية ورتب على باب القلعة الخارج والداخل عدة من العسكر الملازمين للوقوف ليلاً ونهاراً وبأيديهم البنادق على طريقة الفرنساوية».

يرد ذكر يعقوب فى كل هذه المواضع فلا يمكن لقارئ الجبرتى أن يتصوره إلا كأحد أولئك المارقين الذين يظهرون فى عصور الحكم الأجنبى ويكونون خلالها حربًا على أممهم. ولكن القارئ لا يجد فى الجبرتى ولا فى غيره أن يعقوب فى سنة ١٨٠١ لما انتهى الاحتلال الفرنسى هاجر وتبع الجيش الفرنسى إلى فرنسا لتحقيق مشروع خطير هو الحصول على اعتراف الدول باستقلال مصر.

عثرت على الأوراق الخاصة بهذا فى سجلات وزارتى الخارجية الإنجليزية والفرنسية بعد أن كدت أطرح الأمل فى العثور على تفكير مصرى أو غير مصرى فى حل المسألة المصرية بالاعتراف باستقلال مصر(١٥). وقد أشرت إلى هذه الأوراق فيما نشرت فى تاريخ هذا العهد من تاريخنا(١٦). ونشر المسيو دُوَن ترجمة وثيقة ونص أخرى من هذه الوثائق فى كتاب ضمن المجموعة التاريخية التى تنشرها الجمعية الجغرافية الملكية بفضل حضرة صاحب الجلالة الملك. وقد مهد المسيو دون للوثيقتين بمقدمة تحليلية لهما(١٧). وبدأت بعد العثور على هذه الأوراق فى تكوين رأى آخر فى يعقوب وفى طبيعة علاقاته بالفرنسيين.

«خدمات يعقوب للحكم الفرنسى من نوعين: خدمات من نوع ما كان يقوم به للفرنسيين جرجس جوهرى وملطى وأبو طاقية وغيرهم من كبارالأقباط أساسها السعى للنفع الشخصى من جهة والخلاص مما كانوا فيه من امتهان لا يرفعهم من حضيضه ما ملكوه من مال وجاه ولا يفارقهم مهما زادت حاجة الحكام إليهم. وخدمات من نوع آخر أساسها التمهيد لمستقبل البلاد السياسى بالتعضيد المؤقت للحكم الغربى».

ومن حقق النظر فى أحوال الشعوب الشرقية الخاضعة لحكم السلطان العثمانى أثناء القرن التاسع عشر يجد أن الطوائف الغير الإسلامية منها نظرت فى أول الأمر للتدخل الغربى فى شئونها بالعين التى نظر بها إليه يعقوب فى آخر القرن الثامن عشر.

«أول ما فى تأييد يعقوب للتدخل الغربى تخليص وطنه من حكم لا هو عثمانى ولا هو مملوكى وإنما هو مزيج من مساوىء الفوضى والعنف والإسراف ولا خير فيه للمحكومين ولا للحاكمين إذا اعتبرناهم دولة قائمة مستمرة». «فرأى يعقوب أن أى نوع من أنواع الحكم لا يمكن أن يكون أسوأ مما خضعت له مصر قبل قدوم بونابرت.

وثانى ما فى تأييده للاحتلال الفرنسى أنه أتاح فرصة الاتصال بالغرب والتعلم منه» ولا يقل عن هذا شأنًا ـ فى نظره ـ ما أتاحه هذا الاحتلال من إنشاء قوة حربية مصرية (قبطية فى ذلك العهد) مدربة على النظم العسكرية الغربية. «ونحن نسلم بأن هذه القوة كانت أداة من أدوات تثبيت الاحتلال. وبأنه لولا هذا ما سمحت السلطات الفرنسية بانشائها وتسليحها وتدريبها. غير أنه يلزمنا أن نذكر أيضًا أن الدلائل كلها كانت تدل على أن هذا الاحتلال لن يدوم»، وأن القائد كليبر نفسه الذى أذن بانشاء القوة القبطية كان لا يرى البقاء فى مصر وأنه لهذا حاول ـ كما نعلم ـ الجلاء عنها بعقد اتفاق العريش فى يناير ١٨٠٠ ذلك الاتفاق الذى كان له بعض العذر فى نقضه. وسنبين فى موضع آخر من هذه الرسالة أن بعض أصدقاء يعقوب من الفرنسيين اهتموا بمستقبل القوة الحربية القبطية أكثر مما اهتموا بحاضرها وأنهم كانوا يحبون أن يروها على حال من البأس تجعلها العنصر المرجح فى مستقبل مصر بعد جلاء الفرنسيين عنها.

كان وجود الفرقة القبطية إذن أول شرط أساسى يمكن رجلاً من أفراد الأمة المصرية يتبعه جند من أهل الفلاحة والصناعة من أن يكون له أثر من أحوال هذه الأمة إذا تركها الفرنسيون وعادت للعثمانيين والمماليك يتنازعونها ويعيثون فيها فسادًا. على الرغم من أنه لا ينتمى لأهل السيف من المماليك والعثمانيين، وبغيرهذه القوة يبقى المصريون حيثما كانوا بالأمس: الصبر على مضض أو الالتجاء لوساطة المشايخ أوالهياج الشعبى الذى لا يؤدى لتغيير جوهرى، والذى يدفعون هم ثمنه دون سواهم، وهنا الفرق الأكبر بين يعقوب وعمر مكرم. يعقوب يرمى إلى الاعتماد على القوة المدربة والسيد عمر يعتمد على الهياج الشعبى الذى تسهل إثارته ولا يسهل كبح جماحه والذى قد يصل سريعاً لتحقيق أغراض حاسمة ولكنه لا يصلح قاعدة للعمل السياسى الدائم المثمر. فكما أن العامة سريعة الهياج فى أوقات الخلل واضطراب الحكم فهى أيضًا سريعة القنوط خصوصاً إذا اصطدمت بجند مسلحين حتى لو كان أولئك الجند من نوع ما كان فى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر من ترك وألبانيين ومن ماثلهم.

وقد رأينا ما كان من أمر السيد عمر لما وجد أمامه محمد على لا خورشيد. هذا الفرق بين الأداة

التى اختارها يعقوب وتلك التى اختارها السيد عمر، ليس فى الواقع إلاّ مظهراً لفروق أعمق. إذ ما حاجة هذا السيد نقيب الأشراف إلى جيش، والرجل لا يتصور مصر إلا خاضعة لحكم المماليك تحت سيادة السلطان ولا يرمى إلى أبعد من أن يملى إرادته على القائمين بالأمر فيها مدافعاً عن أفراد الرعية كلما زاد الفساد؟ وهو لهذا يكفيه قيام أهل القاهرة واجتماع كلمة العلماء. «أما يعقوب فله شأن آخر. إذ أنه لا يريد عودة المماليك والعثمانيين وإنما يعمل على أن تكون لفئة من المصريين يد فى تقرير مصير البلاد بدلاً من أن يبقى حظهم كما كان فى الحوادث الماضية مقصوراً على التفرج أو الاشتراك فى نهب المهزومين».

ذكر الجبرتى حوادث المحرم سنة ١٢١٨ فى كلامه عن اشتباك الألبانيين بأتراك الوالى العثمانى خسرو ـ ذلك الاشتباك الذى انتهى آخر الأمر بولاية محمد على، ذكر أن الألبانيين كانوا يقولوا للعامة من أهل القاهرة: «نحن مع بعضنا وأنتم رعية فلا علاقة لكم بنا». أنتم رعية. تخضعون لمن ينتصر منا. هذا كل ما لكم!

أراد يعقوب أن يكون الأمر غير ذلك. وعول على أن تكون القوة الحربية المصرية الجديدة مدربة على النظم الغربية. فكان سباقا إلى تفهم الدرس الذى ألقاه انتصار الفرنسيين على المماليك. أو قل إلى إدراك ما أدركه محمد على بعد قليل من أن سر انتصار الغربيين فى جودة نظمهم وبخاصة نظمهم العسكرية. فسرق البرق من الآلهة وكان له ما كان.

كيف كان للاتصال بالفرنسيين هذا الأثر كله فى نفس فرد واحد من أفراد الأمة فى آخر القرن الثامن عشر؟ ذلك لأن يعقوب كان على استعداد لتعلم دروس الحملة الفرنسية. وقد ثبت من القليل الذى وصل إلى علمنا من أخباره قبل ١٧٩٨ أن يعقوب لم يكن كغيره من المبرزين من أبناء طائفته فى ذلك العهد وأن معاصريه منهم أحسوا باختلافه عنهم، وأثبتوا عليه شذوذه عن مألوفهم، ورواه عنهم المعمرون لصاحب تاريخ الأمة القبطية يعقوب بك نخله رفيلة المولود فى غضون سنة ١٨٤٧ والمتوفى فى أبريل ١٩٠٥.

قال صاحب هذا التاريخ: «يظهر أن يعقوب لم يحترف بحرفة الكتاب فى الدواوين مثل باقى عظماء أبناء أمته، بل كان من أصحاب الأملا والتجارة[١٨]» وأنه سار فى مسلكه أزاء الحكم الفرنسى «فى خطة تخالف ما كان عليه أبناء جنسه من حيث الهدوء والسكينة والصبر والاحتمال وفداء أرواحهم وأعراضهم فى بعض الأحوال ببذل المال والعطايا فانه فضلاً عن مخالفته لهم فى الزى والحركات اتخذ له امرأة من غير جنسه بطريقة غير شرعية [١٩] على أن رجال الدين ولا سيما البطريرك لم يكونوا راضين عن تصرفاته وأحواله» وقد سمع صاحب التاريخ من بعض شيوخ الأقباط المسنين أن البطريرك «نصحه المرات العديدة بالعدول عن هذه الخطة وأن يعيش كسائر إخوانه فلم يقبل وعاوده بالنصيحة مرة أخرى فجاوبه جوابًا عنيفاً فسخط عليه. وسمع أيضًا ما كان من تجرىء يعقوب على الدخول فى

الكنيسة مرة راكباً جواده ورافعاً سلاحه وطلبه أن يناول السر المقدس وهو على ظهر جواده معتذراً عن هذه الجسارة بأن من كان جندياً مثله يلزم أن يكون على الدوام فى أهبة واستعداد».

«رفض يعقوب إذن أن يلتزم الهدوء والصبر والاحتمال وفداء النفس والعرض ببذل المال وأحب أن يكون رجل حرب». وقد ثبت للتاريخ ميله أيام شبابه لأعمال القتال والفروسية على طريقة المماليك واشترك أيام أن كان يدبر التزام سليمان بك الأغا فى الصعيد فى بعض حروب المماليك ضد جنود القبطان باشا حسن الذى نزل بمصر فى ١٧٨٦ لتثبيت الحكم العثمانى. واهتم بدراسة بعض تلك الحروب وأتقن أساليب المماليك فى ركوب الخيل واستعمال السيف.

ثم جاء الفرنسيون وعين لمرافقة الجنرال ديزيه فى فتح الصعيد وهنا أيضاً رفض يعقوب أن يقصر همه على ما عُيِّن له من تدبير المال والغذاء ونقل الرسائل بل راقب سير الحرب، وحارب مرة من المرات تحت عين ديزيه نفسه على رأس طائفة من الفرسان الفرنسيين جماعة من المماليك وأبلى بلاءً حسناً حمل قائده على تقليده سيفًا ولم يكن المعلمون الأقباط يقلدون السيوف بل يكسون الفراء أو ينفحون بالمال.

وتعلق يعقوب بديزيه ـ السلطان العادل كما سماه أهل الصعيد ـ تعلقًا خالصًا وكان لهذا الاتصال أثر كبير فى تكوين يعقوب جديد. قال بليار ـ وكان من ضباط ديزيه فى حملة الصعيد ـ يصف فترة من الفترات التى انتهزها القائد لا راحة عسكره: «أقمنا فى سيوط وكنا نجتمع كل مساء فى منزل ديزيه، وكانت أحاديثنا تدور حول موضوعات شتى. وكان كل منا يدلى برأى أو آراء فى السلم والحرب وفى النظم والتواريخ».

ولابد أن يعقوب استمع لكل ما كان يدور وفهم القدر الذى استطاع أن يفهمه ولابد أن ما استطاع أن يسمع أو يفهم أثار شتى الأفكار فى نفسه وكشف له عن عالم من المعانى غير الذى نشأ فيه وعرفه. ويعجز يعقوب عن الإفصاح عما يجول فى خاطره ويقيض الله له رجلاً من أغرب أهل عصره يتولى عنه التعبير. ذلك الرجل هو الفارس ثيودور لاسكاريس دى فنتميل.

رددت ذكر لاسكاريس هذا كتب الرحلات. وأذاع أمره لامارتين فى قصة «فتح الله الصغير بين بنى الصحراء». واقترن اسمه أثناء إقامته بلبنان باسم سيدة انجليزية نبيلة لا تقل عنه غرابة أطوار وهى ليدى هستر ستانهوب حفيدة الوزير الكبير شاتهام وربة بيت خالها وليم بت مدة وزارته. تركت انجلترة وقضت باقى أيامها فى لبنان. ولا يعرف التاريخ لِمَ كان ذلك. أكانت هجرة نفس أبية إلى حيث الحرية التامة؟ أم كان ذلك لمس ظهر فيها شذوذًا وتجلى فى جدها وخالها عظمةً وزعامة؟ ومهما يكن من الأمر فقد تركها التاريخ حتى الآن لأهل القصص.

وكاد يترك لاسكاريس أيضًا للمصير نفسه. وقد تمنى باريس لوتولى بيير بنوا كتابة سيرته كما يكتب بنوا السير. ولكن أنقذه للتاريخ محقق فاضل هو المسيو أوريان فكتب فصلاً ممتعاً تتبع فيه

هذه الحياة الضالة فى البر والبحر،فى الغرب والشرق. وليس هذا بالأمر اليسير.

ثيودور لاسكاريس من بيت إيطالى نبيل يتصل قديمًا بقياصرة بيزنطة. دخل هو وأخوه فى سلك فرسان القديس يوحنا الذين كانوا يحكمون جزر مالطة إلى أن انتزعها بونابرت منهم فى طريقه إلى مصر ١٧٩٨. درس فى صباه الموسيقى وفنون العمارة وقرأ كل ما استطاع أن يقرأ وغذى بهذه القراءات خيالاً قوياً. وكان ذا نفس أبية تواقة للعلا يريد أن يخلد اسمًا خليقاً بسليل القياصرة. ولكن حظه كان الخمول والفقر والتنقل من مكان لآخر. وانتهى به المطاف إلى مصر يكسب قوته بتعليم الفرنسيه لإسماعيل ابن محمد على فاتح السودان ثم الموت فى القاهرة فى سنة ١٨١٧ فى ظروف مريبة، وقدر له أن يموت كما بدأ وكما وصف نفسه. «صاحب مشروعات».

تحقيق الكثير من هذه المشروعات فيما بعد على أيدى أفراد وحكومات. ولكنها فى أيام صاحبها كانت سابقة لأوانها. وكان شذوذ لاسكاريس فى أطواره ـ شذوذ ظهر فى أخيه جنوناً ـ وتعدد المشروعات وتنوعها مما لا يبعث على الثقة فيه. ومما يعزينا أنه وجد بعض السلوى أو السعادة فى الخلو إلى نفسه وإلى مشروعاته. وقد جاء فى كلام له: «كل إنسان فى هذا العالم يسلك الطريق الذى هيأه له القدر. واحد من الناس يفتح الممالك ويدوخ البلدان، وآخر يصنع النعال. وبعض الناس ينشئون الدول ويشرعون لها الشرائع، والبعض منتهى جهدهم أن يكونوا آباء أطفال. أما أنا فأحسن صنع المشروبات. أخرج نفسى من عالم الحس وأعمل فى مشروعاتى وأترك لخيالى التغلب على ما يعترضها من العقبات. ما أجمل الخيال! أجد فيه ما أظنه السعادة».

رجل هذا حاله تضيق به مالطة ويضيق ذرعاً بالفرسان. تركها وتبع بونابرت إلى مصر. حيث تقلد بعض المناصب الإدارية. تعلم العربية وتزوج من قوقازية من جوارى أحد الأمراء وأطلق لخياله العنان فى هذا الوادى التاريخى الرحيب.

وفى مصر فكر وكتب فى طرق حكمها. ودرس فكرة إقامة قناطر حاجزة عند تفرع النيل فى رأس الدلتا. وعندها يقيم عاصمة البلاد تحت اسم مينو پوليس إجلالاً للجنرال مينو، يحميها الماء من جوانب ثلاثة وتجتذب إليها خيرات الوادى من منابع النيل. هذا الاجتذاب والتقدم نحو منابع النيل من مشروعات لاسكاريس العزيزة. ألا يمكن أن نجد مغزًى خاصاً فى أن إسماعيل فاتح السودان كان تلميذاً للاسكاريس قبيل الفتح؟ وقد ثبت أن المعلم صرف فى بث هذه الأفكار وما يماثلها فى تلميذه أكثر مما صرف فى تعليمه تصريف الأفعال.

ورأى لاسكاريس أن مصر يجب أن تستقل وأنها خليقة بالاستقلال بحكم موقعها وتاريخها ومواردها. ورأى أن الحكومة الفرنسية يجب أن تعمل على تحقيق استقلال مصر إذا ما قررت الجلاء عنها بأن تقوى الفرقة المصرية تحت قيادة يعقوب وأن تعدها بحيث تكون العنصر المرجح فى تقاتل العثمانيين والمماليك على تملك هذه البلاد. وأشار أيضاً بأن يترك الفرنسيون إذاما اضطروا

للجلاء ذخيرة حربية وقوة فرنسية يظهرون أنها عاصية ترفض الانسحاب مع بقية الجيش ويدعونها تنسحب نحو الأقاليم النوبية تفتحها وتهبط منها على مصر عند اللزوم.

وقد اجتذب لاسكاريس إلى مشروعه هذا فرنسيين آخرين سجل التاريخ من أسمائهم ما رسل المستشرق والضابط ديبا حاكم القلعة. واتصل بالمصرى يعقوب وجعل فرقته القبطية قاعدة الاستقلال. وحاول أن يقنع مينو بكل هذا ولكنه لم يقتنع. إذ حالت دون اقتناعه قلة ثقته بالفارس وبالأقباط عامة ويعقوب خاصة وسمح لنفسه فى أكثر من مرة بمداعبة لاسكاريس والسخر منه.

كتب له: «هل تذكر أيها المواطن قصة ابن كريبيون؟ أراد الابن أن ينشىء ديناً جديداً. فرفع الأب صليباً وقال انظر يا بنى ماذا فعلوا به».

ولكن مينو مضى فى الاستفادة من لاسكاريس ويعقوب: الأول لاتصاله بالمصريين والثانى لمهارته المالية وجنده القبطى.

وجاء وقت الجلاء وسلمت الحامية الفرنسية المرابطة فى القاهرة تحت قيادة الجنرال بليار المدينة للإنجليز والعثمانيين. وكان من شروط التسليم أن يكون لأى مصرى أراد حق الخروج مع الجيش الفرنسى دون أن يتعرض أحد ممن خدم السلطات الفرنسية وآثر أن يبقى فى مصر بعد زوال أمرها.

وأرسل إبراهيم بك أماناً للأقباط الذين ينطبق عليهم هذا الشرط الثانى فخرجوا إليه وسلموا وعادوا إلى دورهم. أما يعقوب فقد صمم على الرحيل مع الفرنسيين والظاهر أنه حاول أن يستصحب عدداً كبيراً من شبان القبط الذين كانوا تحت قيادته. فقد جاء فى الجبرتى فى وقائع صفر ١٢١٦: «أما يعقوب فانه خرج بمتاعه وعازقه (كذا) وعدى إلى الروضة وكذلك جمع إليه عسكر القبط وهرب الكثير منهم واختفى واجتمعت نساؤهم وأهلهم وذهبوا إلى قائمقام (أى بليار) وبكوا وولولوا وراجعوه فى إبقائهم عند عيالهم وأولادهم فانهم فقراء وأصحاب مصانع ما بين نجار وبناء وصائغ وغير ذلك فوعدهم بأنه يرسل إلى يعقوب أن لا يقهر منهم من لا يريد الذهاب والسفر معه». «ولم يخرج معه إلا أهله، زوجته مريم نعمة الله وبنته مريم وأخوه حنين وابنا أخته ولقبهما سيداروس. وكان فى الخارجين بعض الأقباط وجماعة من المترجمين وبعض مسلمين ممن خاف على نفسه كعبد العال الأغا الذى طلق زوجته وباع متاعه وفراشه وما ثقل عليه حملة. وخرج أيضاً كثير من نصارى الشوام والأروام مثل يني وبرطلمى (فرط الرمان) وغيرهما.

لم يبق يعقوب بمصر يعمل فى تقرير مصيرها كما حسب. وليس أمامنا إلا أن نعلل ذلك بأسباب لا بأس بها. أولها ما رآه من تشتت الجند القبطى وعزم بنائيهم ونجاريهم على ترك الجندية والعودة لعيالهم. ثانيها أن القيادة الفرنسية لم تُعد شيئًا ما لمستقبل الفرقة القبطية، ولا لمستقبَل النفوذ الفرنسى فى مصر. بل كان كل همها الانسحاب وتنظيم هذا الانسحاب. وربما كان سبب هذا الإهمال ما حدث من تقسيم الجيش الفرنسى إلى

قسمين. قسم يدافع عن القاهرة تحت قيادة بليار وآخر عن الاسكندرية تحت القائد العام مينو. ثم أصبح الاتصال بين القسمين صعباً. وسلم بليار القاهرة فى اتفاق عقده مع الأعداء. وأعقبه تسليم منيو. أما ثالث الأسباب فهو الهجرة لتحقيق مشروع خطير: السعى لدى الحكومات الأوربية لتحقيق استقلال مصر. ولا أظن أن خروج يعقوب كان للخلاص بنفسه فمثله ممن يمكنهم تصفية الحساب الماضى مع العثمانيين المنتصرين. وقد حاول القبطان باشا حسين أن يغريه بالبقاء فى مصر ووعده ومناه ولكنه رفض وآثر الرحيل للعمل فى ميدان جديد.

ركب يعقوب السفينة الحربية الإنجليزية پلاس وربانها أدموندس. وكان على ظهرها أيضاً الفارس لاسكاريس. وقد عرف أدموندس قدر يعقوب وأنه زعيم فى عشيرته وأن الفرنسيين لقبوه «جنرالاً» حرصًا على نيل تأييده فأحسن لقاءه مما دعا يعقوب للتحدث معه فى شئون مصر وقال له أنه يعتقد أن حكومة العثمانيين فى مصر أسوأ أنواع الحكم وأنه لم يؤيد الاحتلال الفرنسى إلا لتقليل ما حاق بمواطنيه من أذى وأنه صدق ما أدعاه الفرنسيون من أن دولتهم أقوى الدول الأروبية ولم يكن يدرك إذ ذاك مدى القوة البحرية الإنجليزية. ثم قال أنه يرجو أن يسعى لدى الحكومات الأروبية لتحقيق استقلال بلاده وأن هجرته لأروبا قد تنفع فى هذا السبيل، على أنه يعلم أن ادراك الغاية مستحيل بلا موافقة الحكومة الإنجليزية.

هذا مجمل ما قرره يعقوب لأدموندس وزاد عليه لاسكاريس وكان يترجم بين الرجلين أن يعقوب على رأس وفد مصرى اختاره أعيانها ليفاوض الحكومات فى أمر الاستقلال.

بعد هذا الحديث اشتد المرض على يعقوب وتوفى فى السادس عشر من أغسطس سنة ١٨٠١ والسفينة على مقربة من سواحل الأناضول الجنوبية الغربية وقد راعى أدموندس مقامه ورجاء أهله فلم يلق جثته فى البحر بل وضعها فى دن من «الروم» حفظها حتى مرسيليا حيث دفنت. وفى إحدى مقابرها يرقد الآن الجنرال يعقوب فى قبر معروف».

ولم يكن موته نهاية الأمر. فقد قرر لاسكاريس أن الوفد باق رغم موت رئيسه وأعد مذكرة مفصلة بالموضوعات التى تحدث فيها يعقوب مع أدموندس وسلمها فى مرسيليا للذلك الإنجليزى لتبليغها لحكومته. فتعهد أدموندس بذلك وبالمحافظة على سر هذه الأحاديث عن نفسه وعن حكومته.

ما رأى أدموندس فى كل هذا؟ قال أولاً أنه لا يملك تحديد مدى التفويض الذى تكلم عنه لاسكاريس وثانياً أنه لا يدرى إن كان عضواً فى الوفد أو سكرتيراً مترجمًا له. وأنه على كل حال لم يستطع أن يصفه إلا بأنه رجل «خيالى».

قام أدموندس بما وعد به فأرسل لحكومته مذكرة استقلال مصر التى أعدها لاسكاريس.

بدأ الكاتب بإهداء التحية للورد الأول للبحرية الإنجليزية (الموجه إليه الخطاب) وتذكيره بأن اهتمامه بما تضمنته المذكرة فيه نفع دولته وأن ما قد يقوم به لتحقيق استقلال مصر أجمل ما يجدر بلورد إنجليزى أن يسعى له. ثم أطنب فى وصف

عظم هذا المشروع ـ تحقيق استقلال مصر. وأن هذا الاستقلال يبدد سحب الجهل التى تكاثفت على هذا الوادى الذائع الصيت حيث مهد الحضارة، فيه تعلم الإغريق وعن الإغريق ورثت أوربا علومها وفنونها واستنارة أهلها. ألا يثير ذلك فى نفوس الغربيين شيئًا من عرفان الجميل فيردوا لمصر الاستقلال الذى به تستعيد ما كان لها؟

ثم بين لاسكاريس أن مصر المستقلة لن تضر أحدًا. وأن استقلالها وقد أصبحت موضوع أطماع [illegible] !! مسألة المصرية. تلك المسألة التى أثارتها الحملة الفرنسية والتى يحتم انهيار بناء الدولة العثمانية مواجهتها. وذكر أن مراد بك قبيل موته أدرك مدى هذا التطور الأخير فى تاريخ بلاده وعبرعنه فى قوله «أن مصر قد عرفها كفار الغرب فلن ينفكوا عن السعى للاستيلاء عليها».

وتناول أيضاً فى مذكرته بحث ما تصيبه الدولة الإنجليزية من نفع فى تحقيق هذا المشروع فأكد صداقة المصريين للأمة الإنجليزية بعد أن عرفوا جنودها وبعد أن خبروا الحكم الفرنسى وأن سيدة البحار لابد وأن تسيطر بنفوذها على مصر وتكون أكبر من يستفيد من موقعها الجغرافى.

ولم يغفل لاسكاريس الكلام عن أمرين جوهريين. وقد جاء كلامه عنهما أضعف ما فى مذكراته: الأول نوع الحكومة المصرية المستقلة، الثانى ما تتخذه هذه الحكومة للدفاع عن كيانها. أما عن نوع الحكومة فأكتفى بعد مراوغة كلامية بالقول بأنها ستكون وطنية عادلة حازمة وانها بذلك تنال احترام الأمة وطاعته وحبها كما أحب أهل الصعيد فى الماضى القريب حكم العربى همام وكان عادلاً حازماً.

«أما عن وسائل الدفاع فنجده يقرر أن الحكومة الوطنية لن تقوى على صد إعتداء أوربى إلا بعد مضى زمن طويل ولكنها تستطيع أن تصد الترك وتسحق المماليك بجيشها الوطنى تشد أزره قوة حربية أوربية ويبذل المال لرجال الباب العالى».

وتؤكد المذكرة فى النهاية أن الفكرة الاستقلالية لها أنصار فى مصر وأن هؤلاء الأنصار يخفونها حذر الموت، ويطلب صاحب المذكرة حمايتهم من اضطهاد العثمانيين إذا ما رفضت الدول إنشاء دولة مصرية مستقلة.

«أما عن خطة «الوفد المصرى» فى القريب فانها ستكون السعى لدى الحكومة الفرنسية لاقناعها بقبول قاعدة الاستقلال فى مفاوضاتها مع الحكومة الإنجليزية على مصر. ويرجو لاسكاريس أن لا يكون مصدر الاقتراح الفرنسى مما يحمل الحكومة الإنجليزية على رفضه حذر دسيسة سياسية فرنسية. ويطلب فى النهاية أن تكون مخابرات انجلترا مع الوفد شفوية وعن طريق الكونت أنطون كاسيس المقيم فى تريستا[٢٠]».

ونجد لاسكاريس فعلا يقدم للقنصل الأول بونابرت مذكرة موقعًا عليها من «نمر أفندى» بالنيابة عن الوفد المصرى وهذه المذكرة خالية طبعاً من التعريض بالحكم الفرنسى ومن تفضيل المصريين للإنجليز ذلك التفضيل الوارد فى المذكرة لانجلترا على أنه تتفق معها فى الغاية الاستقلالية

وتطلب تحقيقها باسم التاريخ والإنسانية ومجد بونابرت».

وأردف هذه المذكرة بأخرى لوزير خارجية فرنسا ـ تاليران ـ يقرر فيها الغرض الأسمى ويعتذر عن الإجمال تاركًا التفصيل إلى أن يستقبلهم الوزير فى باريس إذ العرب يجيدون الكلام أكثر مما يجيدون الكتابة وطلب من الوزير أن يستقبلهم بزيهم الشرقى إذ أن المسلمين منهم يعز عليهم إبدال غيره به، فضلاً عن أن هذا الزى يثير فى نفس بونابرت ذكرى فتوحه ويعرف من لم يرى مصر من الفرنسيين بالشرق وأهله.

* * *

لا اللورد الأول للبحرية الإنجليزية ولا القنصل الأول ولا وزير الخارجية الفرنسية اهتم بما فى هذه المذكرات بل أودعوها سجلات الحكومة.

وفى «مقدمات الصلح» بين فرنسا وانجلترة اتفق على إعادة مصر للدولة العثمانية. وأدمج هذا الاتفاق فى معاهدة الصلح النهائية: معاهدة أميان. وفى سياسة الحكومتين قبل أميان وبعدها لم يتعد اهتمامهما بأحوال مصر ونوع حكومتها ما تعلق منها بعلاقة الدولة العثمانية بالمماليك. وحتى فى هذا لم يكن الاهتمام بها إلا من حيث تأثيرها فى تسهيل ـ أو منع ـ وقوع مصر فى حكم انجلترة أو فى حكم فرنسا لا من حيث تأثيرها فى رفاهية أو سعادة الشعب المصرى.

لم يكن إذن لهذه المذكرات أى أثر واقعى. ولا نجد فى الأوراق ما يدل على وجود تفويض لوفد مصرى. وعلى فرض وجوده فمن الثابت أنه لم يشترك فى منحه أى شيخ من العلماء وإلا لوجدنا فى الجبرتى ما يدل عليه. وليس هناك أيضًا ما يدل على حصول يعقوب على تفويض من عظماء الأقباط فقط. إذ أن سيرتهم لا تحملنا على الاعتقاد بأن الفكرة الاستقلالية جالت فى أذهانهم. وإنما التفويض الوحيد الثابت حصول يعقوب عليه كان لمطالبة الحكومة الفرنسية برد مبلغ من المال أقرضه هو وجرجس جوهرى وآخرون للجنرال مينو[٢١].

يحق لنا بعد أن هذا أن نقرر أن كلمة الوفد المصرى والأدلة التاريخية والفلسفية من أفكار لاسكاريس. وأن يعقوب لم يقرر إلاّ الفكرة الاستقلالية.

رغم هذا لا تخلو هذه المذكرات من شبه لما قرره المصريون وما أعلنوه فى أيام أقرب إلينا من سنة ١٨٠١ : فى اتباع طريق المفاوضة للحصول على الاستقلال وفى توطيده بالاعتراف الدولى، وفى تبرير طلب الاستقلال بالتنويه بمجد مصر، وبأن عظمة الماضى تبعث على الأمل فى عظمة المستقبل، وبأن مصر بها من الموارد فى المال والرجال ما يكفل قيام الدولة المستقلة، وأخيرًا بأن موقعها الجغرافى يجعلها موضع التنافس وأن الدولة التى تسيطر عليها تصبح من القوة بحيث تتحكم فى مصالح الدول الأخرى الحيوية وخير الجميع فى استقلالها.

* * *

كان نصيب مشروع ١٨٠١ الإهمال. وكذلك كان حظ أصحابه.

وقد عرفنا مآل يعقوب، أما أصحابه فقد عاد نفر منهم لوطنهم بعد قليل. وظل منهم فى أوروبا

آخرون قامت بينهم القضايا والدعاوى ووقع أكثرهم فى الفقر والفاقة فأجرت عليهم الحكومة الفرنسية معاشًا مدة طويلة وانتهى أمرهم بالاندماج فى الفرنسيين. ولم يكن من أثر ثابت لأحد منهم إلا للويس بقطر صاحب القاموس الفرنسى العربى»(٢٢).

وظل لاسكارى يضرب فى بلاد الشرق سنين. يجود ذهنه بالمشروع تلو المشروع أحياناً لإصلاح الزراعة فى بلاد القوقاز ولبنان وأحياناً لتدبير مستقبل (جبل لبنان) الجبل السياسى أو لتسوية مشكلة الوهابية. وهو أينما حل يحوطه جو من الظنون والارتياب من جانب الرجال الرسميين وحظه الحزن والفاقة.، إلى أن هبط مصر يرتزق من تعليم الفرنسيا لإسماعيل بن محمد على وبقى كذلك إلى أن مات فى ١٨١٧. وانتهى كما بدأ «صاحب مشروعات» إلا أنه على الرغم من ذلك يحق علينا أن نحيى ذكرى من عرف كيف يجيد الكلام فى استقلال مصر وكيف يبنيه على مبرر الاستقلال الحقيقى: الكرامة الإنسانية. فكان بذلك معبراً بلغة العصر الحاضر عما جاش فى نفس المصرى يعقوب.

كذلك كانت بداية الفكرة الاستقلالية، أما تاريخها فهو تاريخ مصر من أيام محمد على حتى اليوم.



* على اليمين الفارس لاسكارى وعلى اليسار الجنرال يعقوب المصرى.

الهوامش

(١) الجبرتى: حوادث المحرم ١٢١٣.

(٢) الجبرتى. حوادث المحرم ١٢١٣.

(٣) انظر مثلا الجبرتى: حوادث المحرم ١٢١٥.

(٤) الجبرتى: فى حوادث شعبان ١٢١٣.

(٥) الجبرتى: فى حوادث صفر ١٢٢٠.

(٦) الجبرتى: فى حوادث جمادى الأولى والثانية سنة ١٢٢٤.

(٧) ترجمة المحروقى فى الجبرتى جزء خامس سنة ١٢١٩هـ.

(٨) الجبرتى: حوادث شوال وذى القعدة ١٢١٤.

(٩) الجبرتى: حوادث شوال وذى القعدة ١٢١٤.

(١٠) هناك ترجمة ليعقوب فى كتاب مشاهير الأقباط تأليف رمزى تادرس (جزء ثالث ص ١٠ ـ ١٦). وفيها أغلاط. أهمها ما جاء عن موته ومحل دفنه. وليس فى هذه الترجمة تقدير حقيقى لسياسة يعقوب وأرائه وموقفه عند الجلاء الفرنسى ـ وهناك أيضًا ترجمة أخرى فى كتاب تاريخ الأمة القبطية تأليف يعقوب بك نخلة رفيله (ص ص ٣٨٩ ـ ٣٩١) وهذه الترجمة أهم من السابقة إذ سجل فيها المؤلف ما سمعه عن يعقوب من المعمرين من الأقباط. وأخيرًا نشر فى سنة ١٩٢١ المسيو Gaston Homsy وهو فرنسى يتصل نسبة بيعقوب مؤلفا باللغة الفرنسية اسمه "Le gén´ral Jacob et l'expédition de Bonaparte en Egypte وهذا الكتاب رغم عيوب خطيرة فى ترتيبه واستنتاجاته لا يخلو من فوائد. إذ جمع فيه المؤلف الكثير مما جاء عن يعقوب فى مؤلفات أهل الحملة ونقل عن السجلات الرسمية فى مرسيليا وثائق مختلفة خاصة بأسرة الجنرال. ومن النقط الهامة التى حققها المسيو حمصى تاريخ موت يعقوب وموضع قبره فى مرسيليا والسيف الذى قلده إياه الجنرال Desaix. وعن كتاب المسيو Homsy نقل أعضاء لجنة التاريخ القبطى فى «تاريخ الأمة القبطية» (ص ١٦٩ ـ ١٧١) ما كتبوه عن يعقوب ولا حاجة بنا للقول أن المسيو حمصى لا يعرف شيئًا عن الوثائق السياسية الخاصة بمشروع استقلال مصر فى سنة ١٨٠١.

أما عن اسم يعقوب فقد اكتفى مؤلفو الحملة الفرنسية المعاصرون بذكر اسمه الأول فقط ولكنه يرد يعقوب حنا "Jacob Anna" فى الوثائق التى استخرجها حمصى من سجلات مرسيليا ـ راجع شهادة وفاة فى حمصى ص ١٤٠ ـ ١٤١.

(١١) تجد إشارات «لمناورات مالية» من جانب يعقوب فى خطاب من لاسكاريس للجنرال مينو نشره مسيو أوريان فى رسالته عن لاسكاريس فى مجلة "Mercure de France" بتاريخ ١٥ يونيه ١٩٢٤ ص ٥٨٧.

(١٢) الجبرتى فى حوادث ذى الحجة سنة ١٢١٤

(١٣) الجبرتى فى حوادث ذى الحجة سنة ١٢١٤.

(١٤) الجبرتى فى حوادث ذى الحجة سنة ١٢١٤.

(١٥) هذه الوثائق أربعة. الأولى كتاب بالإنجليزية من القبطان أدموندس للورد الأول للبحرية الإنجليزية مؤرخ عن جزيرة منورقه فى ٤ أكتوبر ١٨٠١ يتضمن أحاديثه مع يعقوب فى الطريق إلى فرنسا ـ الثانية مذكرة مشروع استقلال مصر مكتوبة بالفرنسية وملحقة بالكتاب المذكور بقلم الفارس لاسكاريس. والوثيقتان فى أوراق وزارة الخارجية الإنجليزية فى المراسلات الخاصة بالدولة العثمانية تحت الرقم الآتى.

F.O. 78. Turkey 33 (September - December 1801)

والوثيقة الثالثة كتاب من لاسكاريس موقع عليه بتوقيع نمر أفندى للقنصل الأول بتاريخ أول فنديمير من السنة العاشرة (الموافقة ٢٣ سبتمبر ١٨٠١) و١٨ صفر ١٢١٦ (وصحة هذا ١٥ جمادى الأولى) والرابعة بنفس التوقيع والتاريخ لتليران وزير الخارجية والوثيقتان الثالثة والرابعة فى سجل المراسلات الخاصة بالدولة العثمانية فى أوراق وزارة الخارجية الفرنسية فى المجلد رقم ٢٠٣ وقد نقلهما المسيو أوريان فى مقالة عن لاسكاريس فى مجلة Mercure de France بتاريخ ١٥ يونيه ١٩٢٤ ص ٥٩٣ ـ ٥٩٥ وقد حرف المسيو أوريان اسم الموقع إلى "Hemir" .

(١٦) S. Ghorbal: "The Beginnings of the Egyptian Question", P. 210.

(١٧) G.Douin: "L'Egypte Independandte". Le Caire, 1924.

(١٨) الثابت غير هذا. وهو أنه عمل فى تدبير التزام سليمان بك الأغا فى الوجه القبلى راجع:

Homsy: Le général Jacob, P17.

(١٩) تزوج يعقوب مرتين. كانت زوجته الأولى قريبة له اسمها مختارة الطويل وبعد موتها تزوج من مريم بنت نعمة الله وأصلها من حلب وكان هذا فى سنة ١٧٨٢ ـ والظاهر أن هذا الزواج لم تتم إجراءاته الدينية إلا فى سنة ١٧٩١ على يد البطريرك ـ وقد مات يعقوب عن زوجته هذه وبنت ولدت له فى ١٧٩٣ ـ والظاهر أن الأرملة لم تملك وثيقة بزواجها فحصلت فى سنة ١٨١٨ على وثيقة من مسجلى القول بمرسيليا به. راجع.

Homsy: Le général Jacob, PP. 30 - 32.

(٢٠) تحت الاسم ولقب النبيل الغربيين يستتر مصرى قبطى اسمه أنطون قسيس. عمل فى إدارة الجمارك فى الاسكندرية أيام المماليك. ولما أرادت حكومة الأمبراطورية الرومانية المقدسة (دولة النمسا) أن تفتح طريق مصر لتجارة الهند لمصلحتها اجتذبت لتحقيق ذلك أنطون قسيس هذا فمنحته حمايتها وأنعم عليه الأمبراطور يوسف الثانى بلقبى بارون وكونت فى الأمبراطورية. ولما فشل هذا المشروع النمساوى وعلا نفوذ أعدائه غادر الكونت كأسيس مصر واتخذ تريستا موطنًا له وكان هذا فى ١٧٨٤.

(٢١) اشترك فى هذا القرض يعقوب وجرجس جوهرى وأنطون أبو طاقية فلتاوس وملطى وقبيل رحيل يعقوب خوله شركاؤه مفاوضة الحكومة الفرنسية فى فرنسا فى رد مالهم وحال موت يعقوب دون ذلك. ثم قام حفيد لأنطون أبى طاقية بالمطالبة وذهب بنفسه إلى باريس وكان ذلك أيام نابليون الثالث. ورفضت حكومة الامبراطورية أن تعترف بصحة الدين وسوت المسألة بأن صرفت لحفيد أبى طاقية ما تكلفه من نفقة فى المطالبة (٤٥٠٠ ليرة فرنسية) ومنحته التبعية الفرنسية (رمزى تادرس: الأقباط فى القرن العشرين جزء رابع صفحة ٩٦).

(٢٢) تجد عريضة استجداء من المهاجرين المصريين فى أوراق وزارة الخارجية الفرنسية فى السجل الخاص بالدولة العثمانية تحت هذا الرقم Turquie, "Supplements", Vol. 203 . تجد مثالا من تقاضيهم فى النزاع بين أرملة يعقوب وأخيه حنين على تركة الجنرال فى Homsy,

Op. cit. P. 70. وصل خبر هذا النزاع إلى مصر. (الجبرتي في حوادث رجب سنة ١٢١٨) أما عن المعاش الذى أجرته الحكومة الفرنسية على المهاجرين المصريين فالظاهر أنه استمر يجرى على ورثتهم. من ذلك نجد جبريل إبراهيم وهو حفيد أخت يعقوب يتمتع بمعاشه حتى موته في (Homsy, Op. cit. p.67).

ومما يصح ذكره أيضاً عن المهاجرين المصريين أن الرحالة الهندى المسلم الفارسي الثقافة ميرزا أبا طالب خان أثناء سفره من باريس إلى مرسيليا في عودته من انجلترا إلى وطنه من طريق القسطنطينية والعراق التقى في عربة السفر بحسناء مصرية مسيحية ذاهبة إلى مرسيليا وأعجب بشجاعتها فانه لما حاول بعض المسافرين مداعبتها رغماً عنها أوسعتهم سبًا بالعربية. وحال أبو طالب بينهم وبينها ولما قابلته في مرسيليا سهلت عليه صعاب سفره وكان هذا في ١٨٠٢ (انظر Mirza Abu Talib Khan: Voyage en Europe etc. Traduction fran çaise, Paris 1831. t II. 69 - 70.

أما عن لويس بقطر فكانت سنة وقت نزول الفرنسيين نحو الخامسة عشرة. والظاهر أنه ابتدأ دراسة الفرنسية إذ ذاك وعمل في الترجمة أثناء الاحتلال الفرنسي. ثم هاجر من مصر عند نهاية الاحتلال الفرنسي وليس هناك ما يثبت أنه ابن أخت يعقوب. وأقام بقطر في مرسيليا حتى سنة ١٨١٢ مشتغلا بدراسة الفرنسية وفي تلك السنة استقدمه وزير الحربية لباريس واشتغل أول الأمر بترجمة بعض الوثائق العربية الخاصة بالحملة إلى اللغة الفرنسية وعاون في تحقيق الأسماء العربية اللازمة للخرط الجغرافية المنشورة في كتاب وصف مصر. وكان أثناء ذلك يعد قاموسه الفرنسي العربي. وفي سنة ١٨٢١ عين لتدريس العربية العامية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس ومات في نفس السنة وهو في السابعة والثلاثين وقد تمكن من تجهيز القاموس. ووقف على طبعه خلفه في تدريس العربية المستشرق Caussin de Perceval وقدم له بترجمة لبقطر منها استخلصنا الحقائق السابقة.

وقد طبع هذا القاموس أيضاً في القاهرة في مجلدين في سنة ١٨٧١ وقام على طبعه عبيد غلاب خريج مدرس الألسن. وفي كتب الأمير إبراهيم حلمي بمكتبة الجامعة المصرية توجد هذه الطبعة من القاموس كما توجد أيضاً طبعة باريس الرابعة في مجلد واحد وتاريخها ١٨٦٩ وقد وافق على هذه الطبعة الرابعة Armand Peièrre Caus-sin de Perceval ابن المستشرف السابق الذكر.

ملحق رقم (٣١)

رسالة من القبطان جوزيف إدموندس قائد الفرقاطة بالاس إلى فخامة الإيرل سانت فنسنت وزير البحرية البريطانية.

على ظهر الفرقاطة بالاس

جزيرة مينورقا فى ٤ من أكتوبر ١٨٠١

سيدى اللورد

استبحت لنفسى أن أرفع إليكم مباشرة المذكرات المرفقة بكتابى هذا، اعتقادا منى بأنه قد يكون من المفيد لحكومة بلادى أن تعلم أن بعض الأشخاص الذين يطلقون على أنفسهم «الوفد المصرى» موجودون الآن فى باريس.

لقد كان ممن استقل السفينة بالاس التى اتولى قيادتها من مصررجل قبطى ذو سمعة طيبة، وهو من زعماء طائفته وله بينها نفوذ كبير. وقد نصبه الفرنسيون قائدا على فيلق برتبة جنرال لكى يعاونهم.

أوليت هذا المنفى العاثر الحظ بعض الرعاية فأخذ يحدثنى فى شئون وطنه. وقد أعرب لى عن اعتقاده بأن أى نوع من الحكم لبلاده أفضل من حكم الترك (العثمانيين) لها، وأنه انضم إلى الفرنسيين بدافع وطنى حتى يمكنه أن يخفف عن مواطنيه ما عانوه، ولكن الفرنسيين خدعوهم فأصبح المصريون الآن يحتقرونهم كما كانوا يحتقرون الترك، وأنه ما يزال يأمل فى خدمة بلاده عن طريق الحكومات الأوربية، ويرى أن ارتحاله إلى فرنسا قد يمكنه من ذلك. وقال إن الفرنسيين جعلوه يعتقد أن دولتهم أقوى دول أوربا، وأنه لم يكن يعرف إلا قليلا عن القوة البحرية الهائلة لبريطانيا، ولكنه مع ذلك كان على يقين من أنه بغير موافقة بريطانيا فإن رغبته فى أن تتمتع بلاده بحكومة مستقلة لن يقدر لها أن تتحقق. وقد أبلغنى صديقه لاسكاريس الذى كان يترجم أقواله لى أن الجنرال المُعلم يعقوب يرأس وفدا فوضه أعيان مصر لمفاوضة الدول الأوربية فى أمر استقلالها. وفى أثناء الرحلة مات الجنرال وقام ترجمانه بتحرير المذكرة المرفقة بكتابى هذا وهى مكونة من أجزاء تتضمن خلاصة لما دار بيننا من أحاديث، إذ كان الجنرال قبل وفاته قد أعرب عن رغبته فى أن أبلغ فحوى هذه الأحاديث إلى القائد العام كى يبلغه بدوره إلى الحكومة البريطانية. وقد أكد لى السيد لاسكاريس أن الوفد ما زال قائما وأن أعضاءه مسافرون معنا على ظهر السفينة ولم أستطع أن أتبين هل لاسكاريس نفسه عضو فى هذا الوفد أو أنه لم يكن سوى سكرتير مترجم له. غير أنى اعتقد أنه رجل مغرق فى الخيال، وأظن أن أصله يرجع إلى إقليم بيدمونت وأنه من فرسان جزيرة مالطة الذين تركوا الجزيرة مع جيش بونابرت. وقد تعهدت للمعلم يعقوب بألا أستعمل أو تستعمل الحكومة البريطانية مضمون أحاديثه فى أى وقت من الأوقات بها، فقد رأيت من الضرورى إبلاغكم رأسا بهذه المذكرات والمعلومات، إذ قد يمضى بعض الوقت قبل أن تتاح لى فرصة إبلاغها أولا إلى قائدى العام اللورد كيث. وأرجو أن تتفضلوا فتقروا مسلكى هذا.

ولى عظيم الشرف ياسيدى اللورد.

ملحق رقم (٣٢)

مذكرات مرفوعة للقبطان جوزيف إدموندس لتذكيره مستقبلا بالنقاط الرئيسية لأحاديثنا السياسية على ظهر سفينته.

– ١ –

إن الكتاب المرفقة به هذه المذكرات موجه إلى فخامة اللورد [كيث] وهو يبدو للوهلة الأولى مجرد التماس بسيط يرجوه أن يهتم بنا نحن المصريين التعساء. ولكن من الضرورى فى الحقيقة أن ينظر إليه على أنه ملخص للأحاديث السياسية التى دارت بيننا على ظهر السفينة. ولما كان من عدم التبصر فى الوقت الحاضر عرض خطتنا بشكل أكثر تفصيلا، فإن هذه المذكرات الموجزة المكتوبة على عجل يمكن أن تكون كافية لتذكيرك بأهم نقاط أحاديثنا. وعندما يحين الوقت الملائم لرفعك إياها مباشرة إلى حكومتك أو لإبلاغها لفخامة اللورد، فإن المصريين، لوثوقهم فى سجاياك الكريمة، يتركون لحسن فطنتك أن تثير اهتمام فخامة اللورد بقضيتهم، حتى يمكن أن يكون لنا سندا، سواء بما سوف يكتبه إلى مجلس الوزراء البريطانى، أو بما سوف يقوم به عندعودته إلى إنجلترا. وإننا لنؤكد أن فخامة اللورد سوف ينتصر بذلك لقضية فيها نفع لبلاده، وليس هناك ما يمكن أن يكون أسمى غاية لسعى لورد نبيل مثله.

– ٢ –

إذا افترضنا أن ما سوف يعرضه «الوفد المصرى لدى الحكومات الأوربية»، باسم المصريين الذين فوضوه، يبدو قليل الأهمية فى نظر تلك الحكومات، فإنكم ياسيادة القبطان توافقوننا على الأقل على أن الدول الأوربية لن تفعل أمجد أو أكرم من أن تبدد بقرا ر سياسى بسيط ظلمات الجهل والهمجية التى تخيم على هذه البلاد الذائعة الصيت. لقد كانت هذه البلاد مهدا لاستنارتنا ولعلومنا وفنوننا. ومجمل القول أنها كانت المركز الأول للحضارة التى نقلها عنها اليونان ومنها وصلت إلينا. وإذا كانت مصربماضيها المزدهر العظيم لا تستطيع أن تثير فى دول أوربا شعور العرفان بصنيعها وما لها من فضل، فهى تستطيع على الأقل أن تثير فيها شعور العطف عليها. فإذا ما تحقق ذلك وردوا إليها أمرها أمكنها أن ترضى كل الدول الطامعة فيها، دون أن تهدد واحدة منها فى مصالحها.

– ٣ –

لن يمضى وقت طويل حتى تؤيد بريطانيا حل القضية المصرية على هذه الأسس ... وفى هذه الأثناء قد تتقدم الحكومة الفرنسية نفسها باقتراح ذلك، وعندئذ ينبغى ألا تنسى الحكومة الإنجليزية أن ما يقترح إنما هو نتيجة جهود الوفد المصرى فى باريس، ومن ثم فليس هناك ما يدعو إلى أن تنظر الحكومة الإنجليزية إلى ذلك بشى من الريبة. وإذا ما تقدمت فرنسا بمثل هذا المشروع السياسى، فإنه سوف تفعل ذلك على سبيل المجاملة، لأن مصلحتها فى نجاح المشروع أقل من مصلحة بريطانيا. والذى لا شك فيه أن حكمة الجمهورية الفرنسية لا تزال راغبة فى امتلاك مصر مرة أخرى.

ـ ٤ ـ

توشك الإمبراطورية العثمانية على الانهيار. ولذا فيهمّ الإنجليز قبل أن تقع الواقعة أن يلتمسوا لأنفسهم من الوسائل المؤكدة ما يكفل لهم الإفادة من ذلك الحدث عند وقوعه فيحققوا مصالحهم السياسية. وإذا كان من المستحيل عليهم أن يستعمروا مصر ـ كما استحال ذلك من قبل على فرنسا ـ فيكفى أن تخضع مصر المستقلة لنفوذ بريطانيا صاحبة التفوق فى البحار المحيطة بها. ولا شك فى أن استقلال مصر سوف يحقق لها رخاءها، ولكنها لن تكون إلا دولة زراعية غنية بحاصلاتها الوفيرة التى تنتجها تربتها الخصبة وبتجارتها التى تنفرد بها مع أفريقيا الوسطى

وهذه المزايا سوف تعود بالفائدة على بريطانيا التى يهمها ـ بحكم مركزها فى الهند ـ أن تتاجر مع مصر وما حولها.

ـ ٥ ـ

لقد كان مراد بك يقول ـ وربما كان على حق ـ إن كفار الغرب (هكذا كان يسمى الدول الأوربية) أصبحوا يعرفون مصر معرفة تامة، وأن الكل يسعى للاستيلاء عليها، مما سيجعل منها موضوعا دائما للخلاف فيما بينهم. وقد يقال إن بريطانيا لا حاجة بها إلى الاستيلاء على مصر إذ أن لها من سيادتها البحرية ما يجعلها تستأثر بتجارة مصر الخارجية ويضمن لها بالتالى أن يكون لها ما تريد من نفوذ فيها. ولكن ماذا سيكون من أمر هذا النفوذ إذا ما عادت فرنسا من جديد الحليفة الطبيعية للباب العالى، وإذا ما عمل الباب العالى من ناحيته على إرضاء فرنسا أكثر من بريطانيا؟ وكيف يكون الوضع إذا ما مضت الدولة العثمانية فى إجراءاتها فأغلقت مرافئها فى وجه الإنجليز؟ ثم أليس من المحتمل كذلك أن يضغط الفرنسيون على حلفائهم ليتخذوا ـ برا ـ تدابير عدائية أكثر مع الإنجليز، يمكن أن تقضى على تجارتهم فى بلاد الشام وفى البحر الأحمر؟

ـ ٦ ـ

إن مشاعر المصريين نحو الفرنسيين ترجع إلى أساليب هؤلاء فى الحكم فى أثناء احتلالهم لمصر، ولست فى حاجة إلى إعادة الكلام فى هذا الموضوع ، إذ أعتقد أنكم يمكن أن تستعيدوا بسهولة ما دار بيننا من حديث حوله. وعلى هذا فإن كل شىء، بما فى ذلك مشاعر المصريين تجاه الفرنسيين وما يمكن أن يشعروا به تجاه الإنجليز كلما ازدادت معرفتهم لهم، يثبت أن مصر المستقلة لن تكن إلا موالية لبريطانيا. ومن ثم فعلى بريطانيا أن تعمل على استقلال مصر. أو على الأقل أن تؤيد هذا الاستقلال بعد حدوثه. وذلك على ضوء ما هو متوقع من تطورات فى مستقبل الأيام.

ـ ٧ ـ

إذا فرضنا أن حكومات الدول الأوربية سمحت باستقلال مصر، فكيف يحكم المصريون أنفسهم؟ وكيف يدافعون عن استقلالهم؟

أولا: لا يسمح المجال فى هذه المذكرات المحررة على عجل بالدخول فى تفصيلات مشروع الوفد المصرى لحكم البلاد. ويكفى الآن أن نلاحظ أن

قيام حكم الاستقلال لن يكون نتيجة انقلاب مبعثه وعى أمة اصطرعت فيها مختلف الآراء الفلسفية، ولكنه سيكون نتيجة تغيير جبرى تفرضه القوة القاهرة على قوم مسالمين جهلاء يكادون لا يعرفون سوى عاطفتين تحركان سلوكهم، هما المصلحة والخوف. فإذا استطاعت الحكومة الجديدة أن تسبغ على حياة الناس شيئا من الرخاء وأن تعمل على زيادة دخولهم، وهو أمر ليس بالعسير، فمن المؤكد أنها ستنال تأييدهم بحماس. وكيف لا يكون الأمر كذلك وأى حكومة فى العالم أفضل من الاستبداد التركى. فلتكن الحكومة الجديدة إذًا عادلة وحازمة ووطنية كما كانت حكومة شيخ العرب همام فى الصعيد التى رويت لك قصتها. ولا شك أنها عندئذ سوف تكون موضع الاحترام والطاعة والحب.

ثانيا: كيف يدافع المصريون عن استقلالهم؟ وهل سيكون هذا الدفاع ضد دولة أوربية؟إن من غير المتوقع حدوث ذلك إلا بعد وقت طويل يكون قد تم فى خلاله تنظيم جيش وطنى قادر على رد الاعتداء. أما إذا كان الاعتداء من جانب الترك أو المماليك فنعتقد أن الدول الأوربية لن تسمح بحدوث ذلك. ومن جهة أخرى فإن المصريين يمكنهم أن يعتمدوا على قوات أجنبية تعمل لحسابهم يتراوح عددها بين ١٢٠٠٠ و ١٥٠٠٠ جندى يكفون تماما لصد الترك عند الصحراء ولسحق المماليك داخل مصر، وتكون هذه القوات فى الوقت نفسه نواة الجيش الوطنى. ولما كان العثمانيون يفعلون أى شىء من أجل المال فمن الممكن بذله لهم لردهم عن مصر. ولقد كان المماليك يستعملون هذا السلاح كلما رأوا سحب السياسة تتلبد ضدهم فى القسطنطينية.

وينبغى ألا يفوتنا أن نذكر فى هذا الصدد أن المصريين منقسمون إلى عدة طوائف، وأن هذا الانقسام من شأنه أن يساعد على دفع هذه الطوائف بعضها ببعض من أجل حفظ التوازن بينها. وللوفد المصرى صلات بهذه الطوائف جميعا دون انحياز لواحدة منها على الأخرى. وهذه الصلات قائمة فى الخفاء وستظل خافية تماما عن الحكومة التركية فى مصر. وهذه الحيطة أمر لابد منه تجاه حكم مستبد متربص بالناس، ولن يتوانى عن البطش بالأخوة دعاة الاستقلال والفتك بهم عن آخرهم إذا استطاع أن يكشفهم. ولقد استطاع الذين هجروا مصر من هؤلاء الأخوة مع الجيش الفرنسى أن يتحدوا طغيان الترك، ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للأخوة الذين بقوا فى مصر، فهؤلاء يعيشون تحت السيف والعصا، ولا يملكون إلا إخفاء حقيقتهم والظهور بمظهر عبيد السلطان المخلصين.

ـ ٨ ـ

إن المصريين كافة، والوفد المصرى لدى الدول الأوربية بوجه خاص، سيبذلون كل ما فى وسعهم من جهد ليحرروا أنفسهم بطريقة ما من النير الذى يثقل كاهل بلادهم التعسة. ولكن إذا خاب سعيهم وجاءت اتفاقيات الصلح العام بعكس ما يرغبون،وشاء القدر أن يعود الترك إلى امتلاك هذه الأقاليم الجميلة الشهيرة وتعريضها بذلك لتجدد العدوان عليها، فأقل ما يلتمسه المهاجرون

المصريون من الدول المتعاقدة أن تكفل لهم من الضمانات ما يدرأ عنهم شر انتقام الترك إذا ما عادوا لوطنهم.

- ٩ -

بالرغم من أن الوفد المصرى لا يعمل إلا من أجل تحقيق مشروع سياسى فيه نفع لجميع الحكومات بما فى ذلك الحكومة التركية (وبالرغم مما يبدو من غرابة هذا القول فيمكننا البرهنة على صحته)، فقد تعرض ظروف لابد فيها من المحافظة على أسرار المفاوضات. ولذلك فإننا نرفق بهذا «شفرة» يمكن استعمالها فى مراسلاتنا إذا اقتضى الأمر ذلك.

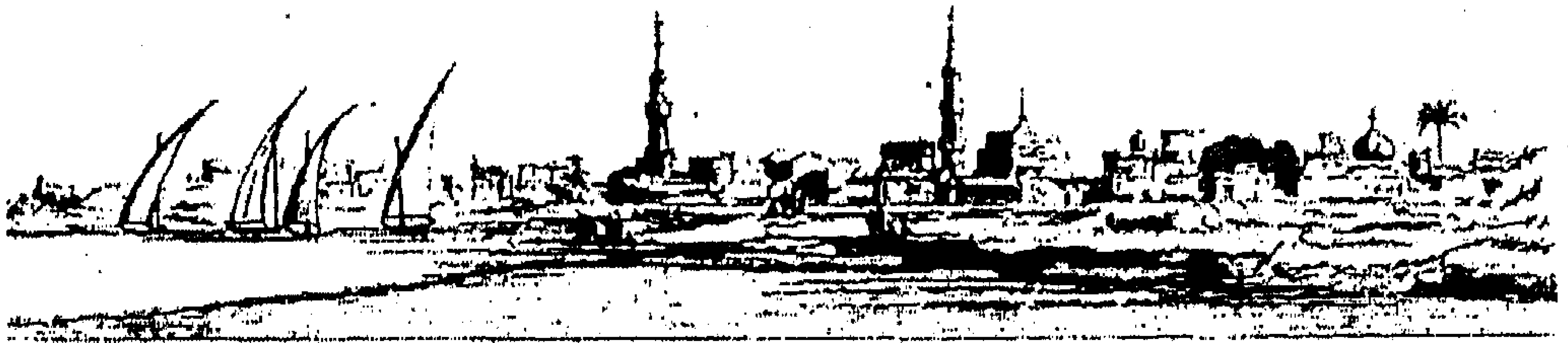
- ١٠ -

يرى الوفد المصرى حرصا منه على نجاح المفاوضات المزمعة ضرورة كتمان أمر ما فاتحناكم فيه من مقدمات لها، وكذلك ما يمكن أن تبلغوه لفخامة اللورد، عن فرنسا وعن أى طرف يستطيع عرقلتها. إن خطة الوفد أن يعمل فى أوروبا على أن تكون فرنسا هى التى تبدأ بعرض المقترحات الأولى على بريطانيا، وتكون بريطانيا عندئذ قد اقتنعت بما فى مشروع الاستقلال المقترح من مزايا فتؤيده. وبهذه الطريقة فان الوفد المصرى لن يتعرض لأن يرى الحكومة الإنجليزية ترفض المشروع بمجرد علمها به بسبب العداء التقليدى بين الأمتين الإنجليزية والفرنسية، أو شكا منها فى وجود دسيسة ما من دسائس فرنسا.

- ١١ -

لكى تسهل مراسلتنا من فرنسا أو من غيرها يمكنك ياسيدى القبطان أن ترسل ما تريد إلى السنيور الكونت انطون كاسيس (قسيس) المقيم فى تريستا، وهو يقوم بتحويلها إلى حيث يقيم الوفد، على أن يوضح ذلك بوضع اسمى تحت اسمه على كل رسالة. أما الرسائل التى قد توجه إلينا من إنجلترا، فان وصولنا إلى باريس سوف يشيع أمره فتتيسر عندئذ معرفة أين نقيم، وبهذا يمكن أن أتسلم رسائل حكومتكم بسهولة. ولكن تلزم الحيطة التامة فيما يتصل بهذه النقطة الأخيرة حتى لا تتسرب أية شكوك إلى الحكومة الفرنسية.

ظهرالسفينة پلاس فى ٢١ سبتمبر ١٨٠١.



ملحق رقم (٣٣)

من [لطفى] نمر أفندى نيابة عن الوفد المصرى إلى القنصل الأول بونابرت.

إلى القنصل الأول للجمهورية الفرنسية من الوفد المصرى الذى يكن له أعظم التقدير.

المحجر الصحى بمارسيليا فى أول فنديميير من السنة العاشرة للجمهورية (٢٣ سبتمبر ١٨٠١) ١٨ صفر ١٢١٦(*).

فى قديم الزمان، إبان تلك العصور الموغلة فى القدم، عندما كانت فرنسا فى حالة الفطرة تكسوها الثلوج والغابات، كانت مصر متحضرة مزدهرة ينهل مشرعو الإغريق من معين علمها ومعرفتها. ثم دار الزمان دورته وشاء القدر أن يفد مصريو العصر الحاضر أحفاد رواد الحضارة فى الماضى إلى فرنسا وهى تنعم بحكمك الرشيد، ليتعرفوا على نظم أمة يحبونها وليقفوا على ما استحدثته من وسائل لم تسبقها إليها أمة أخرى، مكنتها ـ وهى الجمهورية الناشئة ـ من المحافظة على مكاسبها الحربية بما سنته من نظم سياسية جديدة .... وكما أن سولون (Solon) عند عودته لبلاده من مصر شرع للإغريق ما اقتبسه من النظم المصرية، فإن الوفد المصرى الذى فوضه المصريون الباقون على ولائهم لك سيشرع لمصر ما ترضاه لها من نظم عندما يعود إليها من فرنسا.

إن هذا سوف يحدث يافخامة القنصل الأول إذا تفضلت ـ من أجل مجدك ومن أجل المصلحة السياسية للجمهورية الفرنسية ـ فمددت يد المساعدة للمصريين التعساء الذين وضعت عنهم من قبل أغلالهم التى عادوا ينوءون بها من جديد، وتكرمت فأحسنت استقبال وكلائهم فى باريس. إننا نأمل أن يكون استقبالنا فى العاصمة الفرنسية بمثابة اجتماع شرقى يجدد لك ذكرى الفتح العظيم الذى افاء الله به عليك ثم ضاع منك. ولابد أنك ـ ياسيدى القنصل الأول ـ شديد الإحساس بألم ما فقدت، ولكنك إذا عملت فى معاهدات الصلح على أن تكون مصر مستقلة فسوف تعوض خسارتك فيها مائة مرة. إن هذه هى أمانينا التى أخذنا على أنفسنا عهدا بالسعى إلى تحقيقها.

عن الوفد المصرى

وكيله

نمر أفندى

حاشية: أغا الانكشارية [عبد العال الانكشارية] وعضو الوفد الذى سبق أن عرفه فخامة القنصل الأول فى القاهرة يرجونى أن أذكرك بأنه لن ينسى ما غمرته به من عطف حينذاك.

(*) كذا فى الأصل. و ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٠١م توافق ١٥ جماد أول ١٢١٦.

ملحق رقم (٣٤)

من نمر أفندى إلى وزير الخارجية الفرنسية (تاليران)

(تاريخ الملحق السابق نفسه)

سيهبط إلى موانىء الجمهورية الفرنسية عدد كبير من المهاجرين الشرقيين الذين غادروا بلادهم مع قوات جيش الشرق التى تم جلاؤها عن مصر. والوفد المصرى، بالرغم من أنه فقد رئيسه الجنرال يعقوب الذى قضى نحبه فى أثناء السفر، يعلن كل ما يشعر به من ولاء وتقدير للجمهورية الفرنسية، ويرى من الضرورى أن يلجأ إليك ياسعادة الوزير لتتفضل وتضعه هو وأولئك المهاجرين تحت رعايتك وتشملهم بكرمك وعنايتك.

لقد كان لويس الرابع عشر يعمل فى الظاهر على ضم كنيسة إثيوبيا إلى الكنيسة الرومانية (الكاثولكية)، ولكنه كان يسعى فى الحقيقة لمد نفوذه السياسى نحو أقاليم وسط أفريقيا الجذابة الغامضة. ومن ثم بذل عدة جهود لم يقدر لها النجاح لكى يتعلم فى فرنسا عدد من شباب القبط المصريين، لأن بطريرك الأقباط هو نفسه رأس الكنيسة الإثيوبية. وإذا كان الملك قد أخفق فى مسعاه، فإن الجمهورية الفرنسية اليوم فى ظل حكم القنصل الأول استطاعت أن تحقق ما عجزت عن تحقيقه الملكية المطلقة الاستبدادية

وإن الوفد المصرى الذى ينوب عن الأمة المصرية ليجسد وحده كل ما يختلج فى نفوس الذين أنابوه عنهم من شعور بالمصلحة المشتركة، وما يحتشد فى قلوبهم من أمان وما يملكون من فطنة وما يتمتعون به من نفوذ وثروة. وهو يعبر عما أجمعوا عليه مما يتمثل فى رغبتين: الأولى هى القضاء على القوة الغشوم التى عادت تستبد بهم من جديد، والثانية هى وضع ثقتهم فى فرنسا ليقينهم أن مصلحة الجمهورية الفرنسية ذاتها تقتضى ألا تخيب أملهم. وبناء على ذلك فنحن نتقدم إلى سعادة الوزير باقتراح: لقد تكبدت فرنسا فى الشرق خسارة جسيمة، فلم لا تتخذ من هذا الوفد وسيلة لتعويض ما خسرته؟ إنك إذا تفضلت فدعوت الوفد إلى لقائك فى باريس قبل توقيع الاتفاق التمهيدى مع بريطانيا، فإننا نستطيع أن نؤكد لك أن فرنسا سوف تحتفظ بنفوذها السياسى فى الشرق وتحميه مما قد يفقدها إياه زمنا طويلا نتيجة للجلاء عن مصر وما تطور إليه أمرها الآن، ونتيجة لمؤامرات الدول التى تخشى بحق زيادة نفوذ فرنسا. بل نستطيع أكثر من ذلك أن نتأكد أن فرنسا ـ إذا أرادت ـ يمكنها عن طريق الأمة المصرية التى ستكون موالية لها مد نفوذها نحو أواسط افريقيا. وهكذا يتحول تركِكم مصر للإنجليز من نكبة إلى سبب لمجد القنصل الأول ومصدر رفاهية للأقاليم الفرنسية فى الجنوب.

ولايرى الوفد المصرى فى الوقت الحالى داعيا للإطالة. فهو يستطيع فى جلسة واحدة فى باريس أن يوضح مقاصده بما لا يستطيع فى عشرين مذكرة مكتوبة. ونحن المصريون نقدر فى الحديث على التعبير عما نريد، وإن كنا فى الكتابة قد لا

نستطيع أن نبلغ الغاية فى يسر. وبالإضافة إلى هذا فنحن مدركون لما تفرضه علينا كثرة مشاغلك السياسية من ضرورة الإيجاز فى الرسائل. إننا نرجو التفضل بالرد على كتابنا هذا، وأن تسمح لنا إذا تكرمت باستقبالنا فى باريس أن نقابلك بزينا الشرقى، فالمسلمون منا بالذات ليس من اليسير عليهم تغيير زيهمّ، ثم إن هذه الأزياء الشرقية قد تذكر فخامة القنصل الأول بفتوحه السابقة وترضى حب الاستطلاع لدى من لم يتبعوه للشرق.

إن الوفد المصرى يعلم تماما أن وقت القنصل الأول، الذى يّدبر بنفسه شئون الحكم حتى فى أدق جزئياتها وتنعم الدولة برعايته، أثمن من أن ينفقه فى التندر بقراءة ما يرد إليه من الرسائل الخاصة. ولكننا نرجوه أن يقدر أن وفدنا ينفرد بطبيعة خاصة، وأنه يصل إلى فرنسا فى ظروف معينة، وأن كتابنا له المرفق بهذا* له أهمية، فيتفضل بتسلمه وينعم النظر فيه بحكمته العميقة.



* يقصد بهذا الكتاب الملحق رقم (٣٣)

شهر جمادى الأولى استهل بيوم الخميس سنة ١٢١٦

فيه قريت فرمانات صحبة عثمان كتخدا، وفيها التنويه بذكر أعيان الكتبة الأقباط والوصية بهم، مثل جرجس الجوهرى وواصف وملطى ومقدمهم فى تحرير الأموال الميرية.

وفيه انفصل مولانا السيد محمد المعروف بقدسى أفندى عن القضا وسافر ذلك اليوم، وذلك بمراده واستعفايه وطلبه، وتقلد القضا عوضه عبد الله أفندى قاضى الميرى وكاتب الجمرك، وحضر فى ذلك اليوم إلى المحكمة.

وفى يوم الخميس ثالثه أفرج عن حسن أغا المحتسب بشفاعة عثمان كتخدا وحسن أغا وكيل قبطان باشا من غير شى وتوجه إلى داره بجوار داره.

وفيه تجمع النسا والفلاحون والملتزمون والوجاقلية ببيت الوزير بسبب الالتزام والمنع من التصرف وحضور الفلاحين للضيق عليهم بطلب المال إلى ملتزميهم ومطالبتهم إياهم بما قبضوه منهم، فلما اجتمعوا وصرخوا سأل الوزير عن ذلك، فأخبروه فأمر بكتابة فرمان بالإطلاق والإذن للملتزمين بالتصرف ووجهوا الأمر إلى الدفتردار فكتب عليه ثم إلى الروزنامجى كذلك، ثم توجهوا به إلى دفتردار الدولة فتوقف، وبقى الأمر رجاجا أياما وذلك أن القوم يريدون أمورا مبطونة فى نفوسهم وأطماعا مركوزة فى طباعهم.

وفى يوم الاثنين نودى بالزينة ثلاثة أيام أولها: الأربعا وآخرها الجمعة تاسعه سرورا بتسليم الإسكندرية، فزينت المدينة

وعملت الوقدات بالأسواق والمغانى للفرجة ليلا ونهارا، وكل ليلة يعمل شنك نفوط وسواريخ وبارود ببركة الغرايين المطل عليها بيت الوزير.

وفيه حضر نحو ستة أنفار من أعيان الإنكليز وصحبتهم جماعة من العثمانية يفرجونهم على مواطن مزارت المسلمين فدُخلوا إلى المشهد الحسينى وغيره بمداساتهم فتفرجوا وخرجوا.

وفيه تحاسب السيد أحمد المحروقى مع السيد أحمد الزرو على شركة بينهما فتأخر على الزرو أحدوعشرون كيسا فألزمه بإحضارها وحبسه بسجن قواس باشا وأمره بالتضييق عليه.

ولما أصبح يوم السبت لغط الناس باستمرار الزينة سبعة أيام وانتظروا الإذن فى رفع التعاليق فلم يؤذن لهم بشى، فاستمروا طول النهار فى اختلاف وحل وربط، ثم أذن لهم قبيل الغروب برفعها بعد ما عمروا القناديل، وكان النسا يبتن سهارى بالحوانيت والقلقات يطوفون بالأسواق فمن وجدوه نايما نبهوه بإزعاج.

وفى يوم الاثنين ثانى عشره وقع من طوايف العسكر عربدة بالأسواق وتخطفوا أمتعة الناس ومن باعة المآكل كالشوا والفطير والبطيخ والبلح فانزعجت الناس ورفعوا متاعهم من الحوانيت وأخلوا منها وأغلقوها فحضر إليهم بعض أكابرهم وراطنهم فانكفوا، وراق الحال، وتبين أن السبب فى ذلك تأخير علايفهم، وذلك أن من عادتهم القبيحة أنه إذا

تأخرت عنهم علايفهم فعلوا مثل ذلك بالرعية وأثاروا الشرور، فعند ذلك يطيبون خواطرهم ويوعدونهم أو يدفعون لهم.

وفيه ورد الخبر بتولية محمد باشا خسرو* على مصر وهو كتخدا حسين باشا القبودان فألبس الوزير وكيله خلعة عوضا عنه، وأشيع عزل محمد باشا أبو مرق وسفره إلى بلاده، وحضر السفار أيضًا من جهة رشيد وإسكندرية، وأخبروا بأن الفرنساوية لم يزالوا بإسكندرية وبنديراتهم على الأبراج، وأن القبطان ومن معه لم يدخلوها وإنما يدخلها معهم الإنكليزية وأنهم ينتظرون إلى الآن الجواب والإذن من مشيختهم وما أشيع قبل ذلك فلا أصل له، وأما الطايفة الأخرى التي سافرت من مصر فإنهم نزلوا وسافروا على وفق الشرط من أبي قير كما تقدم.

وفي يوم الخميس ثاني عشرينه وردت مكاتبة من قبطان باشا بطلب عثمان بك المرادي وعثمان بك البرديسي وإبراهيم كتخدا السناري والحاج سلامة تابعه وآخرين، فسافروا في يوم السبت رابع عشرينه.

وفي ليلة السبت المذكور قتلوا شخصا يسمى مصطفى الصيرفي من خط الصاغة قطعوا رأسه تحت داره عندحانوته، وسبب ذلك أنه كان يتداخل في نصارى القبط والذين يتعاطون الفرد ويوزعونها، وتولى فردة أهل الصاغة وسوق السلاح وتجاهر بأمور نقمت عليه، وأضر أشخاصاً وأغرى به فحبس أياما، ثم قتل بأمر الوزير وترك مرميا ثلاث ليال ثم دفن ، وفي صبيحة قتله طاف المشاعلي بالخطة

[١٣٧] تولية محمد خسروا على مصر وعزل محمد باشا أبو مرق. هو كتخدا حسين باشا القبودان أحد قادة الحملة العثمانية البريطانية ، كان أول باشا عثمان على مصر بعد هزيمة الحملة الفرنسية وذلك بعد استلام الوزير يوسف باشا القاهرة وكان ينافسه في ذلك محمد باشا أبو مرق أحد قواد الحملة العثمانية البريطانية. ولكن مدته لم تكن كبيرة، فقد تعين في ١٢ جمادى الأول ١٢١٦هـ = سبتمبر ١٨٠١م وعزل في ٢٠ ربيع الأول ١٢١٨هـ = يونيو ١٨٠٣م وأرسل الباب العالي بدلاً منه على باشا الطرابلسي. ولكن مشايخ الأزهر والسيد عمر مكرم قاموا بدور هام في عزله وتولية محمد على باشا فيما بعد في ١٢٢٠هـ = نوفمبر ١٨٠٦.



ودوايرها مثل الجمالية والضبيبة والنحاسين وباب الزهومة وخان الخليلى فجبى من أرباب الحوانيت دراهم ما بين خمسة أنصاف فضة وعشرة، وعند شيله جبى القلقات أيضًا ما يزيد على المائة قرش وذلك من جملة عوايدهم القبيحة.

وفيه هرب السيد أحمد الزرو فلم يعلم له خبر وذلك بعد ما أطلق بضمانة السيد أسعد وابن محرم فكتب الوزير عدة فرمانات وأرسلها صحبة هجانة إلى جهة الشام وختموا على دوره، ولم يعلم هروبه إلا بعد أربعة أيام لما داخله من الخوف بقتل الصيرفى المذكور.

وفى يوم الخميس تاسع عشرينه عقد* إبراهيم بك الكبير عقد ابنته عديلة هانم التى كانت تحت إبراهيم بك الصغير المعروف بالوالى الذى غرق بواقعة الفرنسيس بإنبابة على الأمير سليمان كاشف مملوك زوجها الأول على صداق ألفين ريال وحضر العقد الشيخ السادات والسيد عمر [مكرم] النقيب والفيومى وبعض الأعيان.

* إبراهيم بك يعقد لابنته عديلة بعد وفاة زوجها على الأمير سليمان كاشف.



وفى يوم الجمعة غايته قتل شخص أيضًا بسوق السلاح وهو من ناحية المنصورة وجبى المشاعلية والقلقات دراهم من أرباب الحوانيت مثل ذلك المذكور فيما تقدم.

وانقضى هذا الشهر وحوادثه التى منها الارتباك* فى أمر حصص الالتزام والمزاد فى المحلول وعدم الراحة والاستقرار على شى يرتاح الناس عليه، ومثل ذلك الرزق الأحباسية والأوقاف.

* اضطراب الأحوال بسبب جبى الفرد والأموال.

وحضر شخص تولى النظر والتفتيش على جميع الأوقاف المصرية السلطانية وغيرها وبيده دفاتر ذلك، فجمع المباشرين واستملاهم، وكذلك كاتب المحاسبة وبث المعينين لإحضار النظار بين يديه وحسابهم على الإيراد والمصرف وأظهر أنه يريد بذلك تعمير المساجد الكاينة بالقرى المصرية وانضمت إليه الأغوات وطلب كل من كان له أدنى علاقة بذلك، واستمروا على ذلك بطول السنة، ثم انكشف الأمر وظهر أن المراد من ذلك ليس إلا تحصيل الدراهم فقط، وأخذ المصالحات والرشوات بقدر الإمكان بعد التعنت فى التحرير والتعلل بإثبات المدعى فى الإيراد والمصرف خصوصا إذا كان الشخص ضعيفا وليس من أرباب الوجاهة والمتوجهين [الوجهاء] أو بينه وبين الكتبة حزازة باطنية، ثم يحررون دفترا ويحررون الفايظ، ثم يطلبون منه إيراد ثلاث سنوات أو أربعة ولم يزل حتى يصالح على نفسه بما أمكنه، ثم يختمون له ذلك الدفتر ويتركونه وما يدين إن شاء عمر، وإن شاء آخر، فإن انتهت إليهم بعد ذلك شكوى فى ناظر وقف سبقت له مصالحة لا تسمع شكوى الشاكى ولا يلتفت إليها ويفعلون هذا الفعل فى كل سنة.

* زيادة النيل زيادة مفرطة تغرق جزيرة الروضة ومنازل الجيزة ومصر القديمة.

ومنها زيادة* النيل الزيادة المفرطة عن المعتاد وعن العام الماضى أيضا حتى غطى الذراع الذى زاده الفرنساوية على عامود المقياس، فإن الفرنساوية لما غيروا معالم المقياس رفعوا الخشبة المركبة على العامود وزادوا فوق العامود قطعة رخام مربعة مهندمة وجعلوا ارتفاعها مقدار ذراع مقسوم بأربعة وعشرين قيراطا، وركبوا عليها الخشبة فسترها الماء أيضا ودخل الماء بيوت الجيزة ومصر القديمة وغرقت الروضة،

ولم يقع فى هذا النيل حظوظ ولا نزهة للناس كعادتهم فى البرك والخلجان والمراكب، وذلك لاشتغال الناس بالهموم المتوالية وخصوصا الخوف من أذى العسكر وانحراف طباعهم وأوضاعهم وعدم المراكب وتخريب الفرنسيس أماكن النزاهة وقطع الأشجاروتلف المقاصف التى كانت تجلس بها أولاد البلد مثل دهليز الملك والجسر والرصيف وغير ذلك، مثل الكازرونى والمغربى وناحية قنطرة السد وقصر العينى والقصور.

ومنها أن محمد بك المعروف بالمنفوخ المرادى حصل عنده وحشة من قبطان باشا فحضر إلى ناحية الأهرام بالجيزة وطلب الحضور عند الوزير يستجير به، فذهب إليه خشداشه عثمان بك البرديسى وحادثه وأشار عليه بالرجوع إلى جهة القبطان فأقام أياما ثم رجع إلى ناحية إسكندرية، والسبب فى ذلك ما حصل فى الوقعة التى قتل بها أحمد بك الحسينى قيل إن ذلك بنفاقه عليه، واتضح ذلك للقبطان، وأحضرت العرب مراسلته إليهم بذلك فانحرف عليه القبطان، فلم علم ذلك داخله الخوف ثم أرسل إليه الأمرا والقبطان أمانا فرجع بعد أيام.

ومنها حضور الجمع الكثير من أهالي الصعيد هروبا* من الألفى وما أوقعه بهم من الجور والمظالم والتقارير والضرايب والغرايم، وحضر أيضا الشيخ عبد المنعم الجرجاوى والشيخ العارف وخلافهم يتشكون مما أنزله على بلادهم، وطلب متروكات الأموات وأحضر ورثتهم وأولادهم وأطفالهم ومن توسط أو ضبط أو تعاطى شيا من القضاة والفقها وحبسهم

* هروب أهالى الصعيد من جور الألفى.

وعاقبهم وطالبهم وطلب استئصال ما بأيديهم ونحو ذلك، كل ذلك بأمر من الدولة وغير ذلك معين، فحضروا فصالحوا على تركة سليم كاشف باثنين وعشرين ألف ريال، بعد أن ختموا على دوره وبعد أن أزعجوا حريمه وعياله ونطوا من الحيطان، ثم حضروا إلى مصر وأمثال ذلك.

* تعدى العسكر العثمانية على الرعية ونهبهم للقرى والمدن، حتى تمنى الناس حكم الفرنساوية.

ومنها كثرة تعدى* العسكر بالأذية للعامة وأرباب الحرف فيأتى الشخص منهم ويجلس على بعض الحوانيت، ثم يقوم فيدعى ضياع كيسه أو سقوط شى منه، وإن أمكنه اختلاس شى فعل أو يبدلون الدنانير الزيوف الناقصة النقص الفاحش بالدراهم الفضة قهراً، أو يلاقشون النسا فى مجامع الأسواق من غير احتشام ولا حيا، وإذا صرفوا دراهم أو أبدلوها اختلسوا منها، وانتشروا فى القرى والبلدان ففعلوا كل قبيح، فتذهب الجماعة منهم إلى القرية وبيدهم ورقة مكتوبة باللغة التركية ويوهمونهم أنهم حضروا إليهم بأوامر إما [بطلب عوايد] رفع المظالم أو ما يبتدعونه من الكلام المزور، ويطلبون حق طريقهم مبلغا عظيما ويقبضون على مشايخ القرية ويلزمونهم بالكلف الفاحشة ويخطفون الأغنام ويهجمون على النسا وغير ذلك مما لا يحيط به العلم، فطفشت الفلاحون وحضر أكثرهم إلى المدينة حتى امتلأت الطرق والأزقة منهم أو يركب العسكرى حمار المكارى قهرا ويخرج به إلى جهة الخلا فيقتل المكارى ويذهب بالحمار فيبيعه بساحة الحمير، وإذا انفردوا بشخص أو بشخصين خارج المدينة أخذوا دراهمهم أو شلحوهم ثيابهم أو قتلوهم بعد ذلك، وتسلطوا على الناس بالسب

والشتم ويجعلونهم كفرة وفرنسيس وغير ذلك، وتمنى أكثر الناس وخصوصا الفلاحين أحكام الفرنساوية.

ومنها أن أكثرهم تسبب [احترف] في المبيعات وساير أصناف المأكولات والخضارات ويبيعونها بما أحبوا من الأسعار ولا يسرى عليهم حكم المحتسب ولا غيره، وكذلك من تولى منهم رياسة حرفة من الحرف كالمعمارجية أو غيرهم قبض من أهل الحرفة معلوم أربع سنوات وتركهم وما يدينون، فيسعرون كل صنف بمرادهم وليس له هو التفات لشي سوى ما يأخذه من دراهم الشكاوى، فغلا بسبب ذلك الجبس والجير وأجر الفعلة والبناين خصوصا وقد احتاج الناس لبنا ما هدمه الفرنسيس وما تخرب في الحروب بمصر وبولاق وجهات خارج البلد، حتى وصل الإردب الجبس إلى ماية وعشرين نصف فضة، والجير بخمسين نصف فضة، وأجرة البنا أربعين فضة، والفاعل عشرين، وأما الغلة فرخيصة، وكذلك باقي الحبوب بكثرتها مع أن الرغيف ثلاثة أواق بنصف لما ذكر من عدم الالتفات إلى الأحكام والتسعيرات.

* العسكر العثماني يحتكر التجارة في السلع بأسعار باهظة دون تدخل المحتسب، أو منعه لهم.

واستهل جمادى الثانية
بيوم السبت سنة ١٢١٦

فيه تفكك* الجسر الكبير المنصوب من الروضة إلى الجيزة وذلك من شدة الماء وقوته فتحللت رباطاته وانتزعت مراسيه وانتشرت أخشابه وتفرقت سفنه وانحدرت إلى بحرى.

* تفكك الجسر الكبير عند الروضة بسبب فيضان النيل.

* حادث الزلزال.

وفى ليلة الأحد ثانيه حصلت زلزلة* فى ثالث ساعة من الليل.

وفى يوم الاثنين ثالثه قطعوا رأس مصطفى المقدم المعروف بالطاراتى بين المفارق بباب الشعرية، وذلك بعد حبسه أياما عديدة وضربه وعقابه حتى تورمت قدماه وطاف مع المعينين عدة أيام يتداين بواقى ما قرر عليه ودخل دارا نافذة وأجلس الملازمين له ببابها وهم لا يعلمون بنفوذها، وأوهم أنه يريد التداين من صاحب الدار ونفذ من الجهة الأخرى واختفى فى بعض الزوايا فاستعوقه الجماعة ودخلوا إلى الدار فلم يجدوه وعلموا بنفوذها فقبضوا على خدمة الدار وضربوهم فلم يجدوا عندهم علما منه فأطلقوهم وأوقعوا عليه الفحص والتفتيش فرآه شخص ممن صادره فى أيام الفردة فصادفه فى صبحها خارج باب القرافة فقبض عليه وأحضره بين يدى جماعة القلق فدل عليه، فقبضوا عليه وقتلوه بعد القبض عليه بثلاثة أيام وتركوه مرميا تحت الأرجل وسط الطريق وكثرة الأزدحام ثلاث ليال وفعلوا عادتهم فى جبى الدراهم من تلك الخطة.

وفيه ورد فرمان من محمد باشا [خسروا] والى مصر بأن يتأهبوا لموكبه على القانون القديم فكتبوا تنابيه للوجاقلية والأجناد بالتهى للموكب.

* أغا دار السعادة يصل بخطاب من السلطان بتهنئة الجيش العثمانى المجاهد الذى أخرج الفرنسيس.

وفى يوم الثلاثا وصل شمس الدين بك أميراخور كبير ومرجان أغا دار السعادة* فأرسلوا تنابيه إلى الوجاقلية والأمرا والمشايخ ومحمد باشا وإبراهيم باشا فاجتمعوا ببيت الوزير وحضر المذكوران بعد الظهر فخرج الوزير ولاقاهما

من المجلس الخارج فسلماه كيسا بداخله خط شريف، فأخذه وقبله وأحضرا له بقجة بداخلها خلعة سمور عظيمة فلبسها وسيفاتقلد به وشلنج جوهر وضعه على رأسه ودخل صحبتهما إلى القاعة حيث الجمع، ففتح الكيس وأخرج منه الفرمان ففتحه وأخرج منه ورقة صغيرة فسلمها للريس أفندى فقراها باللغة التركية والقوم قيام على أقدامهم مضمونها الخطاب لحضرة الوزير الحاج يوسف باشا وحسين باشا القبطان والباشات والأمرا والعساكر المجاهدين والثنا عليهم والشكر لصنيعهم وما فتحه الله على يديهم وإخراجهم الفرنسيس ونحو ذلك، ثم وعظ بعض الأفندية بكلمات معتادة ودعوا للسلطان والوزير والعساكر الإسلامية، وتقدم إبراهيم باشا ومحمد باشا وطاهر باشا وباقى الأمرا فقبلوا ذيل الخلعة وانصرفوا، وضربوا مدافع كثيرة من القلعة فى ذلك الوقت وفى ذلك اليوم ألبس الوزير الأمرا والباشات فراوى وخلعا وشلنجات ذهب على روسهم.

وفيه حضرت أطواخ بولاية جدة لمحمد باشا توسون أغات الجبجية وهو إنسان لا بأس به.

وفيه حضر القاضى الجديد من الروم ووصل إلى بولاق وهو صاحب المنصب فأقام ثلاثة أيام وصحبته عياله وحريمه، فلما كان يوم السبت ثامنه حضر بموكبه إلى المحكمة وذهب إليه الأعيان فى صبحها وسلموا عليه وله مسيس بالعلم.



* النيل عند بولاق وشبرا.

* محمد باشا خسرو يقبض على إبراهيم بك الكبير ويسعى للقبض على الألفى فى الصعيد.

وفى يوم الثلاثا حادى عشره عمل الوزير* الديوان وحضرعنده الأمرا فقبض على إبراهيم بك الكبير وباقى الأمرا الصناجق وحبسهم، وأرسل طاهر باشا بطايفة من العسكر الأرنؤد إلى محمد بك الألفى بالصعيد، وكان أشيع هروبه إلى جهة الواحات.

وذهبت طايفة إلى سليم بك أبى دياب وكان مقيما بالمنيل، فلما أخذ الخبر طلب الهرب وترك حملته، فلما حضرت العسكر إليه فلم يجدوه، فنهبوا القرية وأخذوا جماله وهى نحو السبعين وهجنه وهى نيف وثلاثون هجينا. وذهبت إليه طايفة بناحية طرا فقاتلهم ووقع بينهم بعض قتلى ومجاريح، ثم هرب إلى جهة قبلى من على الحاجر ووقفت طايفة العسكر والأرنؤد بالأخطاط والجهات وخارج البلد يقبضون على من يصادفونه من المماليك والأجناد.

ونودى فى ذلك اليوم بالأمن والأمان على الرعية والوجاقلية، وأطلق الوزير مرزوق بك ورضوان كتخدا إبراهيم بك وسليمان أغا كتخداه المسمى بالحنفى.

وأحاطت العسكر بالأمرا المعتقلين واختفى باقيهم ونودى عليهم وبالتوعد لمن أخفاهم أو آواهم، وباتوا بليلة كانت أسوأ عليهم من ليلة كسرتهم وهزيمتهم من الفرنسيس، وخاب أملهم وضاع تعبهم وطمعهم وكان فى ظنهم أن العثملى يرجع إلى بلاده ويترك لهم مصر ويعودون إلى حالتهم الأولى يتصرفون فى الأقاليم كيفما شاءوا فاستمروا فى الحبس.

ثم تبين أن سليم بك أبا دياب ذهب إلى عند الإنكليز والتجا إليهم بالجيزة وألبس الوزير سليمان أغا تابع صالح أغا زِىّ العثمانيين، وجعله سلخور [سردار]، وأمره أن يتهيأ ليسافر إلى إسلامبول فى عرض الدولة.

وفى يوم الاثنين سابع عشره سافر إسماعيل أفندى قبون كاتب حوالة إلىٰ رشيد باستدعاء من الباشا والى مصر.

* وصول كسوة للكعبة من السلطان.

وورد الخبر بوصول* كسوة للكعبة من حضرة السلطان، فلما كان يوم الأربعا حضر واحد أفندى وآخرون وصحبتهم الكسوة فنادوا بمرورها فى صبحها يوم الخميس فلما أصبح يوم الخميس المذكور ركب الأعيان والمشايخ والأشاير وعثمان كتخدا المنوه بذكره لإمارة الحج وجمع من الجاويشية والعساكر والقاضى ونقيب الأشراف وأعيان الفقها وذهبوا إلى بولاق وأحضروها وهم أمامها وفردوا قطع الحزام المصنوع من المخيش ثلاث قطع والخمسة مطوية وكذلك البرقع ومقام الخليل، كل ذلك مصنوع بالمخيش العال والكتابة غليظة مجوفة متقنة وباقى الكسوة فى سحاحير على الجمال وعليها أغطية جوخ أخضر ففرح الناس بذلك وكان يوماً مشهوداً.

وأخبر من حضر أنه عندما وصل الخبر بفتح مصر أمر حضرة السلطان بعملها فصنعت فى ثلاثين يوماً، وعند فراغها أمرهم بالسير ليلا وكان الريح مخالفا فعندما حلوا المراسى اعتدل الريح بمشيئة الله تعالى، وحضروا إلى سكندرية فى أحد عشر يوما.



وفيه وردت الأخبار بأن حسين باشا القبطان لم يزل يتحيل وينصب الفخاخ* للأمرا الذين عنده وهم محترزون منه وخايفون من الوقوع فى حباله، فكانوا لا يأتون إليه إلا وهم متسلحون ومتحرزون وهو يلاطفهم ويبش فى وجوههم إلى أن كان اليوم الموعود به عزم عليهم فى الغليون الكبير الذى يقال له أزج عنبرلى، فلما طلعوا إلى الغليون وجلسوا فلم يجدوا القبودان فأحسوا بالشر، وقيل إنه كان بصحبتهم فحضر إليه رسول وأخبره أنه حضر معه ثلاثة من السعاة بمكاتبة، فقام ليرى تلك المراسلة فما هو إلا أن حضر إليهم بعض الأمرا وأعلمهم أنه ورد خط شريف باستدعاهم إلى حضرة مولانا السلطان وأمرهم بنزع السلاح فأبوا، ونهض محمد بك المنفوخ وسل سيفه وضرب ذلك الكبير فقتله،

* حسن باشا القبطان يعد مؤامرة للتخلص من الأمرا المماليك، ويقتل بعضهم ويفر الباقى إلى الإنجليز.

فما وسع البقية إلا أنهم فعلوا كفعله وقاتلوا من بالغليون من العساكر وقصدوا الفرار فقتل عثمان بك [الطنبورجى] المرادى الكبير* وعثمان بك الأشقر* ومراد بك الصغير* وعلى بك أيوب ومحمد بك المنفوخ ومحمد بك الحسينى الذى تأمر عوضا عن أحمد بك الحسينى وإبراهيم كتخدا السنارى* وقبض على الكثير منهم وأنزلوهم المراكب وفر البقية مجروحين إلى عند الإنكليز وكانوا واقعين عليهم من ابتدا الأمر فاغتاظ الإنكليز وانحازوا إلى إسكندرية، وطردوا من بها من العثمانيين وأغلقوا أبواب الأبراج، وحضر منهم عدة وافرة وهم طوابير بالسلاح والمدافع واحتاطوا بقبطان باشا من البر والبحر فتهيا عساكره لحربهم فمنعهم، فطلب الإنجليز بروزه بعساكره لحربهم فقال لم يكن بيننا وبينكم حرب، واستمر جالسا فى صيوانه فحضر إليه كبير الإنكليز وتكلم معه كثيرا وصمم على أخذ بقية الأمرا المسجونين فأطلقهم له فتسلمهم وأخذ أيضاً المقتولين ونقل عرضى الأمرا من محطتهم إلى جهة الإسكندرية، وعملوا مشهدا للقتلى مشى به عساكر الإنجليز على طريقتهم فى موتى عظماهم، ووصل الخبر إلى من بالجيزة من الإنكليز وذلك ثانى يوم من قبض الوزير على الأمرا ففعلوا كفعلهم وأخذوا حذرهم وضربوا بعض مدافع ليلا وشرعوا فى ترتيب آلة الحرب.

وفى ذلك اليوم طلع محمد باشا طوسون والى جدة الساكن ببيت طرا إلى القلعة وصعد معه جملة من العسكر وشرعوا فى نقل قمح ودقيق وقومانية وملوا الصهاريج، وشاع ذلك

* عثمان بك المرادى: هو عثمان بيك الجوخدار المعروف بالطنبورجى المرادى. وهو من مماليك مراد بيك، تولى بعده إمارة أتباعه بإشارة خشداشه محمد بيك الألفى وانضم للقوات التركية البريطانية التى زحفت على مصر لمحاربة جنود الحملة الفرنسية ولكن بعد انتصار العثمانيين واستلامهم مصر انقلبوا عليه وقتلوه فى هذه المؤامرة. ومن المعروف عنه أنه كان أعاد عمارة مشهد السيدة زينب فى هذا الوقت. كان يحب العزف على الطنبور ومن هنا جاء اسمه. انظر ترجمته رقم ٦٣٠.

* عثمان بك الأشقر: هو عثمان بيك الأشقر الإبراهيمى، وهو من مماليك إبراهيم بيك الكبير. عرف بالأشقر لشقرته، خرج هارباً إلى الوجه القبلى فى أعقاب انتصار الحملة الفرنسية على المماليك، ثم لحق بسيده ببر الشام ورجع معه ضمن قوات الحملة التركية البريطانية وخدم ضمن قواتها لصالح العثمانيين ولكنهم غدروا به وقتلوه فى هذه المؤامرة. انظر ترجمته رقم ٦٢٩.

* مراد بيك الصغير: وهو من مماليك محمد بيك أبى الذهب، وكان يعرف بمراد الكاشف. انضم إلى قوات الحملة العثمانية البريطانية على مصر ولكن العثمانيين غدروا به وقتلوه فى هذه المؤامرة.

* كتخدا السنارى الأسود: وأصله من دنقلة، وكان بوابا فى مدينة المنصورة أشتهر بكتابة الأحجبة وضرب الرمل، ثم ذهب إلى الصعيد وأنضم إلى أتباع مصطفى بيك الكبير وتعلم اللغة التركية فاستعمله فى مراسلاته، ثم

أنضم إلى مراد بيك فاشتهر أمره وأشترى المماليك والجوارى، ثم هرب مع سيده وعاد للقاهرة بعد خروج الفرنسيين وانضم للقوات العثمانية التى غدرت به وقتلته فى هذه المؤامرة. انظر ترجمته رقم ٦٣٣ .

بين الناس فارتاعوا وداخلهم الوسواس من ذلك، واستمروا ينقلون إلى القلعة مدافع وبارودا وآلات حرب.

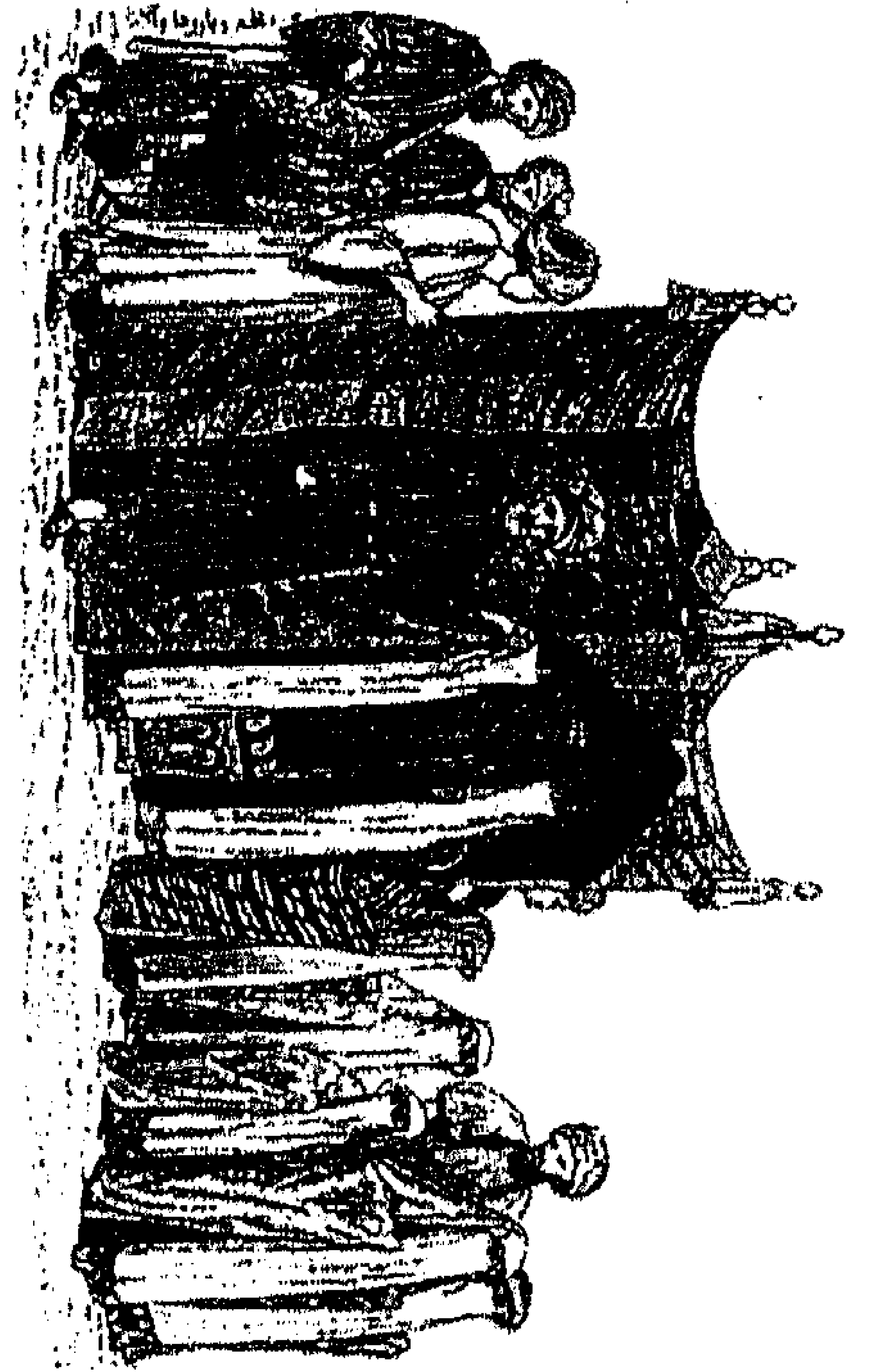
وفى يوم الاثنين رابع عشرينه حضر كبير الإنجليز الذى بالجيزة فألبسه الوزير فروة وشلنجا.

وفى ذلك اليوم خلع الوزير على عثمان أغا المعروف بقبى كتخدا وقلده على إمارة الحج.

* معارك المغاربة والانكشارية داخل القاهرة.

وفى ذلك اليوم وقع بين عسكر المغاربة والانكشارية فتنة* ووقفوا قبالة بعضهم ما بين الغورية والفحامين وأغلقت الناس حوانيتهم بسوق الغورية والعقادين والصاغة والنحاسين، ولم يزالوا على ذلك حتى حضر أغات الانكشارية وسكنت الفتنة بين الفريقين.

* زفة العروس



وفى يوم الخميس سابع عشرينه مروا بزفة عروس بسوق النحاسين وبها بعض الانكشارية فحصلت فيهم ضجة ووقع فيهم فشل، فخطفوا ما على العروس وبعض النسا من المصاغ المزينات به، وفى أثنا ذلك مرّ شخص مغربى فضربه عسكرى رومى ببارودة فسقط ميتا عند الأشرفية، فبلغ ذلك عسكر المغاربة فأخذوا سلاحهم وسلوا سيوفهم وهاجت حماقتهم وطلعوا يرمحون من كل جهة وهم يضربون البندق ويصرخون فأغلقت الناس الحوانيت وهرب قلق الأشرفية بجماعته وكذلك قلق الصنادقية، وفزعت الناس ولم يزالوا على ذلك من وقت الظهر إلى الغروب، ثم حال بينهم الليل وقتل من المغاربة أربعة أشخاص وأصبحوا

محترسين من بعضهم، فحضر أغات الانكشارية على تخوف وجلس بسبيل الغورية وحضر الكثير من عقلا الانكشارية وأقاموا بالغورية وحوالى جهة الكعكيين والشوايين حيث سكن المغاربة واستمر السوق مغلوقا ذلك اليوم، ورجعت القلقات إلى مراكزها وبردت القضية وكأنهم اصطلحوا وراحت على من راح.

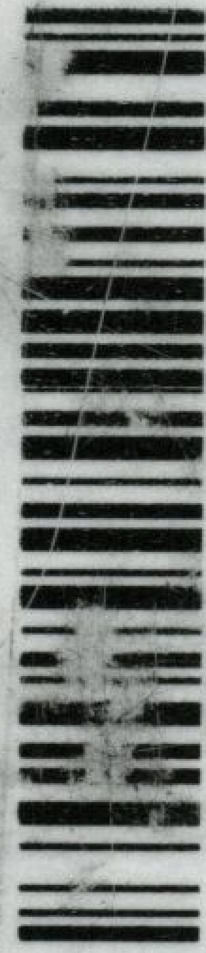
وانقضى هذا الشهر بحوادثه التى منها استمرار نقل الأدوات إلى القلعة وكذلك مراكز باقى القلاع مع أنهم خربوا أكثرها.

ومنها زيادة تعدى العسكر على السوقة والمحترفين والنسا وأخذ ثياب من ينفردون به من الناس فى أيام قليلة.

ومنها استمرار مكث النيل على الأرض وعدم هبوطه حتى دخل شهر هاتور وفات أوان الزراعة وعدم تصرف الملتزمين وهجاج الفلاحين من الأرياف لما نزل بهم من جور العسكر وعسفهم فى البلاد، حتى امتلأت المدينة من الفلاحين ونودى عليهم عدة مرار بذهابهم إلى بلادهم.

ومنها أن الوزير* أمر المصرلية بتغيير زيهم وأن يلبسوا زى العثمانية فلبس أرباب الأقلام والأفندية والقلقات القواويق الخضر والعنتريات وضيقوا أكمامهم ولبس مصطفى أغا وكيل دار السعادة سابقا وسليمان أغا تابع صالح أغا وخلافهما.

* الباشا يأمر المماليك بلبس الزى العثمانى.


Bibliotheca
12240078